
أهل الحج
بعبقهم التاري

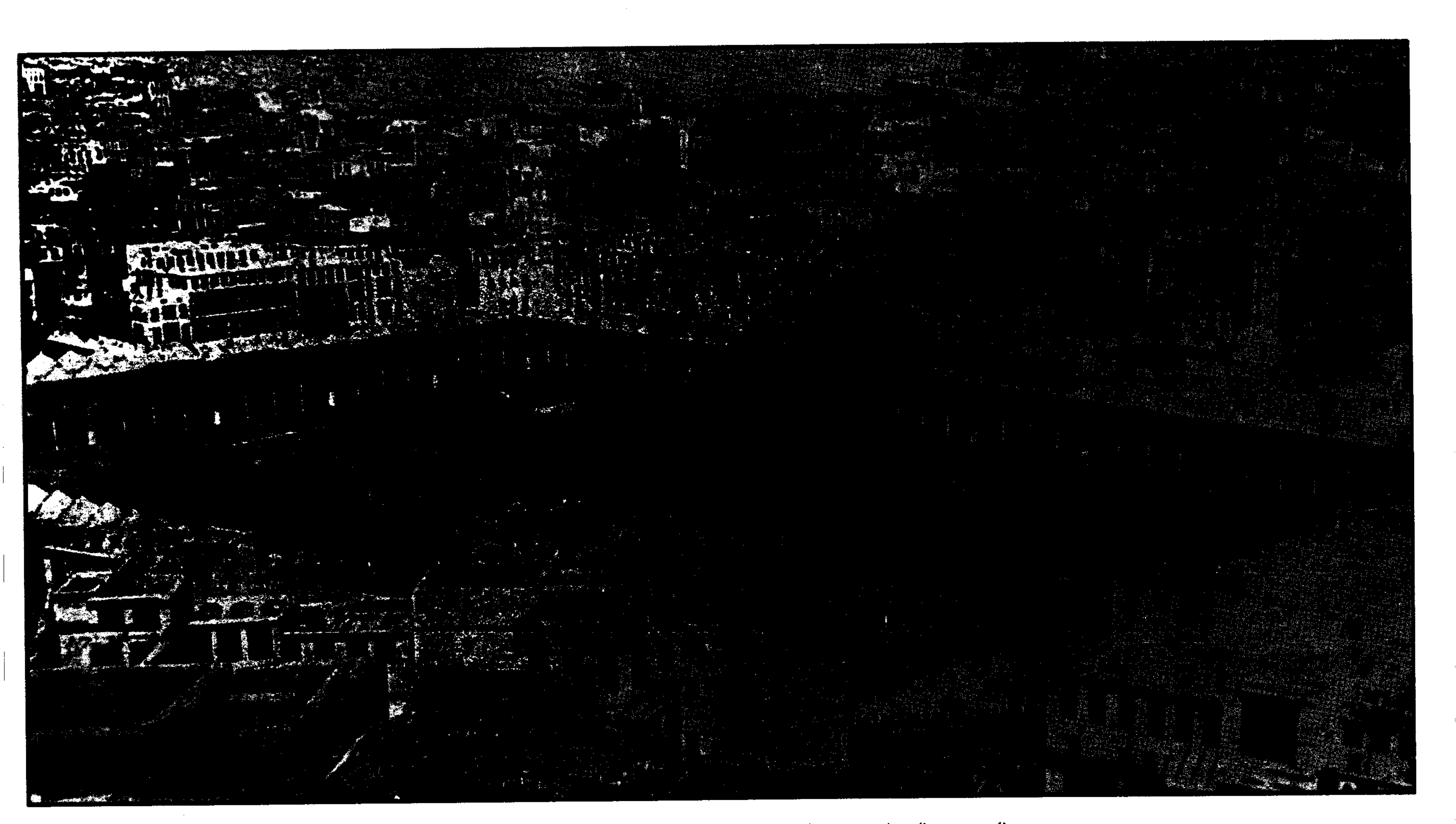
رسوم الغلافين

«بريشة الفنان السعودي طه الصبان»

«رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ
بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ
تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ»

(سورة إبراهيم - آية ٣٧)





● المسجد الحرام (مكة المكرمة) عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٤ ميلادية) ●



• صورة تاريخية نادرة للمدينة المنورة، تظهر فيها القبة الخضراء ومآذن الحرم النبوي الشريف وبعض الحصون •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

ⓒ حسن عبد الحي قزاز، ١٤١٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

قزاز، حسن عبد الحي

أهل الحجاز بعبقهم التاريخي.

... ص، .. سم

ردمك ٠-٦٢٦-٢٧-٩٩٦٠

١- الحجاز- تاريخ ٢- الحجاز - الأحوال الاجتماعية

٣- الحجاز - العلماء ٤- الحجاز - تعليم أ- العنوان

ديوي ٩٥٣,١٢ ١٥/١٣٨٦

رقم الإيداع: ١٥/١٣٨٦

ردمك: ٠-٦٢٦-٢٧-٩٩٦٠

طبعت بمطابع مؤسسة المدينة للصحافة (دارالعلم) بجدة

ص.ب ٤٧٩٧ جدة ٢١٤١٢ ت: ٦٧١٢١٠٠ المملكة العربية السعودية

الإخراج الفني والتنفيذ: سيد حفني





تقديم

محمد صادق دياب

فاجأني العم حسن قزاز حينما طلب مني أن أكتب مقدمة لكتابه هذا **(أهل الحجاز بعَبقِهم التاريخي)**، وسبب المفاجأة هنا هو خروج العم حسن عن تقاليد **(التقديم)** فلقد اعتدنا وعودنا أن يقدِّم الأستاذ لأعمال تلاميذه، أما أن يحدث العكس فأكتب وأنا **(التلميذ)** مقدمة للقزّاز وهو **(الأستاذ)** فتلك جُرأة أرجو أن يغفرها لي القارىء.

وأنا هنا أشير إلى اسمه مقرونا بكلمة **(عم)** على غير المألوف والمتداول في لغة الكتابة السائدة، ولكن يشفع لي في ذلك أن الكتاب يدور في مجمله حول عادات وتقاليد أهل الحجاز، ومن عاداتهم أن يتعاملوا مع من هم أكبر منهم عُمرا ومكانة، بهذه الكلمة الراقية المحببة التي هي كلمة **(عم)**.. وقد اعتدت أن أناديه دائما **(يا عم حسن)** فأجدها في نفسي أبْلغ كثيرا من كل ألقاب الدنيا الأخرى التي أصبحت تشكّل مقدمات طبيعية في تعاملاتنا مع الآخرين..

والعم حسن قزاز لمن لا يعرفه يختلف عن **(الآخرين)**، فهو رغم مكانه ومكانته في الوسط الصحافي إلاّ أنه لم يقع في ما يسمى بـ **(أزمة المثقّفين)** الذين يجدون أنفسهم في معْزلٍ عن شرائح المجتمع الأخرى التي لا تشاركهم نفس الهموم، لأنه قد وضع شرْط الحبّ قبل شرْط الثقافة في علاقته بالآخرين، الأمر الذي أثرى علاقته بكل الناس من مختلف الشرائح الاجتماعية.. وقد انعكس كل ذلك فيما يكتبه، فهو لم يتكلّف لغة تتعثر في الوصول إلى الناس، فقاموس مفرداته حافل بالمألوف والبسيط والمتداول، كما أن

(فهرس) موضوعاته ظل ـ في الغالب ـ ضمن خارطة الواقع الذي يعيشه مجتمعه، كما أن له في الكثير مما يكتب رؤيته الخاصة التي تختلف حينا وتتجانس حينا مع قناعات الآخرين، إلاّ أنها في مجملها تمثل صدق الكاتب مع نفسه.

وكتاب **(أهل الحجاز بِعَبَقِهم التاريخي)** الذي نُشِر على حلقات في ملحق **(الأربعاء)** بصحيفة المدينة يُعَدّ تتويجا لمشوار الكاتب الطويل في رحاب الكلمة، فهو كتاب يرتقي لأن يكون مرجعاً هاماً لأية دراسات اجتماعية قادمة عن هذا الجزء العزيز من وطننا الغالي، إذْ يعتبر سجلاًّ أمينا للكثير من مظاهر حياتنا الماضية التي نخبؤها في عيوننا حُلُماً، وفي قلوبنا حبا، وفي أحاديثنا حكاية فخْر لا تمل..

في هذا الكتاب يجسّد المؤلف كل ذلك الماضي بأنسه وناسه، حتى لتوشك أن تحس أنك تعيش ذلك الماضي عوَضاً عن قراءته.. فقد يمضي بك المؤلف في أزِقّة مكة المكرمة وبَرَحَاتها فيخيَّل لك أنك تستمع لـ **(زواميل)** المزْمار تعالت بها حناجر **(النشامى)** من أبناء حارتـه، وقـد يقودك إلى حلقات العلم في المسجد الحرام فتشعر بامتلاء النفس بالسكينة وأنت تلمح مشايخ الحَرم بوجوههم المسرّجة بالعلم، ونفوسهم المشرقة بالإيمان.. هذا الكتاب بعبارة مختصرة هو محاولة للتصوير بالكلمات، وقد نجح المؤلف في التقاط العديد من الصّور لذلك الماضي بكل صفائه ونقائه وبساطته..

أتمنى لقراء هذا الكتاب رِحْلة ممتعة مع كل صفحة من صفحاته، ولمؤلفه أصدق التقدير.. وإلى الأبد.

✲✲✲✲

المقدمة

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي الأمين.. وبعد:

بدأ هذا الكتاب بموضوع كتبته في ملحق الأربعاء بصحيفة المدينة المنورة بعنوان:

«أهل الحجاز بعبقهم التاريخي» ولم أكن أتصور أنه سوف يمتد إلى عشرات الحلقات، لكن ردود فعل القراء لما كتبت شكلت الحافز لاستمرارية الكتابة في هذا الموضوع، وقد كانت الباعث أيضاً لجمعه في هذا الكتاب.. وفي يقيني أن حماس القراء لموضوعات الكتاب ينبثق من كون تلك الموضوعات تمثل مرحلة من مراحل حياتنا المعاشة في فترة من التاريخ كامتداد لمراحل سابقة اعتاد عليها أهل الحجاز فكانت وكلها التنظيم الحلو الجميل للعلاقات بين كافة الأطراف، وللتمازج فيما بينهم بروح المحبة والصفاء، ولصهرهم كالبوتقة لكل وافد يفد إلى هذه البلاد بكل السماحة والمحبة والوفاء..

ولا أظنني قد أجملت بما نشرته ما يمكن تفصيله من آخرين يعقبون على ما كتبت كإضافة حلوة وجميلة بالإمكان إضافتها إلى هذا الكتاب.. أو أنها إذا كتبت بأسلوب كاتبها فتصدر في كتاب يعزز كتابي هذا، لأن مثل هذه المعلومات الهدف منها أن يكون الجيل المعاش وكذلك الأجيال النابتة ومن يليها من أجيال في المستقبل رعاهم الله جميعا برعايته وعنايته وهدايته ليعرفوا ماذا كان عليه آباؤهم وأجدادهم.. وإن كانت هذه العادات والتقاليد مازالت معاشة لأنها ذات سماحة خُلقية.. وذات عطاء أجمل وأروع ما فيه أنه نابع من عفوية النفس الطيبة التي نشأت وترعرعت في

ظل هذا البلد الطاهر النقي بأخلاقياته السمحة وتربيته الإسلامية الأمينة، وإلى آخر كل المعطيات التي انغرست في نفوس أهل هذا البلد وهم يحتكمون إلى شريعة الله وأمان الله منذ بزوغ فجر الإسلام على يد سيد البشر وما تركه بين أيدينا: كتاب الله، وسنة رسوله. فلا غرو إذن أن تظل هذه الشمائل بكل مرونتها هي القاعدة، وأن تظل هي العفوية، وأن تظل هي الأساس أو القاعدة التي يرتكز عليها أهل الحجاز بعبقهم التاريخي منذ بزوغ فجر الإسلام وحتى الآن.

ونسأل الله الكريم أن يحفظ لنا هذا الهدي المحمدي وأن يهدينا أيضا إلى الاسترشاد بهما والتمسك بمعطياتهما حتى يظل الحب والوفاء والعدالة سائدة بين الجميع..

وأحب أن أشير إلى المجهود الجيد والممتاز الذي بذله الأخ محمد صادق دياب لتنظيم فصول هذا الكتاب وتبويبها وترتيبها، وحذف الحشو الذي لا تخلو منه مثل هذه الذكريات.. وكذلك ما تفضل به من كتابة تقديم يلقي ضوءاً أكثر على فكرة إصدار هذه المجموعة في كتاب سيكون القارىء مرتاحا إليه وإلى فكرته..

كما أقدم الشكر خالصا لزملائي من الكتاب والأدباء الذين أسهموا بالتعقيب والمشاركة في بعض موضوعات الكتاب من أمثال الأساتذة عزيز ضياء والدكتور حسن نصيف والأستاذ عبدالله جفري ود. عصام خوقير والابنة انتصار العقيل، معترفا بالكثير من الفضل للمرحومين الغاليين عبدالعزيز الرفاعي وأحمد محمد جمال، فلكل واحد من هؤلاء إسهامه الجميل بشكل أو بآخر في تكامل موضوعات هذا الكتاب.. وقد حرصت أن يكون مسك الختام لهذا الكتاب بحث عن «القراء وأصول القراءة للقرآن العظيم» ذلك الذي تفضل بكتابته بجهد جاهد وحرص بالغ السيد الدكتور محمد علوي مالكي جزاه الله خيراً..

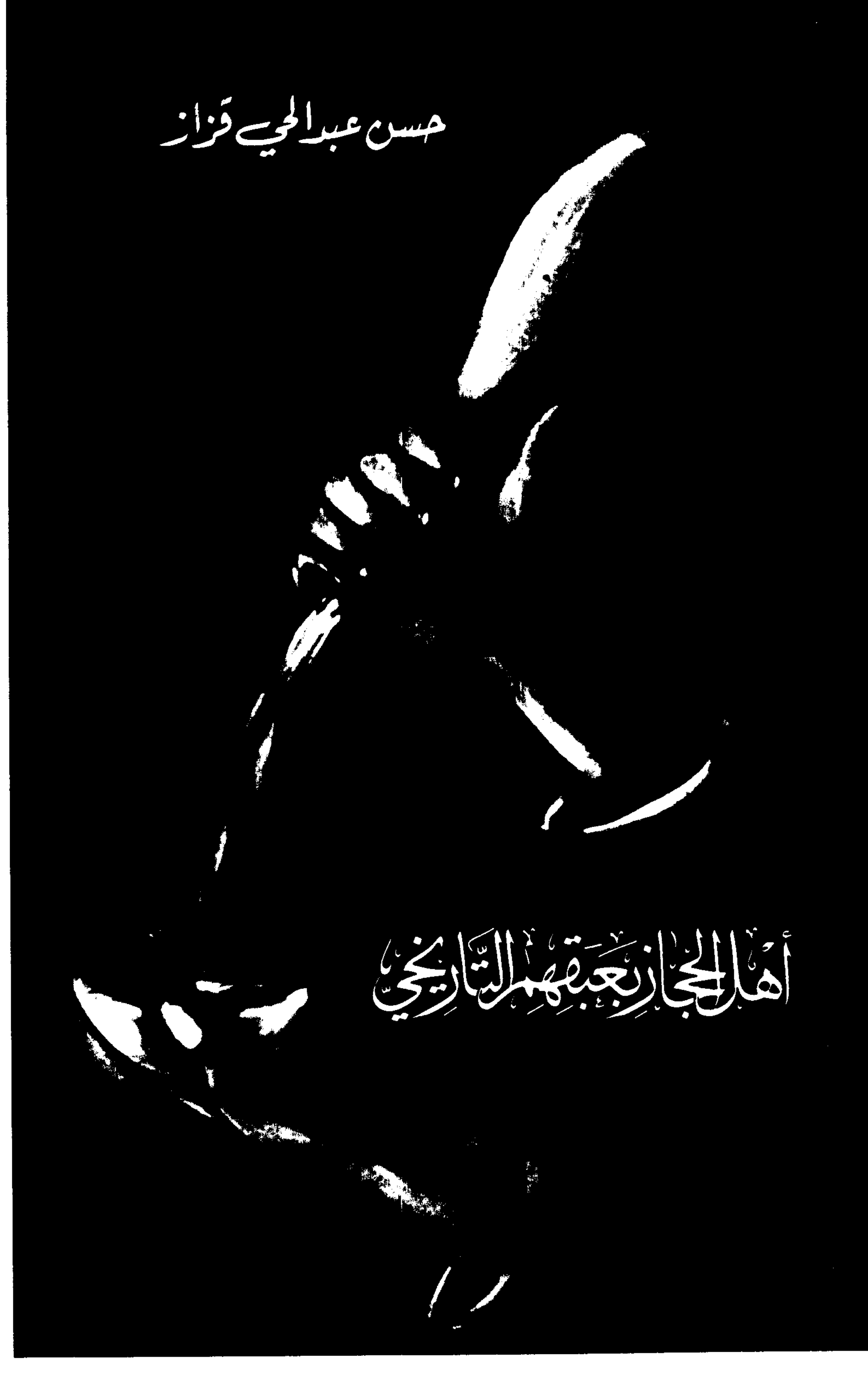
ولقـد توّجت الجهـود المبـذولة في هذا الكتاب بمجموعة من الصور التاريخية والنادرة التي زوّدنا بها إبننا الحبيب فيصل محمد عراقي، عاشق التراث، وابن مكة البار.. وفقه الله.

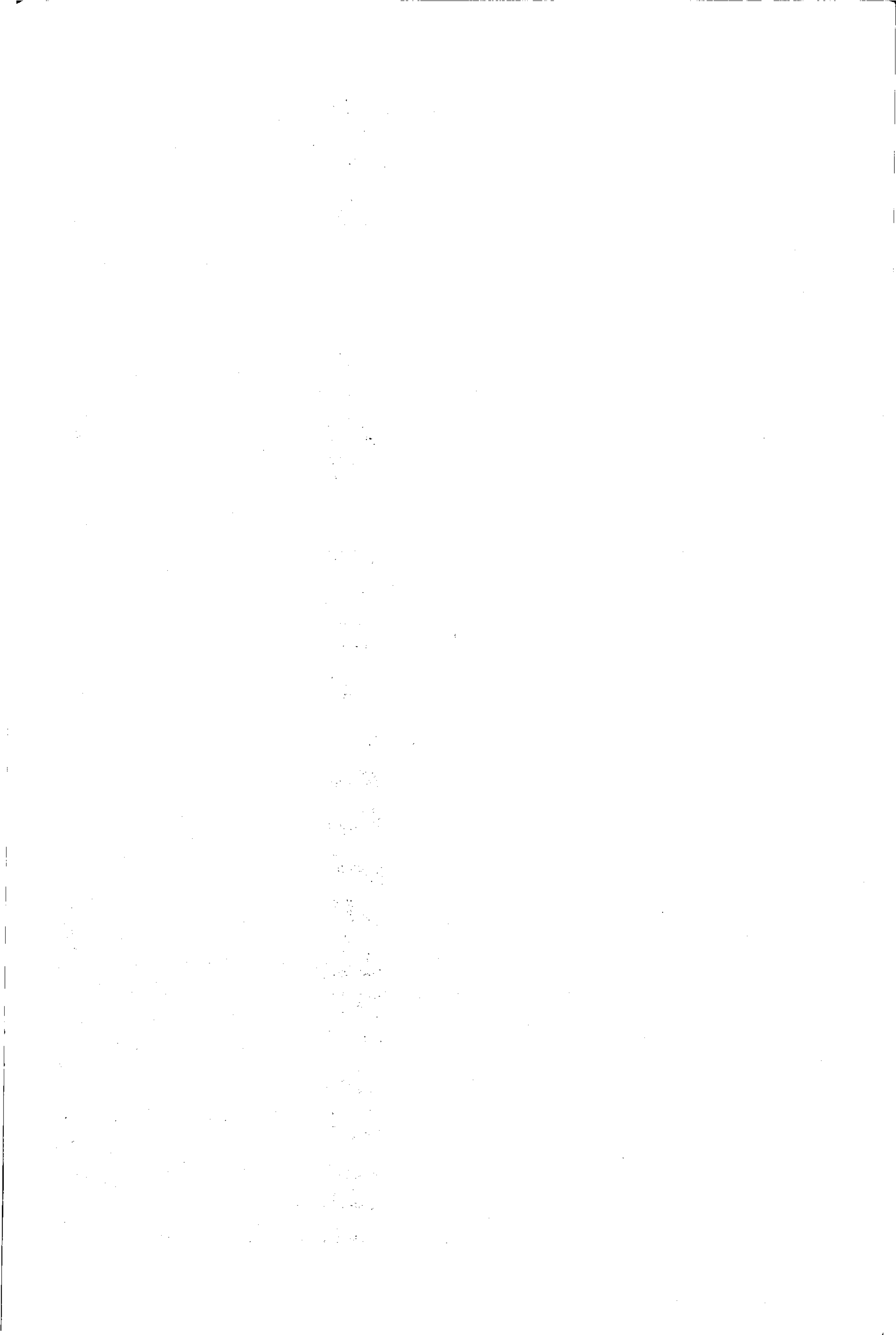
وفي الختـام: أتمنى أن يحقق هذا الكتاب غاياته الطيبة في التعريف بتلك الأيـام وأهلها وناسها، فيجد فيه الشباب النماذج الطيبة التي يمكن أن تشكل لهم القدوة الحسنة، ليكونوا كما كان أسلافهم تعاونا وحبا وسلاما.

(المؤلف)

✡✡✡✡✡




حسن عبدالحي قزاز
أهل الحجاز بعبقهم التاريخي



أهل الحجاز بعبقهم التاريخي

التكافل الاجتماعي في الحارة

لقد عشت معظم سني عمري بمكة المكرمة قريبا من حرمها الشريف، وعلى قيد خطوات قليلة منه في محل تجاري وفي سكن عائلي.. وبوسعي الآن وبعد الآن أن أدل من يسألني عن موقع منزلي في حارة القشاشية، هذه الحارة التي عرفت كل شبر منها بأعاليها من الجبال ذات الأنفة والشموخ وسوقها الذي يمتد بها إلى شعب علي وشعب عامر، ومنحدراتها التي تطل على وادي سيدي رسول الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بتلك الفسحات من الأرض التي لا ينساها التاريخ بدءاً من دار الندوة والرفادة والسقاية ونادي الأرقم بن الأرقم والأرض الطاهرة الحبيبة التي ولد بها سيد البشر وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، وقد كان بمولده القضاء على الفوضى والضلالة والجهالة والتعصب الجاهلي والكفر والإلحاد ليحل محله التوحيد بالله والإيمان به جل جلاله.

وإذا كانت بعض حواري مكة المكرمة ومنها حارة القشاشية قد ذهبت مع الأطلال ليحل محلها بنيان حديث زاهي الألوان، فتحولت الأطلال إلى عمران لتكون شواهد لأزمنة الخير التي نعيشها ونحياها في حاضرنا المجيد.. فإن ذلك الماضي بعبقه التاريخي وعطره القديم ظل في دواخلنا عزيزا نحنُّ إلى ذكرياته كجزء منا عايشناه وعايشنا، لذا فلا غرابة أن يصبح اليوم في قلوبنا حبا وعلى شفاهنا حكاية..

وها هو ذاك الماضي ينتصب الآن في الذاكرة أشبه بشريط سينمائي فألمح تلك المنعطفات والأزقة الغارقة في الظلام إلا من فوانيس ملؤها الهباب لكنها كانت نورا أضاءت دروب سكانها من كرام العوائل من أصائل مكة المكرمة وبطاحها، ومن أفذاذها رجولة وشهامة وخدمة وصونا للجيرة الأقربين وحدبا ملؤه الحب والإباء..

فلقد كان الرجل يخرج من منزله ليـــذهب إلى عمله أيـا كان نوعــه فيلمح «زنبيلا» مدلّى من الشباك، فيقف ليهزه وهو ينادي بصوت خافت:

- «يا أهل البيت».

فتأتيه الإجابة - بصوت هامس محتشم - من خلف الشباك المحاط بغـطاء يسمى «الكبريته» وهو من الخوص الموشى بقماش سميك لتثبيته:



● صورة المؤلف حسن عبد الحي قزاز أول فترة شبابه ●

- «في باطن الزنبيل نصف ريال .. فضلا اشتر لي بطاطس وبامية وملوخية ولا تنس الطماطم والليمون والكزبرة.. وخلّ بالك لا تكون بايته.. نقيها الله يخليك زي ما تنقيها لأهلك».

فيــذهب صاحبنـــا إلى سوق الخضـــار فيشتري للسيدة أو للسيدات كما يشتري لنفسه وأهله ثم يعود ليعطي كل سيدة حاجاتها، وذلك بأن يهز الحبل ويتساءل:

- «هل ما أتاكم هو المطلوب؟»

فيأتيه الصوت هامسا من جديد:

- «جزاك الله خيرا».

* * * *

ومما يروى في هذا السياق، أن الأسر في ذلك الزمان كانوا يصنعون خبزهم في بيوتهم فيعجنون الدقيق ثم يشكلونه على هيئة أقراص ويضعونها على لوح من الخشب على فتحة باب المنزل وعليها «هللة» أو «هللتان» فلا يمر أحد من



● العمامة (الغبانة) مظهر من مظاهر ابن الحارة في الحجاز ●

الصبية أو أولاد الحارة أو حتى رجالها إلا ويسرع في حمل لوح الخبز إلى الفران لخبز الأقراص وإعادتها ليقول:

- «ياهو .. هيا انزلوا خذوا اللوح لا يجو البساس يأكلوا العيش».

وقد قال لي سيدي الوالد رحمه الله: «يا ولدي أحيانا تكون العائلة طفرانة أي نفد مخزونها من النقود، ونفد مخزونها من الأرز والسكر والشاي والبقول الناشفة والخضروات المجففة وصاحب البيت لم يعد من السفر بعد .. فتقوم السيدة وتضع «الزنبيل» على الشباك.. ويدرك الرجل الشهم معنى عدم وجود النقود في الزنبيل.. فيقف وينادي:

- «يا أهل البيت ماذا تريدون.. وماذا ينقص عليكم».

وتتلعثم السيدة إذ إن حياءها يغلب على لسانها، فيسمع صاحبنا تمتمة كالصمت فيدرك الغرض وتبرز موجبات الشهامة وعادة ما تكون خِصْبة كما هو حال أهل الحجاز..

وتقول والدتي رحمها الله: من السيدات من تضع فردة خلخالها أو سوارة من أسورتها في داخل الزنبيل ليعيدها رجل الحارة إن كان موسرا أو ليبيعها - إن كان حاله كحالها - ليشتري لها حاجياتها ويعيد لها الباقي. وعند عودة رب الأسرة تخبره زوجته فيذهب إلى الذين أمدوا لأهله يد العون في غيابه فيشكرهم على مروءتهم ثم يرد لمن أعطى قرضا أو اشترى ما اشتري من أرزاق وحاجيات مصحوبة بهدية حسب حاله وقدرته.

وقد حدثني الأخ حسني صالح سابق نقلا عن عمه الشيخ على سابق رحمه الله وقد كان عمدة لحارة النزهة بمكة المكرمة بأن السيدة التي تدلّي زنبيلا أو تضع لوح الخبز عند الباب ويمر أحد من رجال الحارة دون أن يسألها طلبها أو يحمل لوح خبزها إلى الفران فإن بإمكانها أن تشكوه إلى العمدة وهو بدوره يعرض شكواها على حاضري «مركازه» من وجهاء الحارة وكبارها، بعد أن يكون قد استدعى الرجال فيستمع إلى عذره، فإذا كان له ما يبرر فعله قبلوه منه وإلا تعرض للعتاب واللوم..

ولقد كان للعمدة ووجهاء حارته دور كبير في محاربة البطالة بين أولاد الحارة خاصة أولئك الذين يتكسبون ويتسقطون الرزق من كدهم وعرق جبينهم.. إن إلقاء نظرة من العمدة ووجهاء الحارة على هؤلاء وهم يسرحون في الحارة بلا عمل يدفعهم إلى محاولة تشغيلهم كأن يقول أحدهم للنجار مثلا:

- تعال «يابا» شوف البيبان والطيق.. اتفقدها .. وصلحها».



● الديوان لاستقبال الضيوف والمعازيم صورة من الحياة الاجتماعية ●

وغالبا ما يعود «الصنايعي» ليبلغ من قام بتكليفه بأنه لا يوجد ما يحتاج إلى إصلاح، فالصدق عادة ما يتلاقى مع سلامة النية.

والهدف من هذا الذي يجري هو إتاحة الفرصة لهذا العاطل لكي يعمل، لأن رجل الحارة يعرف أن هذا العامل «الشقاوي» كما كانوا يطلقون عليه في الماضي وراءه أم وأب أو زوجة وأبناء يحتاج في رعايتهم إلى القرش الحلال.. فكانوا يسعون إلى توفير فرص العمل له، وإذا ما تعذر فإنهم يعينونه بما يقيل



● سوق العرب بمنى ●

عثرته سراً دون تظاهر لحماية مشاعره وللتخفيف من كربته التي يعيشها، وفي هذا السلوك ما يحفزه للبحث عن عمل يعينه على مطالب العيش والحياة.. وغالبا ما كان مثل هذا الشقاوي يستحي من أخذ الإعانة، بل ويعتذر أشد الاعتذار عن قبولها، وإذا ما اضطرته الظروف لأخذها فإنك ترى الدموع وقد انهمرت غزيرة من عينيه... هكذا كان التكافل الاجتماعي في الحارة أمرا متأصلا في دواخل كل النفوس، يدفعهم دائما إلى تفقد بعضهم بعضا.. والحكايات كثيرة جدا.

هذه ورش «الحجَّارين» التي كانت تمد بيوت الحجاز بما تحتاجه من الحجارة التي كانت الجبال مصدرا لها مثل الحجر الشبيكي زاهي الألوان والحجارة التي تستخرج من جبل أبي لهب والمصافي في أجياد وغيرها.. هذه الورش تمتلىء بـ «الصنايعية» ورغم هذا يسمع أحد أصحابها بأن «الحجَّار» الفلاني متوقف عن البيع، وليس عنده طلبات يقدمها للراغبين... ثم هو يعلم التزامات ذلك الحجّار نحو عماله من الصنايعية المتعطلين عن العمل وهم في أمس الحاجة إلى الارتزاق، فيذهب الحجّار إلى زميله قائلا:

- «تعال يا شيخ عندي ألف حده «حجر» .. تعال اشتغل .. نصفها يكون لك والنصف الثاني أشتغله أنا».. ويعتذر زميله خجلا وحياء.. لأنه يعرف أن زميله الذي يعرض عليه هذا العمل لديه صنايعية وهو ليس في حاجة إليه، ويضطر في النهاية أن يقبل تحت إلحاح الزميل فيذهب هو وصنايعيته إلى المحجر لأداء العمل..

هكذا كانت نفسيات الناس.. وذاك كان لون الحياة، تكاتف.. تكافل.. محبة.. سخاوة نفس.. إقالة عثرة.. حفظ ماء الوجه.. وبكل الرضا والممنونية.. لا مَنَّ فيها ولا معيرة «بفتح الميم وسكون العين»!!

هذا «فوال» يأتيه أحد الصبية بوعاء لتعبئته «فولا» ويضع في الماعون «هللتان» يملؤه الفوال.. ويأتي في الوقت نفسه رجل ومعه وعاء أكبر كثيرا من وعاء الصبي ويعطي الفوال «هللتان» فيحصل على ملء ماعونه فولا، ويحتج

الصبي فيصرفه الفوال بحزم:
-«روح ياواد شوف شغلك».

ويـأتي الصبي في اليوم التالي حاملا ماعونا أكبر لكن الفوال لا يملؤه بل يضـع نفس الكميـة السـابقـة، ويتساءل الولد: لماذا؟!.. فيلتفت إليه الفوال ليسمعه أول الدروس في «قانون الحارة» .. يقول الفوّال:

- «اسمع يا ولد، عمك الكبير إللّـيجا أمس عندو عيلة كبيرة أولاد وبنات وأم وأبو وخالات وعددهم أكثر من درزن.. وفلوسه يادوبك على قد حاله .. فهمت ياواد .. هيا روح سلم على أبوك»!!

هكـذا لا يمـر يوم دون أن تكـون الشهـامة مستمرة في عطائها فالتكافل الاجتماعي قد تحقق على أرض الحجاز منذ مئات السنين وحتى قبل سماعنا بنظرياته وفلسفاته.. ولا غرابة فعلى هذه الأرض ومن تحت سمائها انطلق صوت الحق والعدل والسلام الذي أهدى الإنسانية أعظم الرسالات.



أهل الحجاز بعبقهم التاريخي

عُمَد الحارات وأعيانها



● مجموعة من عُمَد مكة المكرَّمة بزيّهم الرسمي ●

من اليمين إلى اليسار عبدالله محمد بصنوي (عمدة محلة الشامية) حمزة سعيد غلام (عمدة محلة المسفلة)، حمزة عالم (عمدة محلة الشبيكة)، عبدالرحمن كشميري (عمدة محلة السليمانية).

لعمدة الحارة الحجازية في الماضي مكانه ومكانته لدى سكان حيه، حتى أنهم كانوا يسمونه «أبو الحارة». فهو يعرف كل شيء في الحارة ـ وكل شيء عن سكان الحارة أيا كان مستواهم الاجتماعي والأدبي والمعنوي والمادي.. فهم عندما يقبلون عليه في حالة من حالات المشاحنة أو شعور بالغبن يملؤ صدر أحدهم من الآخر ثم يستدعيه العمدة يشعر بالرهبة عندما يقبل عليه.. ذلك لأن إلقاء نظرة من العمدة في عين أي من هؤلاء تجعله يشعر بأن العمدة يعرف عنه كل شيء فيستحي منه ويخشاه..

من هنا كانت هيبة العمدة التي تستقطب الاهتمام والاحترام والإجلال كان لا يفصح ماذا وراء الأكمة ـ لكنه ينظر نظرة الإنسان الذي يعرف كل شيء عن إنسان الحارة وأمور الحارة وماضي الحارة وحاضرها. وهو الذي يتبنى

قضاياهم ويتصدى لحل مشكلاتهم.. وقد كان للعمدة الحق في أن يسجن من يخرج على تقاليد الحارة كأن يرتكب أحد السكان عملا مشينا، إذ كانت دوائر الشرطة تستجيب لأوامره وتصغي إلى مرافعاته، حتى عندما تطلب شخصا ما للحضور فإن بإمكان العمدة إرجاء وقت حضوره حتى ينظر في الأمر إذ عساه يتمكن من إنهاء موضوع الاستدعاء بالطرق التي يراها مناسبة ومقبولة بل ومنهية لأسباب الخلاف بين أطراف النزاع.. وقد كان ذهاب العمدة إلى دوائر الشرطة يقتصر على الأمور الهامة إذ كان النقيب ينوب عنه في المهام التي لا تستدعي بالضرورة حضوره تقديرا لمكانته الكبيرة والمرموقة.

هكذا كانت الأمور في الحارة تخضع لهذه المواقف الخيرة المعطاءة دون طرحها في دوائر الشرطة أو دوائر القضاء رغبة في عدم إشغال السلطات من ناحية وحفظا لماء وجه المتنازعين من ناحية أخرى.. خاصة وأن العمدة ووجهاء الحارة كان ينظر إليهم كمستودع لأسرار العوائل وماتمور به أوضاعهم وأحوالهم.. فضلا عن أن «أهل زمان» كان يقودهم الحياء وسلامة الفطرة إلى الاستماع إلى نصح الناصحين وبالتالي كانوا لا يترددون في قبول أي حكم حتى ولو كان فيه تفويت لنصف الاستحقاق أو حتى نصف الأرض المتنازع عليها وهذا ينسحب حتى على القضايا التي يكون للحساسيات تأثير كبير في قيامها و«صافي يا لبن» كما يقولون.

ويحكي لنا الشيخ عبدالعزيز محضر «أحد أعيان مكة المكرمة»: أن من مسئوليات العمدة ورجال الحارة الحفاظ على حدود الحارة من كافة جهاتها.. يحافظون عليها كما يحافظون على بيوتهم فلا يتعداها متعد أيا كانت المناسبات.

وقد كان الملك عبدالعزيز رحمه الله يأتي إلى مكة المكرمة ليقيم فيها شهورا عديدة من السنة، وكانت حارات مكة المكرمة تتسابق للاحتفاء به، فكان إذا قدم إلى الحرم يستقبله أبناء كل حارة بالمباخر عند مدخل حارتهم وتحدث المناوشات حينما يتجرأ أحد حملة المباخر على تجاوز حدود حارته إلى الحارة الأخرى وقد استمر الحال في الاستقبالات الاحتفائية بأبناء الملك عبدالعزيز

من بعده فتقوم الحارات بنصب «الزينة» في حالة شديدة من التنافس.. وفي كل حارة تجد العمدة ورجال حارته ـ كما يقولون ـ عينهم عشرة.. عشرة على الحدود.

وكثيراً ما كانت تدبُّ الهوشات لأبسط الأسباب فنصب العامود الذي يحمل فانـوس أو إتريك البلدية يعد أمراً له حساسيته فقد يتعدى أحد الحفارين أو المتعهدين لحارة ما حدود الحارة فيواجه بأصوات السيدات من «الرواشين» ومن خلف «الكباريت» يستنجدن بأهل الحارة لوقف الاعتداء على الحدود.. وما هي إلا لحظات حتى يمتلىء الزقاق بـ «النشامى» فيتوقف الحفر ونصب العمود حتى ولو كان التجاوز على متر واحد فقط!!

والعمدة مسؤول عن كل ما يحدث في الحارة من مناوشات أو خصومات، فعلى كاهله تقع مسؤولية حلها، فهو يقوم بالاشتراك مع وجهاء الحارة بنزع فتيل الصراع لكيلا يصل الأمر إلى دوائر الشرطة، إذ كان مركاز العمدة في الحي أشبـه ما يكـون بالمحكمة المستعجلة وحكمه نافذ على أبناء حارته.. ويحكم العمدة ورجال الحارة على المخطىء بـ «القَوَدَ» فيذبح من كان الحق عليه عددا يتفق عليـه من الخـرفان، وتوجه الدعوة لمجموعة من كبار الحارة ووجهائها، ويتصافح الجميع، ثم يتعانقون ويتسامرون ويتناولون الغداء أو العشاء، وقبل أن يتفرقوا تكون القلوب قد استعادت صفاءها وألفتها المعهودة.

وكثيـرا ما يتحمـل العمدة ووجهاء حارته ما قد يسمى بالغُرم في القضايا المالية، أو تكاليف القَوَدَ في القضايا المعنوية إذا تعذر على من كان الحق عليه أن يقوم بها.

وفي ذاكرة المعمرين مجموعة كبيرة من العُمد كان لهم شأن كبير ليس على مستوى الحي ولكن على مستوى المدينة بأكملها.. فلقد شهدت مكة المكرمة عُمَداً أفذاذا أمثال العم محمد سرور القري والعم محمود جنقلي وكان يصنع العقـل القصب الخاصة بالأمراء والوزراء والأعيان وكذلك العم حسن عدس وغيرهم، وفي جدة كان العم محمود عبدالصمد وقبله والده وقد جاء من بعده



محمود عبدالصمد
(عمدة محلة اليمن)
من عام ١٣٤٨هـ حتى ٢٨/٦/١٣٨٠هـ



محمد محمود عبد الصمد
(عمدة محلة اليمن)
من ١٨/٢/١٤٠٨هـ حتى عام ١٤١١هـ

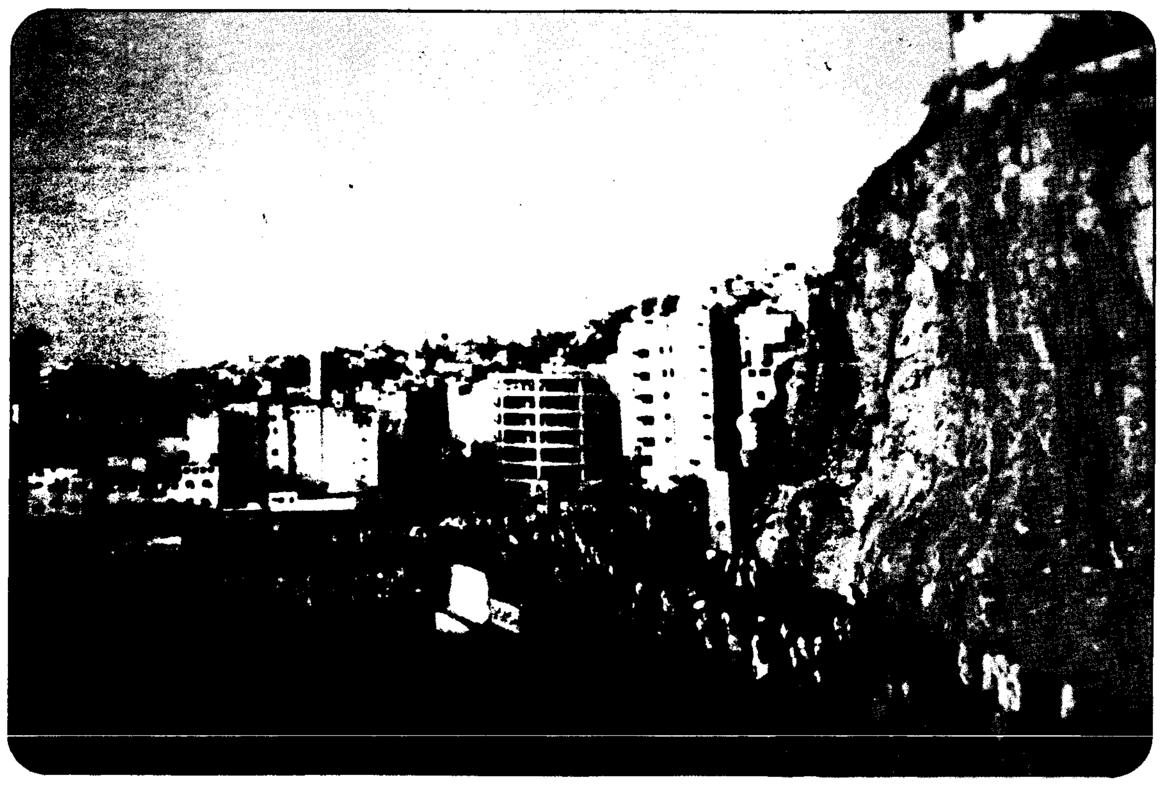


علي محمود عبد الصمد
(عمدة محلة اليمن)
من عام ١٣٨٠هـ وحتى ٦/١١/١٤٠٧هـ

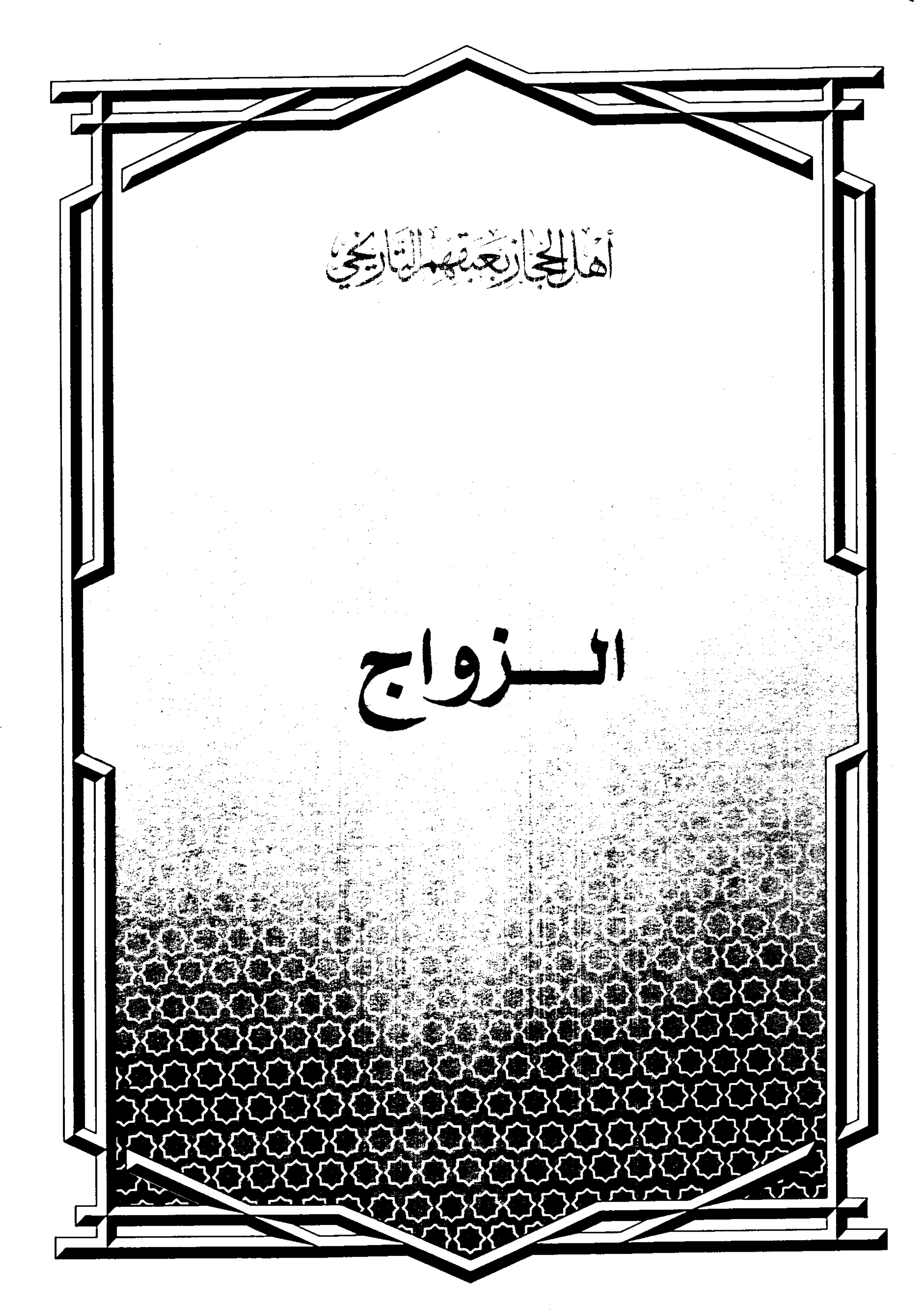
ابنيـه على ومحمـد، وفي جدة أيضـا من العمـد الذين اشتهروا في زمانهم الحنبولي ومدني عيد وطه غيث وعلي زكي وأحمد عبدالواحد جزار وغيرهم وقد انتقلوا جميعهم إلى رحمة الله بعد أن أدوا خدمات رائعة لمجتمعهم، جعلها الله في موازين حسناتهم عند لقاء ربهم...

وقبل أن نختتم هذا الجزء الخاص بعمد الحارات لا بد أن نتممه بالحديث عن العسس أو الحراس الليليين وهم الذين ينتقلون بين الأزقة بصفافيرهم على طريقة «نحن هنا» و«مين هناك» .. فإذا ما رأوا باباً لم يقفله صاحبه نادوا عليه لقفله وإذا لم يرد قفلوه بقفل من الخارج..

وفي مرحلة من المراحل كان أهل الحارة هم الذين يدفعون أجور العسس «ربع ريال» لليلة الواحدة.. خاصة وأن من أهل الحارة صاحب الدكان والفوال وبائع المطبق والقمّاش وجميعهم في حاجة لخدمات العسس.. وتحدد مساحة الحـارة وكثـرة أزقتها وبرحاتها العدد الذي تحتاجه من العسس، وإن كانت متـوسطات أعداد العسس في الحي الواحد تتراوح من خمسة إلى ستة في الغالب. وقد حدث مرة أن امتنع بعض العسس عن العمل ذات ليلة في إحدى الحارات لأسباب تتعلق بدفع استحقاقاتهم، وكان استحقاقهم في الليلة يبلغ ريالا ونصف الريال من الفضة.. فما كان من نقيب الحارة إلا أن قام باستدعاء شباب حارته للقيام بالمهمة مجانا ومنهم الشيخ عبدالعزيز محضر وقد كان يافعا آنـذاك وقـد أدوا المهمة بصدور رحبة ونفوس أِلفَت التفاني في خدمة الأهل والحارة والمجتمع.



● (القشاشية) حي من أحياء مكة القديمة ●



أهل الحجاز بعبقهم التاريخي
الــزواج



الحديث عن الأفراح والليالي الملاح في الحجاز يفرض على الكاتب أن يكون الزواج بمراحله المختلفة هو نقطة البداية.. فهناك الخطوبة ثم الملكة ثم الدخلة وما تختص به كل مرحلة من عادات وتقاليد أثرت في مجموعها حياتنا الماضية والحالية بالكثير من السعادة والأنس والمحبة..

● صورة حديثة من احتفالات الزواج في الحجاز ●



● الغناء التقليدي في أفراح الحجاز ●

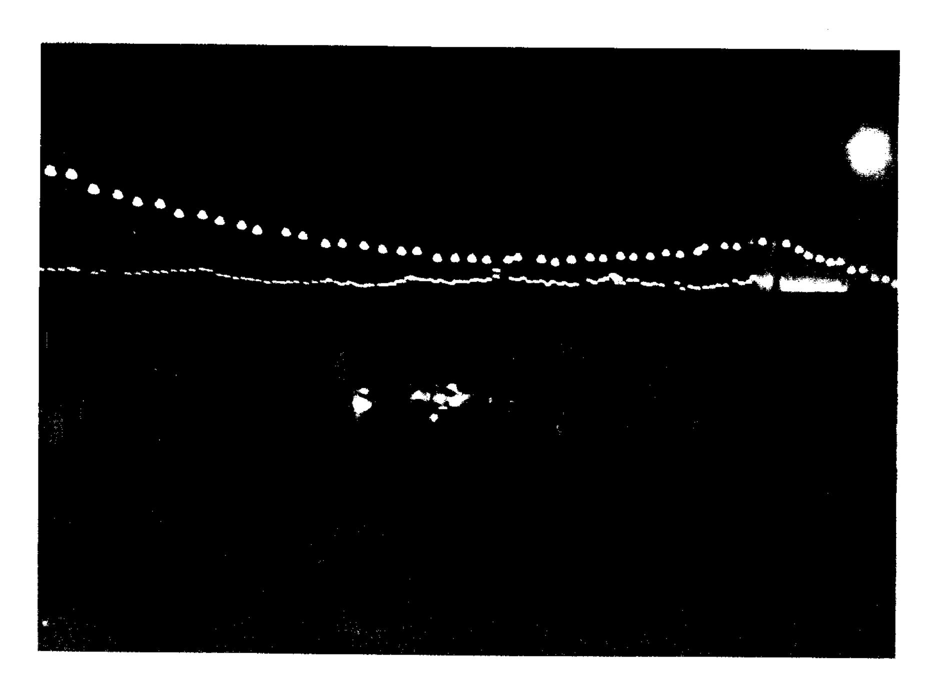
الخـــطوبــة

تبدأ إجراءات الخطوبة بعد التسامع بأن عائلة ما لديها فتاة حلوة وجميلة وذات خلق رفيع، فتسارع العائلة التي تبحث لابنها عن عروس بالسؤال عنها .. وعنـدمـا يصـح العـزم على التقـدم للخطوبة تأخذ التحريات طريقها لمعرفة الأوضـاع العائلية ودخائلها .. بيد أن للتزكية من ذوي العلاقات اللصيقة في الحارة أو العمل أو الصداقة أو التعامل ما يمكن أن يضفي قدرا من الثقة ويحفز على التقدم للخطوبة .. وينشط الوسطاء وأهل «اللزمة» لجس نبض والد العروس وأهلهـا .. وهـؤلاء بدورهم يبحثـون ويتقصون أخبار وسمعة وأحوال العريس وسلوكياته ثم أوضاع أهله من والد ووالدة وعمات وخالات وأصهار وأقارب إلى آخـر القـائمـة إياها .. ثم ينقل الوسيط الموافقة على مبدأ التقدم للخطوبة .. فتذهب الأم والعمة مع الصديقات الخُلّص في سرية كاملة، ومظهر ملؤه الحشمة والوقـار .. فيستقبلون بحفاوة بالغة من قبل أهل العروس، الذين يقدمون لهم أنـواعا من المرطبات «صناعة البيت» كعصير التوت والليمون والسفرجل، ثم القهوة والشاي بلونيه مع شوية مكسرات منتقاة وبسكويت مالح وحلو إلى جانب

الفوفل والهيل وحلاوة النعناع.. وهكذا تبدو معالم الحفاوة مع ما يخامر الطرفان من أمر المستقبل وما يحمل في طياته.. ولا يعلم الغيب إلا الله.

وتقوم إحدى السيدات الصديقات رافعة يدها إلى السماء معلنة الرغبة في قراءة الفاتحة من القرآن الكريم..وتقول «جينا خاطبين راغبين في ست الحسن والجمال لولدنا». ثم يأت الرد بطيئا .. بالقول: إن شاء الله نخبر الوالد برغبتكم ونرد عليكم قريبا، وكل شيء قسمة ونصيب.. ثم يتم الاستئذان للعودة للمنزل..

هنا تكون البنت المخطوبة في فرحة غامرة.. رغم أن العريس غائب عن الصورة والمواجهة، وكذلك العروس إذ تتم الخطوبة على وصف الصديقات والأصدقاء من المعارف فلم يكن في الماضي ما يبيح للعريس رؤية عروسه ولا من وراء جدر أو ثقب باب، فذلك أمر غير لائق، وعلى العريس أن يكتفي بوصف عروسه من خلال الأهل الذين يصفون له تقاسيم وجه العروس وجسمها طولا أو قصرا أو بين بين ثم لونها هل هو وردي .. خمري.. شقراوي.. أسمراني.. أو



● تنصب الأرائك في الحارات لإقامة الأفراح بواسطة العيال النشامى ●

قمحي، وعلى العريس أن يستعين بالتخيلات، وبطبيعة الحال فإن الأمر ينسحب على العـروس أيضا عندما يوصف لها العريس إلا إذا حانت فرصة الزيارات المتبادلة بين الأصهار والأقارب والأصدقاء، فإن من «الحيلة» ما يفوق الوصف لمعرفة شكل أو وضع الطرفين دون علم الكبار، وإلا فالويل كل الويل لمن يتطاول أو يتحـايل أو يتغامز لأن الأمر يتعلق بالعار «والمعابة ياخويا» مع أن تعاليم الشريعة تبيح الرؤية إلا أن العادات والتقاليد لها حكمها الذي كان يبدو في تلك الأيام وكأنه لا يقاوم..

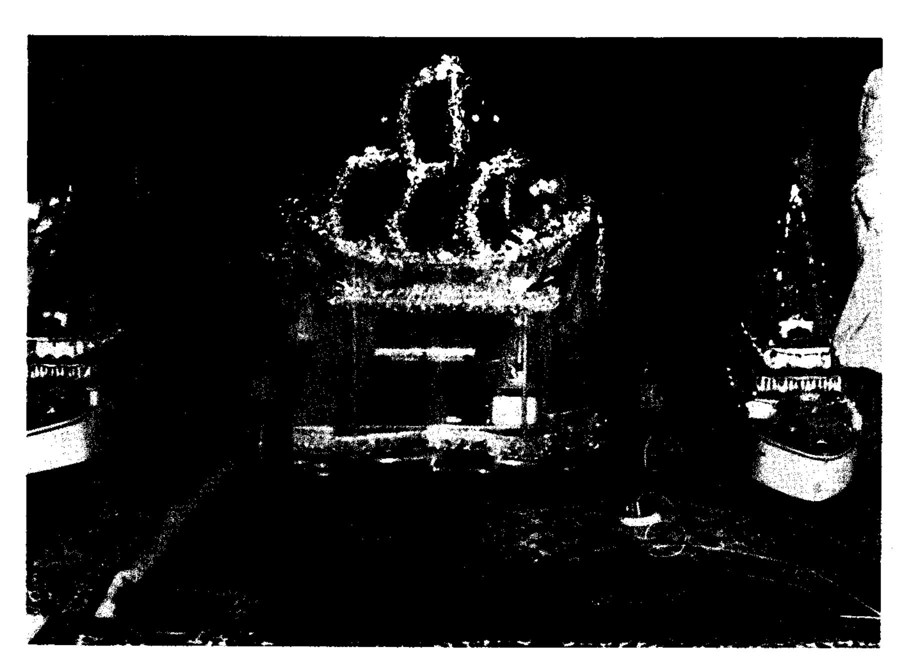
وتمـر أسـابيع وشهور وربما أكثر حتى يأتي الرد إيجابيا، وهنا يقوم أهل العـريس من النساء بزيارة أخرى لمشاهدة العروس في غلالة من ثوب أنيق ورائحة عطرة.. ويجتمع الرجال من أهل العروسين لتحديد موعد عقد القران «الملِكة» ويتم خلال هذا اللقاء قراءة الفاتحة والدعاء للخطيبين بالتوفيق والقبول.



● (الدانة) تؤديها فرقة المريعانية في إحدى مناسبات العرس ●

عقد القران «المِلْكة»

يذهب العريس بصحبة المأذون في تلك الليلة إلى دار عروسه يحف به أهله وأصحابه ونشامى حارته، تتقدمهم الأتاريك «أبو رشرش» على رؤوس مجموعة من الحمّال مع الصواني الخشب أو المعدن محملة بالحلوى التي تهدى للمدعوين، وفي بيت العروس يقرأ المأذون الخطبة الشرعية لعقد النكاح، ويتلو الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على الزواج كما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ (سورة النساء آية ١).



● احد الأفراح يكتب فيها عقد القران ●

ثم يشير إلى أن النكاح سنة الأنبياء وشعار الأولياء.. فقد قال رسول الهدى عليه أفضل الصلاة والتسليم «**النكاح من سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني**».. وقال صلى الله عليه وسلم: «**تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيــامــة**».. وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم: «**تناكحوا تكاثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة**».. ثم يتم القبول والإيجاب بين العريس ووالد العروس أو وكيلها.. وبذلك ينتهي عقد النكاح وسط مباركة ودعاء الحاضرين بالسعادة والتوفيق وبالذرية الصالحة للعروسين.. وحينها يتم توزيع الحلوى على المدعوين وهي عبارة عن حلاوة لدّو وحلاوة هريسة وحلاوة لبنية مع الإكليل الذهبي والفضي تقدم في قراطيس باطن صحون، غير ما هو مألوف من علب الحلوى التي تُقدّم في هذه المناسبة..

ومما يجدر الإشارة إليه هنا أنه حتى بعد عقد القران لا يسمح للعريس أن يرى عروسه وعليه أن يقبل بذلك الحال حتى ليلة الزفاف التي تسمى «الدخلة» ـ بضم الدال وشدها وسكون الخاء ـ وفي تلك الليلة يقدم العريس لوالد عروسه الصداق «المهر» بيد أننا ونحن نتحدث عن هذا الموضوع لا بد أن نشير إلى أن العادة المتبعة بين «الحاضرة» في الحجاز هو أن المهر ليس موضوع نقاش أو حتى خلاف بين أهل العريس وأهل العروسة، لأن الهدف أساسا هو الوفاق.. وعــادة ما يوضــع المهر في علبة لها سمتها الجميلة البراقة وفي باطنها من الجنيهـات الذهبيــة والريالات الفضية ما لا يعرفه أحد إلا والد العريس وأمه والخُلّص من الأقــرباء والأصهار .. ولعل من أبرز ما في موضوع المهور هو التفاوت بحسب القدرة على العطاء، فمنهم من يقدم عشرة جنيهات ذهبية مع عدة ريالات فضية.. ومنهم من يقدم ضعف هذا المبلغ أو أكثر منه حتى يصل إلى المائة جنيه أو أكثر..

وســوف نؤجـل الحــديث عن مظاهــر الاحتفال في الملِكة لنشير إليه عند الحــديث عن الاحتفــالات في الدخلة فالكثيــر من مظاهر الاحتفال توشك أن تتشابه بين الملكة والدخلة وإن كان حظ الدخلة أكبر في السمر والولائم والغناء.

الدبش

كان التقليد المتبع في الماضي أن يذهب والد العروس وأهلها لمشاهدة المنزل الذي يسكن فيه العروسان وقد كانا في الماضي يسكنان في بيت الوالد لأن العريس مازال غض الإهاب لم تكتمل له مظاهر القدرة على الصرف على مسكن خاص به والصرف على مستلزماته لأن مجالات العمل في ذلك الزمان لم تكن لتسمح بتحمل هذه المسئوليات من وارد الأعمال التي يقوم بها الإنسان.. وكذلك لم تكن المساكن متوفرة على النحو القائم الآن خاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار أن معظم المساكن المجاورة للحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة كانت تؤجر للحجاج لفترات طويلة من العام وقد كان الحال كذلك في جدة وقد كان يسكن بعض بيوتها الحجاج في قدومهم ورواحهم...

ولعل من بين أغراض الزيارة التي يقوم بها والد العروس وأهلها لبيت الزوجية هو التعرف على ما يحتاجه المسكن من أثاث، وقد كان يطلق على الأثاث مسمى «الدّبش» ـ بفتح الدال وشدها، وفتح الباء أيضا ـ وقد كانت عملية إرساله من بيت أهل العروس إلى بيت الزوجية تشكل مهرجان فرح جميل ورائع يؤكد حلاوة الأفراح في تلك الأيام الخوالي، فلقد كان يؤتى بمجموعة كبيرة من الحُمَّال، يضعون على رأس كل حامل قطعة من قطع الأثاث.. فللحاف حامل، ولكوز الماء حامل، وكذلك للمسند والمخدة وتبسي الأكل والصحون وكاسات الشاي والمفرش والفانوس والاتريك .. فلكل قطعة من هذا «الدبش» حامل.. ويعبر هذا الموكب دروب الحارات وشوارعها مشيا على الأقدام في مظهر جميل تصحبه الأهازيج الجميلة وملاحقات الصغار.. إنه مهرجان فرح كما قلت!!.



الدُّخـــلة



● (النصّة) ●

الدخلة ويقصـد بها ليلة الزفاف أو ليلة العمر كما يقولون.. وفي تلك الليلة يستعير أهل الفرح بيوت جيرانهم خاصة الرحبة منها، إذ لم يكن في زماننا الذي مضى قصور أفراح كالتي أول من فكر فيها صديقنا وأستاذنا عبدالله عريف طيب الله ثراه عندما ولي أمانة العاصمة المقدسة في أوائل الثمانينات الهجرية فعمل على بناء صالات وساحات وغرف مناسبة للرجال والسيدات بأجر رمزي زهيـد في بستان البلدية بحي الزاهر، واشترط على من بناه للاستثمار أن لا يتقاضى أجرا فادحا، بل أجرا رمزيا لتمكين العامة من استعماله.. لذا كانت استعارة البيوت قبل ذلك أمرا لا بد منه، حيث ترص ـ في الحوش أو الشارع ـ كراسي الخشب المطعمة بالخوص السميك، ويضيف الموسرون عليها اللحف

المطرزة والمساند والمخدات المطرزة، إلى جانب الجلايل أو الحنابل الهندي أو المقصصة «المربعة الزاهية الألوان» بالاستعارة طبعا.. وكان نشامى الحارة هم الذين يتولون إعداد القهوة والشاي والنعناع وشيش الحمّي حيث الجراك لم يكن معروفا آنذاك.. وكل ذلك يتم وفق شيم وقانون الحارة الذي يفرض الفزعة بين الأهل والأصدقاء والجيران.. كما يوجب «الرفد» بكسر الراء وشدها وسكون الفاء، وهي هدايا أو معونة تقدم لأهل العروسين عبارة عن خراف وأرز وسكر وشاي وسمن إلى آخر ما يساعد أهل الفرح.. ويوم لك ويوم عليك، وقد كان الطباخ يحضر إلى مكان الحفل لطبخ السليق الفاخر بالسمن البري والخراف الحرّية للعشاء، وفي الصباح تقدم «الزلابية» مصحوبة بالجبن الأبيض والشيرة.. والزلابية عبارة عن عجين يفرد على صاجة مدورة قطرها ٤٠ سنتيمتراً وأكثر، ثم تغلى في طاجن بقطرها وبسمن بري أيضا، ثم تقدم محمرة، ومازال بعض «أهل الكار» يجيدون طهيها حتى الآن.. أما في الظهر فيقدم الزربيان مع سلطة اللبن والخيار والنعناع الناشف أو الأرز البخاري أو البرياني مصحوبا بالسمبوسك وبلح الشام أو المشبك.. وهي أكلات لها أصلها وجذورها .. فـ «السليق» يختلف عن «العربي» .. الأول يسلق الخروف ثم يقطع بطريقة خاصة بعد إخراجه من القدر، وعلى المرق المسلوق يلقى الأرز الهورة أو أبو بنت من وارد هذه الأيام.. ومن الناس من يظن أن الحليب مادة أساسية للسليق مع أن استعمال الحليب طارىء وغير مرغوب فيه لدى الكثرة من الناس .. أما الأرز العربي فهو على طريقة أهل البادية، يطبخ الخروف حتى يستوي ثم يلقي الأرز عليه، ومن ثم يغرف في أواني عميقة متناسقة .. والأرز البخاري يطبخ الآن على غير أصوله وبغير طريقته الفنية المعقدة.. أما الأرز الزربيان والبرياني فهما تقليد للطبخ الهندي.. حيث كان للجاليات التي تقيم في هذه البلاد من هندية إلى جاوية إلى مصرية إلى شامية وغيرها طهوها الخاص وأكلاتها الشعبية التي غزت الأذواق حتى غدت مستساغة وشائعة ومرغوبة، كما كان للطبيخ التركي مذاقه الخاص في ذلك الزمان.. أما الآن فالطبيخ العام يؤكل ولكن كيف هو المذاق.. ورحم الله أيام «الفحم» الذي تطبخ به..

وقـد كان من أشهـر من يسهمـون في إحياء الأفراح والليالي الملاح في الحجاز العم حسن جاوا والعم حسن لبني والعـم سعيد أبو خشبة والعم سعيد كردوس فلقد كانت أصواتهم العذبة الجميلة تصدح في ليل الفرح، كما تسعد النفوس والقلوب بصفائها ونقاء سريرتها.. ولن ننسى دور «الصهبة» و«اليماني» وهما من ألوان الغناء التقليدي الجماعي، إضافة إلى لعبة المزمار التي تعد أبرز فنون المنطقة وأكثرها شيوعا..

وفي مكان تجمع النساء تنصب «الريكة» داخل صالون من التيازير الملونة الزاهية والمغطاة بعضها بالسجاجيد المخملية.. كما يتحول بيت العروس في ليلة الزفاف إلى خلية نحل.. كل شيء يدور فيه له مذاق وجمال.. وكل خطوة لها ما بعدها من خطوات، وكل زغرودة «غطريفة» لها معناها ولها وقعها ورنينها الحلو الأخاذ.. في الوقت الذي تجرى فيه خدمة العروسة بكل هدوء واتزان ومفهومية.. فكـل التصـرفات محسوبة، أليست هذه الليلة هي التي تفصل كل ما مضى لاستقبال مستقبل باسم وجميل؟.. وربما من هذه المعاني أطلق مسمى شهر العسل وهو الشهر الأول من التلاقي والارتباط المتين.. ولكم تصور ما تعانيه «العروسة» ليلتها من كثرة ما يوضع عليها من ملابس وقلائد وما تتبطن به، وما يوضع على صدرها وعلى رأسها وما ينسدل على وجهها .. وتتحمل العروسة كل ذلك من أجـل الفرحة بلقاء عريسها، وكأن لسان حالها يقول: «كله يهون في سبيلك ياعريس» .. وسبحان رب العزة والجلال حيث قال:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

صدق الله العظيم.

كل هذا يجـري ويتم حتى تأتي اللحـظات الحاسمة التي يعلن فيها قدوم العريس يحيط به أهله في زفة وأهازيج رائعة تؤديها سيدات لهن دورهن في تاريـخ حفـلات الزفـاف وبعضهن لازلنْ حتى الآن يقمن بهـذا الفن الجميل وبـالطبول المتاحة شرعا.. إنها أهازيج من نمط ما كان عليه السلف الصالح

تؤدى بكل الاحتشام والوقار ويتقدم هذه «الكوكبة» التي نجمها العريس عدد من سيدات مكة المكرمة وشريفاتها، فما أن يراهن من تضمهن غرفة العروس حتى يقمن احتراما وتقديرا..

وقـد كان «العرسان» في الماضي ـ وكنت أحدهم ـ يرتدي الثياب وعليها الصـديري والجبة وعلى رأسنا العمامة المطرزة بالقصب الأصلي وبلفة من البوال السويسري الناعم الجميل أو الشاش الأصلي الفاخر.. ويتقدم العريس ببطء يحفه أهله مثل الأم والخالات والأقارب، كما يحفه بعض البنات الصغار من أقاربه وفي أيديهن الدبابيس يغرزنها في جسد العريس الذي يشعر بوخزها متألما ولا يستطيع إظهار ألمه حتى يقف أمام عروسته التي ترخي عيونها خجلا وأدبا وحياء..

ثم يقوم وقد أحاط أهل العروسة بها من الجانبين الأيمن والأيسر برفع الغطاء الشفاف الرقيق عن وجهها الذي تبدو البسمة فيه ما أحلاها وأرقها.. ومن عادات أهل زمان أن يضع العريس على جبين عروسه وعلى خدها من الجانبين قطعا رقيقة ذهبية تسمى بـ «الغازية»، وإذا فاض منها شيء ألقاه بأعلى يمينه على الحـافـات به من البنـات الصغيـرات وهن في انتظارها على أحر من الجمر لالتقاطها وقد يكون ذلك من باب التفاؤل أو التيمن أو الاقتناء للذكرى.

ويجلس العـريس بعـد ذلك على كرسي خاص يستمع إلى تلاوة آيات من القرآن الكريم بما يحمل معنى المباركة والدعاء بأن يكون زواجا سعيدا مقرونا بالذرية الصالحة والوفاق الدائم، ثم بالصلاة على سيد البشر محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والتسليم... وينهض العريس بعد دقائق من جلوسه يتلقى التهـاني من أهله والمحيطين به، يهبط بعدها لملاقاة والده وأعمامه وأخواله وأصدقائه يسلم عليهم ويشكرهم على مشاركتهم، ثم يتناولون طعام العشاء، وينصـرف المدعوون في أمان الله ليظل العريس بعض الوقت حتى يصطحب عروسه إلى منزله في عربة فاخرة.. وعند باب منزل الزوجية تقف العروس ليخلع زوجها نعالها وهو عبارة عن بابوج موشى بالقصب أيضا.. وقد وضع كتلا من

اللؤلؤ الناصع الجميل على قدميها، ثم يسكب الماء شبه المثلج عليه حتى يكون قدومهـا صافيا صفاء اللؤلؤ.. وفي صباح اليوم ـ عدا ما سبق ذكره ـ تذبح الخرفان ويحضر المدعوون لتناول «طعام العريس» اقتداء بسيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوصيته كما قال: «أولموا ولو بشاة».

ومن العادات المتبعة في ليلة الزفاف أن يذهب العريس مع نفر من أصدقائه قبل ذهابه إلى بيت العروس إلى البيت الحرام للطواف ثم صلاة ركعتين ودعاء المولى الكريم بأن يكون زفافه موفقا وحياته الزوجية سعيدة على مدى الزمان وأن يرزقه بالذرية الصالحة.. وينسحب هذا أيضا على المدن الأخرى كالمدينة المنورة وجدة والطائف وغيرها..

الصّبحة

وفي ضحى اليـوم الذي يلي الدخلة ترتـدي العروس فستانا رشيقا حلوا وبهيجا ثم تجلس في وسط أهلها وأهل زوجها لتوكيد عرى التعارف والمحبة والصفاء بين العائلتين.. ومن ثم يتقدم والد العريس ووالدته ثم العريس وعماته وخالاته بالهدايا الثمينة وحسب القدرة المادية المتيسرة في ذلك الزمان مما يسمى بـ «التصبيحـة» وهي عبـارة عن عقـد لؤلؤ أو المـاس يحلى به جيد العروسة.. كذلك يتقدم العريس بهديته سوار من ذهب أو ألماس أو خاتم به فص ثمين .. ثم يتقدم أهل العريس من أقارب وأصهار وأصدقاء مقربين بهداياهم إلى العروسة، وهذه كلها تعتبر إلى جانب الأثاث ملك العروسة حسب المتعارف عليه في ذلك الزمان، ولازالت هذه العادة سارية حتى الآن..



الغُمْرة

من كمال الحديث عن الزواج نرجع بكم إلى ما قبل ليلة الزفاف حيث يجري الاهتمام بشعر العروس وترطيبه على النحو الذي كان سائدا على أيامهم تلك.. ثم يخضع طواعية وبكل الحفاوة «للحناء» نبات أخضر يسحق ناعما ثم يرطب بالماء بطريقة موزونة فنية.. وبها تطلى أظافر اليدين والقدمين .. وقد استبدلت أيامنا هذه بما يسمى «المانيكير» عدا حمرة الشفاه.. كما توضع خطوط جميلة تحلي كف اليدين وكف القدمين.. وتقوم المقيِّنة بتزيين وجه العروس وحواجبها فعملها أشبه بمهنة «الكوافير» التي ظهرت هذه الأيام بل وأروع منها.. وتسبق ليلة الزفاف ليلة يطلق عليها مسمى «ليلة الغُمرة» وفي هذه الأمسية توضع وتجهز كل اللوازم تحت إشراف أهل العروسة والصديقات والأصهار والأقربين .. وتأتي «المقيِّنة» وتكون العروسة قد زفت بلباس خاص بين الحمام وبين كرسي «التخشيبة» وما أدراك ما «التخشيبة» ويقال إن أصلها من الهند وقد وفدت مع قدماء الوافدين وهي عبارة عن «صديري» سميكة من قماش قطني موشى بالحرير الطبيعي، ترصع بالقصب والترتر الملون، وهي ثقيلة تنوء بحملها العروس ساعات وساعات، فإن كانت العروس من ذوات القوام الرشيق جدا، فإنه يوضع على ما يلي الصدر وفوق البطن شيء من القطنيات حتى يستقيم وضع الصديري المشار إليه.. وبعد الفراغ من تركيز الصديري الثقيل تأخذ المقينة في وضع غطاء شفاف رقيق من الحرير الناعم الطبيعي على وجه العروسة ويسمى «المقنع» كما يوضع على الصدر المجوهرات كالابر «الرعاشة» الموشاة بالماس وغيرها مما يوضع بطريقة جميلة يعطي «الفن» لها مظهرا خلابا.. ويوضع على الرأس تاج مكسو بألماس له مظهر رائع وجميل .. وهناك ما يسمى بـ «اللبَّة» ـ بشد الباء وفتحها ـ وهي موشّاة باللؤلؤ في شكل قلائد توضع في مقدمة الرأس حتى الأذنين ويضاف إليها جميعا ما يسمى بـ «القوقو» وهو

موشى بالقصب الأصلي والترتر يوضع على الرأس ويتدلى من الجانبين .. وتبدو العروس وهي على الكرسي الموشى بالقطيفة المطرزة بأنواع شتى من القصب والترتر وغيرها في أبهى ملامحها ووهجها الوضاء.. كما يبدو الغطاء الشفاف ينم عن جمال فاتن وأخاذ..

تلك صور من التاريخ الحلو الذي نستمد منه أحلى ذكرياتنا بل وأغلاها، رغم كل البساطة ورغم الفقر أو «الطفر» فلقد كان لتلك الأيام أنسها وبهجتها ولا يزال عبير عطرها يغرينا على أن نعيشها اليوم حكاية، نرويها لأبنائنا وأحفادنا بشيء كبير من الشوق والحنين.

الزوجة ومكايدتها المجيدة

كانت الزوجة في الماضي، وستظل تشكل حجر الزاوية في حياة الرجال ومعاشهم، وفي تربية الأجيال وتنشئتهم إلى جانب طاعتها لرجلها، والخوف منه وعليه، إضافة إلى الحدب والحب الذي يطغى على مشاعرها.. فهي الحريصة على موارده وكتم أسراره.. ولم تكن لتجعل زوجها يشعر بأنها تتدخل في تصرفاته وفي أفكاره وتوجهاته، ولكنها من خلال معطياتها وتقدير ظروف زوجها تكون قد قامت بالفعل بالمشاركة الإيجابية لزوجها حتى في همومه وفي كُربه ومشاكله أيا كان مصدرها وسببها ومدى تأثيرها عليه مما قد ينسحب على الأسرة بكاملها.

فالمعروف أن الزوجة شريكة حياة وقد أدركت المرأة في الحجاز هذا المفهوم وعملت به فكانت المثال الرائع والجميل في حياتنا الاجتماعية.

وقد كنت أقضي أوقات فراغي وما أكثرها حينا وأقلها حينا بجوار والدتي مع زوجتي وعماتي وأخواتي، وأحيانا بمفردي.. كنا نتطارح الأحاديث في جو ملؤه المحبة والعطف والولاء.. فسمعت منها الكثير في لقطات لا أنساها لأنها حفرت

في ذاكـرتي ولأنهـا صادرة عن حقـائق وثـوابت عركتهـا التجـارب وصقلتها الخبرات.. وقد كانت الحقائق تقال في مناسباتها التي تطرأ في حياة المنزل ومعايشة أموره وأحواله وشئونه وشجونه.. وكانت معظم هذه الأحاديث تصب في واقـع ومستقبـل العـائلة والأولاد والأحفـاد والحفيدات، فلقد كان الآباء والأمهات والأجداد والجدات يحملون همومناوهمومهم وهم يدبون على الأرض في عفـويـة الأطفـال وبراءتهم.. قالت يوما لي والدتي رحمها الله وطيب ثراها وكان سيدي الوالد غير بعيد عنها، إذ كانت في «الصُفّة» وكان رحمه الله في طرف المجلس العائلي قالت وهي تستعرض «عفرتة» الأولاد وصراخهم مع البنات والتعديات التي تحدث بينهم: «إن تربية الأطفال كمضغ الحديد.. فإذا كنتم لا تمضغون الحـديـد، ولستم بفاعليه، فإن تربية الأطفال تمثل هذا المضغ».. ثم تردف لتوضح الفكرة: «لا يطلع جيل إلا بعد تعب جيل» .. وتستطرد قائلة رحمها الله: «إننا نعاني من الخوف عليكم لدرجة أننا لا نرأف بأنفسنا من الولع والحدب عليكم، والاستفسار عن أحوالكم أنتم وأولادكم حتى لا يفصل بيننا إلا قاهر اللذات والأحيـاء» .. هكذا كان حدب الأمهات والآباء علينا، وعلى أولادنا .. فكيف بالأحفاد عندما يرزقنا الله بهم وهم أحياء على رؤوسنا وملء إهابهم الوقار والرجولة.

وحـول معاناة الزوجة لابد أن نشير إلى أنها كانت تتزوج وهي في ريعان صباها بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة من عمرها دون أن ترى عريسها أو يراها إلا ليلة الزفاف كما سبق وأن أسلفنا... والكثيرات منهن لم تتمرن بعد على خدمـة المنـزل وشئونه.. فمعظمهن يتدربن في منزل الزوج، وقد تجدن من الرعاية والحنان من أهل زوجها ما يمكن الواحدة منهن من المشاركة تدريجيا في الواجبات المنزلية.. من كنس الغرف وتجهيز الفراش الخاص بالنوم ونصب الناموسية، ورفع كل ذلك في الصباح.. ثم العمل على تجهيز الفطور مشاركة مع العائلة أو على انفراد مع رجلها.. ثم تصعد للمشاركة في تجهيز لوازم الغداء كقـطف أوراق الملوخيـة .. وتقميع البامية وتقشير البصل «وهات يا دموع» وفصفصـة الثـوم.. وكـذلك تقوير الكوسة والخيار والطماطم والفلفل الأخضر

للمحشي إلى آخر ما يجهز للطبيخ.. وقيامها بهذه الأدوار يؤهلها تدريجيا لتكون مسئولة بعد سنة تقريبا عن الطبخ في يوم يحدد لها أو أكثر حسب تكوين العائلة، لكن هذا لا يعفيها من المشاركة في التجهيز الذي سبق ذكره وبقية الخدمات المنزلية الأخرى..

أما يوم غسيل الملابس، فإن حالة من الاستنفار في البيت تعلن لرجل البيت: «اليوم عندنا غسيل، وإن شاء الله يكون غدانا عدس أبو جبة، أو تدري يا أبو أحمد مشتهين الرأس المندي من زمان ما دقناه» ويهز الرجل رأسه موافقاً.. وهات ياغسيل بالأيدي.. بعد تنقيع الملابس وتفنيدها إلى أنواع وإلى ألوان متجانسة .. الأبيض مع الأبيض، والملون مع الملون ومن السيدات من يضعن صفوة ماء الرماد الناعم لإزالة الأوساخ الزفرة.. والبعض يضع مسحوق البرسيل الذي تواجد في الأسواق بين الستينات والسبعينات الهجرية لتذويب هذه الأوساخ.. «وهات يا دعك» ـ بفتح الدال وسكون العين ـ فيما عدا ضم القطعة على بعضها البعض ثم فردها بطريقة طردية وعكسية..

وكان الصابون النابلسي من أرقى أنواع الصابون وأغلاها يستورد من الشام.. كما كان الصابون أبو عجلة يستعمل للغسيل وللأيدي أيضا بعد الطعام.. أما الصابون «الممسك» ويعنون بهذا «الصابون المعطر» فلا يستعمل إلا في الحفلات الخاصة لغلاء سعره..

ومن المعروف أيضا استعمال «النيلة» الزرقاء للملابس أثناء الغسيل ثم إضافة «النشا» مما يجعل الثوب والملابس الأخرى وكأنها رقائق متماوجة ما أحلاها.. وكذلك فإن بعض النسوة يبذلن اهتماما أكبر في تنظيف رقبة الثوب وأسفل السروال بزيادة ملحوظة في استعمال النشا حتى تظهر الملابس متماسكة .. ولا تسل عن «الكوافي» المصنوعة بخيوط عديدة بحيث تغدو «الكوفية» ذات سماكة، فكيف بها عندما يضاف. إليها النشا وتكوى بطريقة فنية يعتز بها لابسوها .. ولـ «عمامة الغباني» ووضع «المصنف» على الكتف الأيمن أو الأيسر طرق خاصة ما أبهاها وأجملها ولقد كان القوم في تلك الأيام

يستبدلون ثيابهم من الجمعة إلى الجمعة.. ولا تسل عن الـ«الجُبّة» وخاصة «القرمسود» و«الشايات» و«الصداري» التي كان يتفنن الخياطون في خياطتها، وقد كان يلبسها كثير من الرجال ويعنون بالحفاظ عليها في مشيهم وجلوسهم خاصة إذا ما علت رأسهم تلك العمامة الزاهية الألوان في مظهرها الأخاذ الجميل.. هذه وتلك كانت تعطي زخما حضاريا ومظهرا شعبيا قلّ نظيره في البلاد العربية والإسلامية، بصرف النظر عن تقاليد الأقوام وعاداتهم التي لها طرازها الخاص ومظهرها الجميل أيضا خاصة عند أدائهم لصلاة الأعياد المباركة.. أما النسوة فقد كانت «الملايا» من «الساتان» بمختلف أشكاله، وكذلك «البرقع» الذي كانت تظهر منه العيون فقط بحيث لا يظهر من جسم المرأة شيء على الإطلاق، وهنالك لباس ترتديه النسوة عبارة عن قطعتين، بيد أن انتقاء هذه الملابس بأنواعها كان الهدف منه هو الحفاظ على مظهر الحشمة والوقار.. أما النعال فكانت متفاوتة ومتنوعة، منها ما كان يصنع محليا، ومنها ما كان يستورد من مصر وغيرها.. وسوف نتحدث عنها في مكان آخر من الكتاب..

ومن النساء في تلك الأزمنة الماضية من كن يقمن بحياكة الملابس على اختلافها للرجال والنساء والأطفال ممن تيسرت لهن ماكينة الخياطة، إذ إن معظم النساء في ذلك الزمن يقمن بحياكة ملابس أزواجهن وأولادهن وبناتهن ومن يقصدهن من الجيرة والأقارب، وقد كنت وأولادي من هؤلاء... ولم يقتصر الأمر على الحياكة فقط، بل كنّ أيضا يجدن التفصيل.. وأذكر أيضا أن كثيرا من الخياطين المشهورين كانوا يستعينون بالسيدات في بيوتهن لخياطة الملابس والسراويل والقمصان والشايات والجبب والصداري.. وبعض النساء أكثر إتقانا للخياطة من الرجال.. وربما كانت شهرة بعض الخياطين مستمدة من شهرة النسوة اللاتي يعملن معهم.. وما أحلى «المنسج» الذي كانت الزوجة في بيتها تنصبه لتطرز عليه بيديها الكثير من النقوش الجميلة وبمختلف مقاسات الإبر الدقيقة الصنع والتي ضرب بها المثل «سم الخياط مع الأحباب ميدان» ومادة تلك النقوش من حرير «الكوُشَة»، وقد كنت أحد المستوردين لهذا الحرير في الستينات الهجرية.



● مجموعة من الأطفال بأيديهم الشموع فرحة بالمولود الجديد ويهتفون :
يارب يا رحمن بارك لنا في الغلام ●

لقد كانت المرأة تتسلى بهذا العمل الجميل في « العصاري » وخاصة عندما كان بعض الرجال يستعملون السراويل المطرز أسفلها.. وقد كان لإنتاج « المناسج » سوق رائجة في تلك الأزمنة وتعلمها كثير من نسوة الجاوا والهنود الذين كانوا يتخلفون لطلب العلم وحفظ القرآن لتساعدهم على مصاريف الإقامة.. ثم يعدن إلى بلادهن وقد اكتسبن خيري الدنيا والآخرة.. وعودة إلى مهام المرأة في بيتها.. لقد كانت تحمل وتلد وترضع وتطبخ وتغسل ثيابها وثياب زوجها وأطفالها، ثم تغيير ملابس أطفالها مرتين أو ثلاث في اليوم الواحد خاصة

إذا عمـل العملة إيـاهـا إذا كان في الشـهور الأولى وقد وضعت على مواطن التخلص من النفـايات تلك القطع البيضاء أو الملونة، وعليها بعض قطع من القطن إن كان الرجل موسرا، مما يسمى بـ «الحفاضة» ثم تزيل النفايات لتضع نظيفة بدلا من الأولى.. أما تلك الحفاضة المتسخة فإنها «تقرضها» وتنشرها على الشباك أو السطوح للتجفيف.. أما الآن فإن الفرجة على التلفاز تعطيك معرفة الفرق بين ما تعانيه الأم في الماضي.. والحفائض المطورة وقد احتفظت بشرف أو ترف المسمى .. وهذا يكفي .. وإن أنس لا أنس «الكوفلة» التي كانت تضم جسم المولود «اسم الله حارسه» في الثلاث شهور الأولى.. ثم تضحك في فرحة غامرة وهي تناغيه بكل الحنان، وتبتسم بكل الرضاء وهو أو هي في محاولة الفكاك من الوشـاح المحكم ـ الكوفلة ـ الذي لف به من عنقه إلى أخمص قدميه، فتجده يحرك يديه، ويرفس برجليه، وهو يضحك في نعومة وبراءة ما أحلاها.. غير أن من المناسب الإشارة إلى أن من دلع الأطفال ومكافآتهم لنا على دلعهم عندما نضعهم على جنوبنا أو على أكتافنا أو على رؤوسنا، ثم لا نشعر «إلا العملة إياها» ترش ثيابنا وهات يا تبديل الثياب مع «الترويش» ـ أي الاغتسال ـ ورغم ذلك فأنت تناغيه.. والأم في انهماك ظاهر بين تجهيز الإفطار، ثم تحضير الملابس وزنبيل المقاضي.. والتفكير في صلب الاحتياجات من ناقصنا كذا، ونحتاج إلى كذا.. ولا تنس المصاصة الله يخليك، تلهي الولد شوية.. ولا تنس اليـانسـون ومـاء غريب .. وإن كان لقيت شوية «دوت» عند القماش أوصال هنـداسة أو هنداستين للكوفلة وللحفاضة مع شوية شاش وقطن.. في الوقت الذي تكون فيه الأيدي شغالة في الكنيس وترتيب المبعثر هنا وهناك لإعادته إلى مواضعـه.. وهـات يا شغـل عند وصول زنبيل المقاضي والحاجات الأخرى، خاصة وأن «الوليّة» وحدها.. لا خدامة ولا غسالة.. ولا ثلاجة.. ولا مكوى .. ولا مكنسة بالكهرباء.. والحنابل المليئة بالأتربة إذ لم تكن الغرف في البيوت مبلطة بالرخـام ولا حتى بالأسمنت، فالخسف فوق التـراب والحنبـل الهنـدي أو المقصص فوقه.. ومع «الدعس والدخلة والخرجة» ينبعث الغبار.. وكذلك كنس الدرج وإزالة الغبار من الشبابيك الخشبية وتهوية الغرف لدخول الشمس وتغيير

الهواء، وغسل النحاس وتلميعه .. وأشياء كثيرة تقوم بها وكأنه الواجب الذي لا بد من أدائه .. وسبحان مرضي العباد..

وتبدأ مرحلة الطبيخ.. والولد هناك يصرخ شاكيا من النفايات أو الشعور بالوحدة، أو عدم المناغاة.. وإلى آخر ما يمكن أن يخطر على ذهن طفل في عمر لا يتعدى الشهور الأولى وأمه وحدها تقوم بكل أعباء وشئون المنزل كما أسلفنا..

ولا يخلو أي منزل من زيارات للجيرة والتفقد.. أو استعارة قدر أو صحن كبير .. أو استعارة للمكوى أو طشت الغسيل.. أو أخذ قليل من الفحم لأن المكاوي كانت تحمَّى بالفحم وهذه بعض شئون وشجون الدنيا في تلك الأيام.. كانت أيام حلوة وطبيعية وبسيطة كبساطة أهل زمان، صافية كصفاء نفوسهم.. ولنا أن نتصور رغم كل ذلك يمكن أن تنطلق في العام التالي «الغطرفة» لتعلن وصول مولود جديد ليزاحم من سبقه بالعناية والاهتمام.. وكذلك الخوف من الأكبر لئلا يعض أو يلطش أو يرفس القادم الجديد الذي استحوذ على الاهتمامات معظمها أو كلها بفعل الغيرة.

وتظل الأم الوحيدة في المنزل عينها على القدر أو المكوى والعين الثانية على الولد الصغير لئلا يعتدي عليه بحكم غيرة الطفولة وبراءتها .. وتظل «الأف والآه» ويا ربي ياحبيبي.. هي العبارات أو التمتمات السائدة مع ما يصاحبها من الصلاة والسلام على سيد البشر محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والتسليم.. وتستنجد المرأة بجيرتها إن «طفح بها الحال» تعالوا شوية ناغوا الولد.. أو خذوا الولد عندكم يلعب مع ولدكم حتى أخلص من «قُمْ الغسيل» ونشره في السطوح .. أو كأن تقول: رجالي عنده ضيف للغداء وما أني عارفة ياأختي أطبخ ولّا أكنس، والّا .. والّا أُفْ واستغفر الله العظيم.

وتأتي السنة الثالثة.. والوافد الجديد بنتا أو ولدا قد قدم أو لاح قدومه.. وآه يا أمي، وساعدني ياربي.. وبعد الولادة تقام الأفراح عند التسمية ويأتي الأهل والأقارب والأصهار مباركين ومهنئين ومصحوبين بالهدايا ذهبا غازية أو رشادي

أو فضة أو فستانا للعروسة الجديدة أو بدلة صغيرة للأولاد، لأنها «فَنّت» في تلك الأزمان الخوالي..

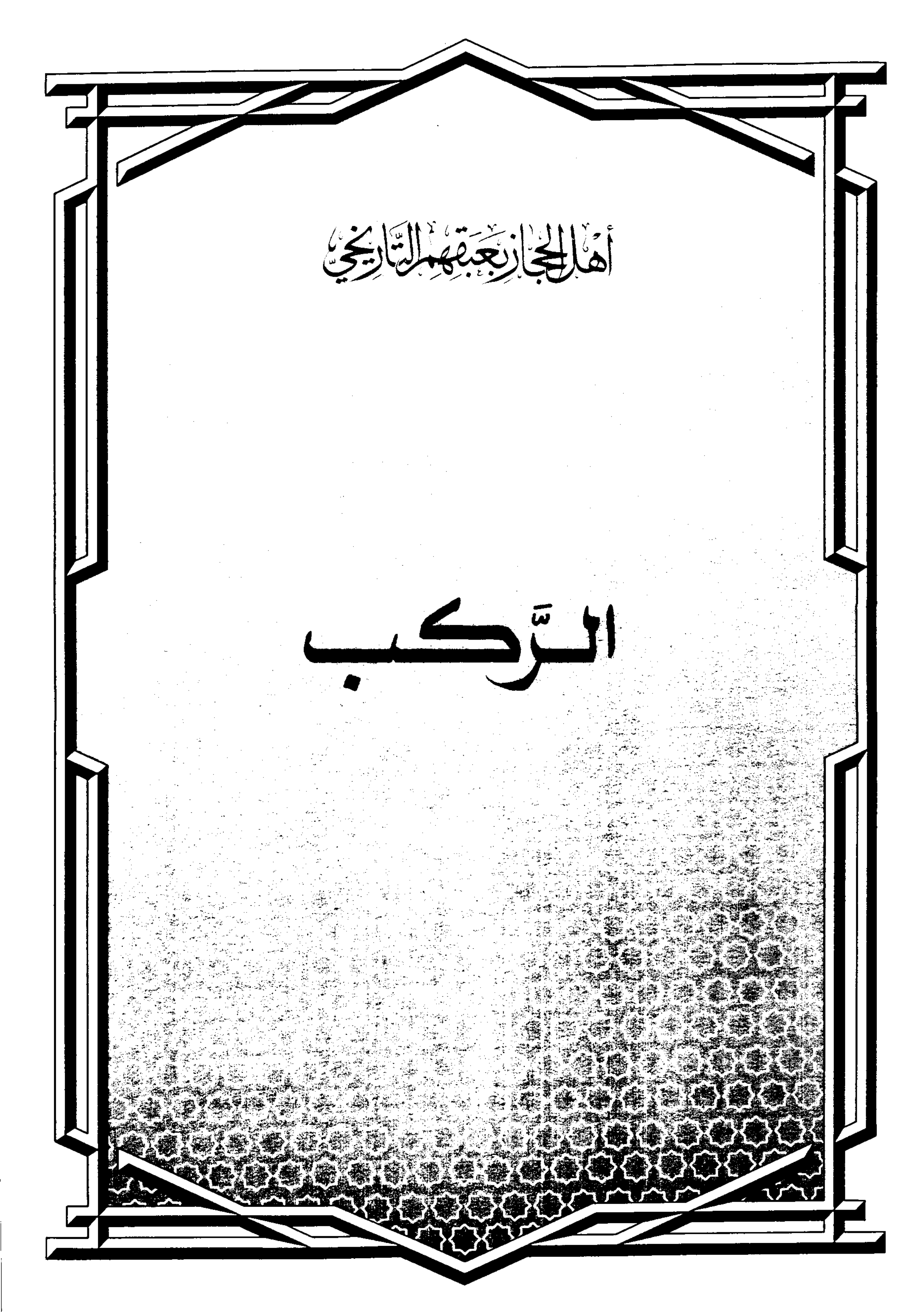
وينصرف المهنئون، وتبقى الأم مع كل الإضافات الجديدة، ثم ارتفاع رصيد الخـدمات وتعددها، ثم بداية «التسنين» ومتاعبه بما يصاحبه من حرارة في الجبين والجسم.. وهات يا «خل» لتبريد الحرارة، بحسب الوصفات التي يعرفها الجدات..

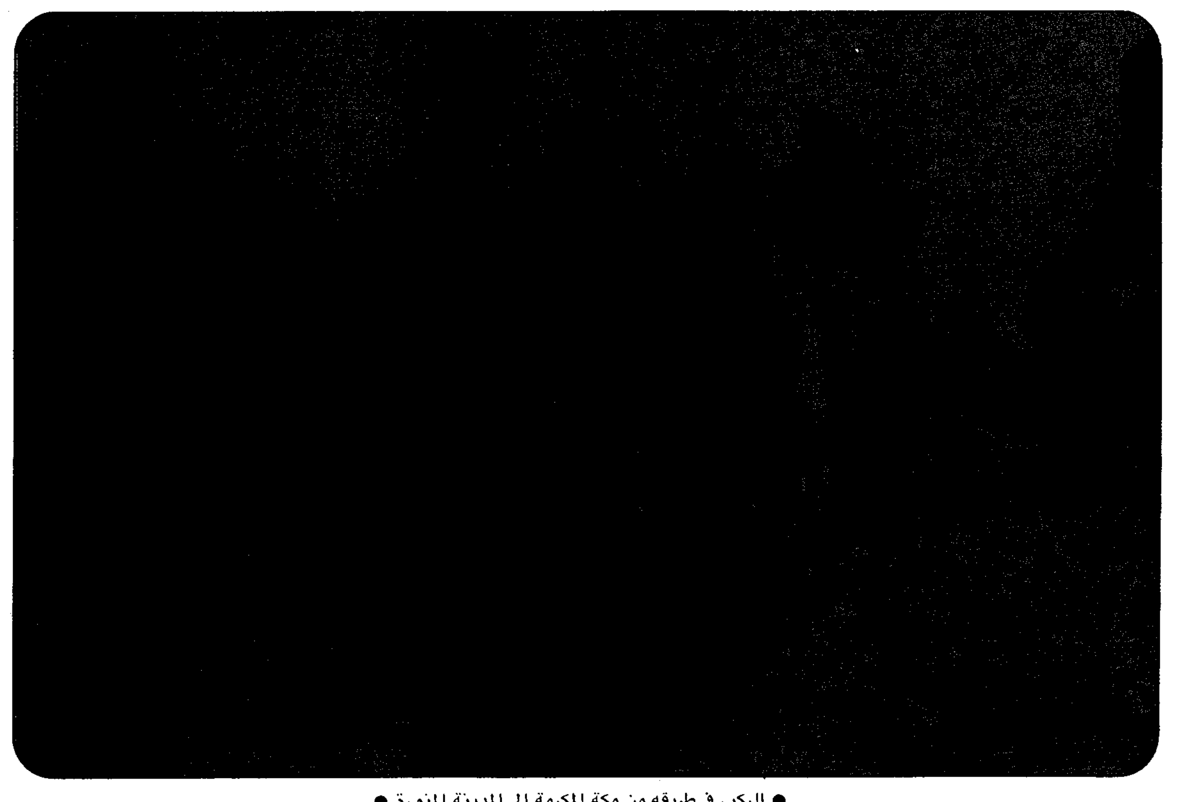
ثم تأتي أدوار العنقز والحصبة والخوف من العدوى.. وإن كان العنقز لا يشكل في قناعتهم مخاوف على الأطفال، ولهم مقولتهم الشهيرة «العنقز ٣ أيام وينقـز» .. أما «الحصبة» فيقال عنها بـ «السالم» أي لا ضرر منها.. غير أن السيدات يضعن الطفل في مكان لا يدخله الضوء المبهر، ويلبسونه ثوبا أحمر..

وهكذا تعيش المرأة بكل الحفاوة بالمسئوليات وأدائها .. والرجل يدرك كل هذا.. لكن ما باليـد حيلة.. ولسان حاله يقول: هذا حال الدنيا وربنا يستر.. ويجملها .. ويرزقنا برزقهم حتى لا نقصر عليهم.. واللهم زد وبارك.. وقد مرت الحياة بهم بسرائها وضرائها... وبما أراد الله سبحانه وتعالى، وكما قيل: أقام العباد فيما أراد... وهيا يابو محمد خذ الولد ودّيه الكتّاب وانت رايح لشغلك، ولا تنسى تجيبـو معـاك لما ترجـع في الظهر.. طيب مرحبا بس حمّى الملوخية وسبكيها لأنها كانت موزونة.. وزي ما أنتِ عارفة «المسبكة أطعم» .. وقد كان القوم في ذلك الزمان يتزودون باللحم والخضروات يوما بعد يوم والبقايا تعلق على زنابيل في السقف لئلا تتلف...

هذه نتف من الماضي يطول إيرادها بتفصيل أكثر.. لكن لعلها تعطي صورة مصغرة بلقطات متميزة لما كان عليه «القوم» في تلك الأزمان قبل نحو من ٦٠ ـ ٧٠ ـ ٨٠ ـ ٩٠ عاما من الآن امتداداً من مئات السنين المواضي.




أهل الحجاز بعبقهم التاريخي
الرّكب



● الركب في طريقه من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ●



قال الله تعالى:

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(النحل آية ٨).

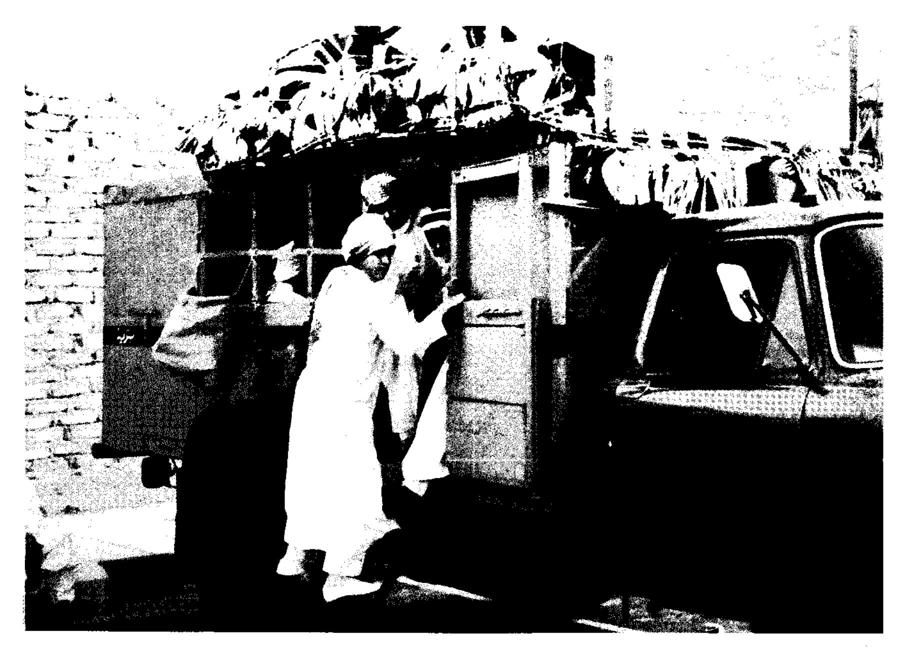
في كل تواريخ الأمم والشعوب والممالك والأمصار كانت هذه الدواب كلها أو بعضها هي وسيلة الاتصال والمواصلات بين الناس رغم بعد المسافات ومشاقها ومصاعب التنقل عليها والمعاناة منها ولها .. كما كانت وسيلة فعالة للمزارع، ولبناء الشواهق من المباني والسدود.. بل لعل أهرامات مصر خير شاهد على ما قامت به هذه الدواب من دور جبار في تحقيق أحلام البناة السابقين.. كما أسهمت تلك الدواب في صناعة المطالب الإنسانية بجهدها وعرقها وبجلودها وأوبارها إلى آخر ما استطاع السابقون الأولون استغلاله لتحقيق مطالبهم الدنيوية الأساسية والفرعية التي حققت لهم مجمل الفوائد التي وضعها الله سبحانه وتعالى في هذه الدواب على اختلافها..

والرّكب الذي نتحدث عنه هنا هو عبارة عن تقليد سنوي كانت تشهده مكة المكرمة حتى عهد قريب خلال شهر رجب، حيث يتجمع عدد كبير من أبناء مدن الحجاز ليبدأوا مسيرتهم إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام.. والسلام عليه وهم يمتطون ظهور دوابهم في مظهر جميل ومؤثر ورائع..

ويحدثنا الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي رحمه الله في مقال ممتع عن الركب، ومما جاء فيه ما يلي:

«لقد كنت وأنا صبي أسمع بالركب وأراه، والمقصود بالركب هنا هو المعنى الفصيح أي الجماعة المسافرة في رفقة واحدة.. فلقد كان من التقاليد المكية

أن يجتمع الراغبون في زيارة المدينة المنورة وخاصة في شهر رجب يتواعدون على الخروج جماعة على ظهور حميرهم أو نياقهم ليسافروا في موكب واحد، وكانوا يحتشدون لذلك كل الإحتشاد، ويتهيأون للمسيرة من جمادى الأولى أو الآخرة.. فصاحب الحمار يُعنى بحماره، يجيد علفه ويعمل على رفاهيته ويقص صوفه عند «القصّاص» ويحرص على أن يأخذه إلى أماكن الدرمغة التي يتوفر فيها رمل نظيف أي «مراغة» .. ومما أعرف من أماكنها في مكة المكرمة «حي الغزة» أمام بيوت الأشراف وحارة الباب في الطريق إلى ريع الرسام.. أما الذين يستأجرون الحمير المشهورة بقدرتها على العدو وجلدها وجمال شكلها «وللحمير جمالها» فهؤلاء يتبارون في حجز هذه الحمير.. ودفع عربون الأجرة «قبل الهنا بسنة» .. ومن تلك الحمير أعرف حمار الحتحوت وكان صاحبه شخصية مشهورة في الشبيكة بيته في زقاق عابد الصاعد إلى جبل هندي.. ومن تلك الحمير ما يحمل لقب الطيارة.. وهناك ألقاب أخرى كان يتمتع بها مشاهير الحمير لم أعد أذكرها.



● إلى جانب الرَّكب كان أهالي مكة يزورون المدينة المنورة بواسطة سيارات الأبلكاش (البريد) ●

وقـد كان الحمـار يأخذ أقصى زينة ممكنة، فهو مقصوص نظيف، صقيل الجسم من أثر الحمامات المتوالية والدلك بالفرشة وجودة العلف.. وهو مزين بالحناء، وبردعته جميلة جديدة فاخرة تتدلى منها الكتل والقلائد يغلب عليها اللون الأحمر إلى ألوان أخرى براقة جذابة.. كذلك «الكشحة» في جيد الحمار.. أعني مجموعة الشناشن الرنانة الطنانة، إلى ما شئت من جمال الهيئة .. وكذلك يقبل أهل النوق على نياقهم..

وقد أتيح لي وأنا شاب موظف في شرطة مكة المكرمة، أعمل في «الحميدية» أيام علي بك جميل مدير الأمن العام، أن أشاهد موكبا فريدا للركب العائد من المدينة المنورة.. فقد دخل الركب من طريق جرول، فحارة الباب، فالشبيكة، حتى وصل إلى السوق الصغير، وأشرف على الحميدية ليمر من الشارع الضيق بين الحميدية والحرم المكي الشريف.. كان ركبا حافلا، ازدحمت فيه النياق المزركشة والحمير الفارهة.. وكان يقود الموكب «حسن جاوا » رحمه الله.. وقد كانت غرفة «علي بك جميل» مشرفة على الشارع، وكانت الغرفة التي أعمل بها قريبة منها، وقد رأيناه يخف ليرى أسباب الجلبة المقبلة فأسرعنا معه نتبين الخبر ووقفنا على الشرفة المستطيلة الجميلة ذات السياج الحديدي.. وهناك شاهدنا الموكب مقبلا وحسن جاوا ينشد بصوت رخيم:

عسى .. عسى .. في كل عام
نوقف على باب السلام
ونشاهد البدر التمام
شفيعنا يوم الزحام

وكان بقية الركب يرددون معه مقاطع من نشيده».

* * * * *

ويحدثنا الشيخ عبدالعزيز محضر عن الركب فيقول:

«كانت بداية الذهاب لزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل عام مع بداية شهري ربيع الأول وربيع ثاني ثم في شهر رجب مما يسمى بـ «الزيـارة الرجبيـة» .. ويتكون الركب من كثير من أهالي المدن الحجازية من الطائف ومن جنـوبـه ومن مكـة المشرفة وجدة.. وقد كان أهل الطائف ومكة المـكـرمـة يتجمعـون من عدة حارات حسب التعـارف والتـآلف بين هذه المجموعات.. وهناك عند حي الزاهر يتجمع القوم لوداعهم والدعاء لهم بالقبول والعـودة سالمين.. ولا تخلو أمـاكن التجمـع هذه من بسـطات بائعي البليلة والمكسرات والخيار بالشرش «ملح أبيض يذاب في الماء» وكباب الميرو والكبدة الجملي وصانعي السوبيا والزبيب ودوارق الزمزم.. ثم يقف المنشدون في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، والناس كلهم إصغاء وترديد بالصلاة والسلام عليه لما أداه للإسلام والمسلمين من هدي وإرشاد بما أنزل إليه من القرآن الكريم وسنته صلى الله عليه وسلم.. ثم يتحرك الركب والحداة من خلفه يهزجون في فرحة غامرة وغبطة واسعة لما مَنَّ الله به عليهم إذ أتاح لهم هذه الزيارة المباركة..

وتبـدأ وجهتهم مع وادي فاطمـة فعسفـان ثم إلى القضيمة حيث يلتقون بزملائهم من أهالي جدة بخيلهم وبغالهم وحميرهم.. وعادة ما تبدأ مسيرة الركب طيلة أيـام الذهاب إلى المدينة المنورة قبل صلاة العصر، وتستمر حتى بعد العشاء حسب أبعاد المسافات وتقديرهم لها، وكذلك حسب ما اعتادوا عليه.. ثم ينيخون دوابهم للراحة والاستجمام ويأخذون في إعداد الطعام، وأحيانا يكون من بقـايـا طبيخ الضحى ومن بعض ما يتزودون به عادة كالعيش المقدد أو الشـابـورة مع زيتون وحلاوة شامي أو طحينية أو مفروكة «خليط مزدوج من الحـلاوة الطحينية والهريسة التي تصنع من اللوز الحجازي والسمن البري والدقيق ثم تحمر على النار وتقطع قوالب مثلثة وتوشى أحيانا بالإكليل الأبيض والأحمر» وبعضـهم يحملون معهم في علب محكمة الإغلاق حلاوة تركي وهي عبارة عن دقيق محمر على النار ثم يضاف عليه اللوز الحجازي وسكر ما أحلاه



● يا بليلة بلّلوكي .. سبع جواري طبخوكي ●

وألذه.. وبعضهم يحمل «فتوت» وهذا دقيق يعجن بالسمن البري في شكل رقائق تلف بطريقة يطلق عليها مسمى «فطير مطورق» ويستمر في لدونته زمنا ليس بالقصير.. غير أن هذه الأطعمة على اختلافها تتناسب مع قدرة المشاركة في الركب.. وأحيانا يشترون خرافا ليصنعوا منها ارزا بالحمص، أو أرزا بخاريا أو

زربيانا أو لحما مقلقلا ما ألذه وأشهاه، وخاصة في ذلك الجو المشرق بالمحبة والصفاء..

ولا تسل عن النكات، والمقالب التي تحاك في قصص وهمية يصدقها البعض ويخدع بها الآخرون .. وعند التحرك من محطة إلى أخرى تجد الشباب يركبون الحمير ويتسابقون، وأيهم يسبق يعطى جائزة وهي عبارة عن كلمات: «حمارك أشطر من حماره».. فلقد كان الاهتمام بالحمار كبيرا، ولذلك لا نستغرب إذا عرفنا أن إيجار غرفة إقامة الحمار في المدينة المنورة أغلى من أجرة مسكن صاحبه.

وتستمر المسيرة على حسب المسافات وأبعادها وحينما يحين الفجر يؤدون صلاته ثم ينامون ويقضون الضحى للراحة ثم إعداد طعام الغداء كما سبق وأن ذكرت، وأحيانا يكون سيرهم على مهل رحمة بالدواب التي يستعملونها ورحمة بذواتهم أيضا.. وكان بعض الزوار يصطحبون عوائلهم، تحملهم الجمال وقد توسدتها الشقادف التي تتسع لاثنين من كبار السن وفي مقدمتهم النساء.. وهؤلاء تستغرق رحلتهم تسعة أيام فقط.. وبطبيعة الحال فإن كل مجموعة تتشكل من ٦ أو ٧ أو ١٠ أشخاص يؤمرون عليهم أميرا، ومن مسئوليته الصرف على الإعاشة والسقاية بما في ذلك احتياجات الدواب .. وهذه المجموعات يطلق عليهم «العُـزب» أي أن كل ٥ أو ٦ أشخاص يكونون «عُزبة» - بضم العين وسكون الزاي وفتح الباء - ولا يتجاوز عدد أفراد المجموعة من الركب عن ٣٠ إلى ٣٥ شخصا حسب تمازجهم وتوافقهم وتآلفهم الاجتماعي.. ويتكون «كيس العزبة» من عدة ريالات يدفعها كل مشارك في هذه العزبة من ريال إلى ريالين أو أكثر.. وكلما نفدت قدم للأمير غيرها.. وفي المدينة المنورة يقيمون ١٦ يوما .. وقد لا نتصور بأن مصاريف هذه الرحلة ليست عالية فهي لا تزيد عن ١٥ ريالا بكل احتياجات هذه الزيارة من تنقل وإقامة وأطعمة طيلة أيام الرحلة .. لأن للريال وللجنيه الذهب قيمته المادية في تلك الأزمنة الخوالي..ولكي نضرب مثلا بسيطا على ذلك فإن أجرة الجمل بالشقدف للذهاب إلى المدينة المنورة والعودة منها إلى مكة المكرمة لا تزيد عن عشرين ريالا فضيا.. غير أنه ارتفع في

السبعينات والثمانينات الهجرية حتى بلغ ٣٠٠ ريال.

ويستدرك الشيخ عبدالعزيز محضر ويشير إلى أن هذه الأسعار ربما كانت قبل مائة عام حيث كان سعر الجنيه الانجليزي قبل ٧٠ـ٨٠ عاما سبعة ريالات عثمانية فضية.. ويضرب مثلا آخر للدلالة على واقع ذلك الزمان بأن بيتا مبنيا بالحجر ومسقوفا بأعواد النخيل أو أعواد الصندل مكونا من غرفتين بمنافعهما كانت قيمته لا تزيد عن ١٥ ريالا..

كما يشير المحضر إلى أن الزيارة الرجبية للمدينة المنورة عادة ما تبدأ في أول جمعة من رجب.. ثم يتحرك الركب من الاتجاه الذي اتجه منه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صاحبه سيدنا أبي بكر رضي الله عنه وقد مروا بريع سأل عنه النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له: هذا ريع هرشا، فقال عليه الصلاة والسلام: «**كأنني أرى أخي موسى وهو مقبل إلى مكة للحج**» .. ولعل قصة سيدنا موسى مع سيدنا شعيب عليهما الصلاة والسلام تلقي كثيراً من الأضواء على هذه الرؤية النبوية الشريفة..

ومن عادات أهل الركب أن يؤتى برجل يطلق عليه مسمى «المزهد» عند منزل الزائر الجديد للمدينة المنورة ويسمى بـ «السرارة» يصدح هذا المزهد بأبيات من الشعر في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم:

«صاح حادي الركب في وادي الحصون
صاح حاديها يقول:
ودعوا الأحباب والبيت الحرام
واقصدوا مسجد الرسول»

وكان الاتجاه من خط هذه البئر إلى المدينة المنورة يمر بـ «أم البرك فقهوة عليان فالحفاة، وعند الحفاة يوجد طريقان: طريق السيارات والجمال المحملة بالشقادف الذاهبة للمدينة بالحجاج ويمر على الرصيفة والوطية ثم بئر بخيت ثم بئر البلينية ثم المسيجيد ثم بئر الراحة ثم السدارة ثم بئر عار ثم الفريش ثم المفرحات تلك التي يرى منها الزائر القبة الشريفة، وبرؤيتها يبتهج القوم ويسر

خاطرهم لأنهم على مشارف مدينة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام...
فيرفع القوم أيديهم بالدعاء إلى الله العلي القدير راجين منه المغفرة والرحمة..
ثم يأخذون بالصلاة والسلام على رسوله العظيم وآله وأصحابه الكرام.. ثم
ينحدرون إلى أبيار علي .. أما الطريق الثاني الذي أشرنا إليه عند «الحفاة»
فيبدأ من الحفاة ثم ريع فهيد ثم ريع العقنقل ثم بئر ابن نامي ثم عرق الحساني
ثم عرق الحلقة ثم المخاضة ثم سطح الغائر ثم رعيفان الخطية ثم مسيال
الهندية ثم وادي ريم ثم مقعد مطير ثم وادي العقيق ثم أبيار الماشي ثم الحساء
ثم جبال الحمّري نمّري ثم أبيار علي ثم بئر عروة ثم المدينة المنورة.. وهذا هو
طريق الهجرة الذي سلكه سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام وصاحبه
سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

ولمن يريد زيارة شهداء بدر وهو في طريقه إلى المدينة المنورة يمر على
مستورة حتى يصل إلى بدر .. وعند العودة من المدينة المنورة يتخذ طريقه إلى
الفريش ثم المسيجيد ثم إلى خيف البرعي ثم خيف أم زيان ثم الحمرا ثم
الصفرا ثم الواسطة ثم الجديدة ثم البركة ثم العالية ثم الفارعة ثم إلى موقع
شهداء بدر رضي الله عنهم وأرضاهم، ثم يواصل إلى مستورة فرابغ فالطريق
المشار إليه قبل ذلك.. ومن يريد زيارة شهداء بدر للعائد من المدينة المنورة
يمسك بنفس الخط الموصل إليها كما أسلفنا الشرح عن الخط المؤدي إليها..
وإذا ما وصلوا إلى مشارف المدينة المنورة يستقبلهم القوم هناك استقبالا
حافلا ممزوجا بفرحة التلاقي.. ثم يأخذون في البحث عن مساكن تأويهم
ويكونون قد تعودوا عليها وعلى السكن فيها.. كما يبحثون عن مأوى للرواحل
التي كانوا يمتطونها فيقضون ١٥ يوما أو أكثر ثم يعودون من حيث أتوا أي من
نفس الطريق الذي يستغرق منهم من ٨ إلى ٩ أيام، وقد لا تخلو هذه الرفقة
المباركة من مجموعات متجانسة بلطفهم وأخلاقياتهم وحسن معاشرتهم، وهي
لا تخلو من الكثير من المعاني السامية وترسيخ الروابط المتينة من خلال المودة
والمحبة بين الجميع.. ذلك لأن مثل هؤلاء الرجال يشكلون قاعدة اجتماعية تنم
عن أخلاقيات هذا البلد الآمن المطمئن .. خاصة وأنهم قد عادوا من زيارة

الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم .. وعند مشارف مكة شرفها الله وأدام عزهـا يجدون أصدقاءهم ومحبيهم كما يجدون في المقدمة أباءهم وأعمامهم وأقرباءهم يستقبلونهم بالمحبة والمودة والصفاء والمباركة لهذه الزيارة الكريمة..

ونسألك اللهم أن تديم علينا هذا الحب وهذا الصفاء وهذا الوئام حتى نكون قوما متحابين متصافين في ظل العقيدة الإسلامية، والهدي النبوي الكريم.. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والأنبياء والرسل أجمعين.

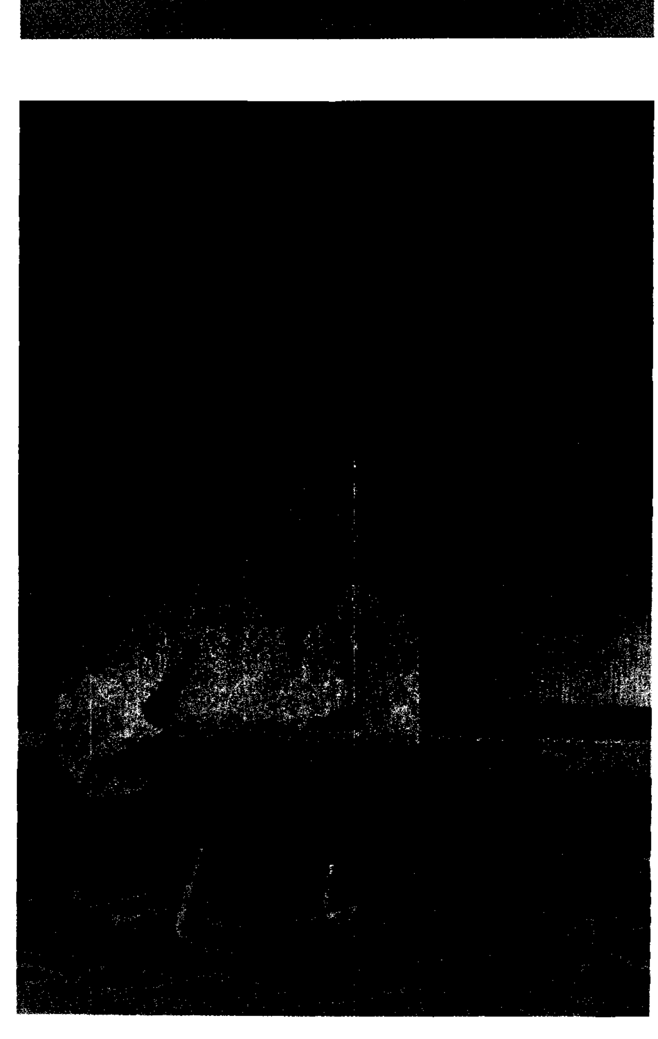




● قوافل الحجاج في منى ●



الصناعة والمهن أيام زمان



● تصنع كسوة الكعبة على أيدي حرفيين من أبناء مكة المكرمة ●

كانت الصناعة اليدوية ومما كان يساعد على إتقانها في الماضي أنها كانت مزدهرة كازدهار الصناعة الآلية منذ الاهتمام بها في الجزيرة العربية..

أمـا لمـاذا كان صانعـوهـا يحـرصـون على إتقـانهـا وإجـادة إخراجها لاستعمالاتها.. فلأن طبيعة الحياة في تلك الأيام والوسائل المستخدمة في غدو النــاس ورواحهم كانت تعتمـد على الجمال والبغال والحمير.. وما زالت هذه الدواب تلعب دوراً هاما في حياة كثير من الشعوب في العالم الثالث.. غير أن التطورات التي حدثت في هذه البلاد أثرت كثيرا في اضمحلال الازدهار التي كانت عليه الحرف اليدوية والتي سنشير إليها لاحقا لأنها فقدت الاهتمام بها وبـذكـرياتها عندما زحف التصنيع الآلي المتنوع والذي كان وسيظل موضـع اهتمام وحرص المستوردين له..

وقد أشار إليها كثير من المؤرخين منهم من كتب عنها بتفصيل، ومنهم من كتب عنها بإجمال، ومنهم من كتب عنها بشيء من الارتجال، ومنهم من كتب بتفصيل أكثر ممن سيرد ذكرهم وما كتبوه أيضا .

وقد حرصت على فكرة معرفة هذه الصناعات التي كانت قائمة ومزدهرة قبل دخول السيارات لهذه البلاد ومدى تأثيرها على اضمحلال هذه الصناعات.. وقد كان «الجمل» هو الوسيلة الوحيدة للمواصلات بين الطرق الوعرة وغيرها ـ آنذاك ـ وقد تباعدت المسافات، وادلهمت مفاوزها...

وعنـدما أقول وسيلة الاتصال الوحيدة فإنما أعني أن الجمال كانت أكثر احتمالا وقدرة واصطبارا على ارتياد مواطن المشاق على اختلافها وفي كافة أنحـاء العـالم عندما كانت هي الوسيلة الوحيدة للمواصلات على اختلافها.. نخلص من هذا إلى أن للجمل وحده صناعات عديدة وعجيبة أذكرها للتاريخ كما رواها لي أحد المعاصرين للجمل ودوره في الجزيرة العربية من خلال معايشته لها في مواسم الحج منذ نعومة أظفاره وفي مواسم الزيارة إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم، ألا وهو الشيخ عبدالعزيز محضر.. كما سأقص ما ورد في كتب أخرى ومن أبرزها كتاب الأستاذ الكبير محمد عمر رفيع «مكة في القرن الرابع عشر الهجري» وهو من إصدارات نادي مكة الثقافي في عام ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م في عهد رئيسه الأستاذ الكبير إبراهيم أمين فودة (رحمه الله).

وقد تبادر إلى ذهني وأنا أكتب مقال «الركب وطريق الهجرة» بأن لهذه الأنعام خدمات تحمل الطابع الصناعي لما ترتديه ولما يوضع على ظهورها وبما يصنع لها من أنواع عديدة لصناع عديدين، ومن مواد محلية ومستوردة..

صانع يسمى بـ «المشرط» وهو الذي يمسك بعصي من شجر «الشوحط» لصناعة قبب الشقادف لأنه قابل للألتواء... ثم تكسى هذه القباب بـ«الحنبل الهندي» أو «الحنبل المقصص» أو بغيرهما..

أما أرضية الشقدف فتحاك بـ «القُمبار» وهذا يستورد من الخارج.. وهذه الأرضية تحاك كما تحاك الحنابل وغيرها.. ثم يأتي دور النجار ليصنع القوائم والجوانب ويربطها بالقباب.. كما أن لسعف النخيل دورا كبيرا لتوثيق الأرضيات وغيرها.. بيد أن لـ «الخيش» دورا هاما تلبس فيه جوانب كل شقدف كما تربط بحبال لكلا الجانبين وتسمى بـ «القرين» أما شدة الشقدف بكامله، فبعضهم يشده بالحصير وبعضهم بالحبال المستوردة من الخارج، كما يشترك أيضا في صناعة أجزاء الشقدف «الخراط» وهو ما يسمى في هذه الأيام بصانع الديكور



● رسم للشقدف الذي كان يحمل رَجُلَيْن من الحجَاج ●

لأنــه يخرط الأخشاب بطرق تختلف مقاساتها من حيث الاستدارة بقطر عدة سنتيمترات بين طرفيها وفي وسطها ثم تلون بعدة ألوان زاهية وجميلة وبعضها أيضا يصنع بطريقة مستطيلة، ثم تشكل منها ألواح توضع في واجهة الشقدف كسترة للعوائل.. كما أن هناك أناسا يصنعون زنابيل لدوارق الزمزم أو «شراب المــاء الفــاخر».. وهذه كلها تركب على جوانب الشقدف.. أما ظهر الجمل بما يسمى بـ «الوسِكْ» فهذه يوضع عليها الأطفال.. غير أن الجاويين لصغر حجم أجســامهم يركبــون ثلاثــة أشخاص على الجمل.. كما يشد الشقدف بحبال «مرس» متينة تصنع محليا من ليف النخل في شكل مترابط مثلث.. وهذه لها صناع مخصوصون ثم يأتي دور «المخالي» التي توضع على جوانب الشقدف وعلى كل شقدف مخلاة يوضع فيها الأكل على أنواعه.. كما أن لكل جمل «عُدة» كالبردعة تشد على ظهر الجمل وهي مصنوعة من «الطِّرف» وهو نوع من أنواع النبــاتــات التي مازال استعمــالهــا قائما حتى الآن ويستعملها أهل البادية.. ويستعملها «القطانون» في صناعة المساند والتكايات وغيرها، ويلف هذا الطرف بالخيش أو بأنــواع أخــرى من الأقمشة السميكة.. وهناك نجار خاص يضم الكثير من الألواح المقطوعة من «الطلح» و «الخشب» ـ السلَم ـ كما أن هناك أحزمة تسمى «البُطنُ» وكانت تصنع على يد سيدات البادية و«المبركة» وهو نوع من أنــواع الحليــة للجمل، وما تزال تصنع حتى الآن.. كما تصنع السيدات الحبال التي تسمى «المراير» من صوف الغنم وتستعمل أيضا حلية للجمل.. وبعضهم يستخدمها لربط حاجياتهم، كما يصنعون منها «الحساكل» ومفردها «حسكل» يضعه الرجل على أحد كتفيه ليحفظ نقوده وأغراضه الأخرى.. وكأنها السمسونايت..

كذلك تدخل صناعة القرب للمياه وهي تصنع من جلود الأنعام مما سيأتي الكلام عنها في حلقة قادمة...

ولصنــاعــة «خـطام الجمل» أناس مختصون يصنعونه من صوف الأنعام ويصنعه الرجال والسيدات من البدو... ولكل جمل مقاسه الخاص يعرفه المعلم..

ثم يأتي دور «الجمّال» وهذا وظيفته تنظيف الجمل بالطرق المتبعة وتقديم وجبات الطعام والمياه له.. وشد ظهره عند تهيئته للسفر.. وكثير ممن يرأفون بالأنعام ويحرصون على سلامتها ويهتمون كثيرا بالأثقال التي توضع على هذه الأنعــام ما قد لا تتحمله يصرخ فيه قائلا «ياواد.. هذا شايل جسمك وحامل أثقالك.. فارأف به ولا تحمله أكثر من طاقته»..

وفي ختام هذه المعلومات أحب أن أشير إلى أن خُفّ الجمل يصاب بشيء من التشقق لأن الجمــل ليس كالحميــر والخيل تضرب على أخفافها الحدوة الحديدية الخاصة بالحمير.. لكن علاج هذا التشقق يتم بتسقية الخُف بالسمن البري مضافا إليه نيلة صباغ باردة حتى اليوم التالي فيعود الخف كما كان لامعا.. كما يوجد أيضا من يقوم بخدمة الجمال من بائعي الشعير والحشيش الأخضر «العُشب» والسقاة على الأبيار.. و«طراق» لفت الحشيش لهذه الأنعام .. ولعل لدى أصحاب الخبرة من إذا رأى قصورا في هذا الذي أوردته أو نقصا أو يريدون إضافة ما يرونه مناسبا فإنني أكون سعيدا للحصول عليها لإضافتها تعميما للفائدة..

ولقــد جاء في كتاب «مكة في القرن الرابع عشر الهجري» لمؤلفه الشيخ محمد عمر رفيع عن الصناعات والمهن القديمة ما يحسن اقتباسه مع إضافة ما عَنَّ لنا من إضافات مفيدة، أو إشارات لها دلالتها.

«ومن الصناعات التي كانت قائمة في مكة المكرمة صناعة السبح وخرطها وتنسيقها.. فقد كان بها ما لا يقل عن عشرين مصنعا لعمل السبح من مختلف الخامات والأخشاب، وهي صناعة لها اهتماماتها لموسم الحج، ويطلق المكيون على مصنــع السبــح وغيرها من المصانع كلمة «ورشة».. غير أن المستورد ومعظمه من مواد بلاستيكية وسواها أجبرت هذه المصانع على التواري والتوقف..

وقــد كان السبحية يصنعون السبح من مختلف الخامات والأخشاب: من خشب الصندل الذي يجلب من الهند.. ومن خشب شجر الحمر.. ومن خشب له



● محلات بيع المسابح كثيراً ما تنتشر حول الحرم المكي الشريف ●

رائحة زكية نوعا ما يسمونه «عودة خام» .. ومن العود الحقيقي.. ومن كثير من الأخشاب المحلية وحتى من نوى التمر.. وأخص ما يصنعون منه السبح «اليسر»: وهو شجر بحري يغوص على استخراجه جماعة من البدو من قبيلة زبيد من سواحل البحر الأحمر يخرجونه، وبعد تشذيبه وجعله أعوادا وحزما، ينزلون به إلى سوق جدة ويبيعونه بالمزاد..

ومن الصنائع أيضا صناعة «الفخار» فقد كان لعمل الفخار مصانع دواليب في أعلى مكة المكرمة بمحلة «الخرمانية» بالمعابدة.. وكانت دكاكين باعة الفخار تجمعها في محلة «سوق الليل» على الشارع العام..

ومن الصنائع صناعة براذع الجمال والحمير في البادية إذ لم يعد لها رواج في الحاضرة، وحل بدلها صناع لتجديد فرش السيارات، وسبحان مغير الأحوال..

ومن الصنائع التي تطورت وتبدل فيها بعض ما كانوا يعملونه صناعة «النجارة» وما يتعلق بها.. فمن كان متخصصا في صناعة «الشقادف» وتأجيرها

انتهى بانتهاء الحاجة إلى الشقادف.. ومنهم من كان يصنع الدكاك التي يطلق عليها المكيون «الكرويتات» لكن شوهد بعض الناس قد عادوا إلى اقتنائها..

ومن الصنائع التي ضعف متعاطوها صناعة «القطانة» فقد ندر من يؤثث بيته على الأوضاع القديمة.. غير أنني لاحظت أنه مازال من يستعمل منتجاتها كالطراريح واللحف ما أحلاها وأطراها لأنها مصنوعة من القطن .. وكذلك صناعة الأحذية البلدي التي كان يعتاد لبسها المكيون وهي ذات الأصبع القائم مما يلي الإبهام، والقنطرة التي تصنع لغطاء مشط القدم مزخرفة بالقصب والحرير.. ويسمونه الآن «أبو أنتن» .. غير أن بعض الشباب مازال يسأل عنها ويستعملها للتندر بها..

وصناعة «البناء» .. وقد كان البناؤون على فرق، لكل فرقة اسم:

فرقة العمال: وهم الذين يحملون مواد البناء من أحجار ومواعين الطين الممزوج بالنورة..

فرقة الفلاتي: وهو الذي يخلط الطين بالنورة وقد يكون له عمل آخر.

فرقة المروجين: وهم الذين يهيئون الأحجار الصغيرة والخفيفة التي يسند



● النوّار يرخم الجدران بالرخام الأبيض والنيله ●

بها الحجر الكبير أثناء وضعه في البنية.. ويسمونها «نقلة»..

فرقة القرارية: وهم الذين يهيئون الحجر ويهذبونه للمعلم الواقف على البنية لرصه..

فرقة المعلمين: الذين يقفون على البنية ويرصون الحجارة بإحكام..

ومن الصنائع التي كانت تتبع البناء بالحجر.. صناعة «الحجّارين» الذين يضربون الألغام في الجبال ويفتتون الصخور إلى قطع.. كما أشرنا إليها سابقا.. وصناعة حرق النورة البلدية واستخراجها من مناجمها بـ «النوارية» على مقربة من قبر السيدة «ميمونة» بوادي سرف خارج مكة المكرمة في الطريق إلى المدينة المنورة وعلى مسافة ستة أميال من «وادي فاطمة»...

وقد أعيد بناء سور المقبرة على نحو حديث ممتاز فجزى الله من بناه خير الجزاء.. وقد كان للنوارة عدة محارق في «جرول» و«حارة الباب» فلما ازدحمت المحلتان بالسكان والعمران، دفع بالمحارق إلى «الرصيفة» مع دواليب الفخار ومحارقه، والآن غدت مصانع الأسمنت تصنعها أيضا.

وكذلك صناعة «الأجّر» وأهل مكة يقولون «الآجور» وقد كانت له محارق ومعامل في آخر محلة «المسفلة» عند «مشروع دبل أمير يا خوري» التي تتسرب منها المياه أثناء السيول والأمطار وبعض مجاري البيوت القائمة على مجراه وكان بجوارها بستان ينسب لآل كوشك.. وهذه الأخرى تصنعها مصانع الطوب الآلية المقامة حاليا.

ومن الصنائع أيضا صناعة «الحدادة» فقد كان الحدادون يصنعون الكواشين للطبخ، والمجارف، وبعض آلات الزراعة اليدوية.. وكان الحداد يستخدم «إلأنة الحديد» بالأكيار ومنافخ الجلد اليدوية..

كما توجد عدة صنائع أخرى مما يحتاجه كل مجتمع عمراني.. كالصباغة.. وصناعة الذهب والفضة.. وهذه الحرفة لازالت على عهدها.. وقد تطورت تطورا واسعا، بحيث تصنع بالماس والزّمرّد والمرجان والعقيق.. ومن الصنائع التي



● (مهنة النحّاس) من المهن القديمة في مكة المكرمة ●

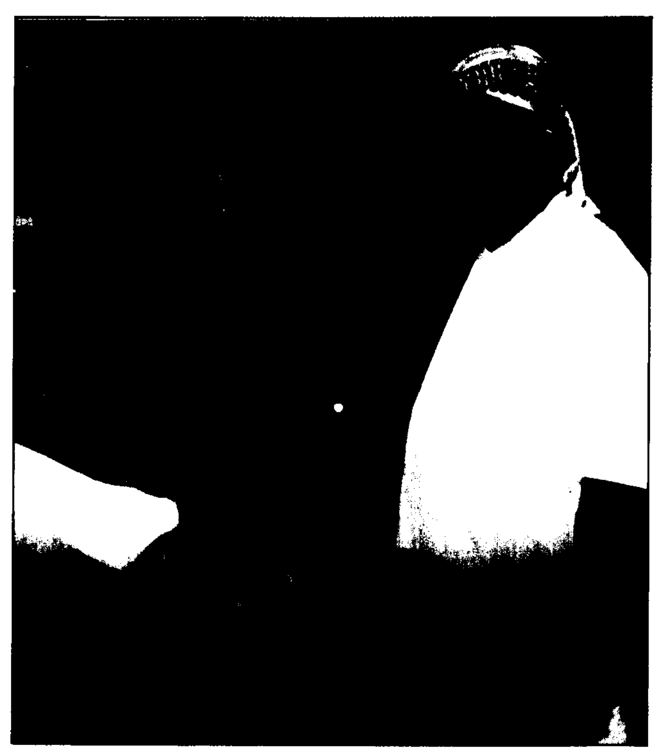
لازالت قائمة صناعة «الخياطة» وقد كان من الخياطين من له شهرة بإتقان خياطة «الجُبب» ـ جمع جُبة ـ والشايات، والمياتين جمع «ميتان» ـ، والصديريات، وقد كان إلى أواسط القرن الرابع عشر وأوائله تحلى الصديري والمياتين بأنواع القياطين المصنوعة من الحرير، حول الجيوب وعلى طول الصدر المفتوح، وكان لهذا العمل صناع متخصصون.. وكان لباعة الصديري وعمل تحليته خان مخصوص يعرف بـ «خان الصداري» في طرف المسعى مما يلي المروة، ينفذ إلى شارع المدعى.. ولازال بعضهم يستعمل هذا «الصديري» حتى الآن ما أحلاه وأجمله..

ومن المهن الملحقة بالحرف.. الجماعات المتخصصة في ممارسة بيع المأكولات والأطعمة، وما يتعلق بهم كالجزارة، والخضرية، والفرانة، والفكهانية، وباعة الحبوب، والسمانة.. فإن لكل جماعة من هؤلاء رئيسا معينا من قبل الإمارة، ويطلقون عليه «شيخ»: فللفرانة شيخ، وللجزارة شيخ وهكذا...

أما أرباب المطاعم والشوائين.. ويقول عنهم المكيون «الكبابجية»

و«الحلوانية» وكل من يوقد في عمل نار فإنهم يتبعون شيخ الطهاة «الطباخين» في اصطلاح المكيين، وقد يطنز عليه بعضهم فيقول: «شيخ أهل النار».

كما أن لسقاة الماء وإيصاله إلى البيوت شيخ، بل لكل «موردة ماء» قيم، فقد تتعدد الموارد في الحارة الواحدة، فيختار رؤساء الموارد شيخا عليهم يلجأون إليه في الخلافات المهمة، ولهم أعراف وقوانين يسيرون عليها، ومن طريف ما يصادف المار، أحيانا، في مروره على بعض الموارد، جلسة المحاكمة، ويسمونها «بداية» فإذا تعدى سقاء على زميله قال عبارة تقليدية بينهم «أول تاني طريقة شوية تبقى عندك» ـ هكذا هو «النص» ـ .. ثم يعرض شكواه على رئيس الموردة، فيبادر هذا بربط الدلو الذي يستخرجون به الماء من الصهريج إعلانا بتوقف السقي والعمل، ثم يجتمع السقاة حلقة، ثم يبدي المتظلم شكواه، ويدافع المعتدي عن نفسه، وبعد سماع أقوال كل منهما، يتداول المجتمعون



● أبو نار.. والحلاوة الطحينية ●



● (مهنة النجار) مهنة قديمة كان رائدها الأول (نوح عليه السلام) ●

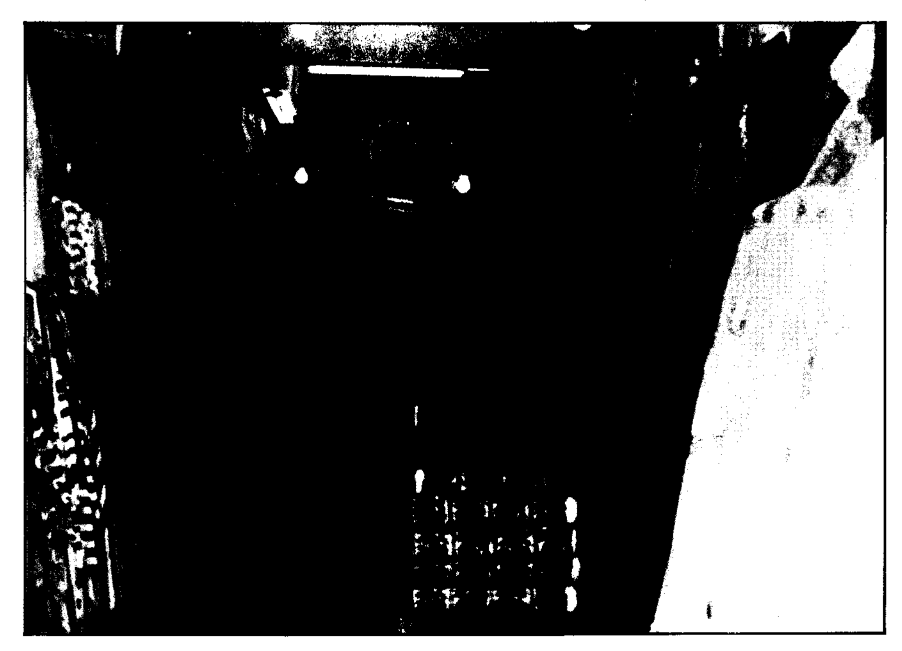
الرأي، وبحسب الأكثرية يتقرر الجزاء، وغالبا ما يكون بالضرب على الإلية عددا مقررا، فتفرش فروة من الجلد مما يستعملونه لحماية الظهر والثوب من البلل أثناء حمل القربة في وسط الحلقة، وينبطح المعتدي عليها، إذا أذعن لما تقرر عليه، ويسمون وسط الحلقة «الرقعة» ويقوم النقيب بتنفيذ الضرب، فيضع يده اليسرى تحت إبطه الأيمن الماسك به العصا، ويبدأ في الضرب وتكون الضربات خفيفة لا مبرحة، وغالبا لا تتعدى العشر ضربات، فإذا انتهوا عادوا للسقي، أما إذا تمرد فيمنع المتعدي من السقي وترفع القضية إلى الشيخ الأعلى، ويظل ممنوعا من السقي إلى أن ينتهي الموضوع، ويتقرر في شأنه ما يتقرر.. ومن المهن المعروفة ولها شيخ مهنة «الصيرفة» أو «الصيارفة» فإن توارد مختلف العملات وتنوعها مع الحجاج اقتضى وجود هذه المهنة، والطائفة لممارسة إبدال العملة الأجنبية بالعملة المحلية أو بتجزئتها... ويعين لكل حرفة شيخ يختاره أمير مكة المكرمة.. فإذا أسند الأمير المشيخة إلى شخص ما، خرج من دار الإمارة، ويكون معه لفيف من أرباب المهن وأخصائه، وقد أعدوا لذلك، إذ كان الشيخ مجملا باللباس الذي يعتاده، ويخرجون به جميعا، مارين

بالشوارع العامة، وكلما مضت برهة صاح من التف حوله قائلين: «دائما يحيى دائما» ثم يكون أخصاؤه وأصدقاؤه قد أعدوا من الجبب والأحاريم والمشالح فيلقونها عليه أثناء السير فلا يصل إلى بيته إلا وهو محمل مثقل بمختلف الأنواع والألوان من الملابس، بعضها تكون هبة، وبعضها تكون للمجاملة، يستردها ملقيها..

وكان الفرانة على ثلاثة أنواع أو فئات: فئة متخصصة في عمل الكعك والشابورة والشريك وما أشبه ذلك، وفئة متخصصة في خبز وصنع ما تتجهز به الأسواق.. وفئة ثالثة متخصصة في خبز عيش البيوت.. فقد كان جمهرة الأهالي يهيئون خبزهم في البيت ويرسلونه إلى الفرن لخبزه، لأنهم كانوا يستنكفون أكل خبز السوق، وكانت هذه الفئة لا تصنع خبزا للبيع، لكن بعضهم قد يضطر إلى ذلك، ولأنه يصنع خبزا يعرضه في مساء اليوم، فقد كان من المتعارف أن يقبل مقابل خبزه لأقراص العيش قطعة من العجين يسمونها «جعلة» فهو لذلك يضطر أن يصنع مما تجمع لديه من الجعل خبزا يبيعه في المساء.



● فرن خبز العيش الحب في الطابونة ●



● دكاكين بيع القماش كانت تنتشر بسوق سويقة القديمة ●

ومن الصنائع التي تتصل بالفرانة والخبز، صناعة «الطحن» ـ طحن الحبوب ـ فقد كان بمكة المكرمة عدة طواحين تعمل بالحيوانات، يشارك هذه الطواحين بعض أفـراد من قبائل «السراة» فقد كان جمهرة منهم خصوصا إذا صادف حصول موسم الحج في الشتاء يقدم إليها للتكسب والعمل بعائلاتهم، ويسكنون دهاليز البيوت الصالحة لذلك، ويجلبون معهم رحاهم، وتقوم النسوة بطحن ما يقدم لهن من حبوب..

وكـانت الحبوب المتداول استعمالها من المكيين أربعة أصناف: الحنطة السندية ـ وهذه أكثر أصناف الحنطة إقبالا ـ .. والحنطة المصرية، ثم الحنطة العراقية ويقولون «حنطة بصراوي» لأن طريق جلبها من ثغر البصرة.. والحنطة الهميس، وهذه من إنتاج جبال «السراة» و«الطائف» والقرى التي حولها، لكنها قليلة التـواجـد والاستعمال، وتفضل في عجينة «المعصوب» كدقيق الدخن، والمكيون يخصصون كلمة «حب» على الحنطة فقط.. كما أنهم يعبرون عن كيس

الدقيق «فتيلة».. فيقول اليوم اشتريت فتيلة دقيق ـ ولا يقول: كيسا ـ .. وأحيانا يطلقون عليها مسمى «عدلة دقيق»..

ومن المهن أيضا مهنة «السمانة» ـ صناعة السمن ـ فقد كان السمن الطبيعي كثير الورود إلى مكة، وهو نوعان: نوع يقال عنه «سمن بقري» ـ أي مستخرج من لبن البقر ـ ومورده من القسم الجنوبي لمكة من «الليث» .. ونوع يقولون عنه «سمن غنمي» ـ أي مستخرج من ألبان الأغنام ـ ومورده الجهات الشرقية.. غير أنه في الثلاثينات للخلاف الذي وقع بين الشريف الحسين بن علي أمير مكة المكرمة ـ إذ ذاك ـ وآل سعود على تبعية بعض قبائل عتيبة وغيرهم.. أخذ ورود السمن الشرقي يتضاءل وأخيرا لم يعد يرد وكثر توارد «السمن البحري» من الصومال والسودان.. وقد كان يتخصص في بيع السمن بضعة أشخاص في السوق الصغير، وفي شارع المسعى في حلل من النحاس على «بنكية» فهذه حلة البقري، وهذه حلة الغنمي، وهذه حلة البحري.

ومن المهن التي لازالت على حالها مهنة «الجزارة» كانت اللحوم التي يعتادها المكيون لحوم الضأن، وكان المفضل عندهم الضأن الذي يرعى في الحرار، ويليه ما يرد من نجد..

وكذلك من المهن التي لازالت على حالها «الخضرية» و «الفكهانية» فلم تكن تعرف مكة من الخضر والفواكه إلا ما يزرع في الوديان القريبة منها، أو ما يجلب إليها من الطائف، فالخضر لم تزد أصنافها عما كان معروفاً، اللهم إلا «الحرشوف»، ووارده قليل.. إلا إنه من المناسب أن نشير هنا إلى أن المزارع قد اتسعت، فتعددت الموارد منها محليا... فالخضروات المتداولة قديما وحديثا هي: البامية، الملوخية، الفاصوليا، الكوسة، الدباء، السلك «السلق»، اللفت، الأسبانخ وأهل مكة يقولون عنها «زبانخ»، البذنجان الأسود والأبيض، القوطة ويسميها المكيون «بذنجان أحمر»، والكرنب، والرجلة، والبطاطس، الجزر الأصفر والأسود ويقولون عنه «جزر تمري»..



● الجزار

ومن الحبوب : حب الفاصوليا، اللوبيا، الفول، الفجل، الكراث.. ومما يتواجد في أسواق مكة المكرمة من الفواكه، ولم يكن يعرف المكيون منها إلا ما تنتجه بساتين الطائف، وما حول مكة من أودية ومزارع.. فيردها من الطائف: العنب، الرمان، الخوخ، السفرجل، المشمش، البرشومي، البرقوق، «البخارة»، التفاح الصغيـر الحجم المعـروف بالسكـري، ورحم الله من كان يهتم بهـا ويعتني بزراعتها ورعايتها..

من الوديـان القـريبـة من مكة المكرمة: الموز، الليمون الحلو، والبنزهير، الرطب، الحبحب، الخربز..

ولا يفوتني أن أذكر مما يزرع في «جبال السراة»: «الحجاز»: اللوز، ويجلب منه إلى مكة المكرمة، وعرف بـ «البجلي»، كما يجلب من «السراة» الزبيب.. غير أن كثيرا من هذه المزارع في هذه المناطق وخاصة في الطائف زحفت عليها الإغراءات لشراء أراضي المزارع والبناء عليها..

ومن المهن التي كان لها رواج أكثر في زمن الحج مهنة «العطرجية» فإنهم فئة مستقلة لبيع العطور والأطياب على أنواعها.. كعطر الورد، والعود، والياسمين وأنواع أخرى، وخشب العود.. ولهذه الفئة شيخ مخصوص..

ومن المهن أيضا بيع المجوهرات، الآحجار الكريمة: كالماس والزبرجد، والياقوت، واللؤلؤ، وما شابه ذلك.. ولهم شيخ.. وكان بضع نفر يتخصصون في بيع اللبان اللامي، والشحري، والمساويك من عود الأراك، والحناء المطحونة، وجوز الطيب، ونوع من «الحب هان»، والليف مجدولا حبائل.. وكان باعة هذه الأصنــاف يخالطونه في دكاكينهم بـ «سويقة».. غير أنهم في الوقت الحالي منتشرون في كل مكان.

ومن المهن: مهنــة بيع العقاقير النباتية، والبهارات .. وللقائمين بها شيخ كبقية المهن.. وكان جمهرتهم في قسم من شارع «المدّعى» وكان لقسم منهم أيضا دكاكين بمحلة «الشامية».. وفي جدة بسوق العلوي ومشهور ببيعها آل شلبي.. وأهل مكة يطلقون على باعة هذه العقاقير «العطارين».. أما باعة العطر



● العطّار ●

فيقولون عنهم «العطرجية»، ومفردها عطرجي.

ومن المهن التي يتعاطاها المكيون مهنة بيع الكتب.. ويقولون عنهم «الكتبية» وقد كان مقرهم ما بين «باب السلام» الموالى للمسجد، والباب الموالي لشارع المسعى.. فقد كانت بينهما ردهة مستطيلة واسعة تقوم على حفافيها بعض الدور والدكاكين التي يشغلها الكتبة: كما أن جمهرة «الحلاقين» كانوا يشغلون دكاكين على مقربة من «المروة» وللحلاقين شيخ أيضا .. فقد كان وجودهم هناك يسهل على الحاج عملية فك الإحرام..

وهذه المهن مازالت قائمة ومستمرة ومنتشرة

ومن الطريف أن نشير هنا إلى أن الحلاقين في الماضي كانوا يتقاضون أجورهم في شكل قطع من الخبز أو أنواع أخرى مقبولة لديهم.. كما كانوا يقومون بدور «الحجامة» إن كانوا من ذوي الاختصاص.. ويد الحلاق «مبلولة» كما أطلقها عليهم الشريف «الحسين بن علي» أيام كان أميرا لمكة المكرمة.. إذ عندما حلت بالبلاد أزمة اقتصادية ورؤي توزيع صدقات على المستحقين ومن ضمنهم رجال المهن الحرة قال الشريف الحسين «الحلاقون أيديهم مبلولة» فلا تعطوهم من الصدقات وكان يعني بذلك أن رؤوس الناس في حاجة دائمة ومستمرة إلى حلقها خاصة أولئك الذين يحلقون بـ «الموسي» حتى تغدو فروة الرأس ناعمة وملساء... وعندما يشاهد المحلوق رأسه يقال له: نعيما.. فيرد: أنعم الله عليك.. وإذا كان المحلوق رأسه يافعا يضربه أصدقاؤه على رأسه قائلين: كف الحلاقة..

لكن عندما «فنّت الغرَّة» ظهر لها فنانون لقصها وتشذيبها .. لكن مازال القدامى من القوم يحلقون بالموسي حتى تاريخه .. وبعضهم بالمكائن نمرة واحد أو نمرة اثنين أو نمرة ثلاثة... ولعلي واحد من هؤلاء أتمنى أن نوفق في اختيار بعض تلك الصناعات خاصة تلك التي تعتمد في مواردها الخام على أرضنا وبحارنا.



(١) زمبيل.

(٢) مكنسة من سعف النخيل.

(٣) غطاء لأطباق الأكل لحماية الطعام (مكبّة).

(٤) القفّة.

(٥) مروحة من سعف النخيل (مع تفصيل لها).

(٦) قبقاب حريمي مزركش.

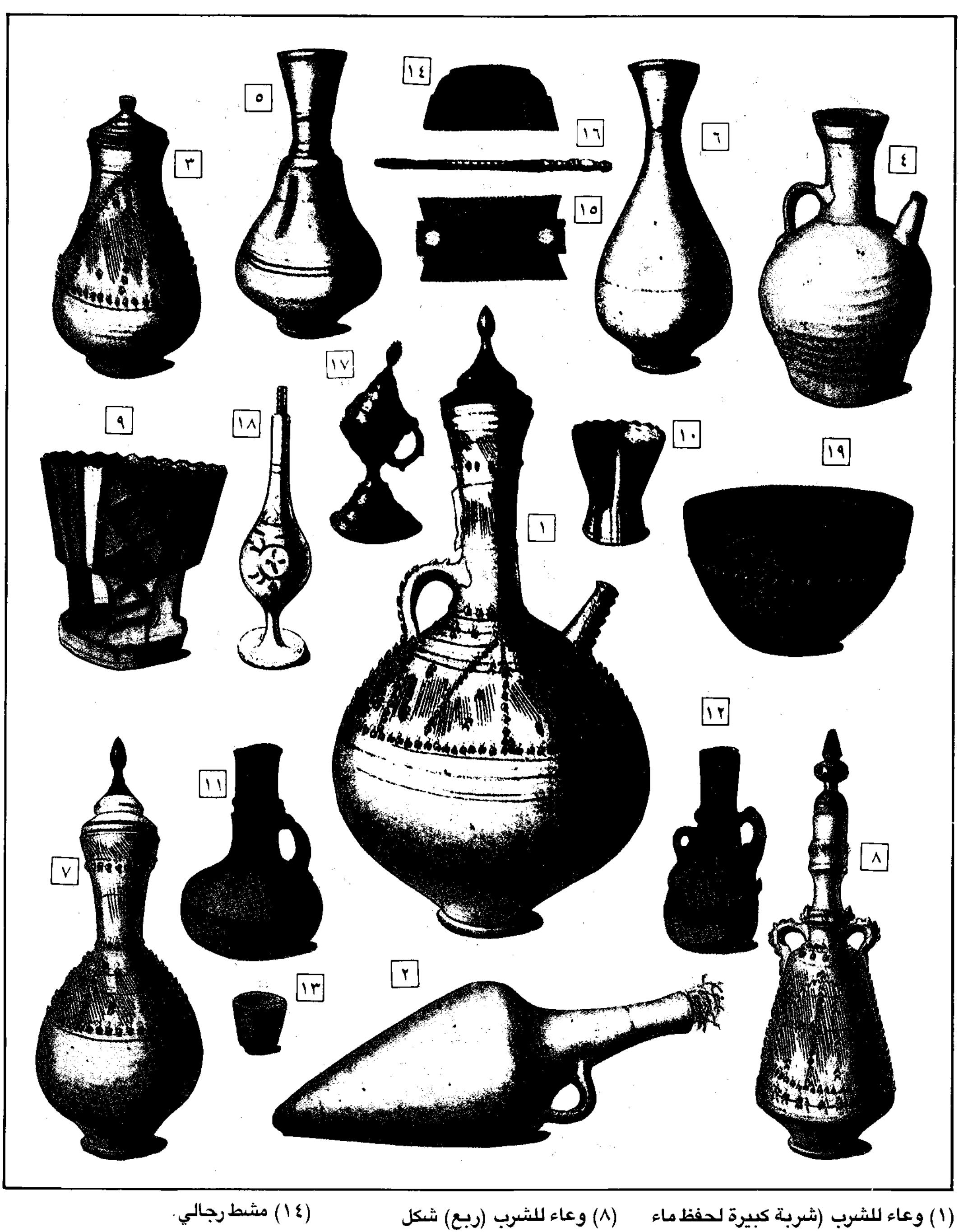
(٧) مَدَاس مكَّاوي.

(٨) مداس مدني.

(٩)، (١٠) طاولات ملككة أي ملوّنة.

(١١)، (١٢) حامل خشبي (الرجل) وأكبرهما مصنوع من جريد النخيل، ويستخدمان أساساً لقراءة القرآن الكريم.

(١٣) خُرْج البائع الذي يضع فيه الأشياء الصغيرة إلتي يبيعها.



(١) وعاء للشرب (شربة كبيرة لحفظ ماء الشرب مصنوعة من الفخار).

(٢) الدورق.

(٣)، (٥)، (٦) الشربة.

(٤) الأبريق.

(٧) القُلَّة.

(٨) وعاء للشرب (ربع) شكل

(٩) موقد متنقل للفحم (كانون).

(١٠) منجرة.

(١١)، (١٢) وعاءان بدويان للقهوة.

(١٣) كأس بدوية للقهوة (فنجان).

(١٤) مشط رجالي.

(١٥) مشط نسائي.

(١٦) عصا خشبية لادخال الحزام في السروال (مدك). (١٧) مبخرة.

(١٨) وعاء لرش ماء الورد (مرشَّة).

(١٩) وعاء خشبي للشّرْب (قَدح).

المطوفون

«ليس للحاج مثل المطوف»

الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود

مهنة الطوافة هي واحدة من أبرز المهن في المجتمع المكي، عمل بها الكثيرون من أبناء مكة المكرمة واشتهر بها الكثير من عائلاتها.

وتهدف هذه المهنة إلى تقديم الخدمات لضيوف الرحمن الذين يفدون كل عام لأداء فريضة الحج.. وهي في جذورها الأولى نوع من الضيافة يقدمها أبناء مكة المكرمة للوافدين إليها من الحجاج .. . ولم تكن لها رسوم ثابتة وإنما كانت تترك لظروف الحاج وتقديره.. لكن هذا العمل شهد قدرا من التنظيم بعد ذلك وارتبط ببعض الأسر والأفراد الذين أبدوا استعدادا طيبا في هذا المجال..

وقد برزت الطوافة كمهنة في عصور لاحقة، وكثر عدد العاملين بها من أبناء مكة المكرمة خلال العهد العثماني.. لكنها شهدت الكثير من التنظيمات في عهد المغفور له الملك عبدالعزيز وأبنائه من بعده..

ومنذ عدة سنوات والكلام والتقارير والأفكار والمحاولات والمجادلات، هذه جميعها أخذت تستهدف المطوف ومهنته.. وقد كان المطوف وحده هو المسؤول عن الحاج وخدمته دون الآخرين..

إن خدمات المطوف بجزئياتها وتفاصيلها وعمومياتها هي الأصل في استقرار الحاج ابتداء من وصوله إلى مكة المكرمة ثم إلى منى وعرفات وعودته منها، وإلى حين سفره..

أما باقي الخدمات فهي خدمات ذات زمن قصير محدود المدى.. ابتداء من



● عرفات يوم الحج الأكبر ●

الوكيل ووسائل الانتقال والخدمات الأخرى..

إن المطوف يستقبل، ويسجل الوثائق، ثم يؤوي الحاج في سكن ملائم ويقدم له المطالب المعيشية،يقوم بتطويفه، وتوجيهه التوجيه السليم لأداء فريضة الحج والشعائر كلها .. وقد هيأ المأوى في عرفات ومنى وفيما بينهما .. وتأمين وسائل النقل بالطرق التي نظمتها الدولة، وسيرت اتجاهاتها .. وهو المسؤول عن سلامته، وعن علاجه عند مرضه، والبحث عنه عندما يضل سُبله .. حتى عندما يلقى ربه يعتبر مسئولا عن واجبات غسله ودفنه والحفاظ على متروكاته..

ولهذا كان دور المطوف بالغ الأهمية نظرا للأعباء التي يقوم بها وينفذها، وليس في هذا مراء..

وإن كان هناك تقاعس من بعضهم فإن هذا لا ينبغي أن ينصب على الغالبية ممن يؤدون خدماتهم على الوجه المطلوب بذلا وأداء..

إن مسئولية المطوف مسئولية مباشرة تجاه الدولة منذ مئات السنين.. صحيح أن من المطوفين من هو في حاجة إلى ثقافة دينية أوسع وأكبر.. لكن

بالإمكان التوسع في أعداد المطوفين من أبناء الطائفة تزيد من رصيد الخبرة والتجربة التي يعيشون فيها.. ومن غيرهم ممن تتوفر فيهم المرونة الكافية..

ثم لا بأس من إعطاء فرص أوسع لأبناء مطوف واحد قد مارسوا مع والدهم الخدمة لعدة سنوات فكانت لهم من التجارب والخبرة ما يفرز لنا طاقات نشطة لخدمة الحجاج.. فهؤلاء مع من سبقهم يحسن أن يقوموا بدورات دراسية بالانتساب إلى كلية الشريعة بمكة المكرمة لتقوية مداركهم الدينية التي يستلزمها وضعهم كمطوفين مسئولين عن توجيه الحاج لأداء مناسكه على وجه أفضل، وأكثر شمولا.

ثم لابد من إعادة النظر في قصة «التخصيص العددي» للمطوفين، والذي سمى بـ «المتوسطات» تلك التي حددت بوسائل وتصرفات يرجى إعادة النظر فيها لأنها لم تكن سليمة، وغير أمينة.. فكيف يعطى لمطوف مصلحة ٣٠٠٠ - ٥٠٠٠حاج وغيره يأخذ مصلحة ١٠٠ حاج.. ثم التحقق عن الطرق التي حصل عليها هؤلاء.. وكذلك مناقشة ومساءلة خدماتهم الفعلية ومشاركاتهم العملية أثناء موسم الحج..

الذي أعنيه هو العودة إلى ما كان عليه ارتباط الحاج بمطوفه.. كأن يعطى العدد المقرر من الهنود مثلا إلى من يجيد التخاطب باللغة نفسها.. وينسحب هذا على بقية الأجناس، لأن التجارب التي مرت على مدى السنوات الماضية أثبتت عجز الطرفين: المطوف والحاج عن التفاهم فيما بينهما.. وهو الأمر الذي ألجأ بعض الحجاج إلى الهرب من المطوف الذي اختير له من هيئة الوكلاء بجدة.. مما سبب صداعا شديدا لكافة المعنيين بل لعله كان مصدرا من مصادر اتهام بعض المختصين الآن بالتقصير والتقاعس في أداء خدمات الحاج في حين أن فاقد الشيء لا يعطيه.. لا من حيث لغة التخاطب، ولا من حيث معرفة التقاليد والعادات لأجناس الحجاج بحكم الممارسة الطويلة المدى...

ورحم الله الملك عبدالعزيز الأريب الحصيف فقد كان يقول دائما:

«ليس للحاج مثل المطوف»

الأدلاء

وكمــا هو حال المطوفين في مكة المكرمة شهدت المدينة المنورة خدمات مماثلة لفئة أخرى هم «الأدلاء» وكانوا يقومون بتقديم الخدمات للزائرين لمسجد رســول الله صلى الله عليه وسلم من الحجاج وغيرهم.. وهي الآن تخضع لما خضعت له مهنة الطوافة من التنظيمات التي حولتها من نطاق العمل الفردي إلى الجماعي.

الوكلاء

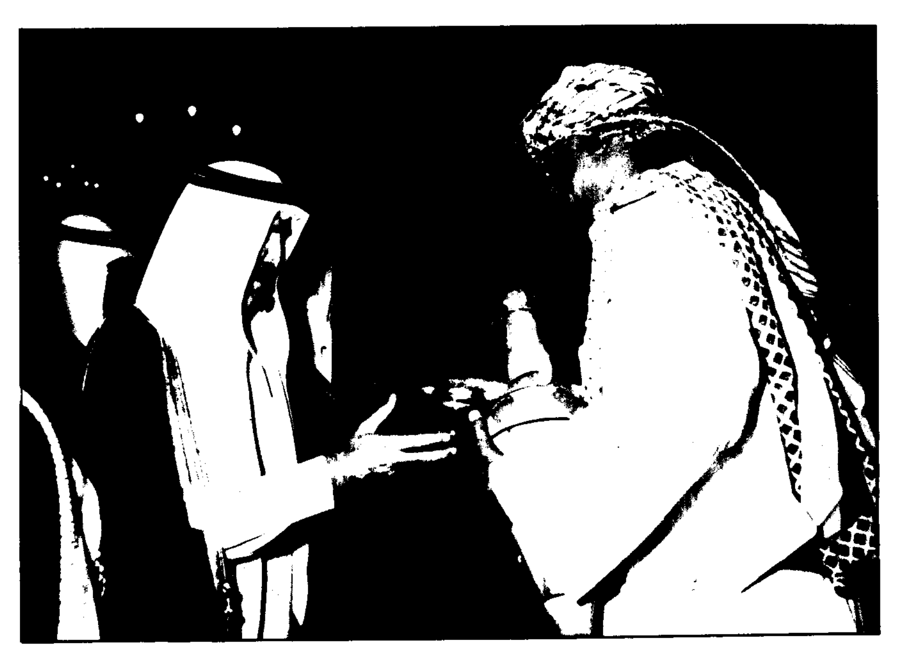
وهــذه هي الفئة الثالثة التي ارتبطت خدماتها بالحجاج وتسهيل إجراءات استقبــالهم ووداعهم في جدة، وهي تشهــد الآن ما شهــدته مهنتا المطوفين والأدلاء من تنظيمات.



● انتظار ضيوف الرحمن في الساحة المخصصة لهم ●



الزمازمة



● صاحب السمو الملكي أمير منطقة مكة المكرمة يشرب ماء زمزم من (زمزمي) ●

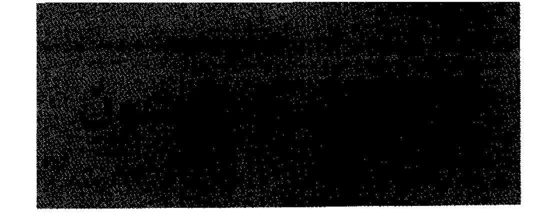
ومن المهن القديمة والمعروفة في مكة المكرمة مهنة الزمازمة وهم الذين يقومون بمهام السقيا في الحرم المكي الشريف والذين كانوا يستعملون الجرار الفخارية لتبريد ماء زمزم، وقد كانت جرارهم على نوعين الكبير منها يسمى «الزير» والصغير هو «الدورق» والدورق عادة أكثر تبريدا للماء من الزير وهو الذي كان أكثر استعمالا من قبل الزمازمة، يحملونه على أكتافهم ويطوفون به في أرجاء المسجد، يسقون منه الراغبين في كأس من النحاس تسمى «الطاسة».. وكان الزمازمة يحصلون على دخلهم مما تجود به نفس الشارب أو من أولئك الذين يطلبون منهم أن يوزعوا محتوى جرارهم على المحتاجين صدقة يتولون دفع تكلفتها للزمازمة.. واليوم يشهد الحرم المكي الكثير من البرادات الحديثة التي انتشرت في كل أرجائه وحلت مكان الدورق الذي له ولحامله في نفوس الناس الكثير من الذكريات الجميلة.



● الحجاج ينتقلون بين المشاعر المقدسة لأداء مناسك الحج بواسطة سفينة الصحراء ●

أهل الحجاز بعبقهم التاريخي

الألعاب والفنون



لكل شعوب العالم هوايات في ممارسة ألعاب ذات طابع رياضي مفيد أو ذات شحذ ذهني متميز أو ذات جهد يشار إليه بإعجاب أو ذات أداء فني يستحسنه المشـاهدون.. وهذه الهوايات تعتبر من الوسائل الترفيهية التي تريح النفس وتشحذ الخواطر وتنمي الإبداع في العطاء.. ثم إنها مجال خصب ليلعب الذكاء دوره المعروف، كما تلعب عوامل استغلال الفرص عطاءها المرغوب..

ولقد برعت الشعوب في إحياء ماضيها من خلال ألعابها القديمة كما وفقت في إدخـال الكثير من الإضافات الحلوة لجعلها تنسجم مع الطاقات الذهنية والجسدية وغيرها من طاقات الإنسان وحيويته وذكائه..

ولو تتبعنا الألعاب الرياضية على اختلاف تناولها لوجدنا أن لها تاريخا يحكي قصصا طريفة، ويصور مظاهر تحمل على المتابعة كما نشاهد بعضها في التلفاز كالألعاب الألمانية «تيلي ماتش» وهي بالتالي تحكي قصصا تاريخية لها دلالتها وطرافتها..

ولعل الجمعية السعودية للثقافية والفنون تعمل على استعادة هذه الألعاب وإيجاد شباب يهواها ويعشقها لأنها من الرياضات المفيدة والتي تصرف الذهن عن التفكير في الفراغات الملموسة.. فضلا عن كونها تحقق إحياء للماضي بكل معطياته الجميلة التي ستجد من يهواها ويلتمس مؤداها..

ولا أدري إن كان بوسع وزارة المعارف أن توجه أنظار الإدارات الرياضية في المدارس إلى هذه الألعاب لتطوير أدائها حتى تستهوي المشاعر الشبابية.. فينخرطون في ممارستها تواصلا مع ماضي آبائهم وأجدادهم..

ولأستاذنا محمد عمر رفيع في كتابه «مكة في القرن الرابع عشر الهجري» وصف للألعاب الشعبية نقتبس منه وصف بعض هذه الألعاب:

ألعاب ووسائل التسلية لدى الصغار

لعبة الكورة

وتسمى فيما بينهم «تيس وتن تيس» وطريقتها أن ينقسم الأولاد قسمين، ثم ينصب حجر رهيف، أو آجره يقف عندها أحد القسمين، ويكون هو البادي باللعب، وكانت الكور تصنع محليا، وأغلب ما تكون في حجم البرتقالة الكبيرة، من الجلد تُحشى بالخروق البالية أو القطن، يخطفها أحد الأولاد من القسم الذي يلي الحجر المنصوب، ضربا لها بأحدى يديه، فيلقفها أحد أفراد القسم الثاني، فمن يكن منهم قد تلقفها رماها على الحجر المنتصب، فإن أصابه عد شوطا من خمسة أشواط وهي: «تيس» و«نحا» و«بقد» و«كلى» وهذه الكلى يضرب فيها اللاعب الكورة برجله لتذهب بعيدا، «وشوربه».. كل لعبة لها ثلاث ضربات إلى أن تتم الخمس اللعبات، فإذا أصيب الحجر في كل لعبة، ولو مرة واحدة من المرات الخمس، عد الفريق الرامي للكورة خاسرا ويقولون «دخل فيه الدست» فينتقل إلى القسم المتلقف للكرة مما يلي الحجر مغلوبا، وهكذا حتى يملوا اللعب أو يسري الليل فيتفرقوا.

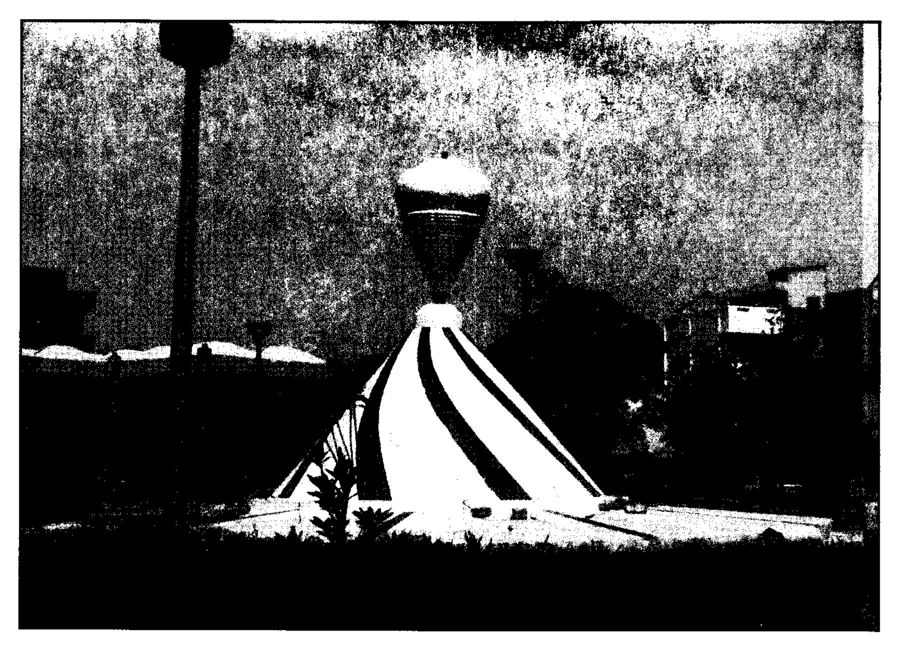
لعبة البرجوه

والبرجوه قطعة حجر يكوّرها اللاعب تكويرا محكما، وتكون في حجم الليمونة البنزهير، أو أكبر قليلا، ثم يبدأ اللاعب أواللاعبون في قفز ثلاث حفر صغيرة في الأرض، بين كل حفرة وحفرة مسافة متعارف عليها، ثم يبدأ اللاعب بمحاولة إسقاط البرجوة في الحفرة نبلا من بين أصابعه، فإذا تمكن من إدخال البرجوه في الحفر الثلاث مرتين، ذهابا وإيابا، عدَّ فائزا، ويقول الأولاد عنه «شرق» ويليه الآخر بمثل لعبه، فإن أخطأ الحفرة نبل برجونه بعيدا عنها، وهكذا يتداول اللعب بين اللاعبين ومن يأت دوره ويكون قد أخطأ الحفرة في المرتين، وضع يده بثني

الأصـــابـــع، متـــوجـهـا بظاهر الكف على مقربة من الحفرة.. معرضا لها للنبل بالبــرجــوه.. ويبدأ اللاعب، معه، أو اللاعبون بتصويب نبل البراجوه إلى يده المنصوبة ويسمونه «الرّقم» ويكون هو من خسر اللعبة، وأكل الضرب على يده جزاء تقصيـره في إدخــال البرجوه في الحفر. وياما محسوبكم ذاق من هذا «الرّقم» ماذاق.. ولكنها كانت لعبة محببة إلى نفسي.

لعبة «البربر»

تصطف مجموعة من الشباب على قاطع بين طرفين في برحة مناسبة.. ثم يأتون بقطعة من حجر مبطط ومدور بسماكة معروفة لا تزيد عن ٣ مليمترات وبقطر ٤ سنتيمترات أقل أو أكثر.. ويجري اللعب بها على قدم واحدة بحيث يرفع الثانية في شكل «إنثنائي» ثم يحاور بها أحد أفراد المجموعة المواجهة والذي يقتنصها يحاول نفس المحاولة ثم تسجل النقاط، فالفريق الذي يحصل على خمس نقاط ضد أربع يكون هو الفائز.



مجسم للمدوان.. إحدى الألعاب الشعبية بالحجاز

إنهـا لعبة شاقة، ولاعبوها مهرة أشداء لأنها تعتمد على صلابة «الرُّكب» ـ بشد الراء وضمها ـ وعلى حسن المراوغة، وسرعة أدائها.

لعبة «الغم غماية»

وتسمى أيضا «الاستغماية» وهي أن تجمع زمرة من الأولاد وتعصب عين أحدهم، ويجلس بالقرب منه أحدهم مراقبا، ثم يتفرق البقية في دهاليز الدور الكائنة في الزقاق الذي يلعبون فيه أو خلف أي شيء يستره، فإذا غاب جميعهم عن النظر أزال المراقب العصابة عن المغموم ليبدأ في البحث عن المختبئين، فإن تمكن من القبض على واحد منهم كان هو الذي سيغم، وإن أمكن أن يصل جميعهم إلى مكان المراقب أعادوا غمه، وهكذا إلى أن تنتهي رغبتهم من اللعب، وعند فك العصابة عن المغموم يصيح المراقب «شرعت.. شرعت» تنبيها للمختبئين.

لعبة «الكبت»



● (لعبة الكبت من الألعاب الشعبية الشائعة في الحجاز ●

وهي لعبــة فيهــا شـيء من العنف، وقــد يلعبها الكبار من فتوات الحارة.. وصفتها أن ينقسم اللاعبون قسمين، ويخطون فيما بينهم خطا في التراب، ثم يبدأ واحد من احدى الجهتين متخطيا «الشُخط» كما يسمونه، ماداً يديه يهمس بالعبارة «شيد البيد البيد» مكررا لها، وعندئذ يحاول الفريق الذي اقتحم عليه حده أن يقبضوا عليه، وهو ينفلت منهم، فإن لمس واحد منهم وهرب عدَّ الملموس ميتا، وعدّ هو ناجحا.. وإن استطاعوا القبض عليه، حاول بكل جهده أن يصل، ولو بطرف أصبــع قدمــه ويمس الخط، فإن أمكنه ذلك عدّ ناجحا، ومن حاول القبض عليه عد ميتا وينحى عن اللعبة.. وإن فشل عد هو ميتا ونحي، ثم يبرز آخر من الجماعة إلى أن ينتهي أحد الفريقين ميتا وقد قبض على سائر أفراده، ودخل فيه «الدست» كما يقولون.

لعبة «الكبوش»

من الألعاب التي يتعاطاها الصغار، وهي عبارة عن العظام التي تأتي بين مفاصل أرجل الأغنام، يجمعها الصبي، ثم يختار الأكبر فيها ويسمونه «اليرس» يأتي اللاعب وزميله فيخطون دائرة على الأرض، ويرهن كل واحد منهم عددا من «الكبـوش» بقدر الآخر، بعد ذلك يمسك أحدهم «اليرسين» ثم يسقطهما على الأرض بعد رفع يده بهما، فمن وقف يرسه على وجه متعارف من وجهي اليرس بدأ هو اللعب، ويقف الاثنــان على مســافة متفق عليها، ثم يصوب الذي فاز بالأوليــة باليرس نحو صف الكبوش المرصوصة داخل الدائرة، فإن أخرجت الضربة شيئا من الدائرة عد كسبا له، وأعيد رص الباقي، وأخذ من قريب يضرب في الكبوش إلى أن يستأهلها كسبا، وإن أخطأ ولم يستطع إخراج شيء من الدائرة سقط حقه في اللعب، وبدأ الآخر العملية وهكذا إلى أن يأتي أحدهم على كسب ما للآخر من كبوش وينتهي اللعب.

لعبة «الطيرة»

وهي عبارة عن أعواد من الخشب «البمبي» الرفيعة القابلة للانحناء تلبس

فيها الأعواد بورق مخصوص ذي ألوان ونقوش متعددة الأشكال والألوان، يربط خيط في ذيل الطيرة، وقد يجعل لها ذيول من الورق المختلف الألوان، وقد تعمل على شكل «حدأة» وغير ذلك، فيشتريها الصبي ويشتري خيطا رفيعا وقويا، ثم يطير الطيرة فيدفعها إلى الهواء إلى الأعلى ويظل يلعب بها يمنة ويسرة..

وقد يتبارى اثنان من اللاعبين فيأتيان على الخيط الذي يمداه أثناء الطيران، ويدقان كمية من الزجاج يضاف إلى محلول من الصمغ، ويوضع فيه الخيط إلى أن يتشبع فيخرج ويجفف، ثم يربط كل منهما خيطه «بطيرته» ويطلع بها إلى سطوح داره ويرسل الطيرة إلى الجو، فإذا بلغت طيرة كل منهما احدا معلوما، نكساها على بعضها إلى أن تتشابك، فمن كان خيطه أقوى وأحد قطع خيط الآخر وانفلتت «الطيرة» في الجو وضاعت، وكانت تمارس في أسطح البيوت لعلوها عن الأرض.

لعبة «المدوان»

وهي عبارة عن قطعة من الخشب مخروطية الشكل، في الذيل الرفيع فيه مسمار قصير ليدور عليه «المدوان».. وطريقة اللعب به أن يلف خيط على المدوان لفا متلاحقا، ثم يحذف ليفلت من الحبل ويدور، يقع هذا بين طفلين أو عدة أطفال يتبارون من منهم يكون مدوانه أسرع دورانا وأطول مدة يكسب اللعبة.

لعبة «المرصاع»

يتخذ من ثمر شجرة «الدوم» ويخرط ويفرغ جوفها، وتثقب من الوسط لتدور عليه، فيلف خيط على العود لفا متلاحقا بإنتظام، ثم يؤخذ طرفه ويمرر من خشبة صغيرة مثقوبة يمسك باليد، وطرف الخيط في اليد الثانية، يسحب الخيط لينفلت المرصاع ويدور، فإذا دار دخل الهواء من الثقب الذي في الوسط وأحدث صوتا عاليا ورنينا.

لعبة «المداريه»

وهي من وسائل التسلية عند الأطفال وخاصة في عيد الفطر المبارك.. وهي عبارة عن دائرة على وضع مخصوص، معلق في أطرافها صناديق من الخشب أشبه بالمهد، معلقة على أعواد من الجوانب يمكنها الدوران واللف، يركب الأطفال في الصناديق وتدور بهم من أعلى إلى أسفل، ويسمونها «صناديق العيد» وقد تطورت الآن شكلا، لكن الأصل لم يتبدل.

وسائل التسلية عند الكبار

لعبة «المزمار»

كانت من وسائل التسلية لدى «فتوات» الحارة وأهمها وأحبها إليهم.. ولهذه اللعبة طبول يسمونها «العُلب» تتكون، في الغالب، من ثلاث طبلات من النحاس أو الفخار على شكل نصف كرة، ومعها طبل صغير يسمى «نقرزان» .. الطبول الكبار يكون الدق عليها باليد، أما الطبل الصغير فيضرب عليه بعصا صغيرة، ويتجمع من



● (المزمار) لعبة جماعية في الحجاز ●

تهيأ للعب معا خارج البلدة، أو في ردهة واسعة رحيبة تكون في الحارة، ويقيدون نارا من الحطب، والغاية منها الإنارة، لأن أغلب ما يكون اللعب ليلا، كما أنه إذا تراخى جلد الطبل من أثر الضرب، قربوه من النار ليشتد ويحسن صوته، ويلتفون متحلقين حول النار، ويجلس الضاربون على الطبال في قسم من الحلقة، ولهم نقر وطريقة خاصة عليها تتفق مع الهزج الذي ينشدونه



زغزبة: زغزبة يازغزبة لا يبان طرف ثوبك تراني فكيته.
(إحدى الألعاب الشعبية بالحجان)

من الأغنيات الشعبية أمثال «ياسارية خبريني عما جرى خبريني» وغيرها من الأغاني المشهورة، فإذا بدأ النشيد نزل اثنان من اللاعبين وأخذا يرقصان دائرين حول النار، وفي يد كل منهما عصا تسمى «الشون» ملوحين بها على طريقة أتقنوها، فإذا استملح البقية رقصتهما نزل واحد وأخذ خمشة من تراب نثرها على النار قائلا «شوي شوي... وكمان شوي» وهي كلمة يقصد منها أن يستمرا في اللعب.. وهكذا يتعاقب اثنان اثنان والطبول تدق، والبقية يغنون ويصفقون.

«الصهبة» فنها وإيقاعها



● نشامى الحجاز يؤدون أحد أدوار الصهبة ●

وهي من وسائل التسلية عند أهل الحارة، وذلك أن يتجمع في الحفل مجموعة من أهل هذا الفن، يرددون بعض الموشحات، وهو نوع من الغناء الجماعي المصحوب بصفقة خاصة ولهذا الفن أهله الذين لم يتبق منهم سوى القليل خاصة وأن شباب اليوم لم يقبلوا على هذا الفن، ولذلك يخشى عليها من الاندثار.. وحبذا لو قامت جمعية الثقافة والفنون من خلال الفرق الشعبية بالترويج لها وتدريب الشباب عليها لتظل عنوانا نتغنى به إحياء لماضينا الغالي.

لعبة «الدومينو»

ويسمونها «الضومنة» وهي لعبة دخيلة شاع استعمالها في زمن ما وكذلك لعبة «الدامة».. والدامة قريبة من «الشطرنج» وليس لها مسميات الشطرنج.

لعبة «البشيس»

وهي مكونة من رسوم على قطعة من القماش، في أجزائها خانات مربعة، ولها قطع مثل قطع أحجار الدامة، وبضع ودعات يأخذ اللاعب الودع وينثره على وسط الرقعة، ولأشكاله التي يستقر عليها أحكام يسيرون بها الأحجار في الخانات، وكثيرا ما كان النسوة يتسلون بها.. وهناك لعبتان أخريان يختص بهما العلية من الأهالي، وهي لعبة «الشطرنج» وهو معروف.. ولعبة «الكنجفة» مجموع قطع اللعب بها ست وتسعون قطعة.. وهي عبارة عن قطع من الورق السميك مدورة في حجم الريال الفضي، ويلعب هذه اللعبة ثلاثة أنفار، يعطى كل نفر اثنتين وثلاثين قطعة بعد خلطها في بعضها البعض، فمن ظهر في قسمه «ملك الذهب» أو «أبو طافش» ـ وهي من قطع هذه اللعبة ـ لزم على اللاعبين الآخرين أن يعطيه كل واحد منهما قطعتين من قسمه.

لعبة «الكوتشينا»

يسميها أهل مكة المكرمة «الأسكانبيل» وتتكون من أربع وخمسين قطعة من الورق المقوى، على بعض قطعها نقط من الواحد إلى العشرة، ذات ألوان مختلفة، لكل لون وشكل اسم مخصوص، وتنفرد ورقة منها عليها رسم كاريكاتوري لشخصية يسمونها «الجوكر» وأوراق أخرى عليها رسوم بنات وأولاد وشيوخ، ولها عدة أنواع من اللعب، منه «الباصرة» وهذه يلعبها اثنان متقابلان، يقسم الورق بينهما.. وكذلك لعبة «البلوت» يلعبها أربعة أشخاص كل اثنين مع بعض، وقد ولع أهل الحجاز بهذه اللعبة وكثر تعاطيها في اجتماعاتهم من آخر عهد الأشراف ثم تبعهم الآخرون في هذا الكيان الكبير وبشغف أكبر.

لعبة «الكيرم»

وهى من الألعاب الدخيلة والحديثة المعروفة.



المجـــس

ومن وسـائـل التسلية في الأسمار والمناسبات «الغناء» ويسمون المغني «الجسيس» فإذا خرجوا للنزهة في أطراف البلدة صحب «البشكة» إما جسيس محترف أو هاو، وحتى اجتماعاتهم في الدور لا تخلو من «جسيس» ويسمون الغناء «مجس».. وممن لهم شهرة في الغناء آنذاك: إبراهيم بندقجي، وصالح حلواني، وإسماعيل كردوس، وسعيد أبو خشبة، وحسن جاوا الذي كان يحسن مع الغناء الضرب على العود.



● (طرّة وزرّه) لعبة من الألعاب الشعبية الأخرى في الحجاز ●



● (الأننن) إحدى الألعاب الشائعة في الحجاز ●

﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ (سورة البقرة من الآية ١٢٥)



● مقام إبراهيم وباب بني شيبة قبل التوسعة السعودية للحرم المكي ●

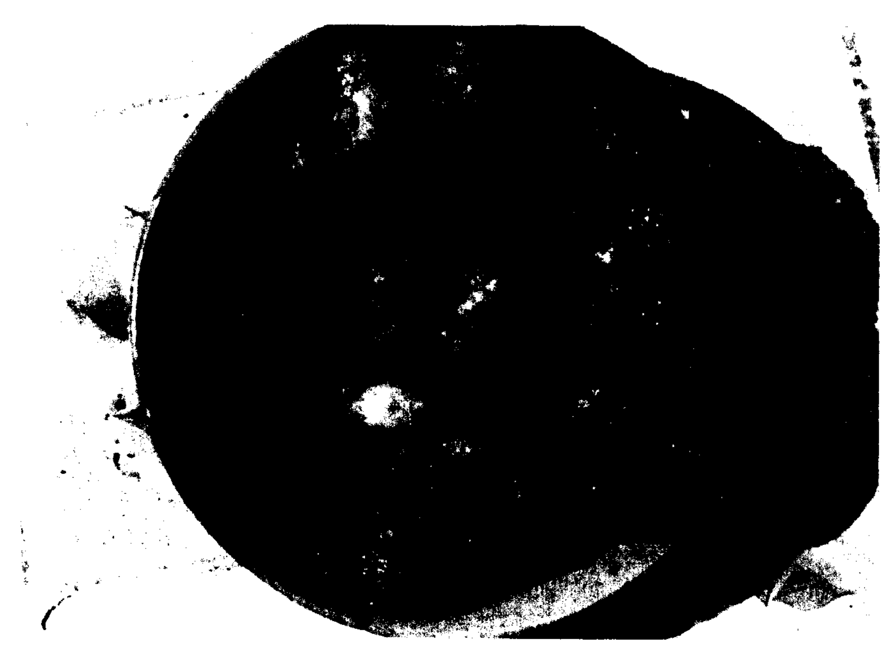
أهل الحجاز بعبقهم التاريخي

مظاهر الاحتفال بشهر رمضان الكريم والعيدين

الاحتفال برمضان

عندما يحل شهر رمضان المبارك يجري ترفيع ماتضمه مجالس الاستقبال ووضعهـا فوق بعضهـا البعض كالمسـانـد والطواويـل والمخدات المزركشة والجـلايـل الرومي بأنواعها لأنه ليس بوسع العوائل في شهر رمضان موالاة تنظيفها وإزالة الغبار الذي يحدث بفعل الهواء الذي يدخل البيوت من الشبابيك أو الذي ينبعث من الأرض التي يعلوهـا «الخسف» لأن للصيام حالاته التي لاتسمح بالانشغال في أمور كهذه لأن فيها شيئا من التعب، وفيها شيئا من التعرض لهذا الغبار وما قد يسببه من مضار لا تخفى على فطنة القراء.. وقد كان أهل الحجاز يصنفون أيام شهر رمضان المبارك على النحو التالي:

(١) **العشـرة الأولى للجـزارين**: إذ فيهـا يقبـل الناس على شراء اللحوم بأنواعها.. والطيور أيضاً، منها ما هو خاص بـ «الشوربة» التي تصنع بالحب أو الشعيرية أو الترتر أو الفريك.. ومن اللحم أيضا ما يؤخذ من «الهبرة» لفرمها في المنزل ثم يضاف عليها البصل وقليلا من البهارات الخفيفة حتى ينضج، وبعـد تبـريـده يضـاف عليـه البقدونس وبها تصنع «السمبوسك» بأشكالها المعـروفـة.. وكذلك لا ننسى التزاحم العجيب على الفوالين لأن هذا الثلاثي العجيب «الشوربة، والسمبوسك والفول» هي قوام المائدة الرئيسية في المغرب عند الإفطار ثم لا تخلو المائدة من الحلويات مثل: الكنافة أو الغربالية وهو عجين



● (السمبوسة) سِمة من سمات الإفطار في رمضان ●

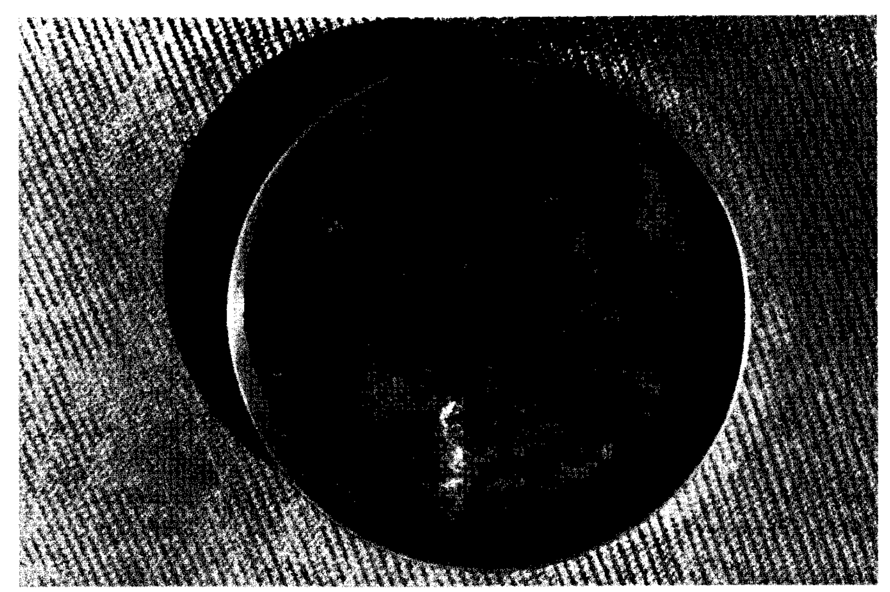
يحشى بالفستق أو اللوز، واللقيمات، والطرمبة «بلح الشام».. كذلك يصنع «اللحوح» في المنزل ويحشى باللوز الحجازي أو المكسرات الأخرى وتضاف عليه الشيرة قليلها أو كثيرها ومن أحلى مظاهر شهر رمضان المبارك الاجتماع العائلي الذي يدخل البهجة والمسرة في النفوس..

أما السحور فمن الناس من يعتمد على الطبيخ المعتاد في أيام الفطور تطبخ الخضروات على أنواعها واللحوم في أشكالها المختلفة كالكباب والمقلقل والمختوم الممزوج بعصير الباذنجان الأحمر.. ومن الناس من يتخفف في طعام السحور بحيث يضاف عليها طبخة الكشري بالأرز، أو «عصيدة الخضار» وهي من الشعير من نوع خاص ويميل إلى اللون الأخضر واللدونة الطرية، أو المكرونة مضافا إليها شيئا من اللحم المفروم والبقدونس الأخضر واللبن الممزوج بالنعناع الناشف.. وكذلك يضيفون على هذه المائدة المهلبية ومسماها الأساسي هو «مهلاً.. بي» والمغزى من هذا الاسم هو أن يترفق الناس في تناولها بحيث لا يأكل الواحد منها نصيبه ونصيب اثنين أو ثلاثة.. وكذلك



● صاج الكنافة المخصص حديثاً لطهيها ●

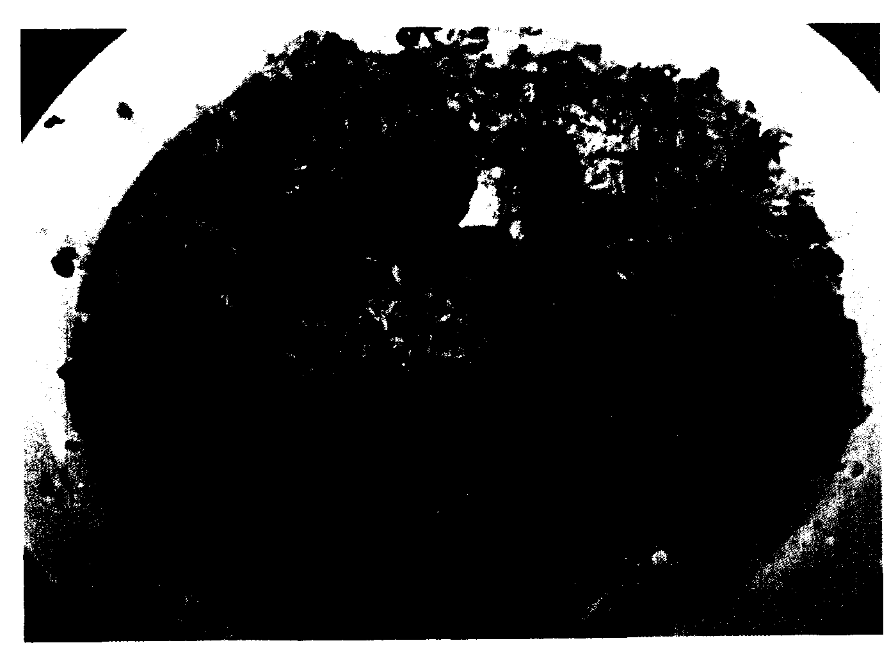
«خشاف الزبيب» الذي يغلى ثم يضاف إليه قليل من النشا لإعطائه شيئا من التماسك.. وبطبيعة الحال فإن كثيرا من الذين ينحدرون من الأجناس الأخرى المقيمين في هذا البلد الآمن لهم طبخاتهم الخاصة ولها لذتها ونكهتها



● الكنافة إحدى الحلويات التي تقدم في شهر رمضان ●

الخامرة.. ومن العادات المحببة إلى النفس في هذا الشهر الكريم تبادل العوائل فيما بينهم للمأكولات التي يتم طبخها في المنزل مما يسمى بـ «الطعمة» .. «وأصبر ياواد لا تروح بالصحن فارغ، خليني أحط فيه حاجة.. عيب أيش يقولوا علينا الناس».

ومن الأكلات الشعبية التي يدور بها بائعوها في الحارات والأزقة رغم إظلامها: المنفوش و«قرمش يا المنفوش».. والبليلة عندما يقول بائعها «يابليلة بللوكي.. سبع جواري طبخوكي».. والفول والترمس.. «والنافع الله يا حلبة» .. وحلاوة غزل البنات في شكل شعر طويل .. وحلاوة المشبك.. وبسطات المقلية والسمبوسك.. و«الفلة» عجين مخلوط بالجبن .. و«اللقيمات» عجين مدور تضاف عليه «الشيرة».. ثم طرأ على الأسواق «المنتو» عندما وفد من البلاد «البخارية» عندما اقتحمت الشيوعية أراضيهم وممتلكاتهم وكذلك صناعة التميس التي وفدت.. «وسنو سكين.. وسنو مقص» وأشياء عديدة لا يختص بها شهر رمضان المبارك بل تزداد مظاهرها في هذا الشهر الكريم.. وكان الناس على مدى الأزمان يحرصون على أداء صلاة التراويح في المسجد الحرام والمسجد



● الأرز المحمّص من الأكلات المفضلة في الحجاز ●



● أطباق البامية والملوخية بالأرانب والفاصوليا، من الأطباق الشائعة في الحجاز ●

النبـوي الشـريف والمسـاجـد الأخرى، ومنهم من كانوا يجتمعون في بيوت بعضـهم بعضـا عنـدما يكون هناك حفاظ للقرآن الكريم، فيؤدون الصلاة في بيوتهم أو في المساجد المنتشرة في الحارات وبنفس الطريقة التي تؤدى بها في الحرمين الشريفين.. وبعضـهم يؤدونها بتلاوة قصار السور يبدأونها بسورة «التكاثر» وفي الركعة الثانية يقرأون سورة «الإخلاص» وهي سُنَّة محمودة سنها سيدنا عمر بن الخطاب رضـي الله عنه وأرضـاه.. ومازالت هذه السُّنَّة مستمرة حتى الآن..

أمـا بالنسبـة للدوام الوظيفي الرسمي في شـهـر رمضـان.. ففي أواخـر الخمسينات وبدايات الستينات انخرطت في العمل الوظيفي. وكان العمل ليلا من بعـد أداء صلاة التـراويـح حتى مدفـع السحور الأول.. وكانت الأتاريك «الجلاسي» فوق مكتبنا، وقد تسببت لبعض الموظفين بالحساسيات من الغاز عند الإطفاء المفاجىء للأتريك وصعود الأدخنة منه تلك التي تدخل في جوف الإنسان وتجعله «يكح» بشكل غير طبيعي.. ثم رؤى بعد كل التجارب في العمل



● محشي ورق العنب من الأكلات المستحبة في الحجاز ●

الليلي أن العمل في النهار هو الأفضل، فصدرت قرارات مع بدايات تكوين مجلس الوزراء الذي أسس عام ١٣٧٣هـ، بأن يكون العمل في أيام شهر رمضان نهارا من الساعة العاشرة صباحا حتى الرابعة عصرا، ولازال هذا التوقيت ساريا حتى الآن.

ومن أجمل مظاهر رمضان الشعبية «المسحراتي» ونقره على طبلة لها إيقاع خاص ولذيذ، خاصة عندما يقول: «اصح يا نايم، وحّد الدائم».. والهدف منها تنبيه الناس لتناول السحور قبل أذان الفجر.. لأنهم في تلك الأزمنة كانوا



● (المخلّل) إحدى المشهيّات على السفرة في الحجاز ●



● (الكانون) يُوقَد بواسطة الفحم لطهي الطعام في المِرَكَّبْ قديما ●

ينامون مبكرين ومنهم من يفوتهم السحور بسبب النوم أما الآن فالقوم سهارى نهارهم ليل، وليلهم نهار على طول أيام السنة ولم يعد للمسحراتي أي دور إلا من حيث الشكليات هذا إن وجد.

(٢) **أمـا العشرة الثانية** من رمضان فيطلق عليها «عشرة القماشين» وفي خلال هذه الأيام المباركة تشترى الأقمشة للذكور والإناث والأطفال لتجهيزها للعيـد السعيـد، مع التـوابع الأخرى كالفنايل والسراويل والكوافي والإحرام المطرز والمداس المزركش، والتاسوما وبعض العوائل تقوم بخياطتها..

(٣) **أما العشرة الأخيرة** فهي «عشرة الخياطين» وفي خلالها يشتد التزاحم عليهم والرجاءات تلو الرجاءات في أن تكون الخياطة جيدة وحلوة .. وأحيانا يتأخر بعض الخياطين في تسليم ما أوكل إليهم حياكته، فإن كان للولد ثوبان لا يحصل إلا على ثوب واحد «وهات ياركض .. ويارمح» وترى الأولاد يزوغون من البيـوت ذهابا وإيابا للخياطين.. منهم الفرحان، ومنهم الزعلان والدموع على الخدين تجري..

ولا تسل عن المهتمين بالعمائم وخياطة الجُبب والشايات والصداري يذهبون إلى الخياطين لاستطلاع أخبار الفراغ منها وعن ملابس أولادهم وبناتهم، وقد كان الناس في تلك الأيام لا يرتدون الملابس الحلوة الزاهية إلا في يوم العيد..

ولكن أليست هي الفرحة بالعيد؟ .. وبالأجر والثواب الذي منحه الله لعباده الصائمين وأن يجزيهم ثوابهم بأداء زكاة الصوم التي تسمى بـ «الفطرة» وقد وزعـوهـا على المحتاجين والمساكين الذين يتطلعون بشغف إلى هذا العون المادي أو العيني كما جاء في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها ما رواه البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين، من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات».

أما الحلاقون فإن الزحام عليهم يبدأ في الخمسة الأيام الأخيرة من رمضان سواء للرجـال أو الأطفال وكل عائلة لها حلاق مخصوص تعودوا عليه.. ويكاد يكون شهر رمضان من المواسم الهامة للحلاقين لتحسين مواردهم ورفع مستواها..

وقبل حلول عيد الفطر المبارك يؤتى بأناس مخصوصين لنفض الجلايل بالعصي لإزالة ما علق بها من تراب، ثم يتم غسل الجدار والرواشين بالمياه، وإذا احتاج الأمر إلى تجديد رخام الغرف فيؤتى بمن يضع الرخام ـ صناعة محلية ـ على هذه الجدران، إذ لم تكن البويات الزيتية والبلاستيكية والإستنمبر متوفرة في تلك الأيام.. والرخام حار جدا يطفأ بالماء فيغلى غليانا عاليا، وحتى يبرد يضاف عليه الملح الحجري أو البحري..

ويشعر الناس في تلك الأيام بفرحة العيد عندما يكون راعي البيت قد أمَّنَ لأهله ولأولاده وبناته ملابس العيد الجديدة، تلك التي تجري خياطتها في داخل المنزل أو عند الخياطين إذ كان الناس في تلك الأيام يشترون كساوي أهلهم وأولادهم وبناتهم مع من يتفقدونهم من الأهل والأقارب إن كانوا في حاجة إلى هذا التفقد، أو الذين يعرفون أنهم في حاجة إلى تأمين كسوة العيد لهم ابتغاء مرضاة الله وكسب الأجر والثواب...

نعود مرة أخرى إلى البيوت وأهلها عندما يأخذون في الثلاثة أيام الأخيرة من رمضان في إعادة فرش منازلهم لاستقبال المعايدين لهم من الأهل والأقارب والأصهار والأحباب ومن أهل الحارة وخارجها..

وللإشارة إلى حلاوة هذه الذكريات نقتبس من كتاب «مكة في القرن الرابع عشر الهجري» لمؤلفه الأستاذ محمد عمر رفيع ما ورد عن المفروشات ووسائل الإضاءة في تلك الأزمنة الخوالي:

«مفروشات البيوت والحجر تختلف باختلاف الاستطاعة، فمن كان في سعة من الرزق نصب في حجرة أو حجرتين دكاكا من الخشب يقولون عنها «كرويتات» وواحدتها كرويتة توضع عليها أولا «طواويل» من الطرف وجرارات من القطن لإلانة الجلسة، تسبل على الدكاك وستائر من مختلف الأقمشة، وتحلى الستائر المذكورة بزخرفة من صنع القطان، يقولون عن الستارة «سجاني» واحدتها سجنية، ثم يضعون على الليانات القطنية غطاء من الحرير أو القطن الناعم ويسمونه «بتيس» محلاة أطرافه «بالدنتيلة» ويضعون بين جلسة



● البالطو والـدمة سمة من سمات ملابس الأطفال في الحجاز ●

الشخص والآخر مخدتين على بعض رصاً على الدكاك، ويحيطون جدار الدكاك بمساند من الطرف ملبسة من نفس القماش الخاص بالستائر الآنفة الذكر.. وتغطى المسانـد إلى النصف بغطاء من جنس الطوالات، وبعضهم يضع الطوالات مباشرة على الأرض في كثير من الأحيان ومما كان يستعمل غطاء للطوالات حنابل من الصوف، يسمونها حنابل مقصص من مصنوعات تركيا وتستعمل أحيانا غطاء للشقدف أثناء السفر إلى المدينة المنورة أو الحج..

أما أراضي الحجر، ففي بيوت الأثرياء والوجهاء والأعيان يفرشونها بالبُسط

الإيـرانيــة الصــوفية، بل وكثير من متوسطي الحال يفرشون الحجر بها على اختلاف في الجودة.. والفقراء ومن هم دون الوسط يفرشون غرفهم بحنابل من القـطن مخططة بالأسود والأحمر والأزرق تجلب من الهند أو ببسط يسمونها «شمال» تصنع في جبال سراة الحجاز، أو في بيشة والطائف، تصنعها نساء البادية بأيديهن.. كل ذلك لازال متعارفا استعماله إلى الآن وإن مازجه الكثير من مصنوعات أوروبا.

والحـديث عن رمضان والسمر فيه يقودنا إلى الحديث عن الإضاءة حيث كانت قبـل القرن الرابع عشر الهجري في مدن الحجاز سواء في البيوت أو المساجد لا تعرف إلا بالمسارج، والقناديل بالزيت، والشموع، ولم تكن إضاءة الشوارع معروفة اللهم إلا على بعض أبواب دور الوجهاء والأعيان.

وأول ما عرفت الإضاءة بالبترول: الغاز أو «الكان» على لهجة المكيين في عهد الأمير عبدالله باشا بن محمد بن عون، وضعت أول مسرجة «لمبة» كانت من اللمبات الزجاج المعروفة «بنمرة أربعة» في دهليز بيت الإمارة.. وقد أخذ

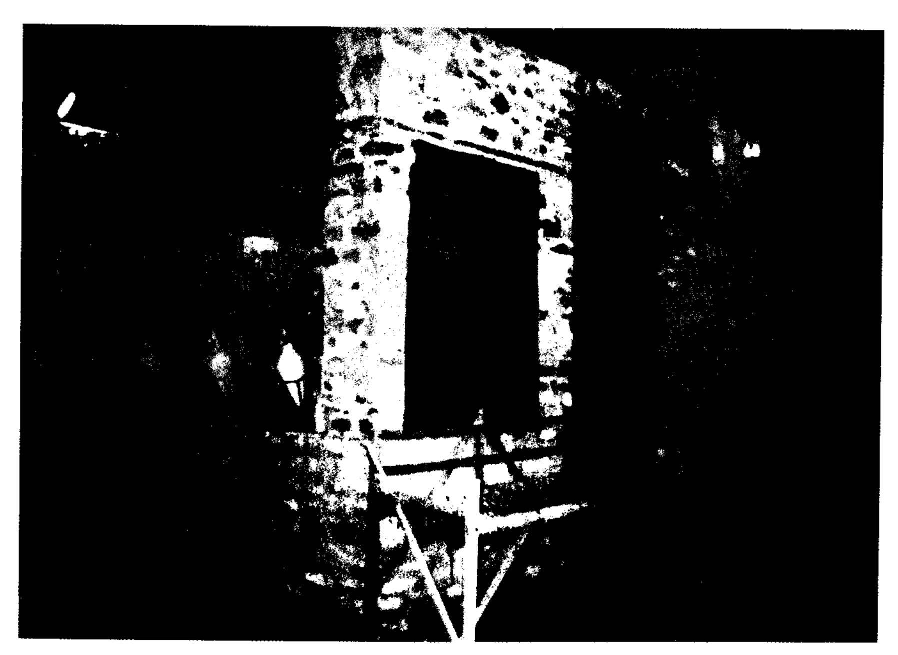


● (الرواشين) سمة من السمات لواجهات الغُرَّل «العمارة» في مكة المكرمة ●



● (الفانوس) أبو الفتيلة نمرة (٤)، يوقد بالجاز للإنارة قديماً ●

الناس يتقاطرون على مشاهدة هذا الضوء الوهاج الذي لم يكن لهم به عهد.. ومنذ ذلك التاريخ أخذت الإضاءة بالغاز تنتشر.. وأخذ السماكرة يبدعون في أشكال الفوانيس التي توضع في جوفها اللمبات وتحليتها بنقوش وأنواع من الزجاج الملون.. ثم أخذت تتوارد لمبات سميت «كشافات» بعضها للتعليق وبعضها للوضع على كراسي خاصة، وهي عبارة عن لمبة ذات فتيل مدور أقوى



● جانب من بيت شعبي بُني بالحجر ●

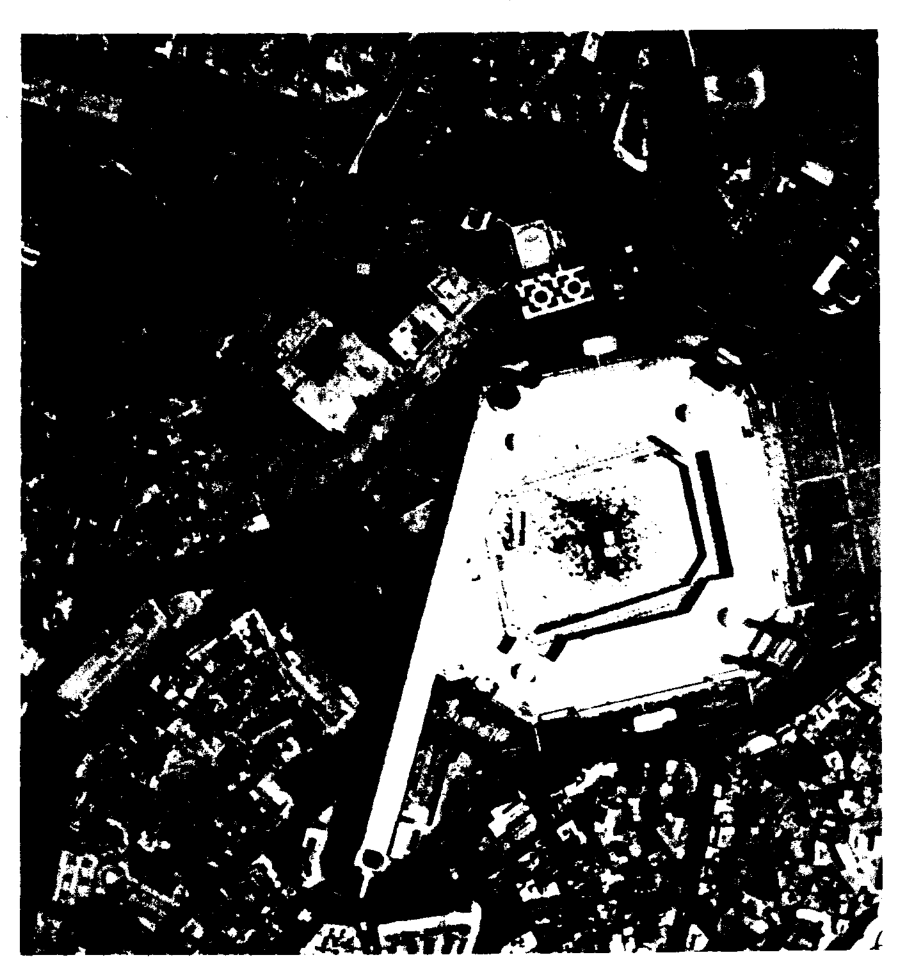
إضـــاءة وتوهـجا.. أما ما يتعلق منها فله صينية من الصفيح المدهون تعكس الضوء إلى أسفل، محلاة أطراف الصينية بإفريز مزخرف تتدلى منه شرابات من البلور والكريستال..

ثم تواردت مسارج سميت «قمريات» لا حاجة معها إلى ما يوضع على أعلى المســرجــة من زجـاج لامتصاص الدخان، بل هي مزودة بآلة تملأ كما تملأ الساعة، تدير مروحة صغيرة في جوفها تطرد الدخان، وجاء بعدها ما يسمى «الأتـاريك» ذات فتيل مخصوص، وتركيب مخصوص منها ما يعلق، ومنها ما يوضع على كرسي، له ضوء الكهرباء، تمتاز في تركيبها بأنه يخالط الغاز من الثقب إلى جوف الفتيلة بعد أن تشتعل بالأسبيرتو «الكحول» تظل بعدها مضيئة إلى أن ينتهي الغاز أو يضعف ضغط الهواء.

أمـا الحـرم المكي والمدني فلقد ظلا في العهد العثماني وإلى آخر عهد الحسين بقناديل الزيت والشموع، فينار الحجر وباب الكعبة المشرفة بشمعدان من المعدن المموه بالفضة أو من النحاس الأصفر، وكانت الشموع ضخمة،

تصنــع خصيصا لذلك.. كان حول المطاف سياج من القناديل المضاءة بها الأرواق.. وكان في الحصاوي أعمدة على شكل نخل مدلى من طرف كل جريدة قنديل إذا أسرج كان منظره ظريفا..

على أن الملك الحسين، في آخــر عهده، كان قد أضاء الحجر بالأتاريك، وأخيرا جلب آلة صغيرة أضيء بها المطاف.. وكانت حلقات الدروس التي تقام في المسجد الحرام يوضع بجوار المدرس فانوس يحوي شمعتين أو ثلاث.. أما الطلبة فكان يصحب كل واحد منهم مصباحا يسمونه «لاله» وأظنها كلمة تركية.



● لقطة من أعلى للحرم المكي والمساكن حوله توضح المجهود الرائع الذي بذلته الحكومة السعودية لتوسعة الحرم المكي الشريف ●

نعود مرة أخرى للحديث عن الأطعمة اللذيذة التي تهيأ استعدادا لاستقبال عيد الفطر المبارك كـ«الدبيازة» وهي خليط من قمر الدين واللوز الحجازي المحمر والمشمش المجفف وحبات التمر المجفف بني اللون يأتي متشابكا في خيط وهو أهم عناصر هذه الدبيازة وتصنع من السمن البري الممتاز.. كما تزدحم الأفران بصواني «المعمول» وهو يصنع غالبا في منازل العوائل وله قوالب مخصوصة يحشي باللوز والجوز والفستق.. وبعضه يحشى بالتمر بعد جعله كالعجين يضاف عليه شيء من مسحوق الزنجبيل والقرفة والهيل.. إلى آخر هذه التشكيلة الحلوة الزاهية، وكذلك أقراص الغُرَيِّبة الموشاة بحبات اللوز والإكليل الأبيض، وكل عائلة تتباهى بمعمولها.. كما يتهادونه في أطباق تضم بعض قطع المعمول مع قليل من الدبيازة.. كما تشتري العوائل أنواعا من الجبن الأبيض والتركي أو اليوناني مع أنواع من الزيتون وأنوع من المربات يصنعونها في بيوتهم كالسفرجل والدباء.. وكذلك الإقبال على شراء حلويات العيد التي كانت تصنع محليا وتلك التي تستورد من الخارج كالحلاوة الشوكولاته، والحلاوة اللوزية التي كانت تستورد من بعض الأقطار العربية، والحلاوة الليمونية أما المكسرات فكان بعضها جديدا، وبعضها قد دخله السوس.. وفي اليوم الأول من أيام عيد الفطر المبارك وقبل وبعد أداء صلاة العيد في المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف والمساجد الأخرى تتعالى الأصوات بذكر الله «الله أكبر .. الله أكبر لا إله إلا الله .. الله أكبر، الله أكبر ولله الحمد. الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا .. لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.. لا إله إلا الله، الله أكبر ولله الحمد.. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أصحاب سيدنا محمد وعلى أزواج سيدنا محمد وعلى ذرية سيدنا محمد .. وسلم تسليما كثيرا».

وهذه من أحلى مباهج العيد ومظهره.. إن فيها ذكر الله وتعظيمه وتوقيره على ما منَّ علينا من نعمائه وفضله، ثم تثنى بالصلاة والسلام على رسول الله صلى

الله عليه وسلم.. ثم إن الضجيج بذكر الله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم يعتبر بمثابة الدعاء لاستنزال رحمة الله وبركاته علينا.. فالمسلمون يعيشون مظاهر وحقائق محن سياسية واقتصادية لاتُزال إلا برحمة الله وبركاته.. ثم يذهب الناس إلى بعضهم البعض ويحرصون أن يكون اليوم الأول للأهل والأصهار.. أما في الأيام التالية فتوزع على عدة حارات بحيث يذهب الأب إلى أصدقاء معينين.. ويذهب أبناؤه إلى آخرين، ثم يتبادلون الزيارات فيما بينهم بعد أن تسجل أسماء بعضهم البعض.. وكم كنا نمشي على أقدامنا بلباس العيد الزاهي ثم نعود وقد غرقنا في العرق وما علا وجوهنا من غبار وما أصابنا من كبد طول المشاوير وعرضها ونحن ننتقل من بيت إلى بيت نتناول فيها القهوة والشاي أو العصير أو الماء البارد المبرد، وتقدم ثلاثة صحون عليها بعض المكسرات والحلوى المشكلة يتناول الضيوف مايريدون منها، ثم يقوم المباشر بتغطية الصحون بقطعة جميلة من القماش حواشيها مطرزة بخيوط ذهبية، وهذا يتم من الصباح الباكر حتى بعد صلاة الظهر ثم نعود في العصاري نوالي الزيارات لمن زارنا ولمن لم يزرنا بعد .. وبرغم التعب الذي كنا نشعر به إلا أن مشاعر التواصل في هذه المناسبة الكريمة تعتبر من أجمل المشاعر الزاخرة بالمحبة والمودة وبإزالة الجفوة إن كان ثمة جفوة قد حدثت بين هذا وذاك.. ويتبادل الناس فيما بينهم عبارات التهنئة «كل عام وأنتم بخير» .. «من المقبولين إن شاء الله»... «جعلكم الله من العائدين الفائزين».. ويكون الجواب في الغالب إن شاء الله نحن وأنتم وجميع المسلمين.

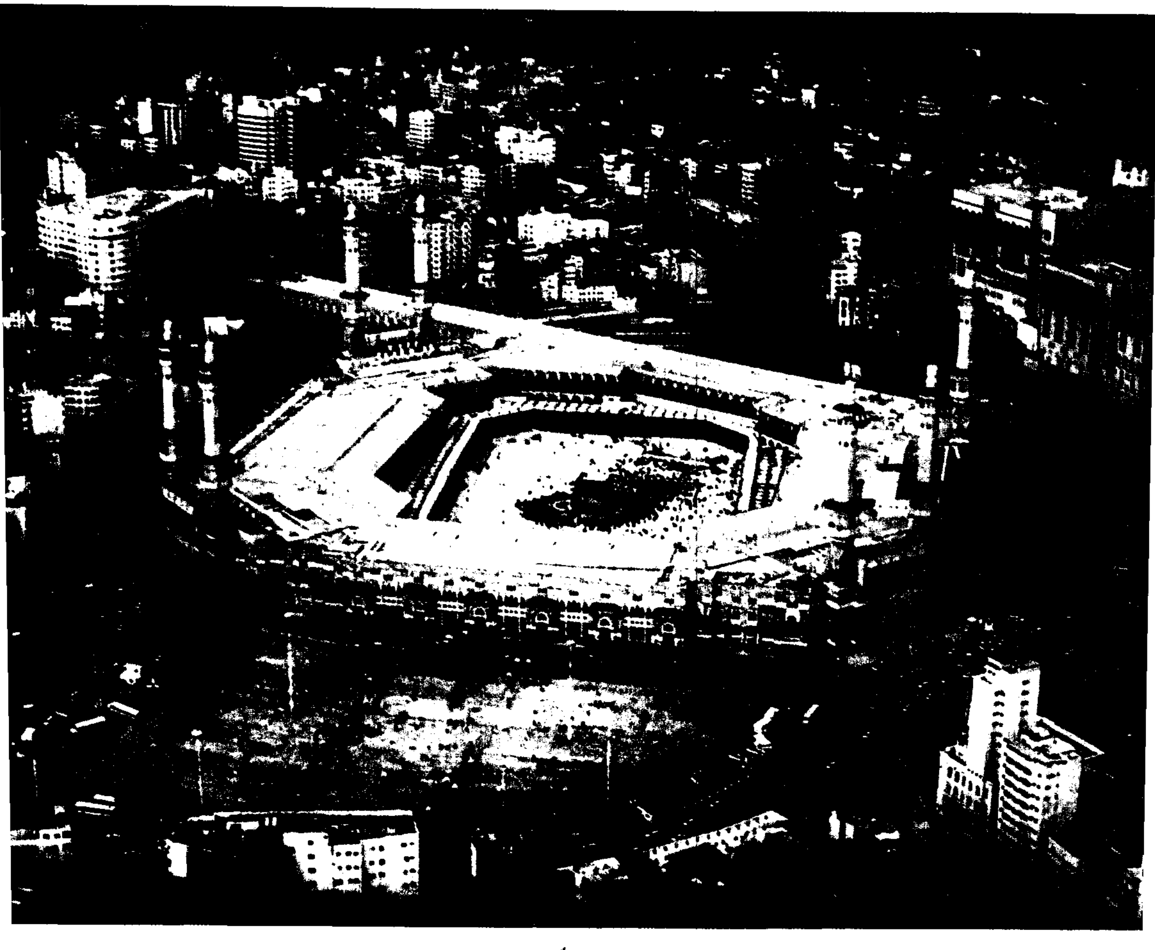
أفلا يحمل معنى «العيد» هذه المعاني لغسل القلوب والنفوس مما ران عليها من كدر تجعل الواحد منا يشعر بكثير من الفرحة والبهجة عندما تصفو نفس صاحبه بزوال أسباب تلك الفجوة التي حدثت.. إن هذه المناسبات تعتبر من أحلى المناسبات لتصفية القلوب مما ران عليها لأن الجفاء بين الناس وتعكير صفو قلوبهم قد لا يجوز في الأعراف كما لا يجوز في سماحة ديننا الحنيف الذي أوصانا وشدد في توصياته بأن نزيل الجفوة وأن نعود إلى بعضنا البعض بالصفاء والمحبة والوداد..

وهذه وتلك من أبرز ملامح الأعياد، وخاصة «العيدية» التي تحرك تطلعات الأولاد والبنات وخاصة الصغار لشراء لعبة، أو أكلات العيد الخفيفة المنتشرة في الأســواق أو الذهــاب إلى مواقــع «المــداريــه» والتــي تسمى الآن بــ «المراجيح».. وممارسة الألعاب الأخرى كالكبت والبرجوه والكبوش مما سبق ذكره..

ناهيك عن الحفلات التي يقيمها سراة وأعيان القوم والقبائل احتفاء بهذه الأعياد.. ولازالت هذه العادة قائمة على عهدنا بها في منطقة الحجاز وفي نجد والمنــاطق الأخــرى، وإن كان بعض سراة القوم وأعيانهم وأثرياهم يفضلون قضاء الأعياد: منهم من يقضيها في الخارج.. ومنهم من يقضيها بين النوم والاسترخاء، أو على أحد الشواطىء أو في البراري القريبة من المدن، غير أن بهجة العيد تظل مرتسمة دائما على محيا الناس وبالذات الأطفال في ذهابهم إلى المــلاهي البــريئــة من باب الشعور بالفرحة والابتهاج.. وإن كانت هذه المــلاهي تستمر طيلة أيام السنة، إلا أن الإقبال عليها في أيام العيد يزداد بشكل مكثف..

ولا ننسى الصلة البريدية أو البرقية أو الفاكس الذي فنَّ علينا أخيرا لتبادل التهاني منَّ باب التذكير والاهتمام بالأصدقاء، وهي لا شك لطيفة ورقيقة إلا أن كثيرا من الناس لا يهتمون بها قدر اهتمامهم بالزيارة المباشرة الشخصية.. «وربنا ما يقطع لنا عادة إن شاء الله».. إذ هي مظهر من مظاهر التواصل بين أفراد المجتمع وهي أيضا بمثابة تعبير عن المودة وصفاء النفس والقلب والفؤاد..

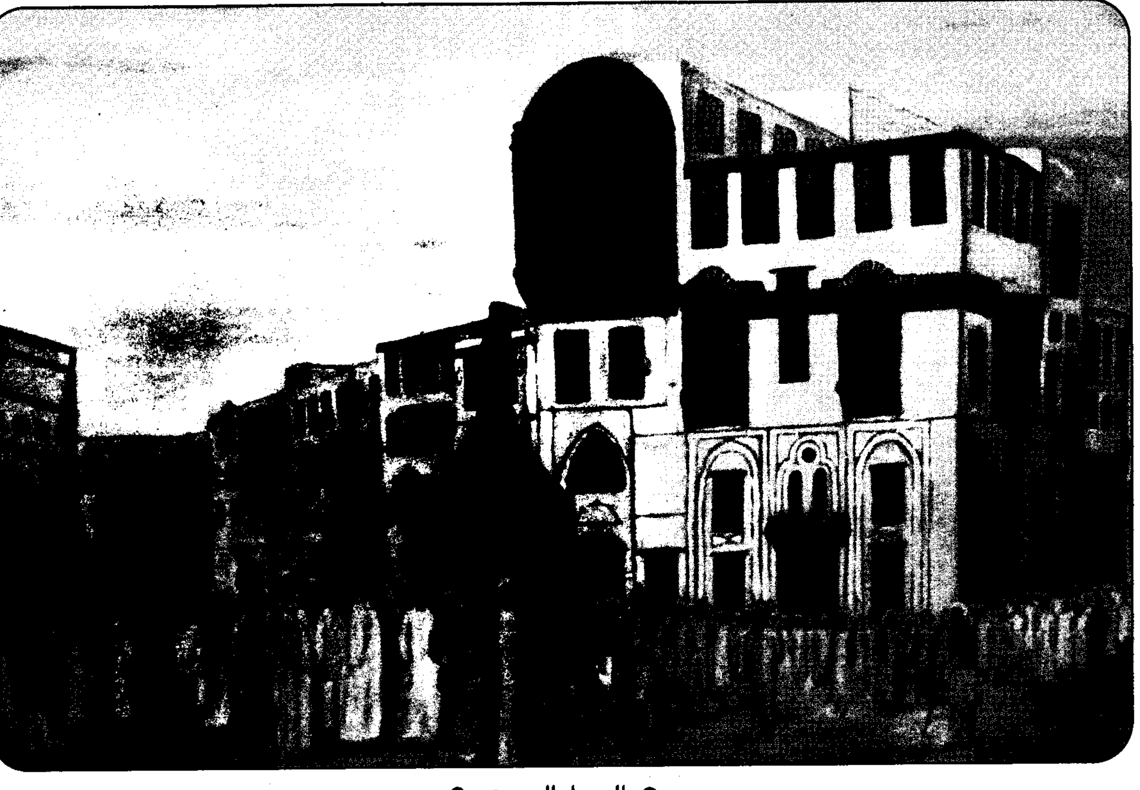
وتنفــرد مكة المكرمة في أيام عيد الأضحى المبارك بانشغال الجميع في خدمة حجاج بيت الله الحرام فيما بين مكة المكرمة والمشاعر المقدسة لأن ذلك هو المــوسم الذي تزدحم به مكــة المكرمة عندما يؤجرون بيوتهم القريبة من الحرم، ولأن معظم السكان كانوا يستأجرون هذه البيوت وعند قدوم الحجاج يؤجــرونهــا عليهم ويكتفــون بغــرفتين أو ثلاث في الأدوار العليــا مما يسمى



● (الحرم المكي) صَرْحٌ شامخ وفخر للأجيال المسلمة ●

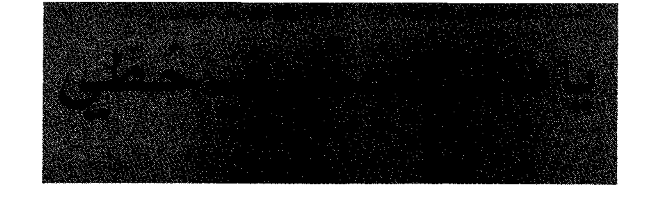
بـ«الدقيسي» و«الطيرمة» والأسطح التي حولها للاستعانة بموارد هذا التأجير لدفعها لأصحاب المُلك أو الوقف كما يستفيدون مما يفيض من هذا الأجر للتوسع في أعمالهم أو للتوسع في إعطاء أهلهم وأولادهم وكسوتهم وسداد ما كان عليهم من ديون للآخرين.. وللبيوت على كل حال أسرارها وأوضاعها التي لا تخفى على فطنة القارىء .. وعندما يغادر الحاج المنزل عائدا إلى بلاده يتنفس أهل البيت الصعداء فيعودون مرة أخرى إلى إعادة أثاث البيت إلى مواقعه ثم البدء في تبادل الزيارات بين العوائل والأرحام والأصهار..

هذه لمحة خاطفة ولكنها عميقة في صورها .. وتلك سُنة الله في خلقه..



● المحمل المصري ●

يا مطرة حُطّي .. حُطّي



ومن الطرائف التي اعتاد القوم عليها في الحجاز ما لا يمكن لي حصره، ولكن بالوسع مما عشته ومن خلال المشاركة الذاتية التي ساهمت بها أن أكتب عنها ما وسعني أن أكتب..

من تلك العـادات التي كان هدفها إيجاد جو من المرح يضفي على هذه المجتمعات ما يريح خواطرهم، وقد كان القوم أسوياء في النظرة إلى بعضهم البعض.. إذ لا فرق بين وجيـه وغفيـر.. ولا بين غني وفقير، لأن النظرة إلى بعضهم البعض وكأنهم أسرة واحدة، يحفّهم الحب، ويجمعهم التآخي، ويضمهم الوفـاء، إلا ممـا نَدَر ممن لا تسلم منهم المجتمعات بين كل الأقوام قاصيها ودانيها.. إذا أمطرت السماء، تسابقوا إلى وضع الطشوت على الأسطح لطبخ الأرز بالعدس.. ثم تنادوا إلى غداء: وليمته الرئيسية الأرز بالعدس والسمك النـاشف أو ممـا تيسـر في بيت كل منهم من أهـالي الحارة كبيرهم يحتفي بصغيرهم، والثري منهم يفرح بلقاء من كان حاله على قد الحال، في غمرة من المسـرة والاغتبـاط.. وقد أخذوا يتحدثون عن الأمطار ويتساءلون عن مواقع مساقطها.. ويتندرون بالنكات على من خرّ عليهم السقف، إذ كانت معظم البيوت مغطاة أسقفها بالخشب وعليه «الخسف» المصنوع من خوص النخيل ثم يهال عليه التراب مع مسحة رقيقة من النورة وميلان نسبي لتجري المياه من خلال الميازيب الممدودة خارج فتحات من السقف تطل على الشارع، ويا ويل مَنْ يمر مِنْ تحت هذه الميازيب آنذاك.

أما الشوارع فلا تسل عن «الرجغ» الذي كنا نغوص فيه إلى ما فوق الرجلين. وأحيانا إلى ما تحت الركبة .. كما لا تسل عن «الكاشح» المتولد من الهواء عند هبوبه مع هطول الأمطار مما يتسرب من الشبابيك المخلوعة أو المتهالكة مما



● (الجودرية) إحدى الأسواق الشعبية المغطاة بالقرب من الحرم المكي الشريف بمكة المكرمة ●

ينتج عنه «الرّطرطة» فوق الحنابل أو الجلايل، ثم ما يعقب ذلك عندما تنقع كلها مع الخسف ومما تحمله من بقايا غبار الأتربة التي تحتها.. وكل هذا يحدث والضحكات تعلو وترن، والتعليقات ما أحلاها وأجملها.. والأطفال يغنون:

يا مطرة حُطي، حُطي، على قريعة بنت أختي
بنت أختي جابت ولد، سمته عبدالصمد
جيبوا لي معاكم بقرة.. تحلب وتسقيني..
صيني على صيني..
والرب يحميني..

وعندما يحين وقت الغداء تتجمع الصحون على ألوانها: ملوخية .. بامية.. صينية خضار.. رِجْله.. سلك مع اللفت الورق الأخضر.. مقلقل.. صينية سمك عربي أو بياض ناشف بالبصل والطماطم بزيت السمسم - أرز أبيض.. أرز بالبصل والصلصلة..فول نابت بالكزبرة الخضراء.. وإلى آخر ما تحفل به مطابخ العوائل.. تلك التي كانت تطبخ على الفحم وبالسمن البري يا أخويا.. وبفن الطبخ إياه مما افتقدناه مع المستقدمين وأضرابهم ومن لفَّ لفَّهم.. وتصوروا جمعا كهذا يتحلق على مجموعة لم تكن مختارة في حينها، ولكنها تكونت وتجمعت بفعل المناسبة أو حتى بغيرها من المناسبات الجميلة..

ثم تصوروا كل واحد منهم يضع عينه على صحن ربما كان يتمنى أو يشتهي أكله منذ عدة أيام.. وبالذات عندما تضم هذه الأكلات أو كما يسمونها «صحنية» - بفتح الصاد، وسكون الحاء - صواني «الفتت» - بكسر الفاء وفتح التاء - من ملوخية.. إلى بامية.. إلى مقادم .. إلى فتة هوا .. أو فول نابت وعليها «الكُشْنة» - بضم الكاف وسكون الشين .

لا تذكروني أيها الناس.. إذ كنا نأكل بشهية عجيبة.. وكأنه الافتراس .. أو لكأننا جوعى، أو كأننا لم نكن نجد أكلا في بيوتنا .. لكنها الفرحة بالمطرة، والاحتفاء بها.. وبالاجتماع، وبتبادل الأحاديث الحلوة، من أدب، إلى اجتماع، إلى مناقشة قضايا محلية حيث لم تكن عندنا صحف محلية تعالج هذه الأمور، بل كانت تكتب في الأدب مع قصائد الشعراء وإلى آخره.. إلى ثقافة عامة. إلى تفسير آية قرآنية.. أو إلى استنباط مسألة فقهية حيث كان علماؤنا وفقهاؤنا متواجدون في كل حارة.. بل بين كل ثلاثة أو أربعة بيوت يوجد بيت عالم أو فقيه أو مقرىء حافظ أو استاذ في مدرسة..

ونعود إلى قصة الصحنية:

إن بعضهم يخلط كل هذه الأنواع في صحن واحد.. ثم لا تسلم هذه التصرفات من تقليد بعضهم بعضا.. كما لا يسلم بعضهم من خطف صحن من الآخرين في حالة من «النطنطة»، وتَخطّي الآخرين والزوغان هربا بصحنه من افتراس الآخرين..

وعند الفراغ من الطعام «يندس» الشباب - على قلتهم - من المدخنين عن أعين الكبار لئلا يرونهم.. وتلك هي من إحدى وأبرز مظاهر الاحترام والتوقير من الصغير للكبير.. وبعد لحظات تكون القهوة والشاي الأخضر الصيني الذي يصنع بطريقة فنية هي كالتالي: يغسل الشاي الأخضر الأصلي بماء بارد.. ثم يصب عليه الماء المغلي في البراد الصيني وليس المعدني، بعد هدوء غليانه نسبيا .. ثم يغطى بغطاء سميك لمدة خمس دقائق .. ثم يقلب بطريقة خفيفة.. ثم يصب على الأكواب أو الفناجيل وبسكر قوالب .. ما أحلاه وما ألذه.. ثم يأخذ القوم بعد ذلك في الانصراف إلى بيوتهم أو إلى أعمالهم لقضاء شئونهم وأمور معاشهم .. لكن تظل مثل هذه الاجتماعات مطلبا دائما بين كل عدة أيام.. غير أن أهل الحارة يجتمعون في العصاري أمام بيوتهم على دكة.. أو على مركاز كل ثلاثة أو أربعة من الجيرة والأصدقاء يجتمعون ويتحدثون في أمور الدنيا وأحوالها وأمور معاشهم.. وعن أولادهم ومدارسهم ومناهجها، وأصول تربيتهم، حتى إذا حان أذان المغرب ذهبوا إلى أقرب مسجد لأداء الصلاة فيه .. ثم العودة إلى بيوتهم أو إلى مجتمعاتهم التي تسمى بـ «البشكة» يتسامرون على ما اعتادوا عليه من تبادل الأحاديث الودية، ومعظم هؤلاء يذهبون إلى المسجد الحرام للطواف وأداء صلاتي: المغرب والعشاء وفيما بينهما يحضرون دروس العلم في حلقاته المتعددة تلك التي تجمع بين الفقه وأصوله، والحديث وأصوله، وعلوم الأدب والمنطق وعلم البيان والبديع كحلقات سيادة السيد علوي عباس مالكي والسيد محمد أمين كتبي والشيخ عيسى رواس والشيخ عمر حمدان وإلى عهد قريب حلقات فضيلة السيد محمد علوي مالكي وقد تخرج على أيديهم وبتعليمهم آلاف وآلاف بثقافة دينية متفوقة، ثم عادوا إلى بلادهم وبالذات

الوافدين لنفس الغاية..

وبعضهم يذهب إلى مجالس العلم تلك التي تقام في بيوت العلماء في كل أسبوع يومان أو أكثر وخاصة مدرسة آل البار وآل المالكي وآل فدعق والشيخ حسن مشاط.. والشيخ محمد نور سيف وغيرهم كثيرون.. ومن الطريف حقا بعد انتهاء الدرس أنهم يتلون دعاء صيغ شعرا إذ يقول:

رَبَّــنـا انْـفَـعْـنَـا بِمَـا عَلَّمْـتَـنَـا
رَب عَلِّمْـنَـا الذي يَنْـفَـعُـنَـا
رب فَقِّــهْـنَـا وفَـقِّـهْ أهْـلَنـا
وقَـرَابَــاتٍ لنـا في دِيـنِـنَـا
مع أهل القُطْرِ أُنْثَى وَذَكَرْ

رَب وَفِّـقْـنَـا وَوَفِّـقْـهُـمْ لمـا
تَرْتَــضِــي قَوْلا وَفِـعْـلاً كَرَمَـا
وارزُق الكُـل حلالا دائـمـاً
وأخـلَّا أتْـقِـيَــاء عُلَمَـا
نَحْظى بالخَيْر وَنُكْفَى كُلَّ شر

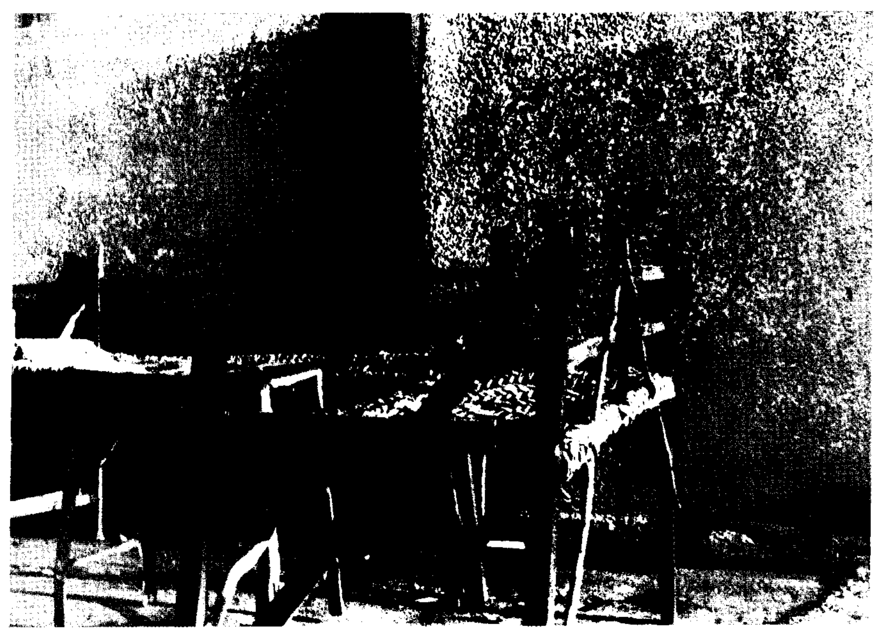
رَبَّـنَـا أَصْـلِحْ لَنَـا كُل الشـؤونْ
وَأَقِـرَّ بالرضـا مِنْـكَ العُـيُـونْ
واقْض عنَّـا رَبَّـنَـا كُلَّ الدّيـون
قَبْـل أن تَأتِـينَـا رُسْـلُ المَنُـون
وأغْفِر أسْتُر أَنْت أَكْرَمْ منْ ستر

وَصَــلاَةُ الله تَغْشـى الْمُصْـطَفى
مَنْ إلى الحَـق دَعَـانَـا والْوَفَـا
بكِـتَـاب فِيـهِ لِلنَـاسِ الشّـفَـا
وَعَـلى الأهْـلَ الكـرامِ الشّـرَفَـا
وعـلى الصَّـحْبِ المصـابيـحِ الغُـرَر

اللهم اهدنا بهداك.. ولا تولنا وليا سواك.. واجعلنا مِمنْ يتسارع في رِضاك.. ولا تجعلنا ممن خالف أمرك وعصاك.. وحسبنا الله ونعم الوكيل.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. والحمدلله رب العالمين.

ومنهم من يلعب الورق «الجوكر» أو «الهندية» أو «الكنجفة» أو «الدامة» أو «الشطرنج» .. وكانوا «حريفة» ـ بفتح الحاء وشد الراء وكسرها ـ وكانوا يغضبون غضبا شديدا من الغش لو طرأ عليهم من طارىء في البشكة حتى ولو كان ذلك من باب «الغلاسة» غير أن منهم من كان ينضم إلى كبار السن لتبادل الأحاديث إلى جانب بث الشكاوى النفسية أو الاجتماعية أو المالية التي تغزو المجتمعات عادة في شئون حياتهم وأمور معاشهم.. أو تبادل الرأي عندما يكون أحدهم قد تلقى خطوبة لإحدى بناته.

أو أنه هو يريد أن يخطب عروسة لأحد أولاده أو أحفاده مثل هؤلاء الرجال يملكون القدرة علي استكناه ما يتناولونه من آراء يخلصون بها على إبداء رأي له وزنه واعتباره.. أو إبداء نصيحة للمزيد من التحري والتقصي عن الخاطب والمخطوبة.. أو يكون أحدهم.. وقد حزبه أمر من أمور الدنيا: قضية.. حالة اجتماعية .. حالة اقتصادية.. حالة معنوية يعانيها .. مواقف سمع عنها فأفرحته.. أو تصرفات علم بها فقززت نفسه.. وإلى آخر ما يلوب في نفوس أمثال هذه المجتمعات الخيرة ذات الصفاء النفسي وكذلك الذهني .. غير أن الحياة، وأسباب المعاش وتسقط الرزق في أرجائه لا تخلو من نقائض الأشياء رغم الحرص على سلوك الطريق السوي المستقيم.. ومن كلمة إلى كلمة.. ومن رأي إلى رأي .. وكما يقولون «الرأي محوشَة» .. إذ من خلال كل هذه الحوارات وتطارحها تدخل كلمة، أو رأي في نفس من كان يحمل همّاً، أو كُربةً، أو يلتمس فكرة ليطرد بها ما كان خاطره يمور به.. ويلوب في نفسه.. ولذلك كان غشيان هذه المجالس الخيرة لذوي الخبرة والتجارب مصدراً ثراً لاكتساب ما يفيد الإنسان لاتخاذ موقف سليم لما كان يكربه أو كان يقض مضجعه.. أو لإبعاده عن ارتياد مواطن الشر ومظانها..



● (المركاز) كرسي الشريط لجلسات السمر في القهاوي والمتنزهات ●

وثم لم نكن على أيامنا نشاهد أو نسمع في هذه المجالس عما يطلق عليه المهاترات، أو الترهات كما هو حال بعض المجالس في هذه الأيام.. ولئن كانت بعضها نجد فيه زخم التساؤلات عن الأحوال وطبيعتها وعن السوق وحركته وعن الاحتياجات بعمومها وتفصيلها وارتفاع أو انخفاض أو اعتدال أسعارها..

ثم يتحول الجمع إلى حلقة أو حلقتين لممارسة لعبة «البلوت» التي غشيت كافة المجتمعات على اختلاف مستوياتها.. حتى النسوة غلبت عليهن هذه الهواية وفي ظني أنها أفضل من «قرض الألسنة» تجاه الغائبين والغائبات مما يسمي بالحديث عن الممارسات التي تغلب عليها الشائعات بمفهومها الواسع.. إذ معظم ما يقال لا يخرج عن كونه شائعة في شائعة.. إذ هي موضة العصر ليس في بلادنا فحسب، بل وفي كل بلدان العالم.. ولعلنا لا نبتعد كثيرا إذا قلنا إن الانتخابات الأمريكية والأوروبية وفي غيرها من البلدان تعتمد في وسائل انتشارها على الشائعات كأن تعتبر «جس نبض» أو محاولة لبث فكرة بين المتنافسين.. وقد برع اليهود في هذا الأسلوب منذ القدم.. كما تستعمل

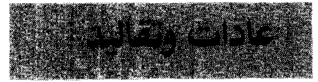
الشائعات بين طالبي المناصب.. إذ يطلق أحدهم على مجموعته التي حوله من المستفيدين وغيرهم بأن «فلانا» سيكون وزيراً.. أو مديراً عاماً لبنك.. أو مديراً عاماً للهاتف أو رئيسا للغرفة التجارية الصناعية.. وهكذا.. لكي يبرز هذا الاسم في واجهة من يهتمون بالشائعات ومردودها.. ويا بخت من تصح معه الشائعات.. بصرف النظر عن خيبة أمل الآخرين.. إذ ليس شرطا الكفاءة لأن الاختيار له مبرراته التي لا تخفى وقد لا تشترط الكفاءة وحدها بل لابد من توفر معطيات التكليف من خلال الاختيار للرجل المناسب في المكان المناسب..

وعادة ما تنشأ على الأثر فكرة الترشيح التي يتم الاختيار من خلالها بما يراه الرأي السديدُ.. لأن معطيات «التكليف» لها مايبررها ويميز مفهوم الاختيار من خلالها..

إن الكلام عن هذه المجتمعات لا ينضب معينه.. لأن أهلها كانوا ومازال معظمهم يتمتع بالكثير من المزايا والسجايا التي يعيشونها حتى ولو كانت في نطاقها الخاص بهم..

وقد تلمس هذه المظاهر على الأبناء، عندما تكون الدواعي بخصوصياتها أو عمومياتها قد مست من قريب أو بعيد تلك العادات والتقاليد إذ تجدهم يهبون وباحتجاج صارخ بأننا والحمدلله مازلنا على ما كان عليه أباؤنا وأجدادنا وأسلافنا سلوكا لحمته وسداه الخوف من الله ومحبة سيد البشر صلى الله عليه وسلم واتباع سنته والحرص عليها وبالعض على النواجذ..

نسأل الله العلي القدير الحفاظ على ما حبانا الله من الخوف منه واتباع سنة نبيه وحبيبه وحبيبنا سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم.



من الطرائف التي كانت تفوح بعبقها الجميل، ما تتناوله هذه المجتمعات من مواقف، وتصرفات واحترامات تتفق مع ما كان عليه القوم من العفوية وحسن الطوية والنية، وأخذ الأمور بالتريث وما يسبقه من التقصي والتحري عن

الأسباب والموجبات التي تمور بها حياة الناس وتغشى مجتمعاتهم .. حتى إذا ما بدرت من أحدهم تجاه الآخر بادرة خير كان هدفها غرس المعروف في نفوس من كانـوا في حاجـة إليـه.. أو بادرة تقـزز المشـاعر مما تتولد منها بعض الحساسيات وبما تتعرض له العلاقة بشيء من التوتر أو الفتور كأن يقال: «فلان أخـذ على خاطره من فلان».. كذلك تنشـأ بين شخص وآخر ملاحاة ساخنة يستعمل فيها بعض الكلمات القاسية والجارحة مما كان لا يحدث إلا نادراً.. وإن حدث فإن لشيـخ الحـارة، وهـو المـرجـع لأهلهـا، والحكم الفصـل بين المتخاصمين.. كأن يحكم على المخطىء بخروف لتعديه على سمعة المركاز وأحد أفراده.. وخروف آخر لاحترام المشيخة.. وقد حكم أحد مشائخ الحارة على أحدهم بذلك وكان من حكم عليه بذبح الخروفين من الأشحاء.. لكنه وجه الدعوة لأصدقاء الطرفين، وصادف أن سافر العمدة إلى خارج المدينة لمهمة خاصـة.. وعـرف من كان عليـه الحق أن العمـدة لن يحضر الحفل الخاص بالمصالحة.. فما كان منه، وقد اكتمل عقد المدعوين إلا أن يقول للمدعوين: الغداء جاهز.. بس مستني «أي منتظر» العمدة.. فقالوا له العمدة مسافر.. لكنه أصر على موقفه .. وأذن العصر.. فقاموا للصلاة جماعة.. وبعد الصلاة فرش الصفرة.. ووضع عليها صحون السلطات وأقراص العيش والملاعق إيهاما لهم بأن الخرفان آتية في الطريق من عند الطباخ .. وإذ هم في حالة الانتظار وقد استبد بهم الجوع وعض بطونهم كما كانوا يقولون إذا بعدة تباسي ملأى برز مخلوط بالعدس.. فتساءلوا: وأين الخرفان..

قال: لقد شردت.. وهذه بدل عنها..

فكان موقفا.. أو مقلبا كما يطلقون عليه في عصرنا الحاضر..

وعاد العمدة الذي علق على الموقف خيرها في غيرها .. لكن قالوا بصوت واحد: بعيد الشر عنك ياعمدة..



وذهب أحدهم يوما لأحد الموسرين ليستلف منه عدة جنيهات ذهبية لحاجته إليها، وكان من قصده من الذين إذا دخل الجنيه الصندوق لا يرى النور أبدا..

صاحبنا الموسر استحى من صديقه.. فبدلا من الاعتذار السريع.. وتصريفه بالأسلوب غير اللائق.. أخرج أحد الجنيهات التي وصلت إليه من توها.. وأخذ يرفعه ليرن على الطاولة التي أمامه عدة مرات، وصديقه يشاهد المنظر بشيء من الدهشة حينا، وبشيء مما كان يظن بأن الجنيه غدا ألعوبة في يد صاحبه الثري.. ثم التفت إليه صاحبه ليقول له: هل علمت بما يقوله الجنيه من رنينه.. قال صديقه: لا .. فقال له الثرى اسمعه يقول:

جـــمـعـــتني كـــــددا

واحـــصــــيتني عــــددا

وإذا خرجت فلن أعود أبدا

هيـا : اســـتودعك اللــــه

* * * * *

وقد نشرت في كتابي «الأمن الذي نعيشه» الجزء الثاني باب «راحة البال من أمن المال» من صفحة ٧٢٨ إلى ٧٣٠ الطرائف التالية:

كنا في الماضي نستلف من بعضنا البعض عندما يحتاج أي منا إلى المال لقضاء أي استهدافات مما كان الاحتياج للاقتراض هو المطلب الملح لتحقيق الغاية منه..

منها مثلا: إكمال مبنى شرع ببنائه شخص ما ونفد المال دون انتهاء المبنى.. أو لدفع مهر، أو لسفر للعلاج وتصوروا كيف كان أجدادنا القريبون منا زمنا، قبل ٥٠ـ٦٠ـ٧٠ عاما، يضحون في سبيل بعضهم بعضا حتى بالمال وبكل السماحة والاغتباط.. وفي أيام كان الجنيه الذهب ليس له الوزن فقط، بل المردود الغالي الثمين..

وسمعت حكايات كثيرة منها:

ذهب أحدهم إلى صديق يسأله الرأي والمشورة للحصول على قطعة أرض

ليبني عليها دارة تؤويه وأهله وولده.. فما كان من هذا الصديق إلا أن عرض عليه أن يبني دورا فوق الدور الذي يسكنه بدلا من شراء قطعة أرض يبني عليها بيتا.. إذ لعل في هذا وفرا ماديا يستفيد منه لأغراض أخرى.. ثم تصوروا أمراً آخر قد لا يخطر على بال أحد في وقتنا هذا، وزماننا هذا.. نعم زماننا هذا.. أن كلا الطرفين لم يخطر على بالهما. أن يتكاتبا على مثل هذا الاتفاق والتنفيذ لدى كاتب عدل.. أو لدى قاض في محكمة موقعهما..

ظهر هذا عندما أسقط في يد ذرية كل منهما عندما أرادت الدولة هدم مجموعة من المنازل يقع منزلهم من ضمن هذه المنازل للصالح العام.. ثم طُلب منهم إثبات الملكية لتسلم التعويض، لإثبات ما لديهم كصك للملكية ونحوه..

لكن الدولة لم تكن لتهضم حق أحد من هؤلاء .. بل أعطتهم حقهم وزيادة بعد أن سهلت لهم كيفية الحصول على صكوك بالملكية على شهادة شهود عدل .. لأن عامل الثقة مازال يعيش بيننا إلا الشاذ من هذه القاعدة.

* * * * *

لو رددتها لوجدتها:

وقد يحسن بي أن أورد قصة لطيفة تحمل فيضا من الحكمة، ومن التوجيه الأدبي الأصيل.. قصة سمعتها من أستاذي الكبير فضيلة السيد علي المالكي عم فضيلة السيد علوي مالكي رحمهما الله.. تقول القصة:

كان رجل موسر يقرض الناس ويساعدهم، وطريقته في الإقراض كانت تتم بالعطاء في حدود ما يطلبه المقترض.. وكان يضع النقود في خانات عديدة كما هو حال خانـات مفاتيح الفنادق لزبائنها، ٥ـ١٠ـ١٥ـ٢٠ إلى مائة دينار مما كانت متداولة في تلك الأيام الخوالي.. فإذا جاء من هو في حاجة إلى ٥ دنانير لأي استهداف من الاقتراض، أشار له إلى إحدى الخانات فيجد فيها المبلغ المطلوب لاقتراضه.. وعندما يعرض المقترض كتابة سند بالتسلّم يقول له: إذا رددتها ضعها في نفس مكانها..

وتمر الأيام...

ويعود المقترض بالمبلغ الذي عليه فيضعه في نفس مكانه، وكثيرون غيره كانـوا يردون ما اقترضوه. وآخر يأتي لاقتراض ١٠ دنانير، وبنفس الأسلوب يحصل عليها، ودون إيصال يكتبه.. وتمضي الأيام تلو الأيام.. ثم يعود للمزيد من الاقتراض.. عشرة دنانير أخرى.. فيشير له صاحبنا هذا إلى نفس الخانة التي كانت عامـرة بالعشرة دنانير.. فيمد يده للخانة فلا يجد شيئا .. ويلتفت لصاحبنا المحسن المفضال، قائلا: لم أجد شيئا.. فيرد عليه وبمنتهى الهدوء المشوب بالتأمل الباسم: لورددتها.. لوجدتها..

* * * * *

مطلوبك عند جاري :

ومما يعرف عن أجدادنا قريبي العهد بنا وبزماننا .. أن أحدهم، عندما يفتح دكانه.. ويبيع من بضاعته شيئا ما.. يحمد الله على ما رزقه.. وبعد لحظات يأتي زبون آخر ليشتري شيئا من موجود صاحبنا هذا والذي رآه الزبون وأعجبه.. فيعتذر عن بيعه حاجته التي يريد شراءها.. ليحيله إلى جاره قائلا: مطلوبك عند جاري أيضا.. إذ رزقني الله فبعت ما أراد الله لي بيعه..

أما جاري فلم يستفتح بعد.. اذهب واشتر منه..

وكـان أحد أصحاب الدكاكين يستخدم من يساعده في دكانه، فحدث أن جاءه أحد المشترين لسكر وشاي، فباعه.. ثم جاء زبون آخر فباعه أيضا.. وعند قدوم صاحب المحـل ذكـر له بأنه باع كذا وكذا، ثم جاءه من اشترى سكر وشاي.. فقال له: لماذا لم تجعله يشتري من جاري ما دمت قد بعت للزبون الأول .. ثم التفت إليـه وأعطاه حقوقه وقال له: انصرف عني فأنت رجل غير أمين.. وكان ذنب هذا المساعد هو أنه لم يراع حق الجيرة لكي يستفيد هذا الجار ويستفتح من الزبون الثاني.. هكذا كانوا.. رحمهم الله..

* * * * *

وأحيانا في تلك الأزمان كانت تحدث مهاوشات ومضاربات يعدونها شيئا من القسوة والعنف.. منها اعتداء بالشتم المؤذي للشرف على اختلاف مكتسباته والتحلي به.. وهذا ما كان الحكم فيه قاسيا وشديدا..
كيف؟...

يجتمع المختصمان.. وكل منهما يدلي دلوه لشيخ المحلة وكبار رجال الحارة.. وبعد المرافعات من كلا الطرفين يتداول العمدة ورجال الحارة أطراف القضية .. ثم يعودوا للمزيد من الاستفسارات عن الدواعي والدوافع والأسباب حتى يتم التقصي والتحري عن مجرى العلاقات بين الطرفين منذ الماضي وأبعاده.. وعما إذا كانت هناك حزازات نفسية دفينة بين العوائل ورجالهم وفي جلسات واجتماعات أخرى يجري شرح ما تم استعراضه فيما جرى بين المتخاصمين.. وطرح ما توصل إليه المحكمون ويمثلهم العمدة ونفر من كبار رجال الحارة..

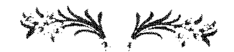
ثم يصدر الحكم على المخطىء بـ «النَّقا» وتعريف كلمة «النَّقا» ـ بشد النون وفتحها ـ هو أن يقوم المخطىء أو المخطئون في حفل يقام خصيصا لهذه المناسبة ـ بعد حلق رؤوسهم بالموس ـ ويحضرون ومعهم خناجر حادة أو سكاكين حسب الموجود.. ثم يتلى الحكم بحيثياته.. حتى إذا فرغ العمدة من تلاوة الحكم أخذ المخطئون في قرع رؤوسهم المحلوقة بالخنجر أو السكين الحاد حتى يسيل الدم على خدودهم فيتسارع بعض الحضور ومن كان لهم الحق من الخصم بالطلب إلى هؤلاء بالتوقف عن قرع رؤوسهم، وبذلك تكون النفوس قد صفيت وياد ار ما دخلك شر.

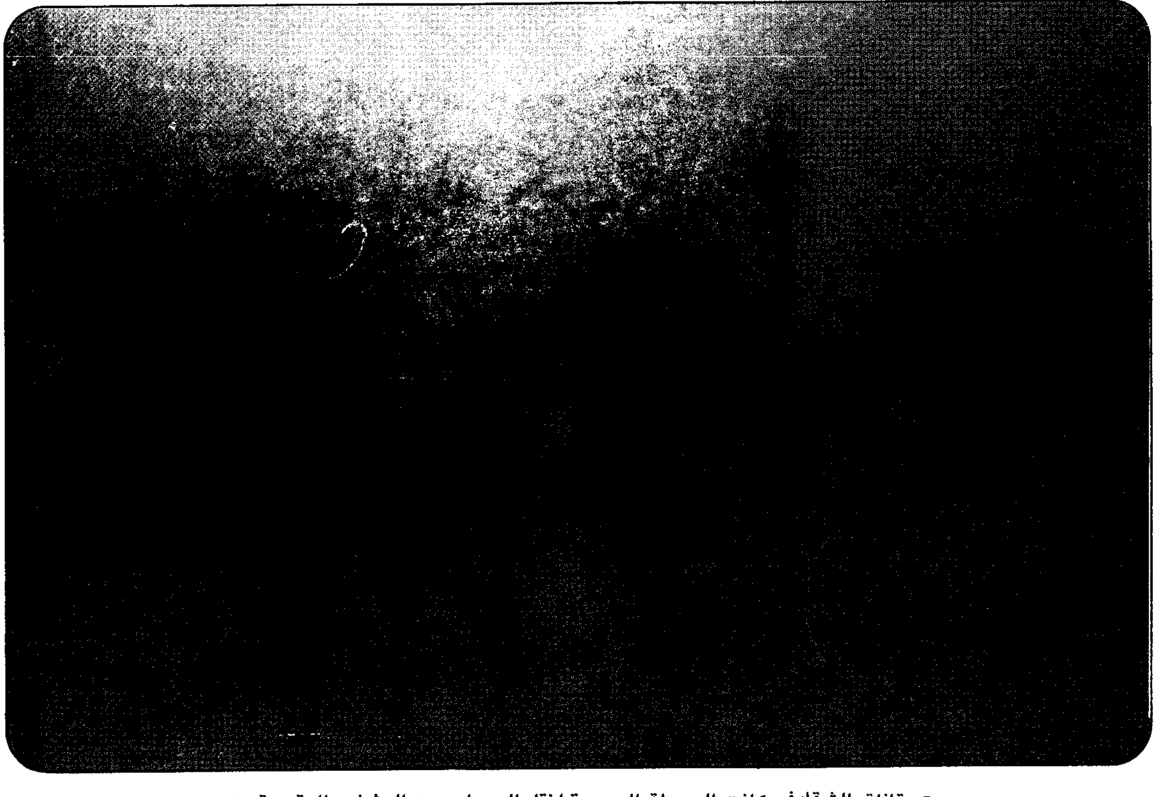
إن مثل هذه الأحكام لا تشكل مخاطر دموية كما قد يظن البعض.. لأن الضرب بالسكين كأي لمس خفيف لفروة الرأس والهدف منه هو فصد الدم وسيلانه .. ولأن الجرم يستحق مثل هذا الحكم ومن ورائه العقاب الذي حكم بتنفيذه.

وأحيانا تأتي بعض العوائل من حارة إلى أخرى .. يقابلون بالترحاب وإبداء

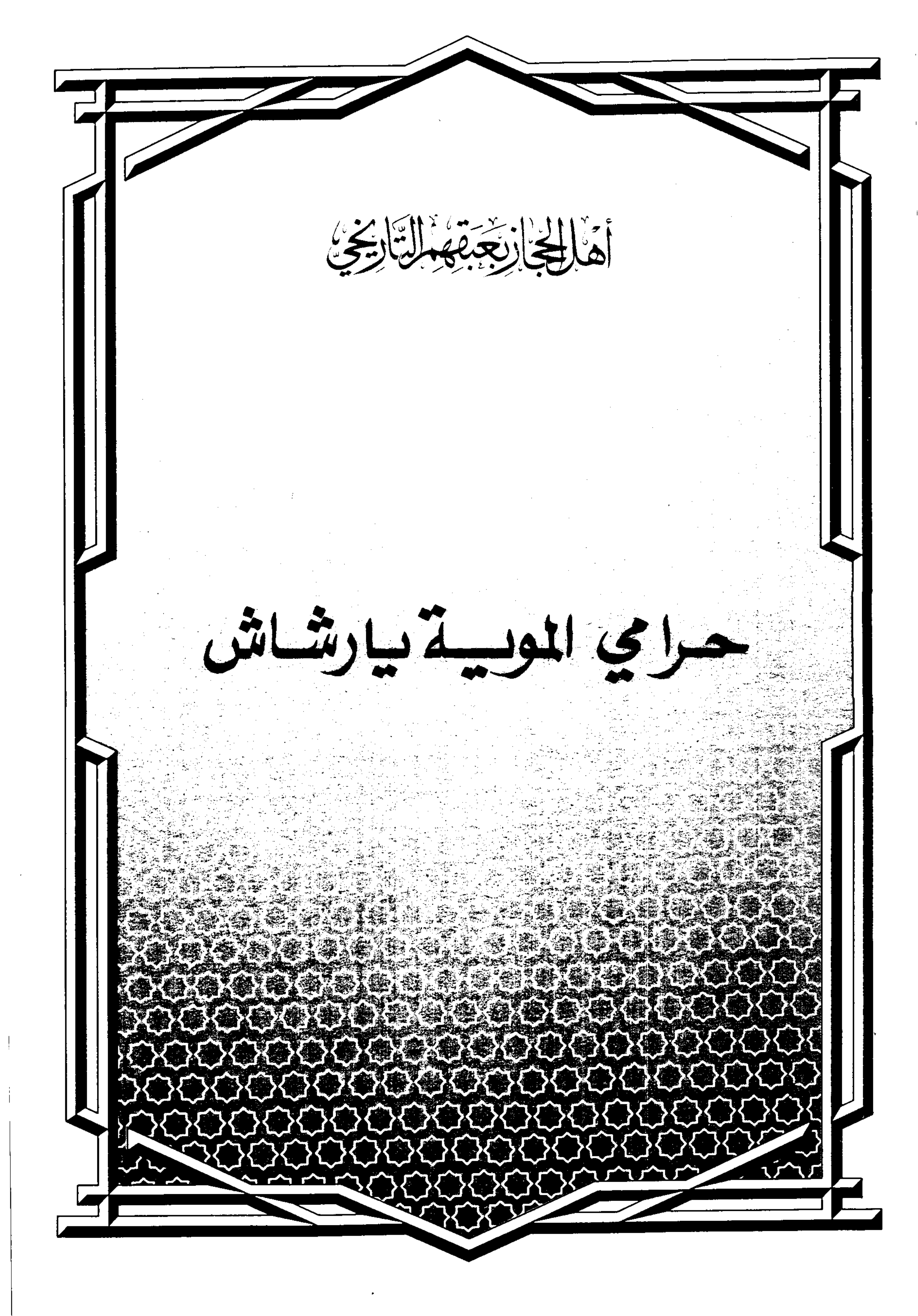
الاستعداد لتقديم أية خدمات يحتاج إليها الوافد الجديد من أهل البلاد ورجالاتها.

ومن تقاليد الحارات ألا يحدث أي نقر على الأبواب وخاصة في منتصف الليـالي منعا للإزعاج الذي لا مبرر له.. ومن حق صاحب البيت الشكاة إلى العمدة لمنعه.. وللحارات تقاليد يطول شرحها وتفصيلها لضيق المجال لأن لكل خطأ يرتكب من شخص لآخـر، أو من جمـاعـة لأخـرى جزاؤه .. وللتسامح والتصافي في مجالهما الذي به تتصافى القلوب والنفوس.





● قافلة الشقادف كانت الوسيلة الوحيدة لنقل الحجاج بين المشاعر المقدسة ●


أهل الحجاز بعبقهم التاريخي
حرامي الموية يا رشاش

في الصيف وفي الشتاء.. وعلى طول أيام السنة لا يستغنى عن الرشاش.

وكل أهل الحجاز يقومون برش الماء أمام بيوتهم وبخاصة أصحاب المراكيز والدكاكين.. .لأن الأرض كلها متربة .. وحجارها الصغيرة كالمسامير.. وبالذات تلك التي تنحـدر من علٍ كريع الرسام مثلا.. أو جبل أبي لهب وهو مما يلي مستشفى النساء والولادة، ذلك الذي بناه الشيخ صدقة كعكي وأهداه لوزارة الصحة أيام كان صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله الفيصل وزيرا للصحة، وكان أول وزير لها في عهد آل سعود.

من المظاهر اللطيفة التي مازالت تعيش في ذاكرتنا بحلاوتها ولطيف عطائها ذلك الخزان الذي يمشي بالماء.. وينعقد سؤال: ما هو هذا الخزان الذي يمشي؟ نعم إنه خزان يمشي على أربع..وأحياناً على أكثر من أربع..

إنه خزان الماء وقد ثُبِّت في ذيله ماسورة بقطر بوصتين «أي بقطر ٥,٠٨ سنتيمتـر» وقـد ثقبت عدة ثقوب من أولها إلى آخرها وسدت فتحاتها بطريقة عرضية.. وقد أوصلت بفتحة ثقبت في خزان الماء ولها مفتاح لبث الماء منها ليرش الأرض المتربة التي كان يتمتع بها الشارع الرئيسي في مكة المكرمة حتى بدأت سفلتتـه في السبعينات الهجرية على ما أذكر.. وأيام كان الشيخ عبدالرؤوف صبان أمينا للعاصمة المقدسة إذ كان هو صاحب فكرة السفلتة في الوقت الذي نصحه صاحب الجلالة الملك فيصل رحمه الله أيام كان نائبا للملك بأن يضـع وسـائل الخدمات تحت الأرض في شكل أنفاق تجمع بين كابلات الكهرباء وأسلاك الهاتف ومواسير المياه لئلا يعود مرة أخرى لتكسير الأسفلت لعمـل وسائل الخدمات المطلوبة.. ولكنه كان يخشى أن تتعطل السفلتة، لأن

الشارع الرئيسي على وضعه ذلك يعتبر غير مناسب لمقام مكة المكرمة وأهمية ثقلها التاريخي..

وقصة هذه الخدمات قصة طويلة لا مجال لبحثها الآن.. غير أن الذكريات، وخاصة «حرامي المويه يارشّاش» حيث كنا نجري خلفه ونردد هذه الأنشودة ذات البساطة والعفوية لكي نأخذ من هذه المياه بما نغسل به وجوهنا من الغبار الذي علاها، و«للبشبشة».. ورغم مطاردة رجال البلدية لنا، إلا أن حالة الزوغان كانت تتغلب على هذه المطاردة، وقد كان بيننا من هم أولاد لرجال البلدية الذين يطردوننا محاولين الابتعاد عن الرشاش.

وقد كان هذا الرشاش يلعب دورا لطيفا في ترطيب الجو وخاصة في أيام الصيف، وفي الوقت نفسه تأتي السيارات من خلفه فتزيل الطبقة الرقيقة التي كانت تغشى الأتربة ثم يعود الغبار كما كان فيتحرك مع الهواء وخاصة في فصول الصيف التي كان يكثر فيها ما يسمى بـ «الإعصار»... وبعض السذج يحوقلون ويستعيذون من الشيطان الرجيم لأن «الإعصار» في مفهومهم يشكل «جنّياً» التف بهذا الغبار.. وكانت تتم تعبئة خزان الماء من بستان البلدية في الزاهر أو من «بركة ماجل» بالمسفلة.. وقد اشتهر سائق الخزان باسم «نظام الدين»..

الماء في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة

ورد في كتاب «مكة .. في القرن الرابع عشر الهجري» ما نقتبسه عن قصة الماء في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة لمؤلفه الأستاذ محمد عمر رفيع:

كان قبل عهد «زبيدة» ـ زوجة الخليفة هارون الرشيد العباسي واسمها «أمة العزيز» ـ يشرب أهل مكة المكرمة الماء من آبار حول المسجد، ومن عيون أضياف في ضواحيها، ولا يخلو جلب الماء منها من مشقة، وكثيراً ما يتعرض الحجيج وأهل مكة لأزمات في الماء خصوصا في فترات حصول اضطرابات وفتن في العالم الإسلامي، وبين ملوكه، وفي الفترة بين انتقال الخلافة من بني

أمية إلى بني العباس، حصل مثل ذلك، إلى أن وفق الله السيدة «زبيدة» في جلب عين في أعلى «وادي نعمان» اشترتها من أصحابها بقصد إيصالها إلى قلب مكــة المكــرمــة.. فلمــا وصلوا إلى قرب البلدة بين منى ومكــة المكــرمة اعترضتهم قطعة صخرية في الأرض في طول خمسين متراً تقريباً في عمق مثل ذلك أو ما يقارب فرأت الهيئة أو الجماعة التي كانت تشرف على العمل أن يكتفى بالحد الذي وصلوا إليه بالمجرى، وهي البئر التي عرفت بعد ذلك بـ«بئر الجن» والكائنة بين مكة ومنى.. وجعلوها واسعة الفوهة، وصنعوا لها درجاً ينزل منها من يريد الماء من السابلة، وبحثوا عن عين أخرى لإدخالها إلى مكة المكرمة، فاشــتــروا «عــين حنين» وهي التي عرفت بين المكيين بـ «عين الزعفــران» وأوصلوها إلى أسفل مكة وجعلوا «عين نعمان» خاصة «بعرفة» في زمن الحج. وبنوا لها في وسط «عرفة» البرك والصهاريج ليستقي بها الحجاج.. وقد كانت توجد في مكة المكرمة برك، منها بركة كانت في الخريق بجوار برحة الرشيدي اليوم، تعرف بـ «بركة الشامي» دُفنت على عهد الشريف الحسين بن علي أمير مكــة المكرمة، بعد أن بنى فوقها خزاناً للماء «بازان» يستقي منه.. وكان في الجهة المقابلة في رحبة الحلقة القديمة بركة أخرى دفنت منذ عهد بعيد.. على أنه كانت إلى عهد قريب بركة بأسفل مكة، ومحلة المسفلة، بركة أخرى عُرفت ب«بركة ماجد» وصوابه «ماجل»، إذ هي مشرعة لمجرى عين تنبع من شعب عامر والجبال التي تليه، وكان عليها زرع ونخيل آلت ملكيتها للأشراف العبادلة، وأخالها وقفاً، وقد دفنت البركة الكبيرة وانعدم منه النخيل.. ولما كانت مجاري العيون يشق الكثير منها بطن الوديان المعرضة للسيول، خصوصا مجرى عين زبيدة، فإنه يمر من قلب «وادي نعمان» وهو واد فحل، تتلاطم وتتجمع إليه مياه كثيرة من الشعب المتفرعة منه، وكثيراً ما ينقطع الماء عن عرفة ومكة المكرمة بسبب خراب وانسداد الجزر التي على المجرى في الوادي المشار إليه فيبادر أهل مكة لإصلاحه وتلافيه، لكن في بعض السنين يكون الخراب جائراً يعز على كفاءتهم إصلاحه،، ويظل سكان مكة والحجيج بعرفة يعانون من قلة الماء الكثير من الشدة...



● الزير أبو المرفع لتبريد ماء الشرب قديما ●

وفي أواخــر القــرن العــاشر، حصل مثل ذلك، فرفعوا الأمر إلى السلطان سليمان القانوني العثماني ابن السلطان ياوز سليم، أول من استولى على مصر والحرمين من سلاطين آل عثمان عام ٩٢٢هـ.. فأخذته الأريحية وأمر على الفور بالبدء في إصلاح مجاري العين إلى أن يصلوا بها إلى مكة.. وما أن علمت إحدى كريمات السلطان، واسمها «مهرماه» أو «فاطمة» أن الذي جلب هذه العين

إلى مكة هي السيدة «زبيدة» حتى رغبت إلى السلطان أن يكون تعمير العين باسمها، وعلى حسابها، وبدأ العمل في الإصلاح واستمر طبيعياً إلى أن وصلوا إلى المكان الذي توقف فيه عمل السيدة «زبيدة» رحمها الله، واكتشفوا القطعة الصخرية التي اعترضت أداءها وأنها مما يشق اختراقه، فرفعوا الأمر إلى السلطان شارحين له الوضع، ولما كانت السلطنة في عهده في أوج مجدها، فقد كانت له عدة فتوحات في أوروبا، وكانت جيوشه تقرع أبواب «فيينا» عاصمة النمسا، عزَّ عليه أن توسم بالعجز دولة هذا شأنها في شق مجرى عين لا يزيد طوله عن خمسين متراً، فأصر على العمل وكلف القائمين بالاستمرار مهما كلف الأمر، ولما لم يكن معروفاً في تفتيت الصخر غير الإيقاد عليه بالنار بالحطب، ثم تكسيره، بدأوا يجمعون الأحطاب ويوقدونها على وجه الصخر، ثم يضربون الذي أوقد عليه النار إلى أن يتفتت، وهكذا حتى عز وجود الأحطاب، فصاروا يجلبونها من أماكن نائية وبعيدة عن مكة المكرمة، وعن مقر العمل، واستمر العمل عدة سنوات بلغت اثنتي عشرة سنة، حتى تمكنوا من إيصال الماء إلى مكة المكرمة، ولما كان الحال كما سبق القول إن مجرى العين يشق قلب وادي لقمان، وهو عرضة دائما للسيول الجارفة القوية، فكثيرا ما تخرب المجاري وينقطع الماء عن مكة المكرمة..

وفي أوائل القرن الرابع عشر الهجري نقل بعض حجاج الهند أخبار عسر الحصول على الماء، وما ينال الحجاج له من مشقة، فمن ذلك وفَّق الله أحد سراة الهنود من الميمن ويدعى «عبدالواحد» ويعرفه المكيون بـ «وحدانه»، وفِّقَ ولفيف من رفقائه إلى جمع مبالغ من المال غير قليلة من مسلمي الهند، بغرض إصلاح عين زبيدة، وتيسير وصول الماء إلى مكة، وجاء ورفاقه ومعهم ما جمعوه من إعانات، ومن حسن الصدف أن الوالي إذ ذاك بمكة المكرمة، من طرف السلطنة، كان المشير عثمان نوري باشا، وهو رجل محب للإصلاح، فآزر الجماعة، وشكل هيئة دعيت «كمسيون عين زبيدة» أي «هيئة عين زبيدة» وبدأوا بإصلاح مجاري العين أولا، ولما تحقق لهم ذلك، وكان لا يزال لديهم مال وفير وكانت الموارد أغلبها ذات فتحة أوفتحتين مما يقع تعثر وطول وقت لانتظار السقاة

بعضهم لبعض «بالنوبة» أخذوا بمساعدتها في بناء خزانات ذات فوهات متعددة، وأنشأوا خزانات في الأماكن والمحال التي لم يكن بها خزانات من قبل، ومن جراء الإصلاح الكامل كان الماء يفيض عن حاجة البلد، فرأت الهيئة والوالي أن ينشئوا بستانا في «جرول» يكون متنزها للأهالي يسقى من فائض ماء العين، وفعلا أنشيء البستان، وسحبت إليه المياه، وغرست به أشجار الثمار والنخيل وزهور الزينة، وهذا البستان هو الواقع خلف دار عبدالله السليمان، ويعرف عند البعض بـ «بستان البلدية»، وليس كذلك، بل هو والدار التي فيه يعودان لعين زبيدة.

ولا يفوتني أن أذكر أن ماء «عين زبيدة» و «عين الزعفران» وما ألحق بهما من عين ماء عرفت بـ «عين المعتصم» تتجمع كلها في مكان كائن بـ «المعابدة» لصيق لدار يعود لآل الشيبي تسمى «التشمه» كانت له فتحة كبيرة يشاهد منها الماء يتدفق من أنابيب صغيرة ودقيقة، يخرج منها الماء إلى المجرى المعد لانسيابه إلى داخل البلدة، وأظن أنها صنعت كذلك لتصفية ومنع تسرب الحصوات، وقد اشترى الدار السيد إبراهيم السقاف وبنى عليها عمارة على أحدث طراز عُرف في ذلك الوقت، سكنها جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله أول مقدمه إلى الحجاز ثم اشتراها منه وكانت النواة لما عرف بـ «قصر المعابدة الملكي» فقد كان منزل جلالته عندما يقدم إلى الحجاز فيما بعد إلى أن توفاه الله .. ولا أدري لماذا لا يعاد تجديده...

والماء في مكة المكرمة لم يقتصر على هذه العيون، بل قامت الحكومة السعودية بشراء بعض أوجاب من عين المضيق وسحبتها إلى مكة في مجاري العيون المذكورة. وكانت خزانات الماء على وضعين: وضع مقفل، فيه صنابير «بزابين» يؤخذ الماء منها دون سحب بالدلو.. وقسم فتحات عليها أرشية يسحب منها السقاة الماء بالأدلية..

وأهل مكة يطلقون على موارد الماء «بازانات» ومفردها «بازان».. وسبب ذلك أنه في عهد المستنصر العباسي حصل خراب في مجاري العين في حدود عام ٧٢٦هـ فكلف الخليفة نائب السلطنة «جوبان» بتعمير ما خرب منها.. وهو بدوره

بعث الأميـر «بازان» لتعميرها.. وكان جملة ما أحدثه بعد أن عمَّر العين في «وادي نعمان» و«عرفة» أن أنشأ على حدود الحرم مورداً للماء، يرتفق الحجاج منــه مياههم، وأطلق عليه المكيون كلمة «بازان» وانسحب الاسم على جميع موارد المياه في مكة المكرمة.. ولم يكن الماء يصل إلى البيوت كما هو واقع الحال الآن بعد أن تغير شكل البناء وأصبح بالأسمنت المسلح، بل كان الذي



● (ماء زمزم) شفاء لما يشرب له ●

يوصله إلى البيت «سقّاء» ينقلونه في قِرَب من الجلد كبيرة يسع بعضها ما يقرب من ثلاث صفائح، وبعضها أقل.. كانت تُجلب من فلسطين وكان لها خرازون مخصصون لتهيئتها للعمل، وكان أغلب السقاة من الموالي الأرقاء المحررين ينقلونها حملا على الظهر، ويضعون تحتها قطعة من الجلد معلقة في الرقبة يسمونها «فروة» لتقي الثوب من البلل.. ثم شاركهم في المهنة أفراد منه سكان جبال السراة، ويطلق عليهم المكيون «الحُجُن» أي سكان جبال الحجاز .. وطريقتهم حمل صفيحتين، كل صفيحة معلقة في طرف عود يحمل على الكتف، ولازال لكل ذلك بقايا لإيصال الماء إلى بيوت لم يصل إليها الماء بالأنابيب..

وكان الماء يحفظ في البيوت في أزيار من الفخار، ثم لما حدث طراز آخر من البيوت صارت تقام في داخل الجدار أو خارجه خزانات صغيرة تسمى «حنفيات» وفي أسفلها «بزبوز» لأخذ الماء منها.. وكانوا يبردون الماء في أكواز من الفخار يسمونها «شراب» ومفردها «شرْبة» يُعنى صانعوا الفخار بزخرفتها بقطع صغيرة من الطين قبل إدخالها المحرقة «الكوشة»..

وكذلك كتب الأستاذ محمد عبدالله مليباري رحمه الله عن المياه وروافدها في مكة المكرمة وهو ما ورد في كتاب «الأمن الذي نعيشه» فصل «الأمن الغذائي» مما يحسن بي ذكره هنا.. قال الأستاذ المليباري:

في عهد الخليفة العباسي المأمون بنيت خمس برك في مكة المكرمة، إحداها في «شعب علي»، والثانية في «الصفا»، والثالثة في «باب إبراهيم»، والرابعة في «الهجلة»، والخامسة في «ماجل أبي صلابة» بالمسفلة، وكانت تسمى إلى عهد قريب «ببركة ماجن أو ماجد» تحريفا عن «ماجل» وسحب الماء من بركة «زبيدة» لتزود هذه البرك الخمس به.. وفي أوائل العهد السعودي ومنذ أن وحَّدَ الجزيرة الملك عبدالعزيز أجزل الله له المثوبة، لم تنقطع الإصلاحات في هذه العين التي تسمى «عين زبيدة»، بل أضيفت إليها عيون من أطراف مكة المكرمة، وضواحيها، وأهمها «عين المضيق» و«عين سولة» في شرقي شمال مكة المكرمة، و«عيون القشاشية» في شمال مكة المكرمة، حتى أنشئت مصلحة المياه والمجاري في عهد الملك ـ فيصل بن عبدالعزيز يرحمه الله، وفي عهد

الملك خالد تغمده الله برحمته بنيت لأول مرة شبكات المياه والمجاري في مكة المكرمة فتزود كل بيت من بيوت مكة بالماء، وتوسعت هذه الشبكات بتوسع مكة، ومازالت تتوسع حتى يومنا هذا، كما أن المياه في مشاعر الحج بعرفات ومزدلفة ومنى لا تكاد تنقطع في موسم الحج، فقد أقيمت خزانات ضخمة في أعالي الجبال لتزويد شبكة المياه بكل متطلبات الحاج والمواطن من الماء..

وتأتي مبرة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز التي تزود مكة المكرمة بالمياه المحلاة من ماء بحر «الشعيبة» ميناء مكة المكرمة الأول تتويجاً لتاريخ مياه هذه البلدة الطاهرة المباركة الطيب أهلها، وقاصدوها من حجاج بيت الله الحرام..

جعل الله هذه المبرة حسنة طيبة من حسنات خادم الحرمين الشريفين وكتبها له صدقة جارية إلى يوم يبعثون..



دُقي يامزيكا

ومن ألطف المظاهر الشعبية في مكة المكرمة: مظهر رجال «المزيكا» وهي عبارة عن دفوف تصحبها مزامير تسمى بـ«الطّرمبيطة» يجيد العزف عليها رجال الشرطة، وكانوا يخرجون من تكناتهم الخاصة بهم عصر كل يوم جمعة يتقدمهم العم صالح مزيكا رحمه الله من جرول حتى مشارف المسلفة . وكانوا يساهمون بإزالة «الموية المرشوشة» حتى يغشى وجههم الغبار.. وكنا نجري خلفهم أو نمشي الهوينى وكأننا نقلد مشيتهم العسكرية برغم العفوية التي كنا نظهر بها.. ثم نعود إلى بيوتنا قبل المغرب وقد علانا الغبار، ثم يستقبلنا الأهل بـ«التلطيش والتقريص» على فخوذنا كعادتنا في كل يوم..



● أحــد أفراد فرقة الشرطة الموسيقية بزيّه الرسمي ●

وكـانت المقـاهي في أعـالي مكة المكرمة من محلة «الخريق» إلى «قهوة الششة» مروراً بالمعابدة، مروراً بالعتيبية حتى مشارف منى. وفيما بينهما كانت هناك صرعة من الأرض يطلق عليها «حوض البقر» ولعلها كانت مرتعا لهذا البقر للمستوردين من الخارج.. غير أن هناك من استغل قطعا من هذه الصرعات

وأقام فيها مقاهي محاطة بكراسي الشريط المثبتة على قوائم خشبية ذات أربع يجلس عليها الناس في العصاري، وبعد المغرب وحتى صلاة العشاء، ويؤدون صلاة المغرب والعشاء جماعة.. منهم من يذهب إلى بيته، ومنهم من ينام هناك، ولدى أصحاب المقاهي من اللحف والمخدات والشراشف ما يستريحون عليه وبأجر زهيد.. ومن القوم، وخاصة المتقدمين في السن وممن يشكون من «الرُكب» يستجيبون للذين يحذقون فن «الكبوس» أو «التكبيس» وكان منهم من الوافدين من بلاد جاوا، وبعضهم أيضا من الوافدين من بلاد بخارى أولئك الذين هربوا بدينهم وعقيدتهم من روسيا.. كانوا يمارسون القيام بالتكبيس في مقابل قرش أو قرشين.. وهذا يسمى بالعلاج الطبيعي في الوقت الحاضر.. غير أن كثيراً من أهل الحجاز من يستعينون بزيت السمسم يدهنون به ركبهم حتى أخمص أقدامهم، ثم يلفونها بقماش من «الدوت» أو الصوف في أيام الشتاء وينامون عليها.. حتى أنني أذكر أن معالي الوالد الشيخ محمد سرور الصبان والشيخ محمد علي صميلان كما كنت أسمع أن العم عرابي سجيني رحمهم الله هؤلاء كانوا يميلون إلى استعمال زيت السمسم كما أسلفت الكلام عنه.. غير أنه كلما يأتي واحد أو اثنان ليناموا في هذا المقهى كما هو الحال على طريق اليمن مما يلي مسيال المسفلة وكذلك عند غار حراء حيث يستروح الناس هواء مكة العليل خاصة وأن أعاليها تكتسب برودة جميلة في الصيف.. وعلى طول الليالي يأتي من يصرخ «قهوجي: تعميرة ولحاف وبرّاد أبو أربعة» وهذا الصوت لا شك يزعج النائمين، ولكن لا سبيل إلى الاهتمام بالصوت الخفيض، وتلك عادة القوم وما دأبوا عليه..

غير أنه من اللطيف حقا أن يصحو النائم على صوت «الله أكبر.. الله أكبر» ذلك الصوت الناعم الشجي الجميل من منائر المسجد الحرام بأصوات المؤذنين ذوي التاريخ المجيد.. فيصحو النائم وهو يردد: «الله أكبر.. الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله».. فمنهم من يصلي جماعة.. ومعظم القوم من يبادر منذ سماعه أذان الفجر بالذهاب إلى المسجد الحرام للطواف أو إلى أقرب مسجد لأداء الصلاة خلف أئمتنا الأفاضل أمثال

المشائخ الكرام: عباس مالكي، ومحمد باجنيد، وعبدالله دحلان، ويحيى أمان، وعبـدالله سراج وغيـرهم وغيرهم ممن كانت أصواتهم الخفيضة تخشع معها القلوب والأفئدة التي في الصدور ثم يظلون بين الطواف وتلاوة القرآن الكريم حتى بزوغ إشـراق الشمس وبعدها يصلون ركعتين أو أكثر ويذهب كل إلى مصدر ارتزاقه وقد انفرجت أساريرهم وانشرحت صدورهم بحيث يصل كل واحد إلى عمله وقد استعان بالله ثم عطر صلواته بالصلاة والسلام على سيد البشر محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والتسليم.. لقد كنا عندما يحزبنا أمر من أمور الدنيا.. مما يسبب الشعور بكربة أو ثم نبادر فنذهب في كل وقت وحين إلى الحرمين الشريفين لبث الشكوى لله جل علاه إذ هو سبحانه مفرج الكروب، ومزيل الهموم إذ لا مرد لنا إلا إلى الله.. حتى لقد كان كبارنا عندما نشكو إليهم همـومنـا يقـولون: روح ياولدي الحرم وارفع شكواك لربك.. إذ ليس لنا غيره سبحـانـه جل جلاله.. يفرج كربتك ويحل عقدك.. ويزيل همك.. روح ياولدي واجعلْ اتكالك عليه وحده.. لا ملاذ لك سواه وتلك توجيهات آبائنا وأجدادنا منذ مئات السنين.

ويدخل الواحد منّا المسجد الحرام وفعلا يشعر بأن همومه إن لم تكن زالت فعلا فإن مجرد الشعور بأننا قد ألقينا بهمومنا وكروبنا إليه سبحانه وجل شأنه فإن زوالها والتخفيف من أذاها حاصل دون شك.. ولذلك فإن كثيراً من الناس يقولون عند الحديث عن مشاكلهم وشكاواهم يبدأون بالقول «الشكوى على الله» ثم يبدأ في حكايته يرويها.. وعندما يريد استذكار حالة نسيها يذكر اسم الله ثم يصلي ويسلم على سيدنا وحبيبنا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.

هذا ما كان عليـه آبـاؤنـا وأجدادنا منذ ألف وأربعمائة عام من السنوات الهجرية، ومازلنا. وسيظل أبناؤنا وبناتنا عليه إن شاء الله انطلاقا من قوله جل جلاله:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(سورة الأنعام ـ آية ١٦٤).

فاللهم عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.. فأحسن يا الله مصيرنا إليك ياحنان يا منان يا قديم الإحسان.. فنحن جيرتك، وفي أمانك، وحمايتك، إذ نحن الضعفاء يا أمان الخائفين.

وبعد الصلاة يذهب كل لقضاء أغراضه، إذ معظمهم من أصحاب «الدواوير» الذين يلتمسـون الرزق عنـدمـا يذهبون إلى الحلقة حيث تباع الخضروات والفواكه الموسمية فيشتري كل منهم ما يرى أن سعره مناسب والطلب عليه قائم.. ثم يأخذ في تنظيفه وقد تفاسرت الوجوه وأخذ الضياء الناعم الجميل يطوي الجميع برقته وبرودته الحلوة الطرية والكل منغمس فيما ذهب من أجله، ثم يأخذ في تنظيف ما اشترى وتبويبه في دواره.. وهناك أيضاً من لديهم دكاكين لبيع الخضار والفواكه.. أما بائعو اللحوم على اختلافها من ضأن وماعز وجمال وبقـر فإنهم يذهبـون إلى مواطن الجزارة في خارج مكة منذ منتصف الليل فيحصل كل منهم على ما يستطيع بيعه على زبائنه، أو الزبائن الطارئين عليه.. وهؤلاء مع بائعي الخضار والفواكه يجتمعون في حي واحد كـ «المنشية» في القشاشية.. وفي الحارات الأخرى أيضاً.. وكان القوم في ذلك الزمان يعتمد رجـالهم على أنفسهم وعلى أولادهم في شراء احتيـاجاتهم من هذه الأطعمة إجمـالا وتفصيـلا.. وكنت أشاهد كثيرا من القوم كأمثال العم أحمد إبراهيم الغزاوي والشيخ كامل كردي والشيخ عباس قطان والشيخ عبدالرؤوف صبان والشيخ صديق عطار والشيخ عبدالعزيز كعكي .. وعدد كبير من علية القوم وكبار التجـار كالمشـائخ عبد الرحمن إسماعيل وآل قطب وآل سندي والشيخ عبد الرحمن آشي.. وفي جدة عندما أتيت إليها للإقامة فيها كنت أرى العم أحمد محمد صالح باعشن بجبَّته وعمامته، والعم محمد صالح أبو زناده بغترته، والعم عبدالله بن زقر..

كنت أراهم جميعا يشترون اللحوم والخضروات.. وقد خطر في بالي يوماً أن أسألهم لماذا لا يعتمدون على السمك وهم في مدينة السمك.. فقالوا لي: إن اللحم والخضروات هي التي تغذي البطون العديدة التى وراءنا.. أما الأسماك فلها أيام خاصة.. وخاصة في شهر رمضان نشتري السمك «السيجان» ونزيل

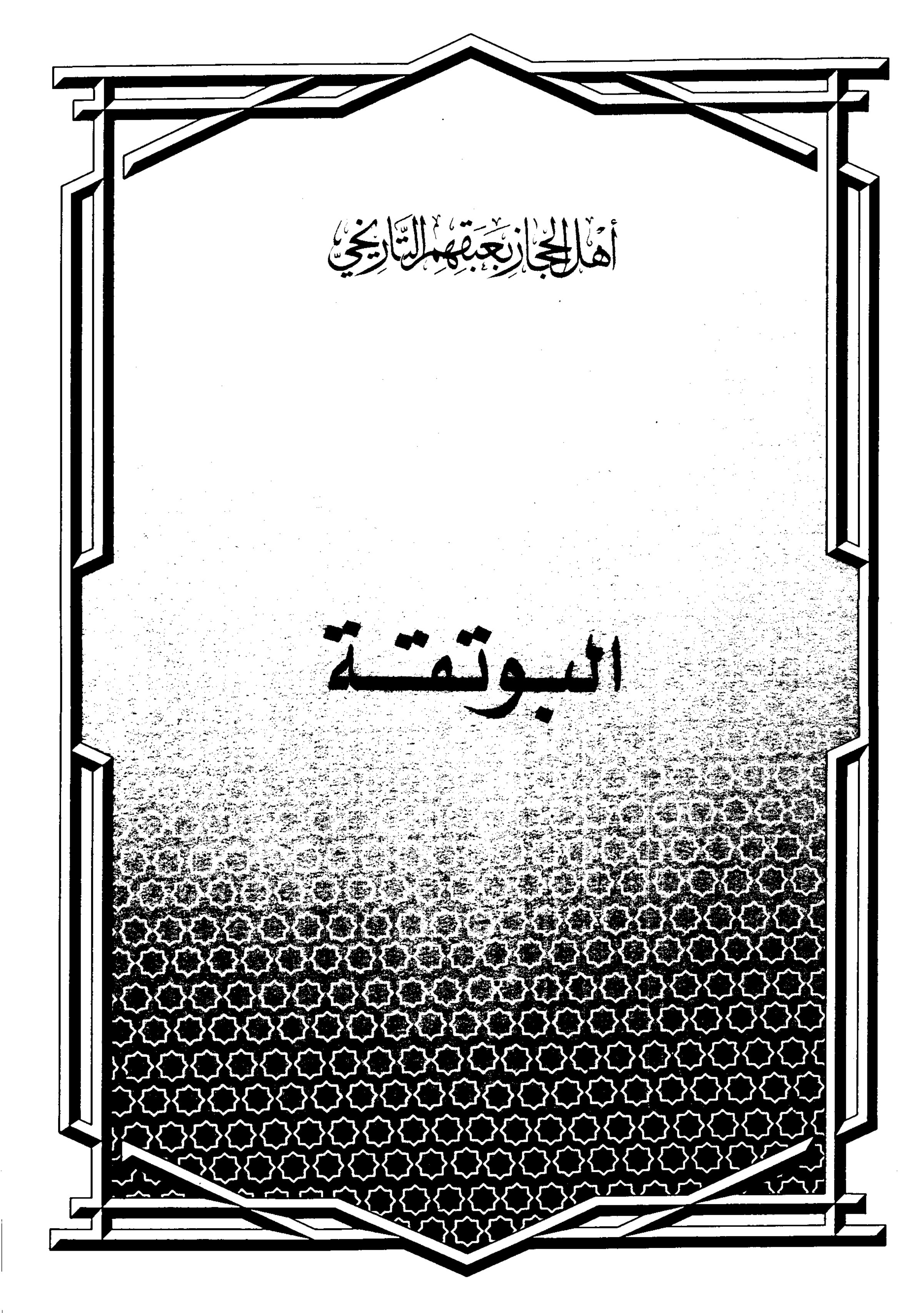
عنه الملح ثم يقلى أو يشوى ونتسحر به مع الأرز الأبيض فهو بارد على المعدة ولا يشكل أسبابا للعطش وخاصة بعد إزالة الملح منه.

واذكر من كان في المسعى وقد كان مُبلَّطاً بـ «الحجر الشبيكي» كما كان مزلقان المُدّعى على ما أذكر حتى الصفا كان مغطى بالحجر.. وكانت للمسعى صندقة واسعة الأرجاء، وكان كثيراً من أصحاب الدواوير من يضع دواره قبل صلاة الظهر في أطراف المسعى.. ثم يصيح عليها مشيراً إلى نوعيتها لينتبه الناس إليه، فمنهم من يشتري خياراً أو باذنجان أو فاكهة وهكذا بحيث يفرغ الدوار ويحصل صاحبه على ما رزقه الله، ثم يذهب إلى بيته وقد اشترى الخبز وما يلزم لإطعام أهله .. ومن أصحاب الدواوير من يضع دواره على رأسه فوق «حــوايــة» يلفها من القماش حتى لا يؤذي الدوار صلعة رأسه.. وبين الأزقة والمنعطفات ينبه إلى ليلاه، أي إلى بضاعته، فيستوقفه أهل الحارة من النسوة فيدلين الزنبيل من الشباك واضعين نقودهم هللة أو هللتين، قرشا أو قرشين مما يغـطي قيمة الكوسة أو الباذنجان الأحمر أو البطاطس وإلى آخر ما يدور به أصحاب الدواوير.. وهذه وتلك تعتبر من الخدمات التي كان لا غنى عنها لكل مجتمع كان يعيش زمانه ذاك..

ويقضي الناس قيلولتهم في بيوتهم بعد أن يعود كل عامل وكل صاحب دكان إلى بيته، في حين أن بعض أصحاب الدكاكين كالذين في «سوق سويقة» وفي «خان المفتي» وفي المسعى وفي غيرها من الدكاكين في المواقع الأخرى من الحارات يأتي الغداء إليهم داخل مطابق متعددة توضع في زنبيل ومعها الخبز والأشياء الأخرى، وتأتي بها صبية من أهل أفريقيا الذين يفدون إلى هذه البلاد ثم يعيشون فيها ويستمرئون المقام في هذه البلاد الطاهرة حتى لقد غدا عدد كبير منهم ممن ولدوا في هذه البلاد وحصلوا على الجنسية السعودية بحكم الولادة منذ عشرات السنين قد تآلفوا مع القوم فكان منهم من يعمل في البيوت: الصغـار منهم يقضـون حوائـج الناس من الأسواق.. والكبار منهم يتعلمون الطبيخ أو الكنيس أو غسل وكي الملابس.. غير أن من عادة هؤلاء العودة إلى بيـوتهم قبل المغرب وقد زوَّدهم أهل البيت بشيء مما يفيض من أطعمتهم..

وهؤلاء يفرحون بها ليتناولها الأب والأم ومن يسكن معهم في الصناديق التي يسكنـون فيها في مرتفعات مكة كالرصيفة وخاصة في أسفل حارة المسفلة، وبعضهم في أعـالي الجبـال المجـاورة للرصيفة وما حولها غير أن هؤلاء لا يستخدمهم إلا سراة القوم وأثرياؤهم.




أهل الحجاز بعبقهم التاريخي
البوتقة



عندما انهارت الإمبراطورية القيصرية الروسية تحت معاول الشيوعية التي رأت في الأديان مقولتها الشهيرة ـ أفيون الشعب ـ فسامت الشعوب المسلمة كل ألوان العسف والبلاء، وبدأت عندئذ الهجرة الجماعية للمسلمين هربا بعقيدتهم وديانتهم حينما حرموا حق ممارسة شعائر تعبدهم لربهم لم يخرجوا طلبا للرزق، ولا خشية إملاق، ولا ضربا في الأرض ابتغاء فضل الله، وإنما خرجوا تاركين وراءهم متاع الدنيا، وحملوا معهم العقيدة في القلوب، والنطف في الأصلاب، وبقية من متاع قليل يسد الحاجة ولا يكاد يمسك الرمق، وما يستر الأجساد.. أعراق شتى، ولكن أمة واحدة، أمة مسلمة فلقد خرج الآذري بجانب الطاجي بجانب البخاري، والطاشكندي، والسمرقندي يسانده الداغستاني، والقوقندي والأزبكي، أمة واحدة وأعراق شتى ولكن يتردد في أسماعهم صوت الحق ﴿ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾

[سورة العنكبوت ـ آية ٥٦].

فلما خرجوا إلى ظل الأمان نظروا فإذا الأرض مقسمة بين قوى شر تحكم المستضعفين في الأرض: الشيوعيون يحكمون هم واللادينيون بلاد أواسط آسيا.. والاستعمار الأوروبي انطلق في هجمة شرسة تحكم ما بقي من شرق وجنوب آسيا وسطح أفريقيا وتحير المهاجرون: أين المآل.. وأين المسار؟.. وما المصير؟.. وتشاوروا وهم يتخافتون، فهدى الله أوسطهم قائلا: إن أبانا إبراهيم دعا ربه أن يجعل بيته وبلاده آمنة، فإلى حيث الأمان بضمان رب إبراهيم.. فتدفقت الجموع المهاجرة بعقيدتها إلى البلد الحرام لأمر أراده الله..

وماج المجتمع بأهله فكان لابد أن تتقد «البوتقة» لتصهر هذه المعادن من

الناس حتى يخرج من بعد ذلك مجتمع هو نسيج فريد من نوعه، وفي تكوينه وتلك سنة اجتماعية.

إذا فمجتمع لو لم يكن فيه من خلق إلا تقبل هذه الأجناس والتعامل معها على علاتها يعتبر ميزة فريدة في خصائص هذا الشعب العربي الذي تضمه الجزيرة العربية لتصهر ببوتقتها كل هذا الجمع الذي وفد إلينا هربا بدينه، وحماية عقيدته السمحة.. ولإيمانه المطلق بأنه إنما هاجر، أو يفر، أو يجعل مقصده هذا البلد الآمن المستقر ليضمن لحياته البقاء، ولإيمانه القوة والنماء.. أما الكسب فهو الجهد والمشاركة بما يعرف ويعمل..

إن إخواننا الذين جاءوا إلينا من أواسط آسيا هربا من البلاشفة والملحدين واللادينيين استطاعوا الانصهار في هذه البوتقة التي صهرت مئات الألوف والألوف ممن جاءوا إلى هذا البلد الآمن واستقر بهم المقام في رحاب الحرمين الشريفين، ثم انطلقوا يطلبون الرزق من كسب أيديهم وعرق جبينهم.

إنني مازلت أعيش رنين الكلمات العذبة الحلوة، من لسان أعجمي مسلم «سنّو سكين.. سنّو مقص» وهو يحمل المِسنَ على خشبة ذات قواعد لتثبيتها.. ثم يجري بالسكين أو المقص على حجر خاص لجعلهما حادين قاطعين.. وكذلك صنعوا لنا التميس ثم أضافوا إلى صناعته وإخراجه ما أضفى عليه رقة وشفافية لها من المذاق الحلو ما كان مصدرا من مصادر العيش في الإفطار وفي العشاء.. كذلك صنعوا لنا اليغمش وكانوا يضعونه في قدر ويلفونه بقماش «الدوت» ويعلنون عنه في الأزقة ومطالع جبال مكة كالذين يحملون طاولات الفول والترمس والحلبة، وكالذين أيضا يبيعون البليلة فيما عدا بُعد المحلات التي استطاعوا فتحها وتقديم هذه الأنواع من اليغمش وطبخة الأرز البخاري وهو ما يسمى عند أهل نجد بـ «الكبسة».. ولو علم الناس سر صناعة طبخ الأرز البخاري لكان خيرا لهم.. لأن له طريقة فنية ليس باستطاعة كل هذا الجمع من المطابخ المنتشرة في طول البلاد وعرضها أن تطبق سر صناعة الأرز البخاري.. وقد نلتمس لهم العذر لصعوبة تطبيق هذا النوع من الطبيخ ولتطبيق كل شروطه ومواصفاته واختيار لحمته والمعاناة من كل هذه الخلطة العجيبة

التي يستوى عليها الأرز البخاري فيكون أكلة شهية يعقبها تناول الشاي المر ليساعد على هضم دسامة طبخة الأرز البخاري بأصولها السالفة.. وأذكر أنني كتبت كلاما كهذا ووصفات كهذه أيضا في حلقات أخرى.. لكن الذي دفعني إلى كتابتها آنيا هو المناسبة التي يعيشها إخواننا في بلاد آسيا الوسطى كما سبق الإشارة إليها في صدر هذا المقال..

ثم إن الحديث عن هذا البلد الآمن إلى أن أصف خصائصه ومزاياه تلك التي أودعها الله في هذا البلد الحرام، وفي هذا البلد الآمن مما يشهد به القرآن العظيم مما كان عليه في الماضي السحيق منذ قيام سيدنا إبراهيم الخليل وابنه سيدنا إسماعيل عليهما السلام عندما أمرهما رب العزة والجلال برفع بناء هذا البيت الذي يلتف حوله الملايين والملايين من كافة بقاع الأرض في حلقة متماسكة مترابطة مؤمنة بوحدانية الله وعظمته سبحانه جل جلاله..

وقد قال الله تعالى في محكم التنزيل:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [سورة الحج - آية ٢٦]

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة البقرة - آية ١٢٧].

كما أننا لا ننسى أولئك الذين هربوا من السُخرة التي اهترأت منها أجسادهم، وكلّت منها أيديهم.. أولئك الذين سُخّروا قهراً وظلماً ليحققوا أحلام حفر قناة السويس ممن كانوا يستغلون ويستعبدون الشعوب لأغراضهم التجارية حتى يشبعوا ولو جاع الناس أجمعين.

إن القصص الرهيبة التي مرت بها عملية حفر قناة السويس تعتبر من القصص المروعة التي تمزق القلوب فضلا عن الدهشة عن الكيفية التي يعامل بها هؤلاء الناس وملءُ قلوبهم الإيمان بالله وبما جاء به نبي الهدى والرشاد

محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.. هؤلاء أيضا هربوا بإيمانهم، منهم من جاء عبر البحر الأحمر من منافذ البحر الأبيض المتوسط، ومن منافذ أخرى جاءوا إلى شواطىء الجزيرة العربية مما يلي البحر الأحمر لينفذوا بجلودهم وبإيمانهم من الطغاة الذين كانوا يسومونهم أنواع العذاب بحفر أرضية قناة السويس.. فوجدوا في هذا البلد الآمن «الصهر في بوتقته» فاستعادوا بذلك عزتهم وكرامتهم حتى انطلقوا يشاركون بالجهد والعمل حتى تمت بهم أسباب العيش والحياة في ظل هذه البوتقة الرحبة الرائعة في ظلال البلد الآمن المستقر..

وكذلك من هرب منهم من بطش الاستعمار ينشد الحرية والأمان ويتمثل هذا في الذين قدموا من بلاد الهند والسند والمغرب والشام.. ولعل في قصة العالم رحمت الله بن خليل الله الكيرانوي العثماني الذي قصَّ علينا بشاعة الاستعمار.

غير أنه ظل يلاحق المبشرين الطغاة في مواقعهم حتى استطاع أن يدحرهم ويدحر أفكارهم ضد الإسلام والمسلمين.. وجميعهم كما ذكرنا قد انصهروا في هذه البلد تظللهم قدسيته، وتحتضنهم مناخاته ليشكلوا في هذا الانصهار الرائع صورة المجتمع المسلم الذي يستمد وحدته من وحدة عقيدته..

ولعل معظم من أتوا إلى هنا هربا كما سبق وذكرنا كانوا من أصلاب من فتحوا بلادهم بنور الهدى والرشاد تحت راية التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله، كما فتحت أندونيسيا وجنوب شرق آسيا وغيرها من دول أفريقيا وأوروبا من خلال العلاقات التجارية بينها وبين هذه الديار المقدسة، وأيضا بلاد الهند والسند بعد أن فتحها الفاتحون من المسلمين كما كان لعلماء هذه الأرض الطاهرة وعلماء جنوب الجزيرة العربية مما حشدت به كتب التاريخ الإسلامي عندما كانوا رسل خير وبركة ودعوة للدين الحنيف في هذه البقاع النائية من العالم كامتداد لرقعة الإسلام والمسلمين..

ومن هؤلاء الذين وفدوا من هذه الأقطار مَنْ أظهروا شجيرات أنسابهم بانتمائهم إلى هذه الأرض المباركة الطيبة.. مولدا وجذورا..

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء ـ آية ٩٢].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾
[سورة الحجرات ـ آية ١٣].

كما قال جل شأنه:

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [سورة النجم ـ آية ٣٢].

ومن هنا تتبلور الآداب والأخلاق الإسلامية في التعامل والتواد والحب بين المسلمين عربا كانوا أم أعاجم..

وتلك هي ميزة هذه البوتقة في الخافقين..

إن من هؤلاء من هم أحفاد أولئك الذين فتحوا ديارهم بشهادة التوحيد.. فلا غرو إذن إذا عادوا إلى مهبط الوحي والرسالة المحمدية والذي كانت منه انطلاقة التوحيد والهدى الإسلامي الكريم بشهادة لا إله إلا الله محمدا رسول الله..

ولماذا نذهب بعيدا وساحات وأروقة الحرمين الشريفين منذ مئات السنين قد تخرج من بوتقتها العلماء والقراء والمحدثون أولئك الذين عادوا إلى بلادهم وقد نهلوا من العلوم الإسلامية في كل فرع من فروعها، وبذلك استطاعوا أن يرفعوا راية الإسلام في بلادهم رغم أنف الحاقدين..

وكانت أيضا القبائل العربية من الجزيرة العربية وخارجها تفد إلى أرض الحرمين الشريفين لتلقي الثقافة والآداب والعلوم الإسلامية في أروقتهم وساحتهم بأعداد كبيرة ومازال أحفادهم يفخرون بها ويعتزون بمعطياتها..

وشعوب أخرى وفدت مع الزمن حتى غدوا وكأنهم يعيشون الآن في ذاكرة

التـاريـخ الذي يعيش الآن في أذهـان المسنين أو الذين سطروا بأقـلامهم وذكرياتهم عن هذه المعايشة وقد ضمتهم هذه البوتقة بأحضانها في ظل الأمن والأمان.

عجيب هذا الشعب العربي في هذا البلد المعطاء.. لكنه أمر ليس بالعجيب أيضا. أفلسنا جيرة هذا البيت الحرام.. ثم أليس هذا البيت قبلة للمسلمين في كافة أصقاع الأرض يتجهون إليه بقلوبهم وامآلهم وتطلعاتهم وطموحاتهم وكلهم أمل ورجاء بأن يهبهم الله القدرة على أداء فريضة الحج وزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلام عليه.. فما كان لهذا البلد أن تتسع أطرافه وأمداؤه إلا بسبب هذا التدفق البشري ليكون منه النماء في ظلال ما تهيأت كل أسبابه من الأمن والاستقرار..

ويمر الزمن تلو الزمن.. والتاريخ تلو التاريخ.. والسنوات بكل أثقالها وعفويتها وحـلاوتها لتتحول هذه البوتقة إلى معلم حضاري كالذي نعيشه الآن بفضل السواعد المؤمنة والخيرة مع كل ما قامت به الدولة في العهد السعودي الزاهر ليتم فضل الله والشكر على هذه النعماء التي تدفقت كالشريان في جسد الأمة الإسلامية قاصيها ودانيها.. لأن كل ما نقوم به من توسعة للحرمين الشريفين.. ومن توسعة للمشاعر المقدسة ومن خدمات جبارة من خلال تجارب و خبرات ومخـططات جعلت هذه البـوتقة التي تنصهر معها كل هذه المعطيات الخيرة فتكون اللُحمة وتكون السداة هي الرابط الحقيقي للإيمان الذي أنعم الله به علينـا بوحدانيته واتباع سنة نبيه سيد البشر محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والتسليم..

إن السجايا والمزايا في هذه «البوتقة» هي أنها أعطت كل المفاهيم من خلال المشاركات المتنوعة من ثقافات متعددة ومن علوم مختلفة تزخر بها علوم العالم من خلال مكتسباتها وخبراتها وتجاربها مما استطعنا أن نكسبه وأن نطبقه بما يتناسب مع خصائصنا المتميزة بحكم جيرتنا لهذه الرحاب الطاهرة..

وبطبيعة الحال فإن بعض العادات والتقاليد التي تبلورت مع هذه البوتقة أعطتنا شيئا من مكتسبات لها جمالها ولها رونقها ولها طعمها اللذيذ.. إذ لكل

أمـة مسلمة خصائصها التي تتناسب مع مناخاتها وطبيعة بلادها وما تفرزه البيئات التـي ولدوا وعاشوا فيها، ثم كان ماكان من أمر الهجرة هربا بدينهم، وهربا من السُخرة، وهربا من الاستعمار باستعباده الشعوب.. إذا فلا غرابة في أن تعطي هذه البوتقة المعنى الحقيقي لمكونات هذا الشعب العربي الأصيل الذي استـطاع أن يصهر وأن يهضم ما كان متفقا ومنسجما مع الأخلاقيات والآداب الإسـلامية حتى انفرد بهذه الخصاصة وبهذه الميزة ليكون «بوتقة فاعلة» تصهر كل من يعيش فيها وليكون خاضعا لكل المزايا والسجايا عندما يكتسبها من خلال معايشته ومعاشرته وأيضا مصاهرته لأبناء هذا البلد الآمن المستقر..

ومرت السنون فكانت البوتقة قد أدت طبيعتها فخرج من هذا المجتمع أفراد شاركـوا في حقول العلم وحقول الدين، وحقول الدرس. بل وحقوق القضاء.. وكلهم لسان حاله يردد قول الشاعر:

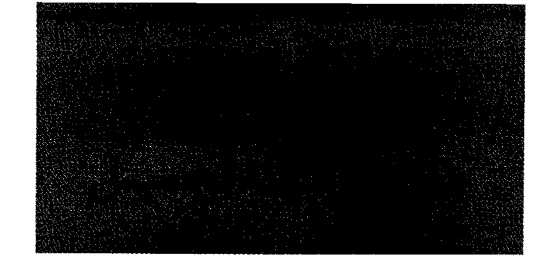
نمـت في الكـرام بنـي عامـر فروعـي وأهـل قريش العـجـم

ولذلك ظل هذا الجزء من العالم عبر كل عصور التاريخ الحضن الآمن الذي يجد فيه الخائف الأمان ويجد فيه الغريب الأهل، ويجد فيه الضال الهدى من خلال الصهر في بوتقته..

وهذا حسبي..



الآداب الإسلامية ومفهومها الجميل



للمجتمعات خصوصيات أبرز ما فيها عاداتهم وتقاليدهم التي يحرصون على الحفاظ على مقوماتها وعلى التمسك بآدابها وأخلاقياتها الحسنة حتى تظل سلوكياتهم آخذة مجراها السليم باتجاهها الصحيح، وإن كان هناك من يجنح عنها فإنه واجد من ينبهه إلى عوجه هذا فيتقبله بروح رياضية ونفسية زكية وتفكير مستقيم.

والذين يعيشون في مثل هذه المجتمعات كما عشنا فيها وعايشناها ونبتنا في ظلها، في مكة المكرمة وروابي الحجاز ومدنه، نجد أن نشأتنا فيها كانت، وستظل أساسا لكل ما تعلمناه وتربينا عليه..

وينشأ ناشيء الفتيان فينا على ماكان عوده أبوه

وأعتقد أن هذا المجتمع مازال يتمتع بمزاياه وسجاياه منذ مئات السنين من خلال هذه العادات والتقاليد التي وضع لبناتها، وهضم معطياتها من خلال التربية التي نشأ عليها في ظل والديه وأسرته وأقاربه وأصهاره والمجتمع الذي يضمهم جميعا..

في أحد الأيام السالفة منذ أكثر من عشرين عاما وحتى تاريخه أتأمل طويلا الوفاء العجيب الذي يتمثل في المشاركات العامة والخاصة في حفلات الزفاف مثلا وإن كانت مظاهرها ليست كالماضي البعيد ببساطتها الفريدة، إلا أنها تعطي زخما خاصا تشعر فيه وكأنك تعيش في خليط متجانس متقارب لا تفصل بينك وبينهم أية عوائق ذاتية أو أدبية أو معنوية؛ لأن القوم يتعاملون فيما بينهم بعفوية بريئة لا تشعر معها إلا وكأنك كنت معهم بالأمس وقبل الأمس، فلا تعال، ولا حزازات، ولا ضغائن، ولا ترهات.

وتشعر بسعادة غامرة عندما تجد بين هذا القوم من تعرفه من ثلاثين عاما أو أقل فتقبل عليه «هاشاً، باشاً» وملء إهابك الفرحة والنشوة، تقبل عليهم لتسلم على وجنتيه، ثم تطبع قبلة أيضا على جبينه وقد كان ضمك له بصدر رحب تعبيرا عن هذه الفرحة، وتعبيرا عن حلاوة هذا اللقاء الذي هيأته فرصة هذا الزفاف.. كما تتاح فرص أخرى في مناسبات مماثلة أو غيرها في كل شهر مرة أو مرتين..

ويأخذ بعضنا في الحديث عن الذكريات الماضية، تلك الذكريات التي تحكي صورا رائعة من صور الماضي الذي كان يعيشه الناس رغم مظاهر الشظف وقلة ذات اليد.. ذلك لأن النفوس كانت تتقبل العيش بعفويته السمحة وبقدر ما يمكن أن يؤمن احتياج الإنسان وأسرته دون أن يكون هناك شعور بأن فلانا أوفر مني رزقا، أو أن فلانا أوسع مني بيتا، أو أن فلانا أوفر مني مالاً.. وإلى آخر العنعنات التي تدخل في مفهوم «التناظر» بما في أيدي الناس وحوزتهم.

وأعـرف أن كثيـرا من العوائل كانوا يشترون اللحمة يوما بعد يوم أو في الأسبوع مرة أو مرتين، ويستبقون جزءا من الخضروات المطبوخة لليوم التالي وتضاف عليه بعض النواشف المتوفرة في المنزل كالعدس الأحمر والبني أو الكشري والفول المدشوش أو الفول المستنبت في البيت مما يساعد على تأمين لقمة العيش المستساغة.. وكثيرا ما كنا نسمع من أهل البيت بأننا في هذا اليوم «عندنا غسيل» عليك بشراء «رأس مندي» أو شوية كبد وكلاوي بالصاج أو شوية أكل جاوي لتناول الغداء.. وكان الناس في المساء يعتمدون في عشائهم على النواشف كما كانوا يطلقون عليها، وهي عبارة عن الجبن والزيتون والمربى.. ومنهم من كان يعتمد على الفول المدمس أو الحلاوة الطحينية أو ما يدخل في حكمها.. أما أهل البادية وخاصة الذين يسكنون في المعابدة أو جرول فإنهم يعتمدون في عشائهم على «المعدوس» أو على الأرز باللحم يطبخ سويا أو على الأرز الأبيض وحده مضافا إليه أي نوع من أنواع البقول التي تطبخ في داخل المنزل كالفاصوليا الناشفة أو العدس.. وهكذا.

ويحضرني بهذه المناسبة أحد الذين نقلت أعمالهم الوظيفية من المقر الذي ولد فيه إلى مكة المكرمة ولم يجد سكنا يتناسب مع قدرته المالية إلا في حارة

المعابدة وكان يقول بأن بعض عاداتي تغيرت بفعل هذه العشرة الطيبة، وخاصة عندما كنت أُدْعى إلى حفلات أهل الحارة وإلى حفلات حارات مكة كالقشاشية وسوق الليل أو شعب علي أو شعب عامر والشامية وغيرها.. هذه الحارات كلها في وسط مكة تعتبر متحضرة وذات ثقافة فقهية ودينية على مستوى رفيع حيث يتلقى أهلها علوم الدين والتشريع من حلقات المسجد الحرام وحلقات علماء مكة وقضاتها تلك التي تعقد في منازلهم حيث كان الشباب يقبل عليهم ثم يتخرجون وقد امتلأت قلوبهم إيمانا وحبا للعلم وسعيا إليه، ثم يتسقطون أرزاقهم حيثما كان مصدرها نافعا ومجزيا خاصة عندما استطاعوا أن يعملوا في بناء هذا الكيان الشامخ الكبير ليس في مكة وحدها، ولكن في كافة مناطق المملكة شرقا وغربا، شمالا وجنوبا باعتبارهم الأكثر بروزاً والأرسخ قدما في تنظيم ما يسند إليهم من جلائل الأعمال على اختلافها - هؤلاء كانوا غير عابئين بالغربة ومتاعبها، ذلك لأنهم يشعرون بأن خدمة الوطن ينبغي أن تؤدى دون أي شعور بأن هنا غربة أو اغتراب أو ما يدخل في مفهومها.

وكم سعد أمثال هؤلاء الرجال بما قدموه من خدمات جليلة أثرت وأثمرت كل ما كان مطلوبا منهم في مسار تثبيت دواعي البناء وترسيخ دعائم الأمن والاستقرار بعد أن توحدت هذه الجزيرة في عهد جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود طيب الله ثراه. ثم بداية البناء والإنشاء والتعمير والقيام بكافة الإصلاحات المطلوبة لهذه المملكة الشاسعة الأطراف في العهود التي تلت عهد الملك عبدالعزيز رحمه الله وحتى تاريخه.. كما أن المشاركة الفعلية العملية ماتزال قائمة ودائمة الرسوخ في العطاء والتنفيذ..

كما نجد الوفاء مجسدا عندما تلحق المنية بأي من هؤلاء تجدهم يتسابقون في حرص بالغ لأداء واجب العزاء والمشاركة حتى يشعر أهل المتوفى بأن من فقدوه سيجدون العوض عنه ولو نسبيا من خلال هذا الوفاء.. فأنت تجد كثيرا منهم يذهب من جدة إلى مكة المكرمة ومن الطائف إلى مكة، وإذا كانت المسافة أبعد من ذلك تنهال البرقيات والاتصالات الهاتفية للعزاء والمواساة إن لم يأت بعضهم للعزاء والمواساة.

إنك تجد الوفاء مجسدا في هذه الظاهرة الشعبية لدرجة تجعلك تشعر بأنك مازلت تعيش الماضي برجاله ونسائه وأبنائه أيضا.. وكأنه لم يتغير هناك شيء مما كنا عليه وكان عليه أباؤنا وأجدادنا في ماضيهم الجميل بكل معاني الوفاء والحرص عليه..

وكنت مع صديقي الأستاذ السيد محسن باروم وابنه رعاه الله وهو أستاذ في جامعة الملك عبدالعزيز كنا في عزاء أسرة الفقيد الغالي الأستاذ جميل أبو سليمان وكان حديثنا يدور حول هذه المظاهر الجميلة التي يتمثل فيها الوفاء بما اعتدنا عليه في مثل هذه المناسبات.. وقد لمست في هذا الشاب رغبة أكيدة لمعرفة مصدر هذه المظاهر الجميلة، وكيف يعيشها الناس حتى هذه اللحظة رغم أن الناس ليسوا كما كانوا في ماضيهم قريبين من بعضهم البعض وأن هذا ربما كان يؤثر على إقبالهم لأداء واجب هذا الوفاء أو هكذا فهمت ملاحظته.. فبادرته قائلا: يابني.. ليس هناك تباعد في عادات الناس وتقاليدهم وحبهم ووفائهم لبعضهم البعض، بل الناس مازالوا كذلك وسيظلون إن شاء الله لكن التباعد حدث في «السكن» ومساقط الرزق، وطبيعي حدوث هذا التباعد لأن التطور الذي حدث في كافة مدن المملكة ثم النمو البشري الذي اقتضى اتساع هذا العمران جعل العائلة الواحدة التي تعدد فيها الأبناء والبنات اقتضى هذا النمو البشري أن يبحث الولد عندما بلغ سن الرشد والقدرة على المعاش، أخذ يبحث عن سكن له ولزوجته التي اقترن بها.. وكذلك البنت التي تزوجت أخذ زوجها يبحث عن مسكن له.. فإن كان في استطاعته أن يبنى بيتا فعل ذلك.. وإن لم يستطع فإن العمارات السكنية التي أنشئت يجد فيها سكنا حتى يوسع له الله في رزقه فيشتري أرضا ويبني سكنا مناسبا عليها.

ولعل من الطريف حقا أن نعرج في هذا السياق على ما قدمته الدولة وهي تراقب أو تعايش هذا النمو البشري والموارد المالية التي أخذت في الازدياد.. كيف وضعت أسسا وقواعد لإعطاء المواطنين قطعا من الأراضي وخاصة من ذوي الدخل المحدود إضافة إلى قرض يساعده على بناء سكن لائق ومريح له ولأسرته.. وكانت هذه البادرة التي انفردت بها هذه البلاد من العوامل الرائدة

التي جعلت هذا الاتساع يزداد نماء وقدرة وكفاءة لامتصاص الرغبة المتزايدة للحصول على مصدر للعمل حتى يؤمن كل مواطن معاشه.

ومن خلال هذا الذي حدث، ومـا زال يحدث نؤكد أن استمرارية العادات والتقاليد بمظهرها العام والخاص ستظل نامية لدعم رسوخها في كل الأجيال النامية والصاعدة.. لأن هذا البلد له خصوصيته لقربه ولأنه من جيرة هذا البلد الآمن ممـا يشيـع في نفس كل فرد الطمـأنينـة والاستقرار والشعور بالآمن وحلاوته.. كل هذا يؤكد أن الوفاء الذي يتمتع به أهل هذا البلد هو الأساس الذي توارثه الناس منذ مئات السنين وحتي الآن وسيظل أبناؤهم وأحفادهم يعيشون ويتمسكـون به.. حتى الذين اغتـربوا عن هذه المنطقة يعودون إليها زائرين ومتفقـدين أو يعـودون إليها للعيش فيها حتى الممات.. وكثير من أصدقائي وأقربائي فعلوا ذلك، فإذا لم يكن في هذ البلد مثل هذا الأمن والشعور به، فأين ياترى يكون الشعور به والارتياح له؟

إن مكـة المكـرمـة لهـا من المـزايا ما يحنُّ إليها القاصي والداني وبكل الأحاسيس التي تتفاعل في نفس كل مؤمن بالله وكل محب للهادي البشير الذي بعثـه الله من هذا البلد الأمين وجعله هداية مهداة تستنير بضيائه وبالقرآن الكـريم الذي أنـزل عليه والتشريع الذي أوصانا بالتمسك به وقد كان أباؤنا وأجدادنا والحمد لله متمسكين بهذا التشريع وعاملين به في كل أسباب الحياة ومعاشها.. وسنظل كذلك إن شاء الله.. لأن الخصوصية في هذا البلد لا يمكن لها أن تتبدل أو تتغير لأن الله سبحانه وتعالى أراد لبلده الأمين الأمن والأمان، حتى يحفظ لتشريعه البقاء والنماء..

إننا أهل هذا البلد ندرك مسئولياتنا تجاه عقيدتنا الإسلامية وآدابها، انطلاقا من طاعتنا للرسول العظيم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، لأن هذه الطاعة هي من طاعة الله جل جلاله..

قال الله تعالى عز من قائل: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ [سورة النساء ـ آية ٨٠].

فطاعتنا مستمدة من قوله عز وجل، كما قال أيضا:

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [سورة النساء ـ آية ١٢٢] صدق الله العظيم.

هكذا نحن منذ بزغ النور الإسلامي على لسان سيد البشر صلى الله عليه وسلم، لأن طاعته وأوامره واجبة التنفيذ والتطبيق حتى نكون على بينة من أمر ديننا ودنيانا دون زيغ أو ضلال ننحرف في أجوائه..

وإلا فإنها الفتنة التي نسأل الله الحماية منها واللطف الخفي في عواقبها..

وعلينا جميعا أن نتبصر في كل ما نقول، وكل ما نكتب، وكل ما نلقيه في مجالسنا الخاصة والعامة.. وفي كل الأندية والمناسبات..

علينا أن نكون موجهين صالحين نأتي بالنصيحة وبمدلولاتها القويمة، فلا نلقي التهم جزافا بدون دليل ولا تحليل منطقي مؤدب..

وتلك كانت إرادة الله عندما قال: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾
[سورة النساء ـ آية ٨٠].

لأن القرآن عليه أنزل ثم قام صلى الله عليه وسلم بإبلاغه تنفيذا لأمر الله جل جلاله ليهدي به عباده الصالحين أدباً وسلوكاً.

وليست قصة الحوار الذي جرى بين سيدنا وحبيبنا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن حب الرسول من صحابته عندما قال لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: « لايكمل إيمانك حتى أكون أحب إليك من نفسك.. فقال عمر: والله إنك أحب إليَّ حتى من نفسي.. فقال له الرسول العظيم: الآن كَمُلَ إيمانك».

هذا الحوار يفسر لنا التطبيق العملي في علاقتنا بالرسول العظيم، فكيف بطاعتنا له التي هي من طاعة الله جل جلاله.. ثم مَنْ نكون نحن المسملين إذا لم نطع الرسول الذي طاعته من طاعة الله جل علاه.. وأنها لمنزلة عظيمة لا توازيها منزلة لأي نبي أو رسول من أنبياء ورسل الله جل جلاله..

إن هذه الآية الكريمة تقودنا وبكل ارتياح إلى أن نسلك الطريق السليم لنصل إلى كل رأي سديـد نستمده من القرآن العظيم.. خاصة وقد وصف الرسول العظيم بأنه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

فأي منزلة هذه التي تتسامى وتتفوق بعطاء الله.. بل وبشهادة الله الكبرى عندما وصف أخلاقيات الرسول بهذه الصفات الحميدة ومن أبرزها ما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء ـ آية ١٠٧].

وقوله صلى الله عليه وسلم: إنما أنا رحمة مهداة.. أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم ما أجل وأعظم أن يكون الله جل علاه هو البادىء في الصلاة على نبيه ذي الخلق العظيم، والرحمة المهداة، ما جاء في قوله تعالى قولا حاسماً، وأمرا حازما: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب ـ آية ٥٦].

إذاً فطاعة الرسول العظيم هي من طاعة الله جلّت قدرته.. إنني مازلت أعيش الدعوة المدوية التي نادى بها استأذنا الفاضل الجليل الدكتور محمد علوي مالكي عندما دعا آباء الأجيال الحاضرة لاصطحاب أبنائهم إلى مجالس العلم وبالذات مجالس تفسير القرآن الكريم وعلوم الفقه وأصوله وعلوم الحديث وأصوله حتى يكون الشباب منذ اليفاعة والسن المبكرة لتوجيههم تمهيدا لتأهيلهم ليكونوا على بيِّنة من أمر دينهم ودنياهم حتى لا يتأثروا بالأقوال والكلمات ومما يسمى بالتوجيهات التي لا تستند إلى أدلة وإثباتات مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، تلك التي لو تمسكنا بها فلن نضل بعدها أبدا..

إن علينـــا مسئولية كبيرة تجاه الأجيال الحاضرة والقادمة حتى لا يضلوا طريقهم وحتى لا يكونوا في متاهات من اختلافات الرأي تجاه صدق ما جاء في القرآن العظيم، وصدق ما جاء في السنة النبوية الشريفة بعيدا عن التفسيرات الخاطئة التي يروجها أدعياء العلم دون دليل وإثبات.. ذلك لأن حكومة خادم الحرمين الشريفين حريصة كل الحرص على تربية النشء على أسس سليمة من العقيدة الإسلامية.. وقد وفقت كثيرا عندما أدخلت تعديلات جوهرية على مناهج التعليم في المــدارس الابتــدائية والمتوسطة والثانوية.. هذه التعديلات التي ارتاح لها الطلبة على مختلف أعمارهم ودراساتهم فيما يتلقونه من العلوم الدينية والعلمية والأدبية وعلوم الحياة التي يتطلبها عصر العلم والعرفان.. وتعتبر هذه التعديلات من القوة والجزالة والبساطة أيضا ما يجعلها مهضومة وقريبة إلى فهم الطالب وعقلة.. وبالتالي إلى راحة نفسه وفكره الأمر الذي يعطيه الفرصة الواسعة لاستذكار دروسه على نحو مريح وجيد..

ولذلك وجب علينا أن نزجي الشكر والتقدير والاحترام لمقام سيدي خادم الحرمين الشريفين وهو من غرس جسور العلم بناء شامخا نعتز ونفخر به، نزجي التهنئة لما قام به من توجيهات كانت مدار حديث المجتمع وإعجابه..

فاللهم نسألك سؤال المتضرعين إليك.. الخائفين منك.. الراجين والطامعين في رحمتك أن ترزقنا الأدب معك.. ومع نبيك المصطفى سيدنا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم في أقوالنا وسلوكياتنا وأخلاقياتنا أيا ما كنا: علماء وأدباء وعــاديين.. لأن واجب العلمــاء هو تبصيــر الناس بما يجب عليهم في دينهم ودنيـاهم بأسلوب حلو جميل دون تطاول على الآخرين لأن آدابنا الإسلامية تحضنا على ذلك، بل وتلزمنا به.. وكل أمر في هذه الدنيا له فعل وردة فعل..

ولذلك كانت الاستدلالات التي ترتكز على أدب الخطاب والمقال من أهم ما يجب على العــالم والأديب والكاتب التماس سبلها القويمة وبالأدلة الواضحة التي ترتكز على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والتي يستطيع الرجل العادي فهمها وهضمها..

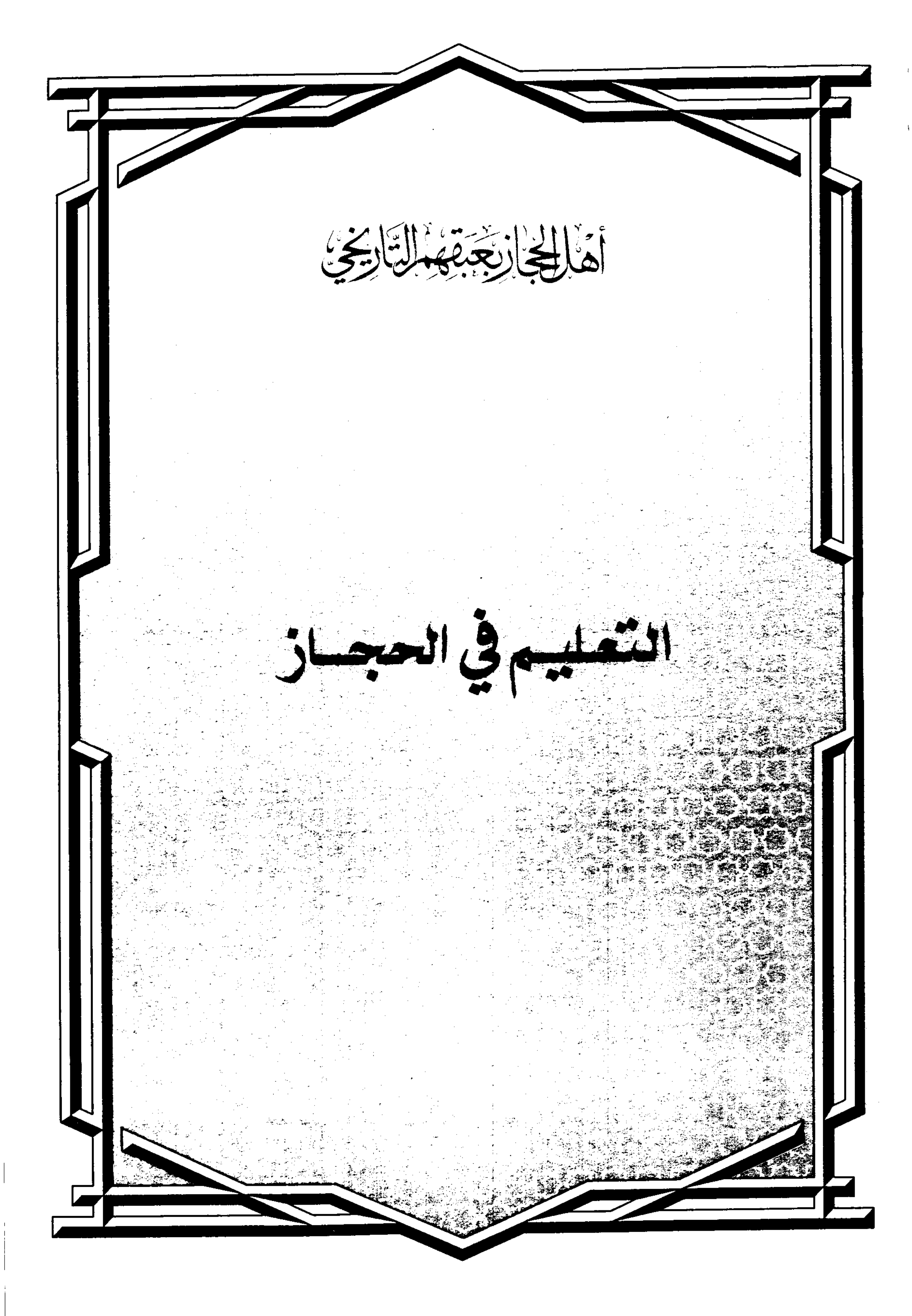
وذلك هو الأدب بمفهومه الواسع..

لأن الآداب الإسلامية لها من السمو والقوة وجزالة العطاء، وتوضيح المسالك القويمة ما جعلتنا نتفوق على الأمم الأخرى.. هذه الأمم التي أخذت محاسن آدابنا الإسلامية وطورتها مفهوما وتعاملا وسلوكا حتى لا نضل سبلنا ولا نضل الآخرين..

فاللهم نسألك ألا تغير علينا ما نحن فيه، وأن تهدينا صراطك المستقيم، وأن ترزقنا الأدب في سلوكنا معك ومع نبيك سيد المرسلين، ومع هذا البلد الأمين وجيرته حتى نأمن من عذابك، ونطمئن إلى رحمتك.

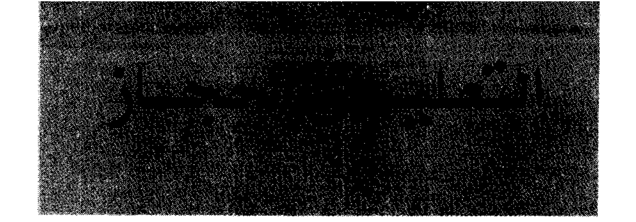
يا أرحم الراحمين.. ويا أمان الخائفين





أهل الحجاز بعبقهم التاريخي

التعليم في الحجاز



الكتاتيب

إن الأطفال في الماضي كانوا يمضون طوال وقتهم في «الكُتّاب» يتعلمون قراءة القرآن الكريم وتجويده من قِبَل المعلم «فقي أو فقيه».. والأطفال الذين لا يتمكن آباؤهم من إرسالهم إلى المدرسة يتعلمون عن طريق سماع بعض سور القرآن الكريم القصيرة والتي يحتاجونها لأداء الصلوات.. وفي الكتّاب يقوم الأطفال تحت إشراف مدرسهم بكتابة الواجب اليومي بالطباشير على لوح خشبي يمسح أو يغسل بعد الاستعمال لتعاد الكتابة عليه ثانية.. كما أن على جميع الطلبة أن يحفظوا بعض السور القصيرة من القرآن غيبا عن ظهر قلب.. والطالب المجتهد قد يحفظ القرآن غيبا وفي هذه الحالة يسمى «حافظا».. كما أن الآباء الذين لا يودون لأبنائهم الاختلاط بغيرهم يقومون بإحضار فقيه يعلم أبناءهم في بيوتهم أو قد تتفق بعض العائلات معا على أن يعطي الفقيه درسه لهم مجتمعين.. إن البنات يذهبن مع الأولاد إلى الكُتّاب حتى سن الثامنة حيث يجلسن في البيت أو يذهبن إلى مدرسة «فقيهة» تقوم بتدريسهن، كما تقوم أيضا بتدريس غيرهن من الجواري أو من اليافعات اللواتي لديهن الرغبة في تعلم القرآن الكريم..

وعندما يرسل الأب طفله إلى المدرسة يقدم إلى الفقيه هدية متواضعة «استفتاحه» تتراوح بين ربع ريال أو نصف ريال.. ثم يتقاضى المدرس بعد ذلك استحقاقه الأسبوعي وفي كافة الأعياد والمناسبات يقدم الأب شيئا من المال إلى المدرس يتناسب وحالته المادية، ويجلس الطلاب في حلقة دائرية حول



● (الكُتَّاب) .. أولى المدارس أيّام زمان ●

المدرس وكل منهم يتمتم في قراءة الواجب الذي أسند إليه.. والشيخ من خلال سماعه لكافة الأصوات يستطيع تصحيح المخطىء سواء أكان الخطأ في اللفظ أم في التجويد. ويراقب الطلبة باهتمام عصى الشيخ الطويلة التي تصل إلى كل فرد تقريبا.

وحينما ينهي الطفل نصف القرآن أو قرابة الثلثين «حتى سورة يس» يخبر

الفقيـه الأب عمـا حققه طفله، وعندئذ يحدد الأب موعد الدعوة التي ستضم المـدرس وكـافة الطلاب.. وفي اليوم الموعود يأتي الطلبة بملابسـهم الجميلة ويضـع كل منهم لوح الدراسة على رأسه ويكون مع هؤلاء الابن المحتفى به وهو يحمل أيضـا «لوح الدراسة» ملفوفا بقطعة من القماش موشاة بالذهب، ويمشي الطلبة على هيئة صفوف طويلة يتوسطهم المحتفى به، ويجوبون شوارع المدينة سوية ينشدون الأناشيد الدينية وبعض القصائد في مدح الرسول صلى الله عليـه وسلم، ويقـرأون بعض آيـات القـرآن الكريم

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء - آية ١٠٧].

وحينما يعود هؤلاء إلى بيت زميلهم يجدون أقرباء الطفل كما يجدون شيخهم أيضـا، حيث يتناول الجميع طعام الوليمة، ويتقاضى الشيخ مبلغا من المال يتراوح بين ١ -٣ ريالات، وهذه الحفلة تسمى «إصرافة» ويتبعها بعد مدة حفلة أخرى تسمى «إقلابة» تكون حينما ينهي الطفل قراءة القرآن حيث تكون الوجبة أدسم، وكذلك يحتفى بالشيخ بصورة أكبر.. فالموسرون ينقدون الفقيه هدية



● كان العقاب في الكتّاب بواسطة (الفَلَكَة) ●

تعدل ٣٠ ريالا كما يخلعون عليه بدلة أو جُبّة.. وغالبا ما تكون هناك تلاوة للقرآن الكريم في المنزل بعد جولة الطلبة وقبل وجبة الطعام.. في مثل هذه المناسبات تقدم حلوى «بتاسة» موشاة بالإكاليل الأبيض والذهبي..

والأثـرياء يضيفون عليها حلاوة «لدّو» وهي من الحمص والدقيق والسكر، وبعض الناس يضيفون عليها حبات من الزبيب الرازقي..

ومن أشـهر الكتاتيب في مكة المكرمة:

كُتّـاب الشيـخ عبـدالحي ـ كُتّـاب الشيـخ عبـدالله السنّـاري الشهيـر بـ «حمدوه» ـ كَتّاب الشيخ حسين العبادي ـ كُتّاب الشيخ عبدالحق الهندي «قارىء» ـ كتاب السيد حمود ـ كُتّاب الشيخ إبراهيم الخزامي ـ كُتّاب الشيخ أحمد العجيمي.

بدايات المدارس

أما عن المدارس في مكة المكرمة فقد تحدثت كتب التاريخ عنها ونقتطف منها ما يمكن أن يعطي صورة مشرقة عما كان عليه التعليم في الحجاز وبالذات في الجامعة العالمية الإسلامية جامعة «المسجد الحرام».. فيحدثنا قطب الدين عن مدرسة بنيت عام ١٢٣٣م. «٦٤١هـ» وكانت تحوي مكتبة كبيرة بناها أحد خدم الخليفة المستنصر بالله الأمير شرف الدين إقبال الشرابي المستنصري العباسي على يمين الداخل إلى المسجد الحرام من باب السلام، ووقف فيها كتبا كثيرة..

كما يحـدثنا عن مدرسة أخرى بجانب باب السلام أيضا بناها السلطان المملوكي قايتباي عام ١٤٧٧م (٨٨٢هـ) حيث أمر وكيله الأمير سنقر الجمالي أن يبني له مدرسة يدرس فيها علماء المذاهب الأربعة، ورباطا يسكنه الفقراء، فاشترى وكيله رباط الدرة ورباط المراغي ودارا لإحدى النساء هدمت جميعها وجعـل فيهـا «٧٢» خلوة ومجمعـا كبيرا مشرفا على الحرم والمسعى ومكتبا ومئذنة.. وصير المجمع المذكور مدرسة قرر فيها أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة وأرسل خزانة كبيرة وقفها على طلبة العلم وجعل مقرها المدرسة..

وهناك أربع مدارس بناها السلطان العثماني سليمان القانوني عام ١٥٦٥م «٩٧٢هـ» وتسمى بالمدارس السلطانية أو المدارس السليمانية، وسبب بناء هذه المدارس الأربع أن الأمير إبراهيم الذي تولى إصلاح عين عرفات عرض على السلطان سليمان أن يكون له بمكة أربعة مدارس على المذاهب الأربعة يدرس فيهما علماء مكة علم الفقه ليكون سببا لتقوية الشريعة فأجابه السلطان إلى ذلك، وصدرت الأوامر السلطانية بالعمل وعين لذلك الأمير قاسم أمير جدة وطلب إليه أن يبادر بالعمل في أحسن الأماكن اللائقة لهذه المدارس بالجانب الشمالي من المسجد الحرام المتصل به من ركن المسجد إلى باب زيادة..

وقد وضع قاضي مكة حجر الأساس وتبعه من حضر من العلماء والسادات وأعيان الناس ووضع كل منهم حجرا فيه وكان يوما مشهودا.. مما يعطي دليلا على مكانة القاضي والعلماء والسادة والأعيان فيها..

وبجانب هذه المؤسسات الكبيرة هناك العديد من المدارس الصغيرة التي أنشأها أمراء من الهند ومن مصر أو بعض الحجاج الأثرياء.. ولقد كان هؤلاء المتبرعون يرصدون أموالا للإنفاق على هذه المدارس من طلبة ومدرسين بالإضافة إلى تخصيص بعض المبالغ التي ترصد لقراءة القرآن في أوقات معينة بهدف زيادة الثواب.. لكن الإدارة السيئة وعدم استغلال الأموال في المناحي المخصصة لها ساعد على اضمحلال هذه المدارس، إذ لم تنقض سنوات قليلة على إنشائها حتى بدأ الخراب يتسرب إلى هذه المؤسسات، كما أن سوء الإدارة ساعد على تقليص دخل هذه المؤسسات لدرجة أصبحت معها عاجزة على دفع مرتبات المدرسين وجرايات الطلبة، ناهيك عن صيانة البناء نفسه.. وحينذاك اعتبر المسئولون هذه المؤسسات من الأماكن المهجورة وربما اتخذها بعضهم سكنا له أو يقوم بتأجيرها للحجاج الأثرياء أو لأهل مكة الذين يفضلونها على غيرها لقربها من الحرم الشريف.. ويقول قطب الدين بهذا الصدد لقد أصبحت هذه المؤسسات بأيدي هؤلاء يديرونها ولم يبق إلا بعض الغرف القليلة التي يستوطنها بعض المدرسين والطلبة، أما باقي الغرف فيتصرف بها المالك الثري الذي آلت إليه والذي يقوم بين الحين والآخر بترتيب

إقـامـة بعض المحاضرات في القاعة كتخليد لذكرى المؤسس.. فلقد وصل الحال إلى أن كلمة مدرسة أصبحت تعني دارا جميلة بجوار الحرم، دون أن تكون لدى الغالبية العظمى من السكان فكرة واضحة عن المعنى الأساسي لهذا التعبير..

التعليم في الحرمين الشريفين

إن أقدم الجامعات وأعلاها مقاما في مكة المكرمة والمدينة المنورة وسائر أرض الله هما الحرمان الشريفان، وكان مدرسو الحرمين يتلقون الدعم المالي من مصادر مختلفة، أما رجال الإفتاء فباستثناء مفتي الحنفية الذي له صلاحية إصدار الفتاوى للسلطات التركية، فكلهم مدرسون وهم مشغولون دائما بإعطاء المحاضرات، ويتلقى بعض منهم هدايا ثمينة وقيمة من التلاميذ الأثرياء، ومن المعجبين بعلمه وتدريسه.. ويمكننا القول: إن جميع المدرسين يحصلون على بعض العائدات المالية من المؤسسات الإسلامية الدينية.. والاستثناء الوحيد هو الشيخ رحمت الله بن خليل العثماني الذي ولد بالهند عام ١٢٢٦هـ ثم فر إلى مكة المكرمة عام ١٢٧٨هـ ١٨٦٢م عندما احتل الإنجليز الهند.. وقد عرف الشيخ رحمت الله بمناهضته للنصرانية.. وكان الشيخ رحمت الله يتردد على الحرم للعبادة ولسماع دروس العلم، وكان يفتي على المذهب الحنفي، فسمع الشيخ رحمت الله الشيخ أحمد بن زيني دحلان - إمام وخطيب المسجد الحرام آنذاك - ينتصر لمذهب الشافعي ويضعف أدلة غيره، فسأله بتواضع طلاب العلم عن سبب انتصاره لمذهب الشافعي، وطال النقاش بينهما، فأدرك الشيخ دحلان أن السائل من كبار العلماء، فأخذ بيده وطلب منه التعرف إليه فاختصر له ظروفه وسبب مجيئه إلى مكة المكرمة، ثم اصطحبه إلى بيته وعمل وليمة كبيرة دعا إليها العلماء، وطلب من الشيخ رحمت الله الحديث عن المناظرة، وما يلاقيه المسلمون في الهند من جور الإنجليز.. ثم أعطاه إجازة التدريس في المسجد الحرام وسجل اسمه في السجل الرسمي لعلماء الحرم، ولما رأى الشيخ أن الدراسة في المسجد الحرام ليس لها منهاج ثابت وأنها تقتصر على العلوم

● جانب من الجمع الغفير لضيوف الرحمن أثناء طواف الإفاضة ●

● توسعة الحرم المكي الشريف إحدى الإنجازات العملاقة التي سجّلها التاريخ، فخر لكل مسلم في العالم الإسلامي ●

الدينيـة واللغة العربية، أراد إدخال علوم جديدة كالهندسة والرياضيات وعلم المناظرة والعلوم الفلكية، وأحضر الكتب اللازمة من الهند، وكان يوما مشهورا في تاريخ التدريس في المسجد الحرام عندما أخذ الشيخ رحمت الله يدرس كتاب حجة الله البالغة في حكمة التشريع، وشرح الجغميني في علم الفلك، ومقدمة ابن خلدون، وقد فصل في تدريسه بين علمي النحو والصرف بعد أن كان يدرسان معا.. وكان يقوم بتدريس هذه العلوم في داره حتى تخرج على يديه كثير من العلماء والقضاة وكبار الموظفين الذين كان لهم دور كبير فيما بعد في تاريخ مكة المكرمة.. وهذا الكيان الشامخ الكبير.



تلامذة الشيخ رحمت الله في مكة المكرمة

أصبحت حلقة الشيخ رحمت الله في الحرم المكي الشريف منهلا عذبا، وأقبل عليه طلاب العلم والمعرفة، وظل يقوم بالتدريس فترات طويلة ومتعددة، لذا فقد تخرج على يديه عدد كبير من العلماء والقضاة وأهل الإفتاء يشار إليهم بالفضل في تاريخ مكة المكرمة، وفيما يلي أسماء بعضهم:

١ ـ جلالة الملك الشريف حسين بن على الهاشمي مؤسس الدولة الهاشيمة بالحجاز.

٢ ـ حجة الأمة قاضي القضاة الشيخ عبدالله سراج مفتي الحنفية وشيخ العلماء بمكة المكرمة.

٣ ـ العلامة الشيخ أحمد الدين جكوالي مؤسس مظهر العلوم بكراتشي

٤ ـ العلامة الشيخ أحمد أبو الخير مرداد المدرس بالمسجد الحرام وشيخ الخطباء والعلماء..

٥ ـ العلامة الشيخ أمين محمد على مرداد المدرس والإمام والخطيب بالمسجد الحرام ونائب رئيس محكمة مكة المكرمة.

٦ ـ العلامة الشيخ أسعد أحمد دهان المدرس بالمسجد الحرام وقاضي المحكمة الشرعية بمكة المكرمة.

٧ ـ العلامة الشيخ أحمد على حسن النجار قاضي الطائف..

٨ ـ العلامة الشيخ أحمد أبو الخير العطار صاحب التآليف الشهيرة في الأسانيد..

٩ ـ العلامة الشيخ بدر الإسلام الكيرانوي مدير المكتبة الحميدية بقصر يلدز ومترجم السلطان عبدالحميد خان.

١٠ ـ العلامة الشيخ حسن عبدالقادر طيب المدرس بالمسجد الحرام..

١١ ـ العلامة الشيخ حسن كاظم المدرس بالمسجد الحرام.

١٢ ـ العلامة السيد حسن صدقة دحلان المدرس بالمسجد الحرام.

١٣ ـ العلامة الشيخ درويش العجيمي المدرس بالمسجد الحرام..

١٤ ـ العلامة الشيخ شرف الحق صديق المناظر المعروف وصاحب مؤلفات الرد على النصارى.

١٥ ـ العلامة الشيخ شهاب الدين العثماني الكيرانوي من قراء وعلماء كيرانه..

١٦ ـ العلامة الشيخ ضياء الدين عبدالوهاب المدراسي مدير مدرسة «الباقيات الصالحات» في يلور بجنوبي الهند..

١٧ ـ العلامة الشيخ عبدالرحمن أحمد دهان المدرس بالمسجد الحرام والمدرسة الصولتية.

١٨ ـ العلامة الشيخ عبدالرحمن الشيبي المدرس بالمسجد الحرام وسادن بيت الله الحرام.

١٩ ـ العلامة الشيخ عبد الأول الجوتيوري الشهير بمصلح بنغال وصاحب مؤلفات نافعة.

٢٠ ـ العلامة السيد عبدالله محمد صالح الزواوي المدرس بالمسجد الحرام ومفتي الشافعية بمكة المكرمة ورئيس مجلس الشورى..

٢١ العلامة السيد عابد حسين المالكي المدرس بالمسجد الحرام ومفتى المذهب المالكي بمكة المكرمة.

٢٢ ـ العلامة الشيخ عبدالله أحمد أبو الخير المدرس بالمسجد الحرام ومفتى الحنفية وقاضي المحكمة الشرعية بمكة المكرمة..

٢٣ ـ العلامة الشيخ عبدالرحمن حسن العجيمي المدرس بالمسجد الحرام وقاضي محكمة الطائف.

٢٤ ـ العلامة الشيخ عبدالله الغمري المدرس بالمسجد الحرام..

٢٥ ـ العلامة الشيخ عبدالحميد بخش الفلكي المدرس بالمسجد الحرام..

٢٦ ـ العلامة الشيخ عبدالله محمد الغازي المدرس بالمسجد الحرام والمدرسة الصولتية ومؤرخ مكة.

٢٧ ـ العلامة الشيخ عبدالستار الدهلوي الكتيبي المدرس بالمسجد الحرام وصاحب التآليف النافعة في تاريخ علماء مكة المكرمة.

٢٨ ـ العلامة الشيخ عبدالرحمن بخش الملا المدرس بالمسجد الحرام والمدرسة الصولتية.

٢٩ ـ العلامة الشيخ عبدالخالق محمد حسن البقالي المدرس بالمسجد الحرام ومؤسس المدرسة الإسلامية «دار الفائزين» بمكة المكرمة.

٣٠ ـ العلامة الشيخ عبدالله القاري المدرس بالمسجد الحرام والمدرسة الصولتية وشيخ القراء بمكة المكرمة..

٣١ ـ العلامة الشيخ عبدالرحمن الإله آبادي شيخ القراء بالهند.

٣٢ ـ العلامة الشيخ عبدالسميع الرامبوري..

٣٣ ـ العلامة الشيخ عبدالوهاب المدراسي مؤسس مدرسة «الباقيات الصالحات» في ويلور بجنوبي الهند.

٣٤ ـ العلامة الشيخ عبدالقادر خوقير المدرس بالمسجد الحرام..

٣٥ ـ العلامة الشيخ عبدالله زيني دحلان المدرس بالمسجد الحرام..

٣٦ ـ العلامة الشيخ عبدالحق القاري المدرس بالمسجد الحرام والمدرسة الصولتية ومؤسس المدرسة الفخرية بمكة المكرمة.

٣٧ ـ العلامة الشيخ محمد حامد الجداوي المدرس بالمسجد الحرام ومدير مدرسة الفلاح وقاضي محكمة جدة.

٣٨ ـ العلامة محمد سعد أبو الخير مرداد المدرس بالمسجد الحرام ومدير الأوقاف بمكة المكرمة.

٣٩ ـ العلامة الشيخ محمد سعيد بابصيل المدرس بالمسجد الحرام.

٤٠ ـ العلامة الشيخ محمد حسين الخياط المدرس بالمسجد الحرام ومؤسس المدرسة الخيرية بمكة المكرمة.

٤١ ـ العلامة الشيخ الملا محمد إسماعيل النواب الطبيب الشرعي المعروف.

٤٢ ـ العلامة الشيخ محمد على إسماعيل مرداد المدرس والإمام والخطيب بالمسجد الحرام..

٤٣ ـ العلامة الشيخ محمد صالح الميمني مؤرخ مكة المكرمة.

٤٤ ـ العلامة الشيخ محمد على زين العابدين المدرس بالمسجد الحرام..

٤٥ ـ العلامة الشيخ محمد على صديق كمال المدرس بالمسجد الحرام..

٤٦ ـ العلامة الشيخ محمد هاشم أشعري مؤسس جمعية نهضة العلماء بأندونيسيا.

٤٧ ـ العلامة الشيخ محمد صالح صديق كمال المدرس بالمسجد الحرام..

٤٨ ـ العلامة الشيخ محمد سليمان حسب الله المدرس بالمسجد الحرام.

٤٩ ـ العلامة الشيخ أبو الخير الفاروقي الهندي المصلح والمربي الشهير ومن علماء الهند.

٥٠ ـ العلامة الجليل الشيخ محمد على مؤسس مدرسة دار العلوم ندوة العلماء بالهند.

٥١ ـ العلامة الجليل الشيخ محمد سعيد رحمت الله ناظر ومدير المدرسة الصولتية بعد وفاة مؤسسها، والذي خدم العلم نحو قرن كامل، وتخرج في عهده وعلى يديه عدد كبير من العلماء والشخصيات الفاضلة وقد كان حفيدا للشيخ رحمت الله وخير خلف له..

المدرسون في الحرمين الشريفين

تتوزع في أرجاء الحرمين الشريفين حلقات الطلبة الذين يستمعون إلى المدرسين أثناء محاضراتهم. ولعل هذه الصور توحي بأن كل من يستطيع جذب أفراد يستمعون له يمكنه حينئذ إلقاء محاضرات في حصوات المسجد الحرام أو أروقته ألا إن الأمر ليس بهذه السهولة، فالمحاضر غير المؤهل يعرض نفسه للسخرية، وكذلك فإن مساحة المسجد قد تستلزم أن لا يقوم حتى المدرسون البارزون بإلقاء محاضراتهم في وقت واحد.. ومن جهة أخرى قد يكون الحياء الذي يعتري بعض المدرسين مانعا لهم من التدريس في المسجد، فالبعض يعتقد بأنه صغير في السن رغم نضجه العلمي، والبعض الآخر يظن أنه غير مشهور ليستمع إليه الناس، ولهذا نجد فرقا ملموسا بين أساتذة المسجد وزملائهم الآخرين الذين يعملون في أماكن أخرى.. والذي يحدد الفرق بين هؤلاء وأولئك هو العرف التقليدي، غير أنه في بعض الأحيان يحدد بنظام خاص من شيخ العلماء الذي يجرى تنصيبه من قبل الحكومة.. ومن مهامه توزيع عوائد العلماء وتعيينهم طبقا لوجهة نظره الشخصية، ويكون شيخ العلماء في الغالب من رجال الإفتاء. ويفضل على العموم مفتى الشافعية لهذا المنصب..

وبصورة عامة يمكن القول إنه لم يكن في الحجاز في مرحلة من المراحل إلا في الحرمين الشريفين أو الكتاتيب يجمع المدرسون طلابهم في حلقات على اختلاف أعمارهم في أروقة المسجد الحرام، ويعطونهم دروسا في علوم الدين واللغة بغير منهاج ثابت، وإذا أكمل الطالب دراسة الكتب التي يشرحها المدرسون حسب تضلع كل في مادته، تقوم هيئة العلماء بفحص هذا الطالب لمنحه إجازة التدريس.

بدايات المدارس النظامية

رأى الشيخ رحمت الله أن الأوضاع التعليمية في مكة المكرمة مازالت على الطريقة القديمة، فأقدم على إحداث أول مدرسة بترتيب ونظام جديد على نفقته الخاصة في شهر رجب عام ١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٨م رجاء أن تخدم طلاب العلم من الهند وسائر أنحاء العالم الإسلامي، ولكن هذه المدرسة التي كانت في محيط الحرم بباب زيادة لم تحقق الغرض من تنظيم الدراسة المنهجية وإتمام سائر الترتيبات المدرسية، فنقلها إلى دار أحد أثرياء الهند المهاجرين المعروفة بـ «دار السقيفة» عند مطلع جبل هندي بمحلة الشامية، وعرفت بمدرسة الشيخ رحمت الله أو المدرسة الهندية، وسرعان ما غصت بطلابها فنقل قسم الحفاظ إلى المسجد الحرام ثانية وأبقى قسم العلوم، وكان يدعو الله أن يحقق أمنيته فى إنشاء بناء خاص بالمدرسة.

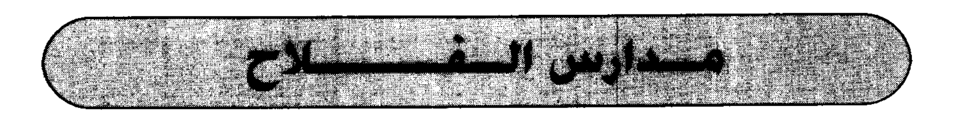
المدرسة الصولتية

قدمت امرأة من الهند من كلكتا في عام ١٢٨٩هـ ـ ١٨٧٢م للحج اسمها صولت النساء بيغم، وكانت عازمة على إنشاء رباط في مكة المكرمة ـ على عادة أهل الخير في ذلك الزمان ـ لسكنى الحجاج وحفظ أمتعتهم، وكانت تسمع

بصاحب المناظرة المشهورة الشيخ رحمتِ الله، لكنها لا تعرفه، فتوصلت إليه عن طريق زوج ابنتها الذي كان يحضر دروس الشيخ، واستشارته في أمر الرباط، فأخبرها بكثرة الأربطة وأن أبناء مكة المكرمة بحاجة إلى مدرسة، وبها يحصل الأجر والثواب العظيم، وفوضت الشيخ بشراء الأرض والإشراف على البناء، فاشترى أرضا بمحلة الخندريسة الواقعة بين جبل عمر وجبل الكعبة وحارة الباب، وبوشر في البناء، ووضع الشيخ بيده حجر الأساس لأول مدرسة دينية في الحجاز بجانب البيت العتيق صباح يوم الأربعاء ١٥ شعبان ١٢٩٠هـ ـ ٨ اكتوبر ١٨٧٤م، وتم افتتاح المدرسة وانتقال الطلاب والمدرسين إليها في ١٤ محرم ١٢٩١هـ ـ ٣ مارس ١٨٧٥م في احتفال كبير حضره علماء مكة المكرمة وأعيانها، وانتظمت فيها الدراسة وسائر الترتيبات كما كان يتمنى الشيخ، ورفض أن يطلق اسمه على المدرسة وأطلق عليها اسم «الصولتية» إكراما للمحسنة الفاضلة، وكان أول درسين أعطيا في هذه المدرسة هما:

- درس القرآن الكريم على يد الشيخ إبراهيم سعد..

- ودرس الحديث من صحيح البخاري على يد المؤسس المعروف..



معظم الأجيال منذ إنشاء مدارس الفلاح في مكة المكرمة وجدة تتطلع إلى معرفة تاريخ هذه المدارس، والخلفيات التي حفت بتكوينها وإنشائها ثم بمعطياتها وما حققته من إنجازات ما تزال بصماتها محفورة في أذهان المجتمع الحجازي وفي دمه وأعصابه، خاصة أولئك الذين مازالوا يدبون على وجه الأرض بعكاكيزهم وذكرياتهم واستذكار ما كانوا عليه وهم ينهلون العلم بين مدارس الفلاح والمدارس الأخرى.. ثم تركيز معلوماتهم وتقويتها في حلقات العلوم في المسجد الحرام وفي منازل سادتهم من العلماء في أصول التفسير والفقه والحديث والآداب وعلوم الفلسفة والمنطق وعلوم الحساب والجغرافيا ممن كانت أروقة المسجد الحرام وحصواتها تعجُّ بهم وبمن حولهم، أولئك الذين



● الحاج محمد علي زينل علي رضا ـ رحمه الله ـ مؤسس مدارس الفلاح ●

غرسوا في قلوب الأجيال وفي أذهانهم وفكرهم حب العلم، بل وعشقه أيضا.

وقد كانوا يحتفون ويتباهون ببعضهم البعض خاصة عندما تطرح قضية من قضايا الشرع الحنيف أو موضوع من مواضيع الأحاديث النبوية الشريفة أو في تصحيح حسابي أو جدل في نظريات فلسفية وعلم المنطق تجدهم جميعا يتنـاقشـون من خلال ثقـافـاتهم وعلمهم بكل الهدوء والاتزان واحترام الآراء المتبادلة حتى استطاعوا أن ينشئوا من أبائهم وأهلهم أجيالا تدرك أمور دينهم وأمور دنياهم على علم وبصيرة ملؤها الإيمان واليقين بالله سبحانه وتعالى..

وإذا كان لي أن أكتب ما أكتب عن مدارس الفلاح فإنما أكتبه وأنا استذكر أيام طفولتي ونشأتي حتى سن الثامنة عشرة وأنا انتقل بين صفوفها وأنهل من عذوبة علومها بين أيدي رجال كرام النفوس يجمعون بين الحزم في غير صلف، وبين اللين في غير ترف حتى منتصف الخمسينيات.. كما أذكر كيف كنا ننتقل من حلقة إلى أخرى منذ العصاري وبعد صلاة المغرب حتى أداء صلاة العشاء

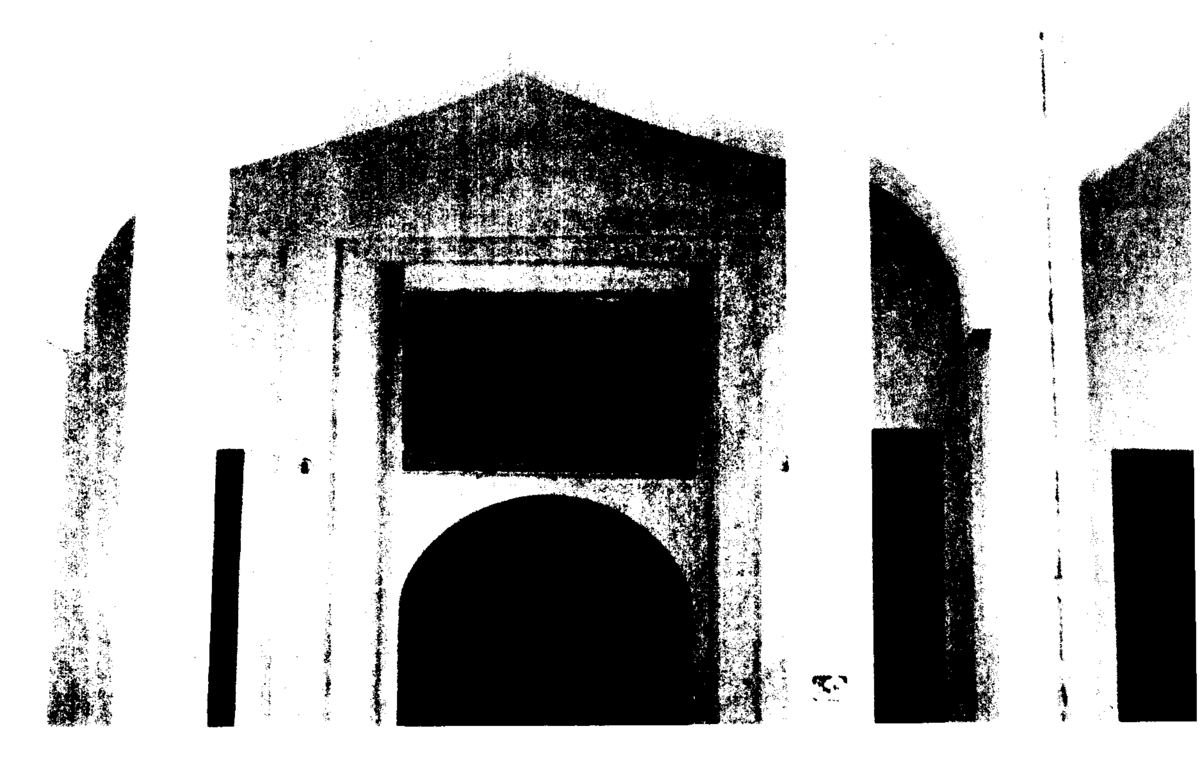
في المسجد الحرام.. وقد كنا نسمع ونتابع النقاش والاستفسار ممن هم أكبر سنا من علمائنا الأفاضل..

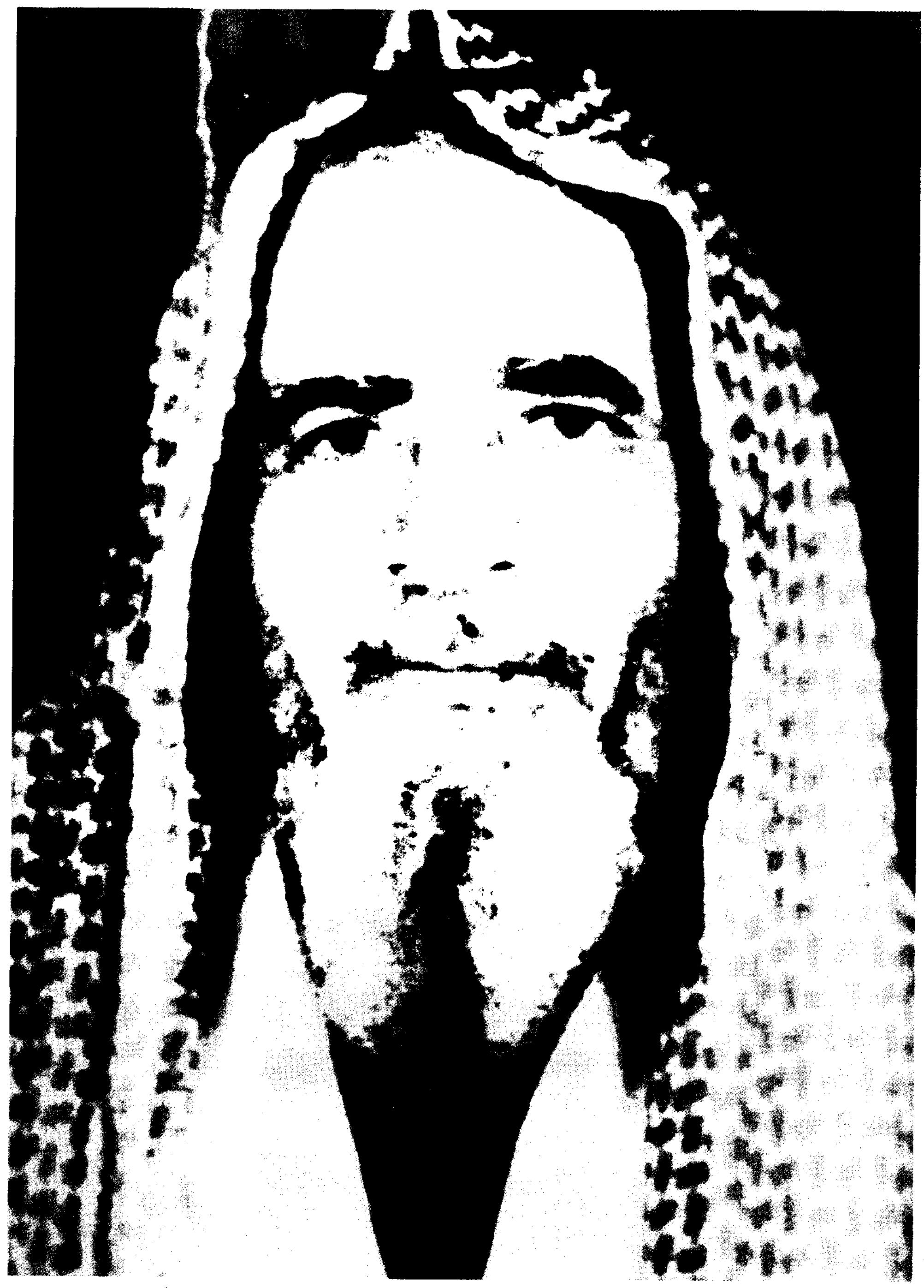
وفي يوم زاهر وجميل طلبت من سيدي الكبير والمربي القدير سيادة السيد إسحق عزوز رحمه الله تزويدي بمعلومات عن تاريخ هذه المدارس، وهو من هو علما وثقافة ودراية بشئون مدارس الفلاح منذ التحق بها طالبا ومدرسا، وفي نفس الوقت كان يُكَلَّف بأعمال إدارية حتى أمسك بزمامها منذ أكثر من أربعين عاما.. وقد كان يمثل مركز الثقل في هذه المدارس وفي بنيانها الضخم الذي أنشيء في جرول مما سيشهد به التاريخ وهو بهذا يمثل «نظارة الوقف» على مدارس الفلاح بمكة المكرمة..

ولهذه المباني المنشأة حديثا والأرض التي عليها قصص طريفة تفضل بروايتها لي أستاذي الجليل إسحق عزوز.. ولقد سألت سيادته بادىء ذي بدء..

متى تأسست مدارس الفلاح بمكة المكرمة وجدة؟..

فقال رحمه الله :





● السيد/ إسحاق عقيل عزوز ـ رحمه الله ـ قضى جلّ حياته في خدمة مدارس الفلاح، وتولّى استلام الأرض من الشيخ إبراهيم الجفالي الذي اختاره ناظراً لوقف مدارس الفلاح بمكة المكرمة نظراً لمكانته العلمية وحسن إدارته ●

ـ تأسست مدارس الفلاح في مكة المكرمة عام ١٣٣٠هـ ـ ١٩١١م وفي جدة عام ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م ومؤسسها هو الشيخ محمد علي زينل علي رضا، وكانت نواة مدرسة الفلاح بمكة المكرمة هي كُتّاب الشيخ عبدالله حمدوه حيث عرض عليه فكرة المدرسة فرحب بها، ونقل طلاب كُتّابه إليها.. وكان موقعها أول ما تأسست في القشاشية ثم انتقلت بعدها إلى حارة الباب، ثم عادت مرة أخرى إلى القشاشية، ثم انتقلت إلى الشبيكة عام ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٨م، ويعتبر مبنى مدرسة الفلاح هذا أول مبنى أسس في مكة المكرمة ليكون مدرسة، حتى تم بناء المدارس الحديثة في جرول التي انتقل إليها طلابها مما سيأتي التنويه عنه لاحقا.. وقد أسست فلاح مكة المكرمة على نفس النظام الذي أسست عليه فلاح جدة من حيث ترتيب المراحل الدراسية وتقسيمها ومناهجها.. وبلغ عدد طلابها عند إنشائها حوالي مائتي طالب ولم تلبث طويلا حتى ازداد عدد طلابها، وازدحمت بهم، فبلغ عددهم في أحد سنواتها الأولى «١٢٠٠» طالب.. وكان مؤسسها يتولى الصرف عليها بمعدل ١٤٠٠٠ جنيه ذهبي سنويا حتى عام ١٣٣٧هـ ـ ١٩١٨هـ وبعد أن بدأت الأزمة العالمية قبل الحرب العالمية الثانية أي منذ العام «١٩١١م ـ ١٣٣٠هـ» حتى «١٩١٤م ـ ١٣٣٣هـ» فقد قل الصرف من لدن المؤسس.. ثم توقف نهائيا عام ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.. فاعتمدت المدارس على إعانات الحجاج وغيرهم من التجار والأهالي المحسنين..

ثم اجتمع تجار جدة ووضعوا برنامجا بدفع قرش دارج عن كل طرد من طرود بضائعهم التي ترد من الخارج وذلك عن طريق الجمارك، واستأذن التجار الملك عبدالعزيز في ذلك فرحب بالفكرة ووافق عليها، وأبلغ معالي وزير المالية آنذاك الشيخ عبدالله السليمان لتنفيذ ذلك.. مما شكَّل في ذلك الزمان مليون ريال سنويا.. وقد وصف الأستاذ محمد على مغربي هذا الموقف بقوله: عندما نتذكر مشروع «القرش» نتذكر بالتالي كيف هبّت الأمة لإنقاذ الفلاح».. ولعله يعني بقوله هذا أن الذي يدفع قرش الطرد التجاري هو المواطن الذي يمثل الأمة، باعتبار أن «القرش» يضاف على الطرود التي ترد من كافة المنافذ الجمركية



● أول لقاء بين جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود ـ طيب الله ثراه ـ والحاج عبدالله علي رضا زينل ـ يرحمه الله ـ وقد كان قائمقام جدة، وذلك يوم الاثنين ٧ جمادى الثانية ١٣٤٤هـ. بعد دخول جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود جدة بساعتين ●

البرية والبحرية للمملكة العربية السعودية حيث يشمل كافة طرود التُّجَّار الواردة إليهم.

واستمرت هذه الإعانة حتى عام ١٣٦٠هـ - ١٩٤٠م من عائد القرش.. ثم توقف منذ ذلك التاريخ ١٣٦٠هـ - ١٩٤٠م إثر مباحثات دارت بين المسئولين عن مدارس الفلاح في مكة وجدة وبين وزارة المعارف ووزارة المالية حول ما خصص من عائد الطرود التجارية وتوقفها.. وانتهت هذه المباحثات بأن تقوم الدولة بتسديد عجز مدارس الفلاح المالي والذي لم يصرف إلا في عام ١٤١٢هـ - ١٩٩١م وهو مبلغ مليون ريال فقط.. وليت القرش لم يتوقف منذ ١٣٦٠هـ - ١٩٤٠م وحتى ١٤١٢هـ ١٩٩١م إذ لو استمر دفعه لكانت مدارس الفلاح في أحسن أحوالها المالية.

ومن ضمن المعلومات التي سمعتها من سيدي الأستاذ إسحق عزوز رحمه الله عن العجز الذي تعرضت له مدارس الفلاح هو أن من ضمن هذه الأسباب ارتفاع رواتب المدرسين في هذه المدارس فقد كانت كبيرة جدا وتدفع لهم بالجنيهات الذهبية لأنها العملة الوحيدة.. كما أن المعونة تضاءلت حتى توقف المؤسس عن الاستمرار في الصرف عليها كما سلف ذكره.. ثم انتعشت الموارد بعد صرف القرش الذي خصصه التجار على طرودهم، الذي حقق تسديد العجز الذي نتج عن التوقف المشار إليه سلفا..

ويقول السيد أمين عقيل عطاس:

كنت أعرف بإحساسي أن سيدي الأستاذ إسحاق عزوز كان يتمنى أن تكون أرض ملعب إسلام في جرول لمدراس الفلاح وكنت أشعر بأن أحاديثه تلك كانت تنم عن رغبته في الحصول عليها وعند السؤال عما يرغبه الشيخ إبراهيم إسلام رحمه الله قيمة للأرض فكان مبلغا باهظا لا تقوى عليه وعلى دفعه صناديق مدرسة الفلاح بمكة المكرمة.



● السيد/ أمين عقيل عطاس أحد كبار المتعاونين في شؤون مدارس الفلاح بمكة المكرمة ●

ويقول أيضا عن خلفية تاريخية. بأن الشيخ إبراهيم الجفالي كان مدعوا في إحدى الحفلات.. فجرى حديث عن أرض إسلام. وقد سمع بأن سعادة الشيخ عبدالله بن صديق أعطى تصريحا للبناء بموجب الخرائط التي قدمت للبلدية آنذاك.. فما كان من الشيخ إبراهيم الجفالي رحمه الله إلا أن اتصل بفضيلة السيد إسحق عزوز وطلب إليه التلاقي ليعلن له رغبته في إهداء هذه الأرض إلى مدارس الفلاح والتي قام بشرائها من جيبه الخاص وليس من المؤسسة التي أسسها وكان يرأسها ومشارك فيها.. وتبلغ مساحة هذه الأرض ٢٤ ألف متر مربع.. وكانت قيمتها ٣٣ مليون ريال.. ليبني عليها مدارس للفلاح وتكون الأرض وقفـا على هذه المدارس.. وأخذ الطرفان في التشاور مع العلماء في شروط الوقفية حتى تمت الإجراءات المطلوبة لإنهاء أمر الوقفية على مدارس الفلاح بمكة المكرمة.. كما تم اختيار السيد إسحق عزوز ناظرا عليها وعلى وقفها..

وشاءت المقادير بعد إجراءات الوقفية وإتمامها أن يتعرض الشيخ إبراهيم عبـدالله الجفالي رحمة الله لوعكة نقل على أثرها إلى المستشفى العسكري وبقي فيه شهرا للعلاج حتى توفاه الله «رحمة الله عليه».

وقد كان يرجو من سيادة السيد إسحق عزوز عدم ذكر إهداء هذه الأرض لمدارس الفلاح للصحافة ورجال الإعلام.. غير أنه كان لي شرف العلم بهذا الإهداء الكريم السخي من أحد المتصلين بمدارس الفلاح اتصالا مباشرا.. وأعطيت هذه المعلومة لأستاذنا الكبير محمد حسين زيدان تغمده الله برحمته فأشار إليها وحمد هذه الهدية وأثنى عليها في رثائه للشيخ إبراهيم الجفالي..

وقد تقرر أن تقسم هذه الأرض إلى جزأين:

أولهما: لبناء مجمع سكني تجاري يعود عائده للانفاق على مدارس الفلاح.. وتخصيص دور كامل ليكون مكتبة عامرة بالكتب.. وسيطلق على هذه المكتبة اسم «الحاج محمد على زينل آل رضا» مؤسس مدارس الفلاح تخليدا لذكراه، وتنويها بما قدمه لهذه البلاد..

وثانيهما: لبناء المدارس بمراحلها: الابتدائية والمتوسطة والثانوية.. إضافة



● الشيخ إبراهيم عبدالله الجفالي - يرحمه الله - تبرّع لمدارس الفلاح بأرض قيمتها (٣٣ مليون ريال)، وقدّمها وقفا لمدارس الفلاح ●

إلى مسجد ومبنى للإدارة العامة وقاعة للمحاضرات ومسبح وملاعب رياضية..

وسألت سيادة السيد إسحق عزوز رحمه الله ناظر وقف مدارس الفلاح بمكة المكرمة عن أمنياته الجديدة؟

فقال : هي قديمة وجديدة.. إنني أدعو الله دائما أن يُوَفِّقَ المحسنين لبناء صرح علمي جديد في مدينة الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم.. إذ كانت تلك أمنيـة الحاج محمد على زينل آل رضا.. لكن الظروف المالية التي مرت بالعالم لم تمكنه من ذلك حتى توفاه الله، رحمه الله... مع خالص أمنياتي من الله تعالى عز شأنه بأن يحقق هذه الأمنية لبناء هذا الصرح العلمي وأن يطلق عليه «مدرسة الفلاح»..

غير أن أهل الخير والعطاء مازالوا يعيشون بيننا وما أكثرهم..

إنها دعوة موجهة لهم.. فليهبوا لتحقيق أمنية المؤسس الأول ورجاء أستاذنا الكبير السيد إسحق عزوز رحمه الله..

كما أننا نذكرهم بأن يهبوا أيضا لإكمال المباني الحالية في مكة المكرمة..

التكاليف المالية :

وقد بدأ تنفيذ البناء على هذه الأرض عام ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.. وتقرر أن ينفذ على مرحلتين بمقتضى عقود قيمتها الإجمالية ٨٥ مليون ريال وقد نفذت المرحلة الأولى وهي:

مبـاني المـدارس والمسجـد والإدارة العامة وقاعة المحاضرات والمسبح والمـلاعب الريـاضية.. وقد بلغ الإنفاق عليها ٤٦ مليون ريال.. عدا تكاليف التصاميم والإشراف..

وقد تم بحمد الله سبحانه وتعالى تسديد هذا المبلغ وهو ٤٦ مليون ريال من «المحسنين» جزاهم الله خيرا..

أما المرحلة الثانية: فالتنفيذ جار فيها بعد أن تمت المقاولة على تنفيذها بسعر ٣٣ مليون ريال.. وهي عبارة عن: مجمع سكني تجاري يكون ريعه على

المدارس مما يساعدها على الاعتماد بعد الله على مواردها الذاتية.. وقد أنفق عليه حتى حينه ١٣ مليون ريال، والباقي ٢٠ مليون ريال في انتظار «فرج الله» إذ إن من الأثرياء وغيرهم في الحجاز من تخرجوا من مدارس الفلاح ولهم أولاد وأحفاد ورثوا منهم ما ورثوا مما نغبطهم عليه..

ولكن ماهو دور المتخرجين منها ومازالوا أحياء يحنون لتلك التربة التي مشوا عليها أثناء دراستهم في أرجاء مدارس الفلاح.. إنني متأكد من أنهم سيتذكرون أداء واجبهم دون دعوة من المسئولين في مدارس الفلاح ولا من كاتب هذه السطور، بل لأنهم أكثر شعورا بواجبهم.. وحتى مَنْ أعطاهم الله من فضله عليهم واجب المشاركة في بناء اللبنات الخالدة لمدارس الفلاح.. ولا شك أن الله سبحانه وتعالى سيتمم فضله بإحسانه..

مدراء مدرسة الفلاح بمكة المكرمة

ولي إدارة مدرسة الفلاح بمكة المكرمة كل من المربين:

١ ـ السيد محمد حامد أحمد عوض

١٣٣٠ ـ ١٣٣٤هـ «١٩١١ ـ ١٩١٥م».

٢ ـ الشيخ محمد عطا الله الفاروقي

١٣٣٤ ـ ١٣٣٥هـ «١٩١٥ ـ ١٩١٦م».

٣ ـ السيد محمد طاهر الدباغ

١٣٣٥ ـ ١٣٣٦هـ «١٩١٦ ـ ١٩١٧م».

٤ ـ الشيخ عبدالله حمدوه

١٣٣٦ ـ ١٣٥٠هـ «١٩١٧ ـ ١٩٣١م».

٥ ـ الشيخ محمد الطيب المراكشي

١٣٥٠ ـ ١٣٥٢هـ «١٩٣١ ـ ١٩٣٣م».

٦ ـ السيد أبوبكر أحمد الحبشي

١٣٥٢ ـ ١٣٦٢هـ «١٩٣٣ ـ ١٩٤٢م».

٧ ـ السيد إسحق عقيل عزوز

١٣٦٢ ـ ١٣٧٨هـ «١٩٤٢ ـ ١٩٥٨م».

كما اختير ناظرا على وقفها في مكة المكرمة

٨ ـ محمد عبدالمحسن رضوان

١٣٧٨ ـ ١٤٠٥هـ «١٩٥٨ ـ ١٩٨٥م».

تطور نظام الدراسة في مدارس الفلاح

مدرسة الفلاح منذ تأسيسها وهي تضم مراحل دراسية مختلفة، ونظام الدراسة فيها مرَّ بتطورات يمكن تقسيمها على النحو التالي:

١ ـ الفترة الأولى:

من عام ١٣٣٠ ـ ١٣٥٥هـ «١٩١١ ـ ١٩١٦م».

كانت الدراسة خلال هذه الفترة مقسمة إلى أربع مراحل هي:

أ ـ المرحلة التحضيرية: كانت مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات، وكان الطالب يدرس فيها. القرآن الكريم، والإملاء والخط، والحساب، وأضيف في عام ١٣٤٩هـ ـ ١٩٣٠م الفقه والتوحيد والمطالعة.

ب ـ المرحلة الابتدائية: ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات يدرس فيها الطالب النحو، والصرف، والسيرة النبوية، والحديث، والتجويد، والفقه، والتوحيد، والإملاء، والخط، والحساب، والقرآن الكريم مجودا محفوظا.

جـ ـ المرحلة المتوسطة: ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات، وكانت تسمى المرحلة العالية، وأنشئت عام ١٢٣٦هـ ـ ١٩١٧م وتدرس في هذه المرحلة: العلوم الدينية: التفسير، والحديث، وأصول التفسير، وأصول الحديث، والتوحيد، والفقه، والفرائض، وأصول الفقه، واللغة العربية، والنحو، والصرف، والبلاغة، والإنشاء، والجغرافيا، ومسك الدفاتر، بالإضافة إلى الرياضيات، والحساب، والهندسة والجبر.

وبعد عام ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٨م أضيفت إلى ذلك: مبادىء العلوم والصحة واللغة الإنجليزية والتربية الاجتماعية.. وجد خلال هذه الفترة قسم خاص

لتحفيظ القرآن الكريم، يقبل فيه الطالب الذي أنهى المرحلة التحضيرية، ومدة الدراســة فيها سنتان، يدرس الطالب خلالهما علاوة على حفظ القرآن الكريم التجويد، والإملاء والخط، وينتقل من أتم حفظ القرآن في هذا القسم إلى المرحلة الابتدائية.

٢ ـ الفترة الثانية من عام ١٣٥٦هـ ـ ١٣٦١هـ «١٩٤١م»:

جرى في هذه الفترة تغيير في أسماء بعض المراحل الدراسية، كما عدلت مناهج الدراسة فيها بحيث أصبح الوضع كالتالي:

أ ـ المرحلة التحضيرية: بقيت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات، وقد أدخلت إلى مناهج الدراسة بعض الموضوعات الجديدة مثل: التجويدة والسيرة النبوية، والصحة..

ب ـ المرحلة الابتدائية: أصبحت مدة الدراسة فيها أربع سنوات، بعد أن كانت ثلاثـا، وأصبـح يدرس فيهـا موضـوعـات جديدة مثل: مبادىء العلوم، والاجتماعيات، واللغة الإنجليزية، والرسم والهندسة.

جـ ـ المرحلة الثانوية: قلّصت مدة الدراسة بها إلى سنتين، وأضيفت إلى المواد الدراسية بها: اللغة الإنجليزية والجبر، كما حذفت بعض الموضوعات مثل: البلاغة، والسيرة، والصحة..

د ـ المرحلة الثانوية العلمية· وهي التي كانت تعرف سابقا بالمرحلة العالية، وبقيت مدة الدراسة بها كما كانت عليه، وأضيف إلى المواد المقررة علم النفس، والأدب العربي.. وحذفت أصول الحديث والصرف.

٣ ـ الفترة الثالثة:

من عام ١٣٦٢هـ ـ ١٣٧١هـ «١٩٤٢ ـ ١٩٥١م»: سارت المـدرسة على نفس النهـج الذي اختطته مديرية المعارف، فأدمجت المرحلتان التحضيرية والابتدائية في مرحلة واحدة مدتها ست سنوات، وعرفت بالمرحلة الابتدائية، وتبع المرحلة الابتدائية المرحلة الإعدادية، ومدة الدراسة بها عام واحد، تليها المرحلة الثانوية ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات، وقد سارت الدراسة في هذا

القسم على منهج المعهد العلمي السعودي ـ النظام القديم ـ ذي ثلاث سنوات..

أما آخر مرحلة دراسية فهي مرحلة التخصص ومدة الدراسة بها سنتان وكان الهدف من إنشائها إعداد المدرسين للغة العربية والاجتماعيات والرياضيات..

٤ ـ الفترة الرابعة :

من عام ١٣٧٢هـ ـ ١٣٩٢هـ «١٩٥٢ ـ ١٩٧٢م»:

كانت مديرية المعارف قد أنشأت مدرسة تحضير البعثات لتعد الطلاب لمواصلة دراستهم الجامعية في الخارج، وقد أبدى طلاب الفلاح رغبة ملحة في الالتحاق بالجامعات في الخارج، فطورت الفلاح مناهجها لتحقق ذلك الغرض، وأصبح بإمكان طلبتها دخول امتحان الشهادة الثانوية العامة التي تعقدها الوزارة.. ومنذ عام ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م أصبحت المدرسة تسير وفق مناهج الدراسة التي تقرها وزارة المعارف حرفيا، وفي جميع المراحل الدراسية. وأصبحت أسماء المراحل الدراسية ومدة الدراسة مطابقة لنظيرتها في مدارس الحكومة.

٥ ـ الفترة الخامسة:

١٣٩٢هـ ـ ١٤٠٣هـ «١٩٧٢ ـ ١٩٨٣م»:

لا تزال مدرسة الفلاح تسير حرفيا حسب نظام الدراسة في المدارس الحكومية، وهي تضم جميع المراحل الدراسية الابتدائية، والمتوسطة، والثانوية.

فذلكة تاريخية

سألت سيدي الأستاذ إسحق عزوز عن السنوات التي قضاها في مدارس الفلاح.. فقال: إنها أكثر من ستين عاما: مدرسا ثم كمسئول إداري عن مدارس الفلاح بمكة المكرمة، وكناظر على وقفها في ساحة إسلام الحديثة.

وقبلها بطبيعة الحال كنت طالبا فيها حتى التخرج من فصولها العليا.. وكنت من أوائل المبتعثين إلى الهند في بومباي.. وتعتبر هذه البعثة أول بعثة يقررها الشيخ محمد على زينل وذلك في عام ١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م، ومن زملائي سيادة السيد حسن كتبي والأستاذ عمر غراب والأستاذ عبدالكريم بكر والأستاذ محمد عبد الماجد والسيد سامي كتبي والأستاذ محمد لنقا ونجل الشيخ حسين مطر وقد كان مديرا لمدرسة الفلاح بجدة في ذلك التاريخ وآخرون من مكة وجدة. وقد اختار لنا الشيخ محمد على زينل مقرا نتلقى فيه العلوم العليا من مجموعة أساتذة استقدمهم إلى بومباي في الهند من العالم الإسلامي متخصصين في العلوم الشرعية، ومن المعروف أن علماء العهود الماضية في ذلك التاريخ كانوا يتمتعون بمجموعات ثقافية وعلمية وفقهية وفي اللغة العربية والفكرية والأدبية وإلى جانب كثير من العلوم التي تجمع بين أمور الدين والدنيا.. وهؤلاء بطبيعة الحال كانوا، ومازال خلفهم «مشاعل في الطريق» شهدت بهم أروقة الحرمين الشريفين ومدارس الفلاح وغيرها من المدارس التي كانت قائمة في ذلك التاريخ على نفقة المحسنين حتى تطور النمو البشري فقامت الحكومة السنية منذ عهد الملك عبدالعزيز والدور الكبير الذي أداه خادم الحرمين الشريفين عندما ولي وزارة المعارف في عام ١٣٧٣هـ ومازالت بصماته، وستظل محفورة في السياسة التعليمية في المملكة العربية السعودية.

ومن المعلوم أن نظارة الوقف لمدارس الفلاح بمكة المكرمة وجدة كانت للسادة محمد صالح جمجوم ثم عبدالرؤوف جمجوم ثم الشيخ أحمد محمد صالح باعشن رحمهم الله ثم الشيخ أحمد يوسف زينل آل رضا، أما نظارة السيد إسحق عقيل عزوز فهي للإشراف - كشرط الواقف للأرض - على المدارس والمجمع السكني التجاري لمدرسة الفلاح بمكة المكرمة وبعد الفراغ منها فالنظارة كانت للشيخ أحمد يوسف زينل باعتباره الناظر العام لمدارس الفلاح في الحجاز..



ترجمة في سطور للسيد إسحاق عزوز

ولد بمكة المكرمة عام ١٣٣٠هـ ونشأ بها وتلقى دراسته بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة. في عام ١٣٤٧هـ استحق شهادة الفلاح النهائية.

في عام ١٣٤٨هـ عين مدرسا بالمدرسة.

في رجب ١٣٤٨هـ سافر إلى بومباي ضمن أفراد بعثة مدارس الفلاح لإتمام الدراسة الدينية العالية.

في عام ١٣٥٢هـ عين مدرساً بالمدرسة.

في عام ١٣٥٥هـ عين مفتشا بمديرية المعارف ثم مديرا لمدرسة تحضير البعثات.

في عام ١٣٥٩هـ انضم إلى سلك المدرسين بمدرسة الفلاح.

في عام ١٣٦٢هـ عين مديرا لمدرسة الفلاح بمكة المكرمة.

في ربيع الأول ١٣٧٢هـ اختير عضوا بمجلس الشورى ومكث مدة ثلاث سنوات.

في شوال ١٣٧٨هـ عين وكيلا لنائب رئيس مدارس الفلاح ومشرفا عاما على المدارس، ثم انتقلت هذه الوظيفة منذ زمن قريب إلى سيادة السيد أمين عقيل عطاس.

في ٢٨ شعبان ١٣٨٠هـ صدر أمر بتعيينه وكيلا لإمارة منطقة مكة المكرمة واستقال في ٢٨/٢/١٣٨١هـ.

نفذ فكرة إنشاء بناء مدارس الفلاح بمكة وإنشاء سكن تجاري لها للاستغلال.

له مؤلفات مدرسية مشتركة.



ترجمة في سطور للشيخ إبراهيم عبدالله الجفالي

- ولد بمكة المكرمة في ٢٨ ذى الحجة ١٣٣٣هـ - ٥ نوفمبر ١٩١٥م.
- تلقى علومه بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة، وقد أكمل السنة السادسة فيها..
- ثم انتقل إلى العمل التجاري في سن مبكرة من عمره.. وقد كان هو وإخوانه المشائخ على وأحمد الجفالي المؤسسين لمحلاتهم التجارية والتي مازالت حتى تاريخه تحت مسمى «إبراهيم الجفالي وإخوانه».. وقد كان لهم عمل رائد في الحجاز حيث أسسوا شركة للكهرباء بدأت في الطائف ثم في مكة المكرمة، كما ساهموا في شركة كهرباء جدة حتى تطورت تطورها المعروف..
- ومن أبرز خصاله: وفائه لمدرسته ولأصدقائه وتفقدهم والقيام بزيارتهم.

وكان دائما يتحدث عن مدارس الفلاح ويثني على دورها الذي لعبته وأدته في تخـريـج أجيال وأجيال من المثقفين والمتعلمين حتى برزوا وحققوا لهذا الكيان الشامخ ما وسعهم العطاء..

وكان من خلال اعترافه بالدور الذي لعبته مدارس الفلاح تجاه المتخرجين منها كان يقول: «لابد من الوفاء لها» وكأنما كان هذا الرجل يستقرىء التاريخ حتى إذا ما تهيأت له الأسباب والظروف، قدم لها هذه الأرض الثمينة الغالية مما ورد ذكره في هذا المقال..

- بعد شهر من إجراءات وقفها على مدارس الفلاح انتقل إلى رحمة الله تعالى في ٣/١٠/١٤٠٣هـ - ١٣/٧/١٩٨٣م.. وبذلك يكون قد حقق عطاء نادرا في صفوة الرجال ووفائهم.



تطور التعليم

الكتابة عن امتداد التطور التعليمي قدمت له دراسة وإحصاءات جيدة عن التعليم منذ بدايته في أيام الملك عبدالعزيز رحمه الله إلى أن تولى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز دفّة التعليم في عام ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م.. ومن واقع تلك المعلومات، نستعرض فواصل تاريخية عن امتداد التعليم في بلادنا بمختلف مراحله.

وقد كان لتلك المؤسسات العلمية التي وجدت في الحجاز بالرغم من محدوديتها عددا، وإمكانات، فضلا رائعا حيث أسهمت إلى حد كبير في الحفاظ على التراث الإسلامي والعربي في الأراضي المقدسة، بما أنجبته من رجال أفذاذ لعبوا دورا أساسيا ورئيسيا في تأسيس وبناء قواعد هذا الكيان الشامخ الكبير كتأكيد للثقة التي منحها لهم والدهم الكبير الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه.. إذ بدأت الحركة التعليمية تشق طريقها بسرعة ملموسة، فاقتضى الأمر توسيع المدارس وانتشارها، الأمر الذي أدى إلى تأسيس المديرية العامة للمعارف التي أنشئت عام ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٥م، لتكون مسئولة عن سير الحركة التعليمية في البلاد، وتوسيع نطاقها ووضع القواعد والأسس لها والتخطيط لأعمالها ودعمها لكي تستوفي البلاد حاجتها من المتعلمين.

وحينما أسست المديرية العامة للمعارف لم يزد عدد مدارسها عن اثنتي عشرة مدرسة حكومية وأهلية، وبلغ عدد تلاميذها «٧٠٠» طالب وكانت ميزانيتها عند بدء تأسيسها عبارة عن «٦٥٦٥» جنيها ذهبيا، ثم ارتفعت بعد عامين إلى «١٤٧٩١» جنيها وذلك عام ١٣٤٨هـ ـ ١٩٢٩م، الأمر الذي يشير إلى حرص الملك عبدالعزيز على إعطاء التعليم الاهتمام المتزايد وإن كانت تحده بطبيعة الحال موارد الدولة المحدودة حينذاك.. ورغم ذلك ظل النمو في التعليم يسير بخطى ملموسة حيث أوجدت المديرية العامة للمعارف مناهج للتعليم متعددة

ومتنـوعـة فعملت على توحيدها وتوجيهها إلى الهدف الذي يتلاءم مع أحوال البلاد، وارتفع عدد المدارس إلى ٧٢ مدرسة التحق بها «٤٤١٨» تلميذا فيما قبل عام ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م..

وكان منهج الدراسة في ذلك الوقت على النحو التالي:

١ ـ **المدارس الابتدائية**: ومدة الدراسة بها أربع سنوات.
٢ ـ **المدارس الثانوية**: وهي شعبتان ومدة الدراسة بها أربع سنوات.
٣ ـ **الشعبة الدينية**: وفيها تتركز الدراسة الدينية واللغوية..
٤ ـ **الشعبة العلمية**: وتدرس الرياضيات والعلوم الحديثة واللغة الأجنبية إلى جانب دروس الفقه والتوحيد والتفسير، والغرض منها إعداد الطلاب للالتحاق بالدراسـات العليـا في جميع النواحي التعليمية الضرورية كالطب والصيدلة والهندسة والزراعة..

ونظرا لحرص الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ على التعليم وإعطائه إياه جل اهتمامه فقد عمل رحمه الله على رصد المال اللازم لتطوير التعليم..

ففي عام ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٥م بلغت ميزانية مديرية المعارف حوالي «٦٥٦٥» جنيها ذهبيا كما ذكرت، ثم تطورت ونمت حتى بلغت عام ١٣٧٢هـ/ ١٣٧٣هـ ١٣٥٢م ـ ١٩٥٣م» حوالي عشرين مليون ريال.

ويعتبـر المعهد العلمي السعودي في مكة المكرمة أهم نشاط تعليمي في المملكـة وباكورة أعمال الملك عبدالعزيز في الحجاز، فبعد تأسيس المديرية العـامة للمعارف حرصت على تعزيز المعلم باعتباره الركيزة الأولى، ومن أهم وسـائـل التعليم، فأنشـأت المعهـد العلمي السعودي بمكة المكرمة في عام ١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٦م وأطلق عليه اسم «المعهد الإسلامي».

وفي عام ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٨م افتتـح باسم «المعهـد العلمي» وكانت مدة الدراسة به ثلاث سنوات بعد إتمام الدراسة الابتدائية، ثم طورت الدراسة عام ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٥م فأصبحت خمس سنوات.

ومما هو جدير بالذكر أن أكثر خريجي المعهد لم يزاول مهنة التدريس منهم سوى أفـراد قلائل، إذ غالبيتهم قد واصلوا دراستهم في كلية الشريعة بمكة المكـرمـة، كمـا ابتعثت أعـداد أخـرى من الخريجين إلى الخارج لمواصلة دراستهم، وقد ساهم المعهد السعودي في مكة المكرمة إذ خرَّج عددا من كبار المسئـولين في الدولة ومن الأدبـاء والمثقفين من أبناء المملكة الذين يشار إليهم ـ مع مَنْ قدمتهم مدارس الفلاح في مكة المكرمة وجدة ـ كرواد طليعيين وفي كل المجالات.. وقد قامت مديرية المعارف عام ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٥م بتطوير الدراسـة في المعهد العلمي وأصبحت الدراسة فيه عبارة عن خمس سنوات وأطلق على شهادة الثلاثة الأولى «شهادة القسم التحضيري» أما شهادة قسم المعلمين الثانوي فتمنح بعد دراسة خمس سنوات به وبعدها يتمكن الطالب من الالتحـاق بكليـات الآداب ودار العلوم في جامعة الأزهر وكلية الشريعة بمكة المكرمة التي افتتحت عام ١٣٦٩هـ ـ ١٩٤٩م..

وفي شهر محرم عام ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٧م تشكل أول مجلس للمعارف برئاسة مدير المعارف واتخذ قراره الذي جاء فيه: إن على المجلس وهو يضع النهج التعليمي مراعاة الأسس التالية:

ـ توحيد التعليم والسعي لجعل التعليم الابتدائي إجباريا ومجانيا..

وفي العام ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م صدر نظام جديد للمعارف يلغي ما كان قبله من أنظمة سابقة.. وأهم ماجاء في ذلك النظام:

١ ـ صلاحية مدير المعارف كمرجع أول في التعليم..

٢ ـ تشكيل مجلس المعارف من ثمانية أعضاء: عضوين من مديرية التعليم.. وستة يعينهم صاحب السمو الملكي النائب العام لجلالة الملك ممن لهم خبرة في شئون التعليم، وكانت لهذا المجلس صلاحيات متعددة مثل إقرار المناهج التعليميـة، وتـأسيس المـدارس الجـديدة، وإيفاد البعثات، والإشراف على الاختبارات في المدارس الحكومية وكذلك الإشراف على المدارس الأهلية..

وكان أول مدير للمعارف هو السيد صالح شطا، ثم الشيخ كامل القصاب، ثم حافظ وهبة، فالشيخ محمد بن مانع «رحمهم الله جميعا».

وفي العام ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٨م عمدت مديرية المعارف إلى إرسال الطلبة لمتابعة دروسهم في المعاهد المصرية وتقرر في جمادى الأولى ١٣٥٥هـ ـ ٧ أغسطس ١٩٣٦م فتحت مدرسة تسمى باسم «مدرسة تحضير البعثات» ومن أهـدافهـا إعـداد الطلاب للالتحاق بكليات في الخارج مثل الطب والهندسة والزراعة ومدرسة الفنون والصنائع العليا، وبدأت المدارس في تخريج طلابها منذ نهاية العام الدراسي ١٣٥٨/ ١٣٥٩هـ «١٩٣٩/ ١٩٤٠م» ولقد افتتحت في عهـد الملك عبـدالعـزيـز رحمه الله أعداد كبيرة من المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية تكاد تغطي معظم أنحاء المملكة ولعل أهمها غير ما ذكرنا آنفا مايلي:

١ ـ **دار التـوحيـد**: وقـد أسست في الطائف ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٤م لإعـداد متخرجين أكفاء في العلوم الدينية والوعظ والإرشاد.

٢ ـ **كلية الشريعة بمكة المكرمة**: تأسست عام ١٣٦٩هـ ـ ١٩٤٩م للدراسات الشرعية واللغة العربية..

٣ ـ **معاهد المعلمين** وهي خمسة معاهد متوسطة ومعهد عال لإعداد المعلمين لمواجهة التوسع في نشر العلم..

٤ ـ **معهد الرياض العلمي**: وقد أمر جلالة الملك عبدالعزيز بإنشائه وافتتح في اليوم العاشر من محرم ١٣٧١هـ ، ١٠ أكتوبر ١٩٥١م من قبل جلالة الملك سعود عندما كان وليا للعهد.. ويتألف المعهد من قسم تمهيدي ومدة الدراسة فيه سنتان..



خادم الحرمين الشريفين وزيرا للمعارف

كان ذلك في عام ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م..

فقد صدر مرسوم ملكي بتأليف مجلس الوزراء، وإنشاء خمس وزارات هي: الداخلية، والمواصلات، والصحة، والزراعة، والمعارف، بعد أن كانت مديريات عامة تتبع النائب العام لجلالة الملك.

وعهد إلى خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز بوزارة المعارف بالقرار رقم ٥/٣/٢٦/٤٩٥٠ وتاريخ ١٨/٤/١٣٧٣هـ.. وقد سئل آنذاك لماذا اختار وزارة المعارف.. وقد كان بوسعه اختيار وزارة أخرى..

فقال: لقد اخترت وزارة المعارف لأن البلاد والشعب في حاجة إلى نقلة تعليمية واسعة وممتدة للبناء والتعمير والتصنيع وإلى آخر ما تحتاجه مملكة واسعة الأطراف من تطوير لكل أوضاعها إذ بعد التأسيس لابد من البناء وهذا لا يتأتى ولا يتأكد إلا بالتعليم لأنه الأساس الذي نزلت به الهداية الإسلامية والإرشاد النبوي الشريف.. وكان أول وزير لتلك الوزارة، التي كان إنشاؤها تعبيرا عن التطلع الذي تصبو الدولة عبره إلى الأهداف الكبار..

فمع النجاح الذي حققته «مديرية المعارف» ـ ضمن إمكاناتها ـ كان لابد وأن تتحول إلى وزارة، وأن تأخذ هذه الوزارة على عاتقها تنفيذ الهدف المرسوم في تحقيق الأمن التعليمي للبلاد، وإدخال نور العلم إلى قلوب عشرات الآلاف من أبنائنا، وفي مختلف مراحل التعليم.. إذ ذاك، كانت الموارد المالية للبلاد محدودة.. وكان هناك نقص فادح في الكفاءات الوطنية التي يفترض أن تتولى مسئوليات التعليم والتدريس.. ولم يكن جهاز «مديرية المعارف» الإداري كافيا للنهوض بمسئوليات التعليم والتدريس.. وكان على الأمير الوزير الشاب أن يواجه كل هذه التحديات.. وقد فعل.. وكان أسلوبه هو نفس الأسلوب الذي عُرف به واشتهر، والذي أستطيع أن أوجزه في النقاط التالية:



● خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبدالعزيز أول وزير للمعارف ●

- تحديد حجم المشكلة وأبعادها بكل صراحة وواقعية..

- وضع الحلول الحاسمة، والحسم من أبرز صفات شخصية خادم الحرمين الشريفين بطريقة علمية وواقعية..

ـ قيام تلك الحلول على أسس علمية «حديثة» تساير الزمن، أو تسبقه، من خلال نظرة بعيدة للأمور، ترسي قواعد البنيان وتهيىء له الفرص للنمو والتطور بصورة طبيعية.

الإنجـــازات

كانت ميـزانية مديرية المعارف حوالى ثلاثة عشر مليون ريال.. وفي العام الأول من إنشاء وزارة المعارف أصبحت الميزانية عشرين مليون ريال.

وفي السنة الثالثة أصبحت الميزانية ثمانية وأربعين مليونا ونصف المليون ريال..

وفي السنة الخامسة، ارتفعت الميزانية إلى أكثر من ثمانية وثمانين مليون ريال.

ولكن أهم ما وجه إليه الوزير الشاب عنايته، مع نقاط الضعف الكثيرة التي كانت تواجهها الوزارة الجديدة، هو التنظيم.. والمقصود بالتنظيم، هنا، هو التنظيم الإداري، الذي يوزع المسئوليات حسب الاختصاصات، ويركز الإنتاجية ـ بالتالي ـ في إدارات ومديريات لكل منها واجباتها وأهدافها..

وهكذا أنشأ الوزير الأول للمعارف الإدارات التالية:

١ ـ إدارة مستقلة للتعليم الابتدائي.

٢ ـ إدارة مستقلة للتعليم الثانوي.

٣ ـ قسم للعلاقات الثقافية والتعاون الثقافي.

٤ ـ قسم للإحصاء التعليمي.

٥ ـ إدارة للخدمات الصحية.



التعليم العالي

كانت بداية التعليم العالي في عهد الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه عام ١٣٦٩هـ حين أمر بافتتاح «كلية الشريعة» في مكة المكرمة، وهي الآن تتبع جامعة أم القرى في مكة المكرمة ثم افتتحت في الرياض كليتان إحداهما للشريعة والأخرى للغة العربية، وهما الآن تابعتان لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية..

وفي عام ١٣٧٧هـ افتتحت في الرياض أول مؤسسة أكاديمية وهي جامعة الملك سعود التي كان عدد طلابها عند افتتاحها واحداً وعشرين طالبا ليس غير.. أما اليوم فإن عدد طلبتها يقارب أربعة وعشرين ألف طالب..

وفي عام ١٣٨٦هـ أنشئت الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وهي الجامعة التي نص نظامها الأساسي على أنها «مؤسسة إسلامية الغاية، سعودية الارتباط».. أي أنها مشروع إسلامي ضخم أنشيء لخدمة الإسلام والمسلمين في كل أنحاء الأرض.. كما أن الطلبة السعوديين لا يشكلون سوى نسبة عشرين في المائة من مجموع طلبة الجامعة الإسلامية، أما الباقون فينتسبون إلى أكثر من مائة جنسية..

ولا تقتصر مهمة الجامعة على تعليم دراسات القرآن الكريم والحديث الشريف والدراسات الإسلامية، وإنما هي موئل دعوة لدين الله، ينتشر خريجوها في مختلف أرجاء المعمورة ليدعوا إلى دين الله القويم.. أما ثالث جامعة فهي جامعة الملك عبدالعزيز بجدة.. وقد تأسست عام ١٣٨٤هـ كجامعة أهلية ساهم في تمويلها عدد من رجال الأعمال والوجهاء، ثم تحولت عام ١٣٩١هـ إلى جامعة رسمية تخرج فيها ـ حتى الآن ـ أكثر من اثنى عشر ألف خريج وخريجة.. ويتبع الجامعة عدد من المراكز المتخصصة، ومراكز الخدمات التعليمية المساعدة، وتقف ـ اليوم ـ مع شقيقاتها الست كصرح من صروح الأمن التعليمي الذي هيأ لأبنائنا مختلف التخصصات الأكاديمية التي يحتاجها الوطن ورابع

الجامعات هي جامعة: الملك فهد للبترول والمعادن التي تأسست في الظهران عام ١٣٨٣هـ وكانت بادىء الأمر كلية ضمت ثلاثاً وستين طالبا.. وبعد أن استوفت الكلية السنوات الجامعية اللازمة تحولت عام ١٣٩٥هـ إلى جامعة البترول والمعادن، وتعتبر من أرقى الجامعات التكنولوجية المختصة في العالم نظرا للمستوى الأكاديمي الرفيع الذي تقف فيه، والتجهيزات المتكاملة التي جهزت بها.. وإذا ذكرت جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، تبادر إلى الذهن على الفور «مركز البحوث» الذي يساهم مساهمة فعالة في تسخير التكنولوجيا التطبيقية لأهداف الخطط الإنمائية..

أما جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فقد تأسست عام ١٣٩٤هـ، ولكنها ـ في الواقع ـ تعود إلى ما قبل ذلك التاريخ بزمن طويل، فلقد كانت نواتها الأولى هي كلية الشريعة التي افتتحت عام ١٣٧٣هـ ثم كلية اللغة العربية، وحين تقرر إنشاء هذه الجامعة الإسلامية ضمت الكليتان إليها، وبذلك تكون هذه الجامعة هي خامس الصروح الأكاديمية في المملكة العربية السعودية.

وفي عام ١٣٩٤هـ تأسست سادس جامعة في المملكة، وهي جامعة الملك فيصل في الأحساء، وبدأت نشاطها في العام التالي..

وكما هو شأن الجامعات الأخرى، فإن جامعة الملك فيصل في الأحساء تضم علاوة على كلياتها، مراكز علمية متخصصة، ومحطات للتدريب الزراعي والبيطري.. وفي عام ١٤٠١هـ أنشئت الجامعة السابعة وهي جامعة أم القرى في مكة المكرمة حيث اتخذت مكانها إلى جانب الجامعات الست الأخرى كمؤسسة أكاديمية تُعنى بالدراسات الإسلامية والبحوث التربوية والنفسية.. وليست هذه الجامعات السبع هي كل «الصروح الأكاديمية» التي تنشر ظلال الأمن التعليمي في سباق الأمن الذي نعيشه..

فهناك صروح أكاديمية أخرى، تُخرّج لنا الضباط المؤهلين تأهيلا رفيعا في العلوم الأمنية والعسكرية، وهي: كلية الملك فهد الأمنية التابعة لوزارة الداخلية، وكلية الملك عبدالعزيز الحربية، وكلية أركان الحرب التابعتان لوزارة الدفاع

والطيران، وكلية الملك خالد العسكرية التابعة للحرس الوطني..

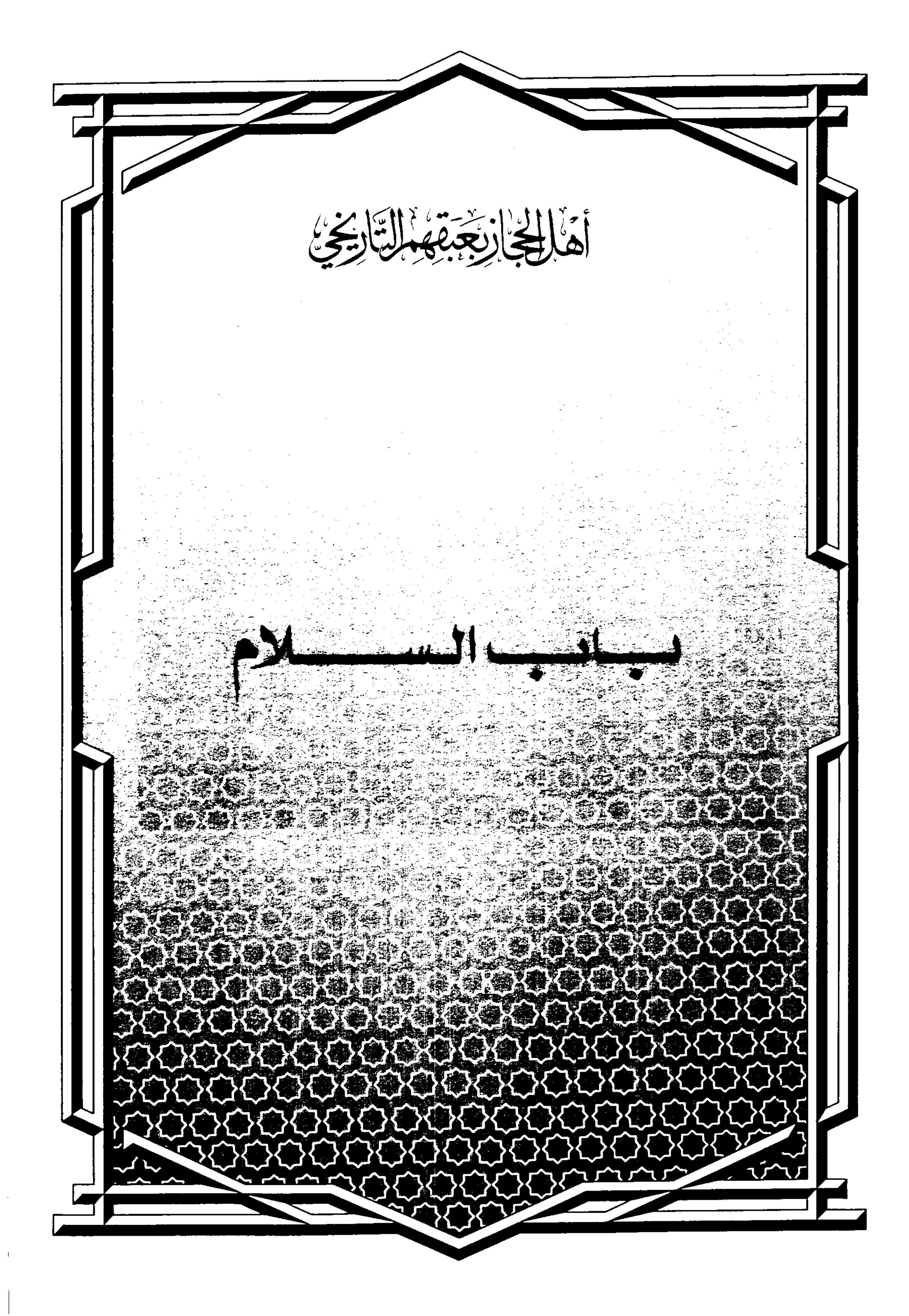
وهناك عشرات من المدارس التابعة لتلك الجهات وغيرها من الجهات الحكومية، مما يشكل في مجموعه تلك الصور المتألقة للوثبة التعليمية التي تعد الأجيال السعودية من مختلف الأعمار لبناء وطنها وخدمة بلدها، من الروضة إلى الجامعة..

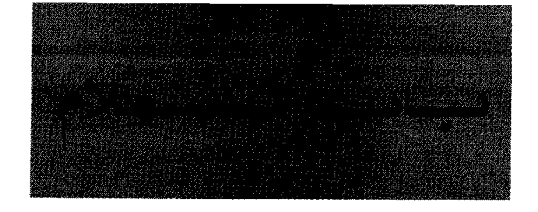
هذه الخطوات أو الإنجازات التي تمت في مجال التعليم في المملكة وما تتسم به من التنظيم الإداري بوجه عام تعكس بصورة جلية العقلية التنظيمية لوزير المعارف الأول التي تركت آثارها وتأثيرها على النهضة التعليمية في البلاد منذ السنوات الأولى لإنشاء وزارة المعارف.





● إحدى القلاع الأثرية الموجودة بمكة المكرمة «حي أجياد» ●


أهل الحجاز بعبقهم التاريخي
باب السلام



لأستاذنا الكبير عبد العزيز الرفاعي رحمه الله رحمة واسعة ذكريات لطيفة عن المكتبات أصدرها من ضمن ما أصدر من مسلسلات «المكتبة الصغيرة» أستطيع أن أطلق عليها «معايشة الرفاعي للمكتبات» ذلك لأنه لم يقتصر في سرد ذكرياته عن هذه المعايشة، بل أخذ يسأل أصدقاء ورصفاء عما يتذكرونه عن هذه المكتبات، ولعل بوسعنا أن نقتطف بعض المعلومات التي دونها في الكتيب عن هذه المكتبات لطرافتها ومدلولاتها..

أقول ذكريات ولم أقل تاريخا، لأن تاريخ المكتبات لم يكتب حتى الآن وبالذات

في مكة المكرمة.. حتى مقالي هذا لا يؤرخ ماضي المكتبات وكيف أنشئت ثم كيف تجمع معظمها في «باب السلام» الكبير والصغير..

ورغم أنني أجريت حديثا ضافيا مع صديقي الأستاذ عبدالغني عبدالله فدا والأستـاذ عبـدالشكور فدا قبل عدة شهور استعرضنا من خلاله الكثير من ذكرياتهم وماضي آبائهم وأجدادهم وكذلك من عاصروهم من آل ميرو والسناري والنهـاري وآل البـاز وغيـرهم كثيـرون، استعـرضنـا معطياتهم واستعرضنا اهتماماتهم بالأجيال التي عايشوها وعاشوا معها، وكيف أنهم كانوا ملمين إلماما واسعا بما تحويه هذه المكتبات من كتب دينية وعلمية وتشريعية وأدبية وجغرافية وإلى آخـر ما تحفل به المكتبات التي كانوا يتطلبها ذلك العصر.. وكيف كان قربهم من المسجد الحرام وحصاويه وأروقته حيث كان في باب السلام الكبير والصغير، وكيف كان علماء مكة المكرمة وقضاتها منذ مئات السنين يعلمون النـاس أمـور دينهم من محكم آيـات القـرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بأساليب كانت تستحوذ على عقلية الأجيال وحتى الرجال الذين لم يتمكنوا من دخول المدارس «وفك الحروف» كما يقال، حتى هؤلاء كان لهم حظ الحضور إلى هذه الحلقات للبساطة والسماحة والتواضع الجم في إلقاء هذه الدروس لتكون واضحة وحلوة المذاق في عقلية المتحلقين حول علمائنا الكرام وهم يتحلون بشيم الأخلاق وآدابها الإسلامية فلا تعالي ولا تجهيل، بل تواضع جم يشعر معه الطالب الصغير والأمي الكبير بأنه أمام شخصية يحترمه وتصغي إليه ثم تقوم بتوجيهه وتعليمه حتى ينصرف ممنونا وشاكراً وواعيا لما فهمه وتعلمه بحيث يستطيع نقله إلى زملائه في الحارة أو في المدرسة إن كان طالبا صغيرا وكذلك ينقل هؤلاء معلوماتهم إلى أهل بيوتهم من نسوة وأطفال صغار.

وهذا حال علمائنا كان، ومازال، وسيظل في ربوع هذه الديار المقدسة حتى يرث الله الأرض ومن عليها إن شاء الله.

لقـد حاولت استخلاص نُتف من تاريخ المكتبات في مكة المكرمة، إلا أن أعزائي الكرام عبدالغني وعبدالشكور فدا قالا لي: وماذا تترك لنا لو أعطيناك ما لدينـا أو حتى أجـزاء منـه.. وهذا يعني أنهما يقومان بكتابة وتسجيل تاريخ

المكتبات في المملكة العربية السعودية بشكل عام تحت عنوان «باب السلام مكتبات، وكتبية وكتب عبر التاريخ والرجال»..

فانتـظروا معي هذا التـاريـخ الذي يسجـل جزءا هامـا من تاريخ الثقافة وروافدها ومصادرها في هذا البلد الكريم وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يعجل صدور هذا التـاريـخ لأنـه سيضيف معلومة هامة مازلنا نجهلها.. مع الدعاء بالتوفيق للصديقين العزيزين..

بداية المكتبات في باب السلام

كانت المكتبات في مكة المكرمة أغلبيتها مجتمعة في صعيد واحد هو «باب السلام» بفرعية: باب السلام الكبير، وباب السلام الصغير .. أما الصغير فكان زقاقاً يمتد من المسعى ويفضي إلى الحرم، مرورا برحبة باب السلام.. أما باب السلام الكبير فطريق على جانب من السعة يفضي إلى الحرم وإلى المسعى.. أي أن كليهما كان طريقا يؤدي من المسعى إلى الحرم وبالعكس، حيث تقوم عقود الأبواب الثلاثة التي يجمعها اسم «باب السلام».

وقد بدئ في بنائه في عهد السلطان سليم خان سنة ٩٧٩هـ، ثم تمت هذه العمارة التركية في عهد ابنه السلطان مراد خان وذلك من سنة ٩٧٩هـ حتى سنة ٩٨٤هـ.. إن المكتبات ونشر الكتب وإخراجها للناس في مكة المكرمة كان زعيمها الشيخ ماجد كردي حيث كانت له مكتبة في باب السلام وكانت له مطبعة أيضـا في مكة المكرمة، ونشر كثيرا من الرسائل وكثيرا من الكتب له ولأكابر العلماء في مكة المكرمة.. ثم هناك عوائل وأسر اشتركت في النشر، واشتركت في التأليف، منهم مثلا الشيخ جعفر لبنى.. وكان الشيخ جعفر عالماً وقاضياً وكان مؤرخا ألّفَ كثيرا من الكتب ومن الرسائل ولكن مع الأسف الشديد لم يطبع منها إلا رسالة أو رسالتان أو ثلاث.. رسالة عن الميقات وأنه يمكن لمن قدم من البحر الأحمر أن يحرم من جدة، ونوقشت هذه الرسالة ورد عليها بعض العلماء،

وأيضا له كتاب عن تاريخ القنفذة وله كتاب أيضا عن تاريخ عوائل مكة، وقد ذكر هذا الشيخ خير الدين الزركلي يرحمه الله في كتابه «الأعلام».. وهذه الرسالة أو هذا الكتــاب موجود من جملة مخطوطات أو مؤلفات الشيخ جعفر لبنى في مكتبات أحفاده..

مكتبات باب السلام

كان مشاهير الكتبية في باب السلام الكبير، أو في الرحبة المواجهة للعقود..
إن الخارج من تلك العقود تقابله دكاكين تحتل الصدارة، من بينها مكتبة الشيخ «عبدالفتاح فدا» شيخ الكتبية بعد وفاة الباز الكبير «أحمد المنصوري الباز»، وكان الشيخ عبدالفتاح رجلا دمث الأخلاق لطيفا مع زبائنه.. وفي صفّه دكان «عبدالصمد فدا» الذي كانت له طريقته الخاصة في التعامل مع زبائنه.. وكان طالب علم وكتبياً محترفا وهو إلى ذلك مقرىء جيد..

ومن آل «فدا» الذين عملوا في حقل بيع الكتب الأستاذ عبدالله فدا، وكان صديقا للأدباء الروّاد، ولعله أول من فتح باب استيراد الكتب الحديثة.. وكان يُعد من الأدباء والكتاب وهو والد الأخ الأستاذ عبدالغني فدا..

ومنهم أيضا الشيخ «حسن فدا» وقد كان له دكان صغير لبيع الكتب في باب السلام على الرحبة المرمرية وعلى يمين الخارج من الحرم..

ويلي دكـان الشيخ حسن فدا دكان صغير هو دكان الأستاذ «عبدالحليم الصحّاف» الذي أصبح فيما بعد «مكتبة الثقافة» التي قام بتأسيسها الإخوان صالح أحمد جمال وعبدالحليم الصحّاف وأحمد ملائكة يليه دكان الشيخ «أحمد البـاز» وكـان كُتبيا ماهرا نشطاً، تزدحم مكتبته على صغرها بكثير من الكتب التراثية الجيدة..

في باب السلام الصغير كانت تأتي بعد مكتبة الشيخ أحمد الباز للخارج من الحرم «مكتبة الجيل» وهي مكتبة للكتب الحديثة وكانت على يمين الصاعد من الحرم إلى المسعى.. أما على يسار الصاعد فكانت تأتي مكتبة أخرى لآل الباز هي مكتبة «عبدالكريم الباز»..

وفي الساحة المرمرية، إلى يسار الخارج من الحرم، توجد مكتبة «المعارف» التي فتحها الشيخ عمر عبدالجبار وكان يعنى أكثر ما يعنى بالكتب المدرسية، يستوردها ويؤلفها، ويستورد أيضا جانبا من الكتب الحديثة.. كذلك مكتبة «أحمد السناري» حيث يجد الباحث في هذه المكتبة شيئا من كتب العلم المعتمدة، ولكنه يجد كتب الملاحم الشعبية.. وفي صف مكتبة الشيخ السناري مجموعة من المكتبات منها مكتبة «على النهاري» وكان مختصا ببيع المصاحف ومصورات الكعبة والمدينة.. وفي هذا الصف أيضا تقع مكتبة الشيخ «عبدالكريم فدا»..

أما على يسار الخارج من باب السلام، بعد اجتياز الحاجز الحجري المستطيل فتقع مكتبة الشيخ الباز «أحمد المنصوري الباز» وكانت مكتبته زاخرة بكتب التراث.. وتأتي بعدها، بالنسبة للخارج من الحرم من باب السلام الكبير، مكتبة الشيخ «الميرة» وهي في دكان واسع، منسقة تنسيقا جيدا، وتحتوي نفائس كتب التراث..

المخطوطات والكتب التاريخية

بالنسبة للكتب المخطوطة فإن أكثر علماء مكة كتبهم موجودة في مكتبة مكة المكرمة التي يملكها الشيخ عباس قطان.. حيث إن الشيخ عباس رحمه الله اشترى مكتبة الشيخ ماجد كردي ومكثت فترة طويلة في بيته في الشامية ثم نقلت تحت إشراف لجنة من أعضائها: الشيخ سليمان الصنيع والشيخ الشويل وغيرهم، لكن في الأساس أن الشيخ جعفر لبني والشيخ محمد لبني كانت لهم علاقات باسطنبول وكانوا يأتون بالكتب منها في الوقت الذي لم يكن لمصر دور في هذا المجال.. وكان أيضا لآل الباز باع كبير.. غير أن الشخص الوحيد الذي له معرفة بالمخطوطات وقيمها، وعلى علاقة بنشرها أو كانت له صفة الورّاقين بمعنى أنه كان ينسخ هذه الكتب هو الشيخ محمد الصحّاف والد عبدالحليم الصحّاف.. أما بالنسبة للكتب التي كانت تجلب من تركيا فكانت تأتي عن طريق آل اللبني وآل الباز وآل فدا والشيخ الصحاف.. وهي باللغة العربية تطبع

بالمطبعة العامرة في اسطنبول.. كما كانت توجد مطابع أخرى أيضا، ومكتبات كبيرة في اسطنبول وغيرها من المدن التركية كذلك الكتب العربية والمخطوطات العربية الموجودة في العالم يكاد يكون معظمها موجود في تركيا، وجزء كبيرا منها موجود في مصر: البعض منها مخطوط والبعض الآخر مصور ومطبوع، لأن مصر كانت ترسل بعثات إلى اليمن وبعثات إلى سوريا وبعثات إلى الهند وغيرها وجمعت مجموعات كبيرة وضخمة في دار الكتب المصرية الواقعة بباب الخلق ثم نقلت إلى ساحل النيل في القاهرة.. ولكن المخطوطات التي كانت موجودة عند الشيخ ماجد كردي كانت منتقاة، وكان الشيخ ماجد على سعة مالية كبيرة حيث كان يشتـري هذه الكتب من مؤلفيهـا أو يستنسخها، وقد جمع منها الشيء الكثيـر.. عندما اشترى الشيخ عباس قطان رحمه الله مكتبة صديقه الشيخ «ماجد كردي» التي عرفت بثرائها وما تحتويه من مخطوطات، ومن مطبوعات نادرة الوجود.. اشترى الشيخ عباس هذه الكتب من آل الكردي وأهداها لمكتبة مكة المكرمة بعد أن أنشأ عمارتها في القشاشية في موقع المولد الشريف من وقفية لإحدى أخواته.. كان المبلغ موجودا واستأذنوا الملك عبدالعزيز رحمه الله في هذا البناء وقد وافق رحمه الله على ذلك كما صدق الأمر الملكي بصك من رئاسة الوزراء ولكن الشيخ عباس قطان توفي قبل أن يتمكن من إتمام بناء المكتبة، أوقبـل أن ينقل الكتب إليها، فتولى ذلك أبناؤه من بعده فالشيخ عباس قطان رحمه الله أنشأ هذه البناية وأتى بهذه المكتبة إلى هذا المكان، والمكتبة الآن موجـود فيهـا مخطوطات وموجود فيها رسائل طبعتها المطبعة الماجدية منها رسائل لكبار علماء مكة بما فيهم الشيخ جعفر لبني.. هذا بالنسبة لهذه الطبقة التي بدأت في إنشاء المكتبات في باب السلام.. غير أن هذا المبنى في حاجة إلى توسعة وإلى تنظيم مستمر لملء الفراغات التي تحدث من خلال التنظيم لاستيعاب كتب أكثر تنفع الأجيال الحالية والقادمة..



الأسر العريقة للكتبية في باب السلام وغيره

إن باب السلام يجمع ما بين باب السلام الكبير وباب السلام الصغير كما سبق وذكرت.. في القرن الثامن وفي رحلة ابن بطوطة الوصفية لم يأت إلا ذكر باب بني شيبة عند الكلام عن وصف أبواب المسجد الحرام وكانت فيه أسر هي التي كانت تستورد هذه الكتب.. أما البقية من الأسر كالنهاري مثلا وأحمد السناري وآل الكتبي فكانت لهم علاقات أخرى مع مصر في الوقت المتأخر.. الكتب كان يؤتى بها سابقا من اسطنبول أساسا، ثم بعد ذلك من مصر ومن الهند، لأن هناك من آل الكتبي من كان يستورد نوعا من الكتب المطبوعة في الهند ونوعاً من المصاحف التي كانت تطبع في بومباي.. ولكن أساس الكتب من اسطنبول، بعد ذلك حلت محلها مصر حيث كانت فيها مطبعة بولاق التي هي المطبعة الأميرية وغيرها من المطابع كمطابع الخشّاب وآل الحلبي.. وآل الحلبي كانوا شركة يشترك فيها «فدا محمد الكشميري» ومصطفى الحلبي وعيسى الحلبي وأحمد الحلبي.. وهناك كتبية آخرون مثل المكتبة العثمانية، ومطبعة ومكتبة الخشّاب.. وهذه المطابع والمكتبات اشتركت في طبع كثير من الكتب العربية إما تقليدا، وإما للعلماء الذين كانوا موجودين في مصر وألفوها..

وكانت مصر لها فترة تطبع الكتب وتروجها وترسلها إلى البلاد الإسلامية.. حتى إنه كان مثلا: الحلبية ومصطفى محمد وخلافهم من أصحاب المكتبات يأتون إلى مكة المكرمة ويتعرفون على أصحاب المكتبات وعلى الكتبية في جاوا وفي سومطرا وفي الصومال وفي أوغندا في بلاد أفريقيا ويتعاملون معهم عن طريق جدة ومكة وبعد ذلك عندما أصبحت خطوط الملاحة الطويلة العريضة بدأوا يصدّرون هذه الكتب إلى هذه الجهات مباشرة.. وللأزهر الشريف أيضا دور كبير في إيصال الكتب العلمية والثقافية لكل هذه البلاد عن طريق مؤسساتها التعليمية.. وبعد ذلك أصبحت الكتب يطبع بعضها في مكة المكرمة ـ على خفيف ـ لأنه كانت فيه مطبعة أخرى تنافس المطبعة الماجدية واسمها المطبعة السلفية التي كانت في الشبيكة وكان مشترك فيها الشيخ

عبد الفتاح قتلان والشيخ محمد نصيف رحمه الله وغيرهم.. وأحيانا الشيخ محمد سرور الصبان كان يمدهم بشيء من المساعدات المادية..

نستطيع أن نقول إن باب السلام بدايته مكونة من كل من: أولاد الشيخ ماجد كردي الذي كان عالما، وكان قاضيا، وكان وزيرا للأوقاف.. وكان الرجل محباً جدا للعلم وكان يشتري الكتب بالذهب في أواخر عهد الشريف عون والشريف الحسين.. وكانت له دكاكين في باب السلام، دكان الشيخ أحمد حلواني كان ملكه.. ودكان الشيخ عبد الله فدا وعثمان فدا، ويعتبر آل الكركتلي وكلاء الشيخ ماجد كردي أو وكلاء آل الكردي.. إذا الأسر الكتبية هي: آل الكردي وآل الكركتلي وآل سمباوه وآل فدا..

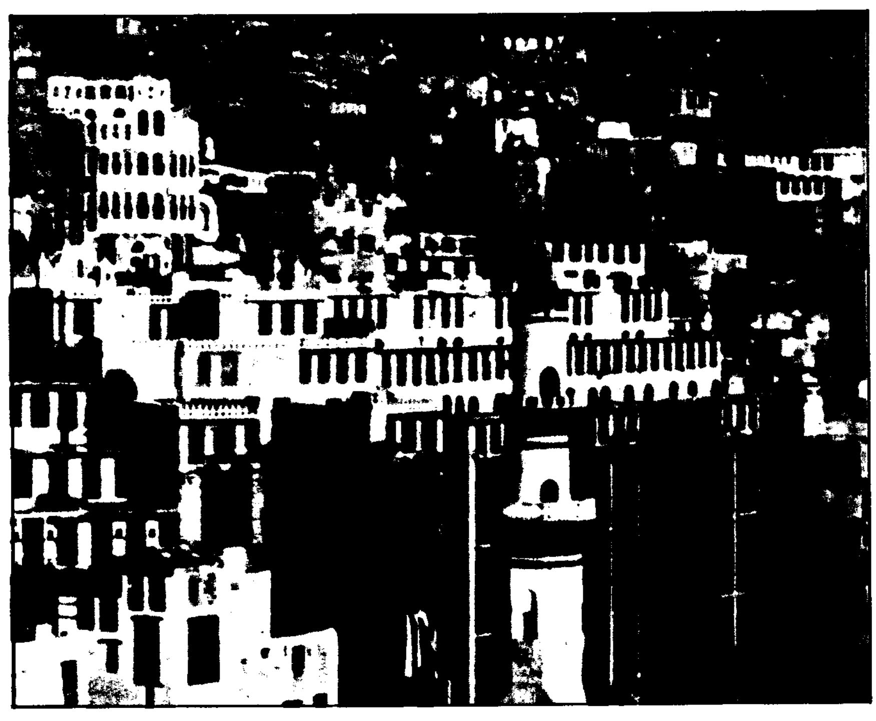
دور الملك عبدالعزيز في طبع الكتب وتوزيعها على نفقته الخاصة

في عهد الملك عبدالعزيز كانت هذه الكتب ترسل إلى أنحاء المملكة وكان أحد المقربين من الملك عبدالعزيز واسمه الشيخ عبدالله القرعاوي يشتري كثيرا من المصاحف والكتب ويطبعها: منها: كشف الشبهات والثلاثة الأصول وكتاب التوحيد. عند وصولها من مصر كان يأخذها في لواري ويذهب بها إلى الجنوب لتوزع باسم الملك عبدالعزيز رحمه الله، وكان الشيخ القرعاوي إذا جاء الملك عبدالعزيز إلى مكة المكرمة في شعبان لاستقبال شهر رمضان يشتري العديد من هذه الكتب ويرسلها.. والفلوس تأتيه بتحويل من الملك عبدالعزيز عن طريق أحد التجار في الجودرية.. فكانت في البداية مكة هي مصدر توزيع الكتب إلى أنحاء المملكة العربية السعودية.. وكان بائعو الكتب في نجد والقصيم والأحساء والشمال يأتون إلى مكة لشراء الكتب التي طبعت على نفقة جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله.. ومنها: المغني.. والشرح الكبير..وتفسير ابن كثير مع البغوي وكتاب التوحيد وغيرها.

الملك عبـدالعـزيز في البداية استعان بالشيخ فوزان السابق حينما كان قنصلا عاما للمملكة العربية السعودية في مصر، وكان على علاقة بمطبعة المنار «التي يملكها الشيخ محمد رشيد رضا» وكان يصحح لهم هذه الكتب ويطبعونها، أحضـروا منهـا كميـات كبيـرة وتم تخزينها في الشامية في مقر دار البلاد السعـودية سابقا، وكانت المطبعة تابعة للشركة العربية للطبع والنشر.. وكان الشيخ محمد سحيمي من قبل الملك عبدالعزيز مشرفا على تخزين هذه الكتب، ويتم توزيعها على العلماء في مكة وغيرها من مدن المملكة، ويتم إرسالها إلى الريـاض وإلى بريـدة وعنيـزة والبكيرية وغيرها.. وكان يأتي إلى باب السلام ويشتري من مكتبة آل فدا المصحف السجوندي الذي يأتي من الشيخ بآل تقلا وغيرهم..

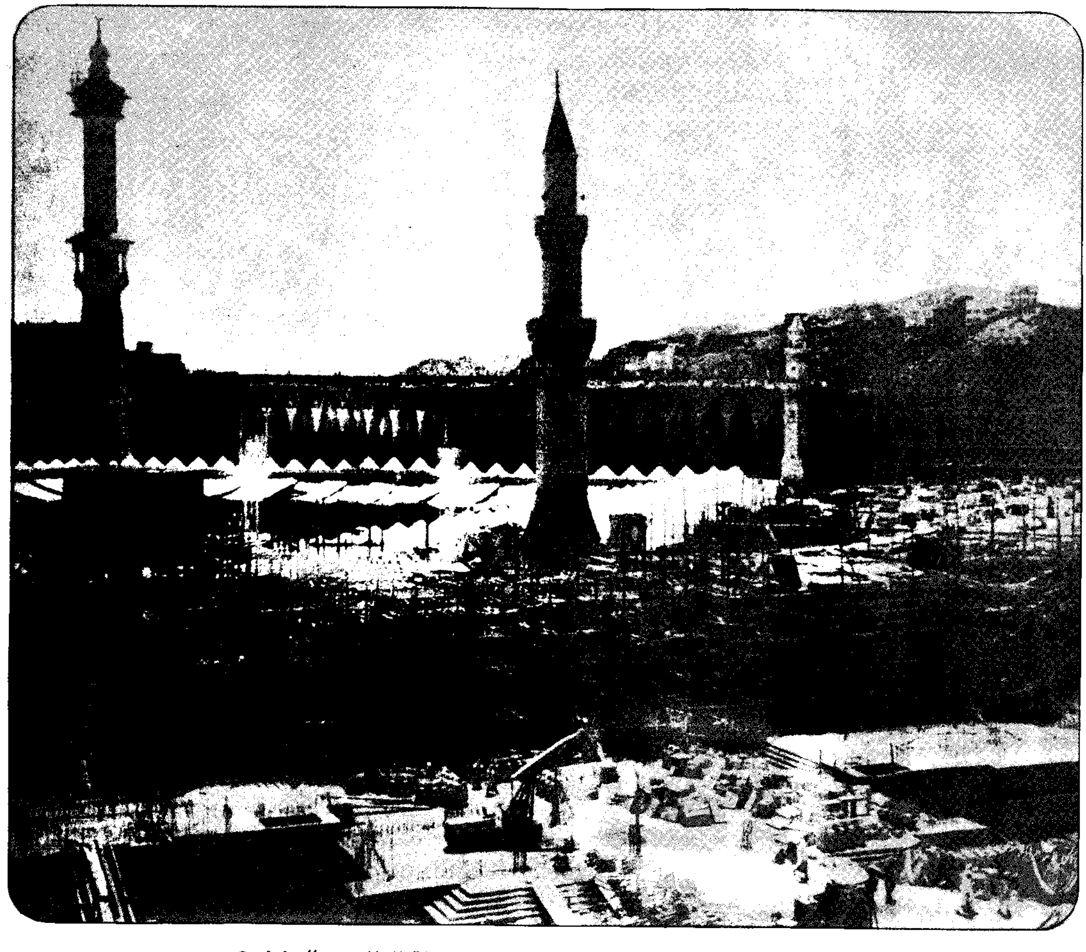
هناك أعمال لباب السلام وعلاقات ثقافية ونشر أفكار ونشر علم ونشر كتب.. فقد كان الناس يعيشون على الكتب التي كانت في باب السلام، كانوا يعيشون على جهـد العلمـاء الذين كانوا في مكة وفي باب السلام وفي الحرم.. كانوا يعيشـون مع الذين تعلموا وتوارثوا العلم منذ زمن بعيد وعلموا غيرهم وكانوا ينشرون العلم بدون مقابل ويؤلفون الكثير من الكتب وهذا على حساب صحتهم وعلى حساب أهل بيتهم.. بل من الناس من كان يأتي إليهم من الطلبة الجاويين وغيرهم وكان أهل مكة يصرفوا عليهم وينفقون عليهم.. وكان المال أيامها عزيزاً.. ويقـوم الآن السيد محمد علوي مالكي بإيواء الكثير من الطلبة الأندونيسيين وغيرهم وينفق عليهم ويقوم بتعليمهم أمور دينهم ودنياهم، ثم يعودون إلى بلادهم بعد حصولهم على إجازة التدريس.

الحقيقة أن باب السلام كان يستقطب كل أبناء الحجاز ومن يأتي إليه من داخـل الجزيرة العربية وخارجها، وكانوا لابد أن يمروا عليه في اليوم مرة أو مرتين على الأقل عند الدخول والخروج من الصلاة، وكان لابد للواحد منهم أن يأخذ كتاباً يشتريه أو يستلفه أو يستأجره ليقرأه، وبائع الكتب في باب السلام بالذات سخي في هذا التعـامل بالنسبة للكتب خاصة التي يؤلفها علماء مكة المكرمة من السادة الذين كانوا يدرسون في المسجد الحرام ويقدمونها للكتبية



● صورة فريدة تظهر فيها مئذنة من مآذن الحرم المكي الشريف ●

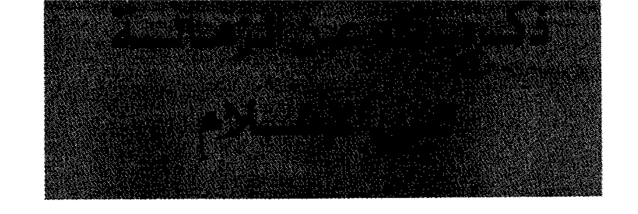
ليبيعوها لهم مقابل مبالغ بسيطة، الغرض منها نشر العلم وليس المادة والحصول عليها.. كذلك كانت هناك ندوات كبيرة تشرف على باب السلام منها: ندوة السيد علوي مالكي وغيرها لعلماء مكة الأفاضل.. وندوة الشيخ البليهد.. وبعده الشيخ ابن مانع الذي كانت له مدرسة يدرس فيها.. وأيضا الأدباء والعلماء والشعراء دائما لهم جلسات في مكتبات باب السلام يناقشون فيها أمور وأحداث الساعة سواء أكانت دينية أو سياسية أو تاريخية.. أي أن باب السلام كان مركز إشعاع لكثير من الناس في البلد خاصة في تلك الفترة التي كان يصعب الحصول فيها على الكتاب، وكانوا يتفانون بتقديمهم لكل هذه الخدمات ليستفيد الناس، بصرف النظر عن الناحية المادية.. وعندما نتابع الموضوع نجد أن المصاحف، والكتب، والمكتبات، والندوات، والأدباء والشعراء هؤلاء كلهم لهم علاقة بباب السلام، علاقة وطيدة ووثيقة مبنية على نشر العلم والثقافة.. والمجال كبير..



● صورة تاريخية للمراحل الأولى من مشروع جلالة الملك عبدالعزيز ●

أهل الحجاز بعبقهم التاريخي

ذكريات عن الزمالة في الإعلام



عندما أكتب عن «الإعـلام» أجـد في ذاكـرتي أناسا، ورفاقا، ورجالا لا أستطيع نسيانهم.. بل أجد في ذكرياتهم حلاوة ومذاقا جميلا.. وفي هذا المجال لا أنسى شخصيـة رقيقة، ونظيفة النفس واليد واللسان كشخصية الصديق حسن أشعري.. فهو في البداية «ولد حارتي».. صحيح كنت أكبر سنا.. ولكن ببضـع سنوات، وكنا في حارة القشاشية نعيش في ميدانها الفسيح المؤدي مباشرة إلى المسجد الحرام.. وكانت مدارس الفلاح شامخة بدورها العلمي والثقافي.. غير أن انصرافنا الذهني إلى رياضة كرة القدم كهواية كان من أبرز «مشـاغـل البـال» في ذلك التـاريخ وأظنه في منتصف الستينات ومع بداية السبعينات الهجرية.. كانت الأحداث الرياضية، ومن أبرزها مباريات كرة القدم التي كانت تقـوم بين فريق الوحدة والاتحاد والفرق الأخرى كالأهلي والهلال تحتل مساحة كبيرة من اهتمامنا.

ومرت سنوات عديدة حتى أصدرت جريدة عرفات الأسبوعية، فإذا بي أمام شخصية قريبة إلى نفسي كما هي قريبة إلى ذهني وفكري وكذلك إلى مهنتي كصاحب جريدة حصلت على امتياز إصدارها.. فلقد وجدت في محيطي هذا الرجل «حسن أشعري» وسألته عن مركزه في وزارة الإعلام أيام بداية نشوئها تحت مسمى «المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر» وكان أول مدير عام لها الشيخ عبدالله بلخير سألته ـ أي الأخ حسن أشعري ـ عما أتى به إلى هذه المديرية.. فابتسم وقال: الذي أتى بي إلى هنا، هو نفس الذي أتى بك..

وقلت له: هل أفهم من هذا أننا رفاق طريق في الإعلام؟.. فقال نعم: فضممته إلى صدري كما كنا نفعل عند لقائنا في حارة القشاشية بمكة المكرمة.. ومن



جريدة اسبوعية شعبية تصدر بمدينة جدة

بسم الله الرحمن الرحيم — العدد الثاني ٧٩/٦ – ١٣٧٧هـ – ١٩٥٧/١٢/٣٠م الثمن ٣ قروش

الأخبار في أسبوع

لندن:

قال مستر جيتسكل زعيم حزب العمال البريطاني أن تسوية النزاع حول كشمير أمر ذو أهمية عظمى وقال أنه يأمل أن ينجح الدكتور جراهام ممثل الأمم المتحدة في تسوية هذه المشكلة الخطيرة.

رالف بانش

صرح رالف بانش مساعد السكرتير العام للامم المتحدة بان مشكلة فلسطين تعد بمثابة خطر مستمر على السلام في الشرق الادنى وأن هناك احتمال حدوث انفجار

واشنطن:

على الأخبار

في صيف عام ١٩٥٥ تقدم مندوبو كل من المملكة العربية السعودية وافغانستان وبورما ومصر ولبنان وليبيا والباكستان والهند واندونيسيا وإيران والعراق والفلبين وسوريا وتايلاند واليمن الى السكرتير العام للامم المتحدة لادراج قضية إريان الغربية في جدول أعمال الجمعية العمومية وفي العاشر من ديسمبر أوصت اللجنة السياسية للامم المتحدة باجراء مفاوضات ثنائية بين اندونيسيا وهولندا أملا في الوصول الى حل النزاع.

وبعد عدة أسابيع وعلى ضفاف بحيرة جنيف اجتمع الوفدان الاندونيسي والهولندي وأصدرا بلاغا مشتركا يبدأ بالعبارة الآتية.

لقد انتهى المؤتمر الاندونيسي الهولندي من غير الوصول الى أي اتفاق.

ومن ذلك اليوم بدأت المتاعب فقد قرر مجلس الوزراء الاندونيسي تكوين حكومة محلية لاريان الغربية مكونة من.

١ – الجزء الذي يحتله الهولنديون

٢ – مقاطعات تيدور وأدبا، مادا، ودا، باناي، وازيل واختيار تيدور عاصمة للمنطقة.

ومن الجانب الآخر ارتفع صوت الملكة جوليانا في خطاب العرش الهولندي بأن إريان الغربية (أرض هولندية).

وهكذا بدأ العراك بين الدولتين واستخدمت اندونيسيا حقها في تأميم الكثير من المنشآت والمؤسسات الهولندية وفي الاجتماع الاخير لحلف الاطلسي قبل أن هولندا استعدت الدول الأعضاء على اندونيسيا.

اللطيف حقا أنني كنت أصطحب أولادي عبدالوهاب وهشام وقد كانا صغيرين في السن، فكان يقبلهما ويحملهما على كتفيه ثم يداعبهما بمودة وحنان..

ومن خلال هذه الذكريات التي لا تنسى ولا تمحى من الذاكرة والتي تجعل الإنسان يحنُّ إلى ذاك الماضي فيتذكر زملاءه وأصدقاءه في ذلك التاريخ وكأنه يتذكر أشياء ثمينة وغالية لا تضيع أبدا، لأن غلاوتها أشد أثرا في النفس وفي القلب من المواد التي تقدر بثمن ربما كان مرتفعا وربما كان منخفضا.. تذكرت هذا الرجل عندما تذكرت سنوات المشاكل السياسية التي طرأت على الأمة العربية فكان من أمرها ما كان من أمر وسائل إعلامنا رغم قصور باعها إلا أنها كانت تعبر تعبيرا صادقا عن مشاعر الشعب وسياسة الدولة بكل أطرافها.. ورغم قصور هذا «الباع» إلا أن الأوضاع في ذلك الزمن كانت تستدعي إيجاد رقابة على وسائل الإعلام حتى لا يصدر فيها ما قد يعرّض العلاقات الرسمية مع الدول المجاورة وغيرها إلى ما يعكر صفوها أو يؤثر على صفائها..

وكنت أشعر بأن الرقابة علينا في ذلك التاريخ كانت وكأنها حالة مراجعة لما قد ينشر غدا أو بعد غد.. غير أن الشعور بالثقة فيما بين الصحف وبين إدارة المطبوعات التي كان الرجل «حسن أشعري» أحد أعضائها جعل تلك الرقابة شكلية أكثر منها عملية، فلقد كان يسألنا فقط عما إذا كنا أشرنا إلى شيء مما أذيع في الإعلام الخارجي.. فإذا قلنا له نعم.. قال بأسلوب الرجاء والتمنى: أرجوكم لا تشيروا إليها.. ونحترم رغبته..

ولم يكن في يوم من الأيام يقف على الجريدة عندما تطبع.. ولم يكن يحرص على أخذ نسخة منها قبل أن تنتشر في الأسواق.. بل بالعكس كان يقرؤها حاله حال الآخرين من القراء، وقد كان شعوره بالتزامنا الصحفي مصدر هذا التصرف، بل لعله ذهب إلى أبعد من ذلك عندما كان يتصل هاتفيا ويتساءل عن الجديد لدينا فيما يتعلق بمشاريع هذا الكيان وما يتوقع من إنجازات ومعطيات للوطن والمواطنين.. فإذا وجد أن مالدينا قاصر عما يوجد لديه فإنه يزودنا بما لديه بكل الارتياح والمودة والصفاء إذ كان التعاون بيننا كما سبق وذكرت يبعث على حسن العلاقة، بل والارتباط الإيجابي فيما بيننا.. ذلك لأن السياسة الإعلامية كانت دون شك مثالا يحتذى به لأننا كنا ولا نزال نعرف أبعاد السياسة التي تسلكها حكومتنا الرشيدة:

«١» نحن لا نعتدي على أحد.. ولا نقبل الاعتداء علينا من أحد.

«٢» نحن لا نتدخل في شئون الآخرين.. ولذلك لا نقبل التدخل في شئوننا.

ومن خلال هذه السياسة الحكيمة والنهج المسلكي كانت الرقابة علينا خفيفة الظل وحلوة العطاء..

وليس بوسعي أن أسهب في مثل هذه الذكريات إلا بالقدر الذي أشعر فيه بأن للرجال أقدارهم وميزاتهم التي تعبر أصدق تعبير عن مساهماتهم في خدمة هذا البلد كل في مجاله الذي قدر له أن يعطيه.. حسن أشعري قدّم للإعلام عمره وثقافته.. ثم انتهى به هذا المجال إلى مجال خدمات أخرى يرسخ بها ما قدمه في ماضيه.. وهذه تحية زميل في الإعلام.. وزميل في العمل الخاص.

ولي أيضـا في الزمـالة الصحفية أصدقاء، بل أساتذة علموني من خلال سلوكهم الإعلامي وتصرفاتهم الصحفية ما كان سببا من أسباب مشاركاتهم فيما قدموه لي.. ففي البداية كنت أعمل «متعاونا» مع أستاذي وصديقي الأخ عبـدالله عريف رحمه الله.. وكان في الساحة عدد كبير ممن سبقوه في هذا المجال كأساتذتنا محمد حسن عواد والشيخ عبدالوهاب آشي والأستاذ أحمد السبـاعي والسيـد محمـد حسن فقي والأستـاذ حسين سرحـان والأستـاذ عبدالقدوس الأنصاري وآخرين تخونني ذاكرتي، وهي كثيرا ما تخون أمثالي في مجال الذكريات والإشادة بالأصحاب والأصدقاء.. أذكر كل هؤلاء وقد عشت معهم معـايشــة حب وود وتلمذة وانتباه إلى كل ما يدور منهم وعنهم.. أولئك الرجال الذين كانوا يعيشون في جو عشيرتهم معايشة الأخذ والعطاء والفهم والأداء.. معايشة الفكر للفكر.. والرأي للرأي.. والنقد للنقد، في عفوية لا تشوبها شائبة المكر والخداع، ولا شائبة التقليل من الشأن والذات، إذ كانوا يدركون أقدار بعضهم ويعرف بعضهم شأن بعض.. وكان أدبهم أدب خدمة وعطاء، أدب فكر لا أدب مهنة يحترفونها لخدمة أغراض خاصة أو شخصية، بل كان أدبهم مشاعا في كل موضع يغشونه، وفي كل حالة يعيشونها، وفي كل موقف يقفون فيه.

ومن خلال هذه المعايشة التي عشتها وزملاء كثيرون ممن لازالوا في مهنة الإعـلام، وممن انتقلوا إلى رحمة الله ممن كانوا في سنى عمري، كنا نشعر بالمحبة الصافية والود النقي، لم نتخذ من الكلمة ولا من المقال مطية لأهوائنا الذاتية ولا لخدمة أغراضنا الشخصية.. وإن كنا نظهر في المجتمع كالرياحين في أغصانها.. إلا أن مظهرنا لم يكن فيه التعالي ولا الظهور بمظهر الغرور في مظهـره العلني أوالخفي كمـا هو حال البعض اليسير والضعيف ممن نراهم ونسمع عنهم وهم دون شك نكرة في هذا المجتمع الأبي النظيف..

هكذا كان أساتذتنا وقد تذكرت بعضهم كأستاذنا حمزة شحاته والأستاذ أحمد قنديل وحبيبنا الأستاذ محمد سعيد العامودي ذلك الرجل الذي تشعر وأنت تقف أمامه بأناقة الأدب والأديب.. وإن كنت لا أنسى زميل العمر أستاذنا طاهر زمخشري وحبيبنا الأستاذ عبدالسلام الساسي.



● عبدالله جفري ●

عبدالله جفري

عندما أكتب عن أساتذتي، بل وأعلام الطريق في هذا المجال الذي عشت فيه فإنني أخص بالذكر حتى ذلك الجيل الذي أتى بعدنا ولكنه تمكن سريعا من الرسوخ في مجال الإعلام حتى بلغ مستوى الكبار.. إنني أذكر من الأبناء صديقي السيد عبدالله جفري.. هذا الكاتب الذي يختلف الكثيرون من القراء على أسلوبه وعلى تناوله فيما يكتب وفيما يقدم وفيما يتناول من مواضيع تختلف باختلاف وجهات النظر.. وتختلف باختلاف أهدافها ومقاصدها ومعطياتها..

ولعل اختلاف وجهات النظر حول شخص ما أو كاتب ما تعتبر وثيقة على قيمة ذلك الكاتب أو الأديب فالناس لا يختلفون حول من لا قيمة له.. قالوا عنه: إنه كاتب من كتاب «الحداثة».. وقالوا عنه: إنه كاتب موضوع.. ولكنني منذ كنت أقرأ المقال وأفهم مقاصده، كنت أعرف أن الكاتب والأديب والمثقف عبدالله جفري، لم يتناقض يوما مع نفسه ولا سلوكه ولا أخلاقياته.. فهو ذاته على الورق وفي الحياة.. فهو ذلك الإنسان الرقيق العفيف النبيل الذي يأسره المعروف ويثيره الغدر، وهو منذ عرفته ولا يزال ذلك الوفي الذي لا يتوقف له معي اتصال أو تواصل فعلاقتي به دائما علاقة الأخ الأكبر بأخيه أحترمه وأقدره وأعطيه حق مقامه ونسبه وحسبه..



عبدالغني قستي



● عبدالغني قستي ●

لو أردنا أن نكتب عن هذا الرجل فلابد أن تكون كتابتنا في مستوى معطياته وإنجازاته التي كانت تتحدث عنه بصوت عال وهو صامت لا يتكلم.. وأعتقد أن الناس يهتمون بالصوت العالي، ولا يلتفتون للذين يعملون وهم صامتون. ولذلك فأنـا أرى أن أستـاذي ومعلمي عبدالغني قستي رغم صمته كان أعلى طولا وأقوى وقوفا وأكثر صمودا أمام أحداث الصحافة وتغيراتها من كل المتحدثين.. فلقد عاش هذا الرجل كل العهود الصحفية وأحداثها وتقلباتها، أعني أوضاعها وملكياتها، حتى انتهت إلى ما انتهت إليه .. فذلك الرجل نادر في سلوكه، مثال في أخلاقياته وثري في معطياته الصحفية.. فهو برغم طاعته لكل من تعاون معه من رؤساء تحرير إلا أنه استطاع أن يحتفظ بكرامته بحيث يجعل احترام رئيس التحرير له فرضا واجبا عليه.. لأنه ينصح إذا طلبت منه النصيحة بصراحة لا غموض فيها ولا التباس.. وإذا أخذ رأيه أبداه بأسلوبه الهادىء وأدبه الرفيع.. وإذا وجد أن هناك أمورا قد تؤذي الجريدة أو تعرضها للمشاكل التي ليست في حاجة إليها، فإنه ينبه إليها بأسلوب الهمس الناصح الأمين.. لا يبدي رأيه هذا حتى يقال عنه: «لولا هو لما سلمت الجريدة مما كان محتملا حدوثه» ولذلك كان بعضهم يزعم أنه كان صاحب ذلك الرأي، ويدعي أنه صاحب تلك الفكرة التي جنبت الجريدة وقوعها في تلك المشاكل.. ومع ذلك فإنه يبتسم راضيا بكل ذلك، بل تراه أحيانا يهز رأسه موافقا على أنه رجل «موظف» ينفذ ما يؤمر به..

فالأستاذ عبدالغني قستي عايش قدرا كبيرا من تاريخ الصحافة وعرف عن كثب الاتجـاه الإعـلامي فتعامل معه بأسلوب الأديب، والشاعر الأريب، هذا

الأسلوب، الذي كان ضابطا ورابطا لجموح الكثيرين ممن كانوا يتواثبون بالركض للظهور على أعمدة جريدة البلاد السعودية.

ثم إن مشاركة أستاذنا القستي مع أستاذنا عبدالله عريف رحمه الله كان لها الأثر الطيب في تحقيق التوازن والفاعلية معاً لما تحويه جريدة البلاد السعودية والتي مازالت تعيش في ذاكرة الصحفيين والقراء والأدباء القدامى وكل من كانت له علاقة بالصحافة منذ بدايتها وحتى الآن وإلى مائة عام قادمة.. وأعتقد أن كل من يريد أن يكتب عن الصحافة السعودية كتابة تؤرخ معطياتها.. فإن من أبرز الرجال الذين سيظهرون بوضوح وصورة مميزة أستاذنا عبدالغني قستي.. هذا الرجل الذي عرفته منذ كنت متعاونا مع أستاذنا عبدالله عريف أيام كان رئيسا لتحريرها.. ثم زمالتي له عندما اندمجت «البلاد السعودية» مع جريدة «عرفات» فكان لي نِعْمَ الزميل بصدقه أو أمانته وخبرته التي كانت مصدر احترام وتقدير للكثير من المواقف التي كنت أركن فيها إلى رأيه الذي كان ينصح به.. وكنت أوافقه عليه دون تردد أو توقف أو مناقشة إلا في الحدود التي تكون معلوماتي مرتبطة بجهات رسمية لها شأنها ولها وزنها فأتخذ قراري وأبديه له ليعيد صياغة ما كنت أريد نشره.. وقد تعلمت منه الكثير من أساليب الصياغة الخبرية والفكرية حتى لكأنه كان وسيظل أستاذا لي في هذا الجانب الهام من جوانب العمل الصحفي.. إذ كنا ننشر الكثير من الأفكار والآراء، والكثير الكثير من الخبطات الصحفية ذات الأسلوب الهادف الرصين الذي كنا نستخدم فيه الكلمة فنوظفها بهذا الأسلوب حتى لا نثير الغبار حولنا ولا حول من كانت الأخبار تعنيهم.. وبذلك ـ أي بهذا الأسلوب ـ استطعنا أن نحقق النجاح تلو النجاح وكان هو سر هذا النجاح.. وأيضا كان مصدرا من مصادر الارتياح للتعامل معنا من ذوي المقامات الرفيعة ومن ذوي الوظائف التي تصنع الأحداث والمشاريع والتنظيمات والإجراءات التي تقدم خدمات لهذا البلد.. هؤلاء كلهم كانوا يضعون ثقتهم الغالية في التعاون معنا..

لأن الهدف واحد، والقصد الحسن واحد.. وأحمد الله على أن صفحتنا كانت كصحيفتنا «البلاد» بيضاء نقية وشريفة لا يستطيع أن يطمس أثرها ولا مواقفها

أحد حتى ولو أراد ذلك، وحتى أولئك الصحافيين أو الكتاب الذين حاولوا أن يفعلوا ذلك عندما صدر قرار بإنشاء المؤسسات الصحافية لم تساعدهم الحقائق على تشويه الصور فلقد كان الواقع شيئا، وما قاله البعض شيئا آخر..

وفي عهد المؤسسات استمر أستاذنا الكبير عبدالغني قستي كعادته يعمل في صمت الرجال ووقار الرجال وحتى عندما جنح إلى الراحة جنح إليها بكل الهدوء وبنفس الأسلوب الذي كان يكتب به.. فلم يسمع بذلك إلا القلة من المتصلين والملتصقين به وبأعماله..

ولكن هل حقا أعطينا هذا الرجل حقه من التكريم والوفاء والتقدير، تمنيت لو أن كلمة شكر تصاغ في ميدالية ذهبية تقدمها لهذا الرجل صحيفة البلاد التي قضى زهرة شبابه وجل عمره في خدمتها وأن يكون ذلك في حفل صحفي وإعلامي كبير.. ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يجزي هذا الرجل بما يجزي به عباده الصالحين المفلحين لأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. كما يعلم «مسئولية القلم» وما يسطرون أفتراني أنصفت هذا الرجل بهذه الكلمة القصيرة؟.. أقول وبصوت عال ليتني كنت كذلك.. ولكنها العجالة التي أعتقد أنني قلت ما أستطيع أن أقوله عن هذا الرجل بكل الحب والاحترام والتقدير أمنحه له بطويتي التي يعرفها الناس فلا داعي لكي أنافقه فهو مثلي يحب البعد عن حديث الناس وكلام الناس بعجره وبجره ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه.



أسماء وأحداث أخرى في الذاكرة

عند بدايتي للعمل في جريدة البلاد آثرت أن يظل الأستاذ فؤاد شاكر رئيسا للتحرير كمسؤولين على قدم المساواة وفي الإدارة أيضا بصفته يمثل الشركة العربية للطبع والنشر بترشيح من الشيخ محمد سرور صبان رئيس الشركة رحمهم الله جميعا..

هذه البداية كانت تجربة لقدرتي على رئاسة التحرير لجريدة يومية يرجع تاريخها إلى سنوات ماضية طويلة غير أن توفيق الله لازمني خاصة عندما وجدت تعاونا جيدا من العاملين في جريدة البلاد السعودية ثم تحويل إصدار الصحيفة إلى مطابع الأصفهاني لأن المسؤولين في مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر التي أسسها صديقي الكبير أحمد عبيد ثم اشتراها الشيخ حسن عباس شربتلي لم توافق على إصدار الجريدة إلا بعد الاتفاق على تكاليف الطبع والورق، وقد كان الوقت ضيقا لأن صاحب الجلالة الملك فيصل رحمه الله كان قد أمر بصدور الصحف في اليوم التالي بعد الاتفاق على عملية الدمج «ولقد كنت في السابق أطبع جريدة عرفات في مطابع الأصفهاني رحمه الله، فذهبت إليه وعرضت عليه الأمر، فقال لي لنطبع الجريدة أولا وبعد ذلك نتفق على الأسعار.. فشكرته على موقفه وقد كانت علاقتي به علاقة ثقة ووفاء»..

وقبل أن أسهب في هذه الذكريات أود أن أعترف أنه لولا الاندماج مع جريدة البلاد السعودية لكنت أعلنت توقف جريدة عرفات لأنني لم أعد أتحمل دفع مصاريف إصدارها. وبعد الاندماج اكتشفت أن موارد جريدة البلاد السعودية لا تتجاوز الثلاثين ألف ريال شهريا وأسباب ذلك عديدة لكن أبرزها زهادة أسعار إعلاناتها لأن الشركات والمؤسسات التجارية بصفة عامة لم تكن الصحافة موضع اهتمام منها.. وهذا من أبرز أسباب فقدان سيولة الإعلانات فيها.. وطفقت أفكر جديا في إيجاد مخرج من هذه الأزمة الطاحنة خاصة وأن الهدف من اندماج الصحف كما قيل لنا هو الرفع من مستوى الصحافة وجعلها أداة



البلاد السعودية

برقيات الاستحسان من مختلف طبقات الشعب الى جلالة العاهل المفدى

للتوجيه والتثقيف.. فكيف يمكن لي تقديم جريدة في هذا المستوى دون وجود العامل الأهم والأبرز وهو تحسين دخل الجريدة ماديا.. وقد هداني الله إلى اتخاذ سبيلي إلى معالي الشيخ عبدالله بلخير مدير عام الإذاعة والصحافة والنشر.. وأخذت أشرح له الأوضاع المالية والمتاعب التي ستواجهني لو أردت القيام بإضافة مخبرين ومصورين ومحررين إلى الجريدة للنهوض بها، وقد كان حجم الطباعة لا يزيد عن أربعة آلاف نسخة يوميا، فما بالك بالرجيع.. وشرحت لمعاليه أن زهادة أسعار الإعلانات التي كانت تتمثل في:

١ ـ السطر على عامود بنصف ريال.

٢ ـ ربع الصفحة بـ ٢٠٠ ريال فقط.

٣ ـ إعلانات المحاكم الشرعية بثلاثين ريالا.

٤ ـ إعلانات فقد الرخصة أو الاستمارة أو أي شيء آخر بثلاثة ريالات.. وهكذا.

أما المبيعات من النسخ فكان معظم دخلها في جيوب البائعين، وربما حتى الآن.. والرواتب لم أعرف كيف كانت تصرف.. كذلك لم أحاول معرفة ذلك احتراما للأوضاع التي كانوا عليها.. ومن الحديث وتقليب الأمور على أوجه

مختلفة راودتني عدة أفكار عرضت أبرزها لمعاليه.. وخلاصتها: بيان بأسعار الإعلانات أقدمها مع خطاب أرجو فيه من معاليه الكتابة عنها للوزارات دون أي التزام بها من المديرية التي يرأسها.. فهز رأسه موافقا.

وفورا ذهبت إلى المكتب وكتبت البيان بأسعار الإعلانات.. كما أصدرت تعليمات بإيقاف الإعلانات التي تنشر لبعض التجار إذ كانت بأسعار غاية في الرخص وقد كانت تحتل مساحات كبيرة وسافرت للرياض مصحوبا بالخطابات التي أعدتها المديرية العامة بأن جريدة البلاد تقدمت لنا بالبيان المرفق عن أسعارها الجديدة للإعلان فيها.. للإطلاع واتخاذ ما ترونه.

ونمت ليلتها مؤرقا.. أقلب الأساليب والطرق التي أدخل بها على أصحاب المعالي الوزراء لإقناعهم بسلامة مطالبي وأهميتها.. ثم سلمت أمري إلى الله ليحسن تدبيري.. وفي الساعة الثانية غروبي من ضحى اليوم التالي رن الهاتف ليتصل بي من أوصيته بإيقاظي في الفندق.. وأفقت بمشاعر مرتاحة تبشر بالخير..

وذهبت أول ما ذهبت إلى مكتب سمو سيدي الأمير فهد بن عبدالعزيز وزير المعارف.. فاستقبلني سعادة الأخ عبدالعزيز السالم مدير مكتبه بحفاوة ملحوظة إذ كان من أصدقاء جريدة عرفات ومن فيها.. كما كان ترحيبه بي مصدر أمل وتفاؤل لي.. ثم التفت إليَّ بذكائه المعروف ليسألني عما إذا كنت أرغب في السلام على سمو سيدي الأمير فهد.. فقلت له: إنني قادم وآت من جدة لهذا الغرض، فأمهلني بعض الوقت.. ثم همس في أذني بأنك إذا رأيته ذاهبا لمكتبه أسرع الخطى لتلحق بسموه الكريم فادخل معه إلى مكتبه.. ومن الآداب التي يتحلى بها الأخ عبدالعزيز السالم أنه لم يسألني عن هدفي من زيارة سمو سيدي الكريم..

وقمت فورا للسلام على سموه وعندما لحقت به وشاهدني أركض نحوه استقبلني بابتسامته الحلوة المشرقة.. وفورا بادرني بالسؤال: ماهي خطواتك القادمة لجريدة البلاد.. فقلت سريعا: إنني آت إليك لتلقي توجيهاتك ونصائحك

الغالية.. فرحب بي، وأجلسني على الكرسي المقابل لمكتبه ثم أخذ يحدثني عن توجهات الدولة في المستقبل.. كما ركز على أن سياسة التعليم هي الأبرز لتحقيق توجهات الدولة لنهضة البلاد وتقدمها.. وكانت هذه بمثابة ذخيرة من الأخبار التي يتوقع الناس مني تلمسها من كبار المسئولين ورجالات الدولة كل حسب مسئوليته ومعطياته..

وسنحت لي فرصة الكلام بأن الصحافة عندما تبرز هذه الإنجازات وتواكبها لابد لها من جهاز يخدم هذه الإنجازات إخباريا إلى غير ذلك من المتطلبات.. وشاء الله أن يكون هذا الذي حدث لي مع سموه الكريم هو المفتاح الذي أدخل به لتحقيق مطلبي الذي ذهبت إلى الرياض من أجله.. فنهضت من موقعي أمامه حتى أتيت إليه وانحنيت لأفضي له بما في نفسي.. ثم قدمت له الخطاب الخاص بموضوع الإعلانات.. فقرأه ثم كتب عليه «الإدارة المالية».. فالتمست من سموه الكريم أن يضيف على هذا الشرح كلمة «يعتمد» فقال لي: إنهم يعرفون ذلك.. فقلت له إن كتابة هذه العبارة هي من باب التذكير أو التسمية.. فكتبها ثم التفت إلى مبتسما بكلمة «تستاهل» بعد أن اطلع على قائمة الأسعار والتي كانت كما يلي:

أولا : خمسة ريالات للسنتيمتر على عامود بدلا من نصف ريال.

ثانيا: ربع صفحة بألف ريال بدلا من مائتي ريال.

ثالثا: الاشتراكات بثلاثمائة ريال سنويا، بدلا من ثلاثين ريالا للعدد الواحد.

أما بالنسبة للإعلانات الأخرى فلقد اتفقت مع الإدارة على تسعيرة خاصة بها.. وذهبت فرحا إلى السوق وصورت ما كتبه سمو سيدي الأمير فهد بالفوتوكوبي حيث لم يكن منتشرا في الوزارات أو الإدارات آنذاك.. وذهبت إلى سمو سيدي الأمير سلطان بن عبدالعزيز وزير الزراعة وعرضت عليه ما عرضت بعد أن استقبلني ببشاشته.. ثم عرضت عليه الخطاب الذي أحمله فشرح عليه بكلمة الإدارة فرجوته أن يضيف كلمة «للاعتماد» فقال إنهم يعرفون ذلك.. ورجوته أن يفعل ما فعله الأمير فهد وأريته شرحه فوافق على ذلك.

وهكذا استطعت أن آخذ موافقة أصحاب السمو الملكي الأمراء وأصحاب المعـالي الوزراء.. وبعـد شهر من تاريخه ارتفعت واردات الجريدة إلى مائة وسبعين ألف ريال، ثم أخذت الزيادة ترتفع تدريجيا حتى بلغت ما بلغته.

هذا ما كان من أمر رفع مستوى موارد الجريدة المالية، الأمر الذي جعلني أفكـر في كيفيـة رفـع مستـواها كصحيفة يومية تعني بالأخبار والتحقيقات الصحفية، كما تعنى بالمواضيع الأخرى التي تهتم بها الأجيال النابتة في ذلك الوقت وما تتطلع إليه فوجهت عدة رسائل إلى كبار الأدباء والمثقفين أرجوهم التعاون معي في ذلك.

أمـا من الناحية الإخبارية وطريقة الحصول عليها فقد أخذت أخطط لفتح مكاتب للجريدة في مكة المكرمة والرياض.. وفي أحد الأيام تفضل بزيارتي في مكتبي بجدة سعادة الأخ الأستاذ محمد عمر توفيق ملبيا دعوتي للكتابة في الجريدة بمقال يومي ينشر في الصفحة الأخيرة تحت عنوان «ذكرى».

وصارحني بأسلوبه الحبيب إلى النفس بأنه يريد أن يتقاضى أجرا على هذه المقالات.. واتفقنا على أن أعطيه ثمانمائة ريال في الشهر.. ثم تلطف وقال لي: اقتـرح عليـك أن يكـون إخـراج الصفحـة الأخيرة كإخراج جريدة الأخبار المصرية.. فتنشر فيها «ذكرى» على اليمين، وفي رأس الصفحة عنوان تحت مسمى «على هامش الأيام» لتنشر فيه مقالات أصدقائك من الكتاب.. فرجوته أن يتفضل مشكورا بإقناعهم بالتعاون معي مقابل هدية متواضعة «مائة ريال» عن كل مقال.. فوعدني خيرا.. وبعد بضعة أيام عرضت على سعادته فكرة فتح مكتب لجريدة البلاد في مكة المكرمة بإدارته، على أن يتقاضى مقابل ذلك ألف ريال شهريا يدخل في ذلك مقال «ذكرى» ومقال أسبوعي.. فوافق على الفور.. وكـان سعـادتـه في تلك الأيام قد فتح محلات في مكة الكرمة تحت مسمى «دكاكين» لبيع مواد غذائية وغيرها.. وقد كنت أنشر إعلانات عنها مجانا.. قبل هذا كان يأتي إلى مطابع الأصفهاني يوميا كل من الأخ عبدالله خياط والأخ السيـد عبـدالله جفري ويقتعدان مقاعد خشبية، الله أعلم بحالها في داخل

المطبعة حيث تصف الحروف وتوضب الأعمدة بإشراف وتوجيهات زميلنا الكبير الأستاذ عبدالغني قستي إذ كانا صديقين له أو تلميذين.. وكنت أرحب بهما وآخذ ما يكتبونه لنشره بعد الاطلاع عليه.. وعندما فتح مكتب جريدة البلاد في مكة المكرمة قلت لهما: اذهبا إلى الأستاذ محمد عمر توفيق في مكة خير من تجشمكما مشاق النزول إلى جدة والعودة إلى مكة.. وهكذا كانت علاقتهما بالأستاذ محمد عمر توفيق الذي كان له توجيهه الأدبي لكليهما.. وازدهر مكتب البلاد في مكة بزيارة الروّاد من كتاب المملكة العربية السعودية من أمثال الأستاذ محمد سعيد العامودي والأستاذ حسين سرحان والأستاذ محمد حسين زيدان والأستاذ أحمد عبدالغفور عطار.. وكثيرة هي الأسماء التي لا يتسع المجال لذكرها وجميعهم كانوا من صفوة الأدباء.. وكان الأستاذ محمد عمر توفيق يطلب من الأخوين عبدالله خياط وعبدالله جفري الإتيان بالأخبار المحلية التي يتحدث عنها الناس أو تدور بها ألسنتهم.. وباعترافهم فقد كانا يفبركان هذه الأخبار.. ولكن الأستاذ محمد عمر توفيق وهو ذكي فطن يحذف منها ما يحذف.. ويعدل فيها ما يستحق التعديل، ثم يرسلها إلينا تحت عنوان «رسالة العاصمة».. وفي حينها كنت أفكر أيضا في فتح مكتب للجريدة في الرياض.. وتم ذلك بتوفيق الله وعونه.. غير أنني كنت كثيرا ما أذهب إلى الرياض لأجل الحصول على أحاديث صحفية مع كبار المسئولين من أمراء ووزراء وغيرهم. إلى جانب تقصي الأخبار وبالذات الحوادث كحوادث المرور والحرائق والهدميات.. وكنت أعطي مكافأة مجزية لكل مخبر من خارج الجريدة.. وقد حرصت على أن أعطي الجنود المنتشرين بين مكة المكرمة وجدة في الطرقات نسخة من الجريدة.. فأسفر ذلك عن تقديرهم ثم عن إبلاغ الجريدة عن أي حادث يحدث ويعلمون به.. ومن الطريف حقا أنهم كانوا يبلغون الجريدة قبل إبلاغ رؤسائهم عنها.. وكان حرصنا على نشر هذه الأخبار يعكس رغبتنا في القضاء على الشائعات التي ترتبط بمثل هذه الحوادث لأن نشرها كان يساعد على نفي الشائعات وإزالتها من الأذهان..

ومرت الأيام وكان ما كان من تخلي أستاذنا محمد عمر توفيق عن إدارة مكتب

الجريدة في مكة فأسندت مهامها إلى الأخ عبدالله خياط بعد أن استقال من وظيفته في إدارة الشرطة بمكة المكرمة.. وبعد فترة من الزمن أبلغته أن يكون سكرتيرا لتحرير جريدة البلاد إذ لاحظت فيه الأنف الصحفي الذي يستطيع إفادة الجريدة بما يستطيع الحصول عليه من أخبار وتحقيقات صحفية.. وفي تلك الأيام كانت توجه إلينا دعوات خارجية ومحلية.. وحدث مرة أن وجهت لنا دعوة لزيارة جنوب الطائف، غامد وزهران وبني مالك، وكان في مكتبي الابن سعد ابن عيضة المالكي الذي يعمل في وزارة الإعلام حاليا وقد طلب مرافقة هذه البعثة التي كونت من الإخوان عبدالله خياط وعبدالله جفري ومحمد عمر عامودي ومحمد جميل فضل وغيرهم.. وقد نجحت هذه الزيارة لبلاد غامد وزهران وبني مالك وأقيمت لهم عدة احتفالات وقدموا من خلالها تحقيقات صحفية عن الأماني الواسعة التي تحتاج إليها تلك المدن العزيزة علينا.. وقد تحقق الكثير والكثير لها ولغيرها حيث كانت المعطيات الخيرة شاملة لكل أنحاء المملكة دون تفريق بينها، إذ كانت همم الرجال في ذلك الوقت تفوق رغباتهم حتى لقد قيل إن خدمات المرافق لم تستطع اللحاق بالامتداد العمراني سواء كان في المدن الرئيسية أو في المدن شبه الرئيسية أو في المدن الفرعية الأخرى.. وأشهد بأن الزملاء الكرام الذين تعاونوا معي كانوا مخلصين في عملهم وكانوا مجدين في عطائهم كما كنت أعطيهم الفرصة تلو الفرصة لزيارات الممالك الأخرى إذ ذهب أحدهم إلى الصين بدعوة منها وإلى غيرها أيضا، وذهب الآخرون أيضا حيث إنني لم أكن استطيع لبعض الظروف تلبية تلك الدعوات في تلك الأيام.. ثم لا أنسى التعاون الذي لقيته من الأبناء علي عمر جابر وعلي مدهش ومحمد عبيد الله أبو زهرة في مجال التصحيح بمكافأة شهرية لا تزيد عن مائتي ريال شهريا.. ويغفر الله لي إذ كنت أصرخ فيهم عند اكتشاف أي خطأ في التصحيح أو إعادة التصحيح.. ولكنهم كانوا يدركون أن الهدف من ذلك لم يكن إيذاء مشاعرهم ولكن كان بغرض نجاح العمل الذي ننتمي إليه جميعا.

وأذكر بهذه المناسبة أن الأخ محمد عبيدالله أبوزهرة وقد كان مدرسا في

إحدى المدارس وكان موعد خروجه من المطابع بعد منتصف الليل، وكان يذهب إلى منزله مشيا على الأقدام مرورا بمبنى وزارة الخارجية.. وفي إحدى الليالي وجد أوراقا متناثرة في الشارع الفسيح، فانحنى ليلتقطها، فإذا برجال الأمن يمسكون به وأودعوه السجن الاحتياطي حتى الصباح، وبالتحقيق معه قال لهم: إنني أعمل مصححا في جريدة البلاد، وهذه الأوراق وجدتها فالتقطها حماية لها من أن تلقى من يدوس عليها بأقدامه.. وكانت الأوراق عادية لا تحمل شيئا يذكر.. فاتصلت بي إدارة الشرطة وسألوني عن صحة أقواله.. فأكدت لهم ذلك وطلبت منهم إطلاق سراحه لأنه بريء مما قد يتصورونه.. واستمر في عمله حتى تحولت الجريدة إلى مؤسسات.

وفي الرياض كانت تقدم لي سيارة خاصة من الخاصة الملكية للتنقل عليها، وكان يقودها الأخ فهد العيسى وهو مخبر في وكالة الأنباء السعودية حاليا، ولا أدري إن كان مازال يعمل فيها أو أحيل إلى التقاعد.. وأتذكر أن الأخ فهد تضايق يوما عندما شاهدت حادثا مروريا لم يكن بوسعي التوقف عنده لأنني مرتبط بموعد هام، فطلبت منه بعد أن أوصلني إلى الوزارة التي كنت أرومها.. أن يذهب إلى موقع الحادث وأن يسجل لي وقائعه: رقم السيارات، ومن المخطىء، وإلى آخر المعلومات المطلوبة المعتادة.. وقد تهيأت له ظروف الحصول على مصور كان يعرفه فرجاه أن يلتقط له صورا للحادث.. ثم جاءني في العصر وهو يحمل الخبر والصور فأعدت صياغته.. لكنه كان متضايقا من هذا التكليف الذي يعتبره في غير مسئوليته التي يعمل معي من أجلها.. فسكت ثم كتبت الخبر مع الصورة مع أخبار أخرى، ثم طلبت منه التفضل بالذهاب بها إلى المطار وإعطائها إلى المسئولين هناك لإرسالها إلى المطار في جدة حيث يذهب مندوبنا يوميا لاستلام الرسائل التي ترسل من مكتب البلاد في الرياض للمكتب الرئيسي في جدة.. وكان أستاذنا عبدالغني قستي يحرص على ذلك حيث يذهب أحد المراسلين الذين اعتادوا على إحضارها من المطار.. ونشرت أخبار الحادث ومعه صورة للأخ فهد العيسى وتحته تفاصيل الخبر.. وفي اليوم التالي حرص الأخ فهد على أن يفتح الجريدة ويقرأ رسالة العاصمة الرياض

فوجد صورته والصور الآخرى للحادث، ثم قرأ عبارة «كتب فهد العيسى» وعندما ذهب إلى كراج الخاصة الملكية كان التندر عليه من زملائه هناك بقولهم:

ـ ما شاء الله يافهد لقد غدوت صحفيا..

وبهذا الموقف فتحت شهية الأخ فهد العيسى حتى غدا مخبراً في مكتب جريدة البلاد في الرياض.. وعند قيام المؤسسات وقيام وكالة الأنباء السعودية التحق بها وكان حتى زمن قريب من أبرز المخبرين أو أولهم ينتقل بين وزارة وأخرى ليأتي لوكالة الأنباء السعودية بأخبار نشاطات الدولة ومعطياتها.. ولعله قد أسهم كثيرا في إنجاح وكالة الأبناء السعودية، فهو يعدُّ واحداً من أبرز المخبرين فيها، فنشاطه كان لافتا للأنظار كما كان الاعتماد عليه أحد أهم الأسباب التي مكنته من احتلال هذه المكانة.

لا جدال في أن كتابة المذكرات الصحفية أو الذكريات كما يقول البعض تعتبر من أصعب ما يتناوله كاتب الذكريات.. ذلك لأنه عايش الكثير من المواقف والتصورات والإحراجات والإحباطات وإلى آخر ما يمكن أن يدخل في مفهوم ما يسمى بمعاناة الصحفي وهو يخوض في أمور الأحداث والحوادث.. تلك التي تشكل من الناس وتناولاتهم.. وتصوروا إنسانا يدس أنفه ويحشر نفسه بين هؤلاء الناس وكأنه فضولي تكون النظرة إليه نظرة اشمئزاز وغمز ولمز ومحاولة للابتعاد عنه قدر الإمكان.. في الوقت الذي يقترب منه من له غرض وهوى لاستخدامه لاستهدافات معينة..

مرة أخرى تصوروا كيف حال هذا الرجل الذي قالوا عنه إنه «صحفي» وهو يعيش أجواء متناقضة كهذه.. غير أن الرجولة الحقة هي التي تفرز الرجال الخلص في المجال الإعلامي ومعطياته.. وتفرز الجوهر من خلال أخلاقياتهم وسلوكهم مما ينسحب على علاقاتهم بالآخرين خاصة، عندما يحتل الإنسان مستوى التأثير في هذه العلاقات فيساعد الناس ويقدم لهم العون ثم يحتضن من يحتضن فينقذهم من بطالة أو من تعطل في العمل ثم يلعب الحظ لعبته، فإن أصاب خيرا جوزي عليه ممن يحفظ للناس معروفهم وإحسانهم.. وإن أصابه شر فإن ذلك من أخلاق بعضهم أو طبيعة سلوكهم.. والعجيب أن هؤلاء وأولئك

يعرفهم الناس إذ لا تخفى تصرفاتهم على فطنة هؤلاء الناس.. وإنني منذ عدة سنوات وأنا أسمع رأي الناس في بعض هؤلاء وأولئك كأن يقولوا: هذا الرجل يحفظ المعروف.. وذاك رجل ينكره.. فإن كان العمل في مجال الصحافة يعطي رجالها هذا الزخم وهذه المكانة فأنعم به من مجال يعمل للخير ولخدمة المجتمع بكل طبقاته.. ذلك لأن خير الناس من كان خيرًا مع الناس.. وشر الناس من كان سيئا مع الناس.. من هنا أستطيع القول إنه رغم ابتعادي عن المسئولية العملية المباشرة في الأداء الصحفي، إلا أنني والحمد لله حمدا كثيرا استطعت أن أظل كما كنت في الماضي أتابع تطلعات المجتمع وأكتب عن هذه التطلعات ثم والحمد لله مازلت أتابع تطلعات المجتمع وأكتب عن هذه التطلعات. وكذلك وجدت أن من نجاح العمل الصحفي ألا أكتب كل شيء وأنشره، بل أكتب بعض الأشياء وأبعثها أو أسلمها مناولة للمسئولين لأنه ليس كل ما يعلم يكتب للنشر.. وأقصد بهذا المثل بأنه ليس كل ما يعلم يقال.. حتى الرسائل تأخذ طريقها بالكثير من الاهتمام ثم الإنجاز.. ولا أريد أن أعدد ماذا تم، وماذا أنجز، فإن هناك نفراً ممن لا أريد تسميتهم يعملون على تجاهل أصحاب هذه الإنجازات.. وعلى طمس تاريخهم أيضا وذلك من أول يوم صدرت فيه صحافة المؤسسات.. لأن أناسا تصوروا، بل وبلغ بهم الاعتقاد الراسخ أن قيام المؤسسات إنما بُني على أننا قوم سيئون، والله أعلم بما قدمنا.. كما يعلم أيضا ماذا قدموا.. وقد لا أملك حق المقارنة في هذا الأمر إلا بقدر معلوم.. لكن القراء ورجال الدولة بإنصافهم ومعرفتهم للنوايا الحسنة هم الحكم الفاصل بيننا.. حتى إصداراتي وبالذات كتاب «الأمن الذي نعيشه» لم يجد التغطية المطلوبة من صحافة المؤسسات وبالذات الجريدة التي نشرت معظم فصول هذا الكتاب لم تحاول أن تعلق عليه وعلى أهميته وعلى محتواه من أرقام وإحصائيات وجدت الاستحسان الذي لم أكن أتوقعه من المحافل الأجنبية عندما اطلعت على هذا الكتاب بعد ترجمته إلى اللغتين الفرنسية والإنجليزية بفضل الدعم الأدبي والمعنوي من سيدي صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبدالعزيز.. غير أن هذا الكتاب وكتبي الأخرى لاقت من الاستحسان ومن الرواج كما تلقى مساهماتي فيما أكتبه في الصحف المحلية استحسان كثير من القراء خاصة

ما يتعلق بتطلعات المواطنين انطلاقا مما تعودته في الماضي ومازلت أعيشه حتى الآن وسأظل إن شاء الله.. فإن كان ماذكر من أننا كتاب غير مرغوبين في كتاباتنا فلماذا تسابقت الصحف على احتضاننا جميعا للاستمرار في كتابة المقالات التي نكتبها ثم تنشر دون شطب أو حذف كما يحدث للكتاب الآخرين.. كما أحمد الله سبحانه وتعالى على أنني لم أسأل أي مسئول كان عما إذا كان راض عما أكتبه لأنني لست في حاجة إلى مثل هذا السؤال كما يسأله الآخرون الآن.. لأن الهدف من الكتابة هو خدمة الوطن والمواطن من خلال التوجهات الخيرة التي ترعاها السياسة التي تنتهجها حكومتنا الرشيدة.. هذه مقدمة ساقتني إليها الشجون الصحفية ذكرتها لكي تكون فكرة يستفيد منها ناشئة الصحافة والنابتين في أجوائها وهي بمثابة نصيحة لهم كي لا يعجلوا النجاح.. ولا يتعجلوا الشعور بالإحباط، وألا يتأثروا نفسيا من نصيحة أصحاب الخبرة والباع الطويل في هذا المجال الصحفي الذي تعتبر الخبرة والتجربة والمعاناة فيه من أهم أسباب النجاح والفشل أيضا ولا أريد أن أدخل في صحافة الماضي ومعطياتها، وصحافة المؤسسات وما تقدمه وتحتفل به، إذ لكل عهد رجاله ولكل زمن عطاؤه.. خاصة وأنني لا أملك مثل هذا الحق في الحكم على الماضي والحاضر.. ولكنني أردت بهذه العجالة أن أعطي فكرة بأن العمل الصحفي لحمته وسداه خدمة الوطن والمواطن وبالصدق والإخلاص بعيدا عن التشنج والغرض الشخصي لأن انكشاف هذه وتلك ينتهي أمره ومآله إلى رأي الناس.. واللهم إنني أسألك اللطف من كلام الناس.. غير أن الاعتزاز بهم وبرأيهم هو المطلب الأساسي فيما يقدمه الصحفي في مجال الرأي العام.. تلك هي خلاصة تجاربي وخبرتي أيضا أقدمها هدية للنابتين فيها وأنصحهم بالموضوعية والأمانة في تناول هذه الموضوعية حتى يكتسبوا احترام القارىء بعيدا عن سخطه وإلقاء الجريدة جانبا بتأفف واشمئزاز.. ويسألونني عن قصة قيام المؤسسات الصحفية، وهي قصة جديرة بأن تكون في مقدمة وأهمية ما يجب أن يشار إليها لأنها جديرة بالإثبات لأمانة التاريخ..

في خلال عام ١٣٨٣هـ سافرت عدة مرات إلى خارج المملكة.. وصادف أن

نشــرت في الجـريدة بعض التعليقات الهامة على كثير من المعطيات الخيرة لحكومتنا الرشيدة، غير أن بعض هذه التعليقات لم تكن في المستوى الذي يتنـاغم ويتنـاسب مع تلك المعـطيات.. الأمر الذي أثار كثيرا من التعليقات والحســاسيات، ثم كان ماكان من أمر التوصيات التي بنيت أساسا من رأي حصيف رآه سيدي صاحب السمو الأمير مساعد بن عبدالرحمن آل سعود، وقد كان يرقى منصب وزارة المالية والاقتصاد الوطني أبدي رأيا خاصا في تكوين المؤسسات الصحفية وتحويل ملكيتها من الأفراد إلى شركات أو مؤسسات، وحدث أن نوقشت قضية جريدة البلاد وبالذات كيف أنها تعتبر مؤسسة كما زكاها صديقي الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار بقوله: إنها منذ الأساس شركة أو مؤسسة بصرف النظر عن كون حسن قزاز شريك فيها بمعدل النصف.. لكن في اللحظات الأخيرة في مجلس الوزراء استبعد النقاش في موضوعها.. وصدر القـرار بتحـويلهـا إلى مؤسســات حسب توصيـات سمـو الأمير مساعد بن عبدالرحمن آل سعود وزير المالية والاقتصاد الوطني.. وذلك لأسباب لا أرى من المناسب التنويه عنها احتراما وتقديرا لمن كانت اجتهاداتهم في مجال الإعلام لها وزنها ولها عطاؤها ولا يعنيني من أمر من يفسرون غير ذلك مما كانوا يريدون إلصاقه بنا..

هذه حقيقة من كان وراء قيام هذه المؤسسات من خلال النظرة الصائبة التي وجـدت قبولا واستحسانا من حكومة صاحب الجلالة الملك فيصل رحمه الله وصدرت أوامر إنشائها مع إعطائها مهلة ٣ شهور لتسليمها.. وكان قد سها على من وضع هذا القرار ذكر الفترة الانتقالية.. وكاد أن يصدر القرار بدونها لولا أن لاحظها أحد المستشارين في المكتب الخاص لصاحب سمو الأمير مساعد بن عبدالرحمن فنبه إليها وقال معلقا: لو صدر القرار غفلا من إعطاء مهلة الفترة الانتقالية لما وجد القراء جريدة يقرأونها في اليوم التالي..

ولا شك أن ذلك لم يكن مقصودا في حد ذاته إذ ربما سقط من كاتب هذا القرار أو ناسخ هذا القرار تثبيت هذه الجملة الهامة لمستقبل الصحافة في ذلك الحين.. ولعل له عذرا وأنت تلوم..

ولم يسوئني هذا القرار.. كما أنني رتبت أموري على ألا أكون مشاركا بأية مسئولية في هذه المؤسسات، ذلك أمر طبيعي لأنني سأكون موظفا أسأل عن تصرفاتي أو حتى عن الحصول على خبطة صحفية أحصل عليها، وذلك لا يمكن لي تحقيقه في ظل هذه المؤسسات.. ومما يؤكد قولي هذا هو حال المؤسسات الصحفية في الوقت الحاضر ومنذ نشوئها وحتى الآن.. ولا أريد أن أعلق على ما آلت إليه الصحف لأن ذلك لا يقع في ذهني ولا في خاطري فتلك مسئولية المشرفين عليها وفي مقدمة المسئولين أعضاء هذه المؤسسات الذين لا يعنيهم من أمر الصحافة ما يعنيني لعشق الصحفي كما هو معروف إذ إن معظمهم «لا في العير، ولا في النفير» ولعل اختيارهم لم يكن دقيقا إلى الحد الذي كان يمكن لهذه المؤسسات أن ترقى بالصحافة كما قيل لي يومها إنك ستفخر يوما أنك عضو في المؤسسات الصحفية. واستغفر الله العظيم وأتوب إليه لا أريد أن أتحدث عن الكيفية التي تم بها انتقال الجريدة إلى مؤسسة.. غير أنني للتاريخ أقول إن اختيار الأستاذ عبدالمجيد شبكشي لرئاسة التحرير كان بترشيح شخصي مني قلته لكثير من الأعضاء بحكم صداقتي بهم لأنه كان يتعاون معي في بعض المقالات الأدبية التي كان يكتبها، ثم إنه كان قريبا إلى نفسي ولو أنه تأثر ببعض الأفكار، إلا أنني لم أعبأ بذلك لأنني مازلت والحمد لله أكتب وسأظل أكتب في الصحافة المحلية.. غير أن ما يحزنني ودمعي على خدي هو أن جريدة البلاد لم تواكب الصحف الأخرى لا في انتشارها، ولا في معطياتها، ولا في قدرة التكيف مع العمل الصحفي الذي ينبغي أن تكون عليه حتى في العهد الحالي لرئاسة التحرير، فقد ظلت منذ صدورها وحتى الآن على ما يراه القارىء ويسمعه.. ولا أريد أن أدخل برأي الناس عن هذه الجريدة حتى لا أكون سببا في إثارة الغبار حول المشرفين عليها حاليا لأنني مازلت أحمل لهم من المحبة والتقدير بحكم الصداقة القديمة التي تربطني بهم.. ولكن لابد من أن تحظى هذه الجريدة باهتمام أصحاب المعالي والسعادة الأعضاء المؤسسين لها ماداموا قد قبلوا أن يكونوا أعضاء فيها منذ اختيارهم في هذه المؤسسة ورفع رأس مالها شريطة البحث عن أكفاء في العمل الصحفي للنهوض بهذه الجريدة

وتخليصها من كبوتها التي تعيشها الآن.. لأن الجريدة التي لا تملك في مقوماتها هذه الكفاءات جدير بها أن تختفي خيرا من أن تظل غير ذات بال في دنيا الباحثين عن الخدمة الصحفية التي كانت تتحلى بها جريدة البلاد قبل قيام المؤسسات.. ولعل من تحصيل الحاصل أن نخوض في أمر الصحافة ومعطياتها على النحو الذي تعيشه الآن إذ الملاحظ أن الاجتهادات الفردية لبعض الكتاب الذين يقدمون مالديهم من أفكار من خلال ملاحظاتهم الدقيقة ومعايشتهم وإن كانوا بعيدين كل البعد عن المجال الصحفي إلا أنهم يعايشون هذه التطلعات الجيدة.. غير أن بعضهم يشكو من تصرفات بعض رؤساء التحرير تجاه ما يكتبونه بحجة هذا ممنوع، وهذا صدرت تعليمات عنه، وعبارة نأسف لضيق المساحة لدينا.. ثم تكتشف أن الرفض هو من عند مسئولين ليسوا في مستوى هؤلاء الكتاب.. أو هكذا يقال حتى لا يكون العتب مباشرة على رؤساء التحرير أو مدراء التحرير وغيرهم.. ثم تقرأ بين فترة وأخرى كتابات الله أعلم بمضمونها ثم نسأل عن طريقة نشرها فإذا بالتعليقات تأتينا بأن هؤلاء أصدقاء للمحررين والمخبرين في هذه الجرائد، ثم يقال لك: يا أخي اقرأها طيب حتى تفهمها.

في الماضي لم نكن ننفرد بالرأي في نشر المقالات التي تأتي حتى من الناشئة، وحتى من الذين أدركتهم محبة الدخول في غمار الصحافة.. كما نستعرض المقال بحيث يقرؤه عدد غير قليل من كبار موظفي التحرير في جريدة البلاد.. وكان الترجيح لنشرها بتقريظ هؤلاء الكبار لمعظم المقاطع في هذا المقال أو لبعضه ثم يترك الأمر للبقية من المقال لمن يحذق تماسكه حتى لايتضايق الكاتب فيما لو لاحظ أننا قمنا بحذف بعض مقاطع المقال.. وبذلك كان حرصنا على استقطاب الناشئة حتى يبلغوا مايودون الوصول إليه للاستمرار في كتابة آرائهم وأفكارهم وتطلعاتهم من الأماني والآمال كمشاركة فتية عبر صحافة الرأي العام.. في الوقت الذي كنا أيضا نتقبل الرأي الآخر فيما ينشر من آراء وأفكار حتى نستطيع أن نقوي فكرة المقال الذي نشر برأي يؤكد فكرته ويعزز اتجاهه.. هذا مانفتقده الآن للأسف الشديد.. وكانت الأخبار تتواثب علينا محليا وخارجيا وكنت أحرص

كثيرا على أن تحتل الأخبار المحلية مكان الصدارة لأنها من اهتمامات القارىء في الدرجة الأولى.. لأن الذين يهتمون بمتابعة الأخبار الخارجية كانوا من الذين لهم ارتباط تجاري أو اقتصادي بأوضاع البلاد الخارجية وخاصة البلاد العربية والإسلامية.. وكانت أخبار الاقتصاد والمال والتجارة من أبرز الأخبار التي كنا نعنى بها ونهتم بأبرزها مراعاة لمثل هذه المطالب من شريحة من القراء.. وكنت كثيرا ما أتقبل ملاحظات هذه الشرائح من المهتمين بأمر الصحافة لأن ذلك يؤكد أن ما كنا ننشره ونهتم به هو موضع الاهتمام والتقدير حتى ولو كانت بعض الملاحظات قاسية علينا إلا أننا نتقبلها بصدر رحب ونناقشها بموضوعية إذ كنا نعتز ونفخر بهذه الملاحظات أيا كان أسلوبها وحرارة القول فيها.. ومن هنا استطعنا أن نكسب الكثير والكثير من القراء حتى تكونت لنا شريحة واسعة من ذوي الرأي والفكر والعطاء وفي مقدمتهم صاحب الجلالة الملك فيصل رحمه الله الذي آثرني بأول حديث صحفي نشرته جريدة «عرفات» في العدد ٥٣ قبل إنشاء جريدة البلاد بعد دمجها بالبلاد السعودية بيوم واحد.. وكان مما قاله لي وأنا أسأله الرأي في فكرة الدمج من التوسع فيه خاصة وأن معظمها كما علمنا كان يعاني ضائقة مالية فخشينا أن يتجهوا اتجاها غير لائق بالصحافة ومكانتها.. ثم أردنا من هذا الدمج إعطاء الفرصة لإقامة صحافة قوية تواكب التطور الذي نتوقع قيامه بين وقت وآخر.. لعل القارىء هنا يشعر وكأنه يقرأ تاريخا ذاتيا.. هذا صحيح. لكن ما ذنبي إذا كانت الصحافة في تلك الأيام تعيش في دمي وفي أعصابي وعشقي..

إذا، لابد من أن يقترن هذا بذاك.. ولا أظنني قد أغفلت ذكر من تعاونوا معي وكان لهم أثرهم في صحافة ما قبل المؤسسات وبالذات الصحافة التي أندمجت مع بعضها مثل: عرفات والبلاد السعودية.. وحراء للأخ صالح محمد جمال رحمه الله والندوة لوالدنا الأستاذ أحمد السباعي رحمه الله وأطلق عليها مسمى «الندوة».. ولو أردت استعراض ماكنا عليه لما وسعتني هذه الذكريات أن أفيها حقها.. غير أنني أحب أن أشيد بأولئك الرجال الأفذاذ وفي مقدمتهم الأستاذ أحمد السباعي والأخوان صالح وأحمد جمال رحمهم الله ومن كانوا في مثل وزنهم

ومعطياتهم مما يسجله التاريخ بأحرف نقية ووضاءة.. إذ كنا في ذلك الوقت نعمل على تحقيق أهداف وواجبات الصحافة ومعطياتها حتى ولو كنا نختلف في الرأي وفي عرض أفكارنا.. إلا أنها كانت تصب في بوتقة واحدة اسمها تحقيق أمل المواطنين وتطلعاتهم.. وقد حدثت معجزة هذه اللحظة الكبرى مما عشناه وواكبناه ونستظل بظله الآن..

ثمَّة ما يستدعي الإشارة إليه وهو أننا في الماضي كنا نقرأ كل إصدارات الصحف والنشرات الإعلامية بحرص وعناية حتى نعرف ماذا نشرت وعلى أي شيء انصب اهتمامها لنقارن بين ما ينشر فيها وبين ما نقوم نحن بنشره في جريدة البلاد. ولا أريد أن أتعرض عما إذا كان المشرفون على صحافة هذه الأيام يدركون أهمية هذه الاطلاعات على الصحف الأخرى عقب جلوسهم على مكاتبهم وقبل قيامهم بأي عمل كان، القيام بالاطلاع على الصحف ومعرفة ما نشر فيها ليستفيدوا مما نشر في الصحف الأخرى ثم يستدركوا ما فات عليهم وخاصة المواضيع التي تعيشها هذه البلاد فتناولتها الصحافة بالكثير من الاهتمامات فتعقب عليها وتزيد من التحقيق لكي تساهم أو تشارك أو تأتي بشيء جديد مما نشرته الصحف الآخرى..

غير أن ما أود أن أنصح به المشرفين على العمل الصحفي، وهي نصيحة مخلصة وصادقة تعبر عن نفسيات القراء وما تعتلج به هذه النفسيات عندما يقرأون تقريظا لأشخاص دون ذكر معطياتهم التاريخية.. لأن القراء يهتمون بالموضوعية ولايهتمون بالأسماء.. وهذا ماكانت هيئة التحرير في عهد صحافة الأفراد تحرص عليه وترفض التنويه عن الأشخاص على أي نحو كان.. بل تشير إلى الموضوعية أولا ثم تستعرض مجموعة الأسماء التي شاركت في مناقشة الموضوعات التي تهم الوطن والمواطنين بالذات.. ولم نكن أيامها نلتفت إلى الشللية وإفرازات مواضيعها على أي نحو كان.

وكثيرة كلمات الثناء تقال لنا، وعن زملائنا من أصحاب مناصب رفيعة المستوى ورجال آخرين عما كنا نقوم به، بل ربما كان اهتمامنا بالنقد أكثر حفولا

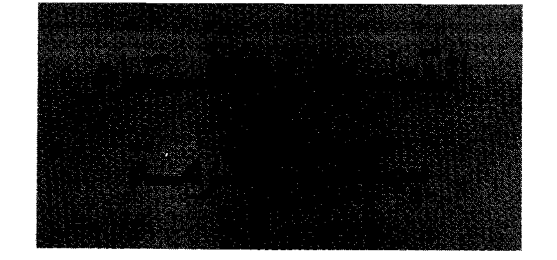
وإظهارا بنشره، ولم يحدث أن نوهنا عنها في جريدة البلاد، وقد كان ذلك بوسعنا أن نفعله كما هو الحال الآن خاصة وأننا كنا نلتمس رضاء الله أولا وأخيرا كما نلتمس العفو والمغفرة من أخطائنا..

والحمد لله رب العالمين



أهل الحجاز بعبقهم التاريخي

القضاء والإفتاء
بمكة المكرمة



في عام ٩٤٣ هـ ورد أول قاض لمكة المكرمة من الروم «أي من قبل سلطان الترك».. وكان قبل ذلك قضاة مكة المكرمة منها، كبيت آل الطبري والظهيرين والنوريين..

ثم استمر الأمر كذلك حتى زوال حكم الأتراك من الحجاز عام «١٣٣٤هـ» وقيام حكم الشريف حسين بن علي في هذه السنة.. فكان تولي القضاء على مكة المكرمة بأمر الشريف حسين، ثم بعد زوال حكمه وتولي آل سعود صار تولي القضاء بمكة المكرمة بأمر ملك المملكة العربية السعودية..

ومن أشهر المحاكم بمكة المكرمة وأقدمها: المحكمة الشرعية الكبرى، ومقرها بباب الزيادة، وبها ثلاثة قضاة غير رئيسهم، الذي هو رئيس المحكمة، وجميع المحاكم مرجعها ديوان واحد يسمى «ديوان رئاسة القضاء»..

ويقول الأستاذ أحمد السباعي في كتابه «تاريخ مكة»: أما القضاء فكان يتولى مناصبه في مكة علماء الأتراك، الذين تنتدبهم الدولة التركية، وكانت أحكامهم مرتبطة بمشيخة الإسلام في الأستانة، فكان القاضي يمثل سلطة الأتراك الدينية، ويرأس الحفلات التي ينصب فيها أمراء مكة، ويعقد المراسيم الخاصة بذلك.. ويتولى تقديم الخلع السلطانية إلى الأمير.. أما وظيفة الإفتاء فقد ذكر الأستاذ السباعى في كتابه المذكور ما ملخصه:

كانت أمور الفتوى في هذا العهد، أي عهد العثمانيين، تسند إلى بيوت العلم من المكيين بتأييد من الدولة العثمانية، بخلاف وظيفة القضاء، فقد اختص العثمانيون أنفسهم بها، فكان الناس إذا لم يقتنعوا بحكم القاضي التركي لجؤوا

إلى استفتـاء المفتي في قضـاياهم، فإذا أفتى في صـالحهم استندوا على فتواه ورجعـوا بهـا إلى مجلس القاضي، وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة مفت مختص ويرأسهم مفتي الحنفية، لأن السلطان على مذهب أبي حنيفة.. وأول من تولى رئاسة الفتوى في عهد العثمانيين هو الشيخ قطب الدين الحنفي المكي..

إنشاء المحاكم المستعجلة

أما المحاكم المستعجلة، فقد كان أول تأسيسها وإنشائها في عهد الشريف الحسـين بن علي، بعد أن استقل بالحجاز، فقد أصدر أمره بتأسيس محكمة جديدة بمكة المكرمة تسمى «محكمة المواد المستعجلة».. وذلك في السابع عشر من رجب عام ١٣٣٦هـ.. وانتخب لرئاستها المرحوم الشيخ سالم شفي.. ثم في شهـر صفر ١٣٣٧هـ صدر أمره أيضا بتأسيس محكمة مستعجلة في جدة، وانتخب لرئـاستهـا السيـد عبدالله خيار.. وقد وضع في قانون ونظام المحاكم المستعجلة إحدى عشرة مادة للسير بمقتضاها..

وقد كتب الشيخ عمر عبدالجبار رحمه الله في كتابه «سير وتراجم» ونشرت كل فصوله في جريدة البلاد في عهد صاحبها ومؤسسها كاتب هذه السطور عن بعض قضاة وعلماء الحجاز وفي مقدمتهم:

الشيخ أحمد ناضرين

ولد عام ١٣٠٠هـ..

تخـرج من المـدرسة الصولتية، وأجيز بالتدريس في المسجد الحرام والمدرسة الصـولتية.. نقل إلى مدرسة الفلاح مدرسا، ثم عُيّن قاضيا بالمحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة.. وظل بها إلى أن توفي عام ١٣٧٠هـ.. كان الشيخ أحمد ناضرين معتدل القامة والجسم وكث اللحية سليم البنية.. تخرج من المدرسة الصولتية فتضلع في الفقه والنحو، فكان مثالا للطالب النشيط القوي الإيمان..



● جلالة الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - وطيّب الله ثراه، بعد دخوله مدينة جدّة بساعتين،
وذلك يوم الاثنين ٧ جمادى الثانية ١٣٤٤هـ ●

أشتهر بين زملائه بالتواضع وحسن السلوك ودماثة الأخلاق.. ثم واصل دراسته بالمسجد الحرام فأخذ العلم عن مشائخه وعقد حلقة دراسته في الحصوة التي أمام باب المحكمة وبجانبه حلقة الشيخ سالم شفى زميله في الدراسة.. وكان رحمـه الله يستولي على قلوب تلاميذه وعقولهم فيغذيها بنور العلم ويهديها إلى سبيل الرشاد كالنور يهدي الضال وينير الدلج فيسلخ الظلام ويطهر النفوس من أدران الجهل.. كان يقول لطلابه في كل مناسبة «ليست الغاية من العلم أن تعلم فحسب، بل الغاية أن تعمل بما تعلم من الخير وأن تكون قدوة لغيرك في الخير، ولاتتعلم العلم لتكتمه أو تفخر به، بل لتنتفع وتنفع غيرك به»..

كان رحمه الله جمّ التواضع يداوي جهل الفظ الغليظ بالحكمة والرفق والوعظ

النصح.. وكان بجانب عمله سديد الرأي، تحدثه في أدق الأمور فيكشف لك ما فيها من دقة ويبين ما فيها مِن غموض، فإذا بها واضحة جليلة لا تقبل ريبة ولا شكا..

كان الشيخ عثمان سفر مغتربا في عهد الحسين، فلما دخل الملك عبدالعزيز إلى الحجاز عاد إلى مكة وكانت له أوقاف بمكة استولت عليها ابنة عمه طيلة غيابه وتصرفت في ريعهـا تصرف المالك.. فتقدم بالشكوى إلى قاضي المحكمة الشيخ أحمد ناضرين فسجل اقراره، ثم طلب ابنة عمه فأقرت بتصرفها في الوقف طيلة غياب الشيخ عثمان سفر ووقعت على إقرارها..وصادف أن جلالة الملك عبدالعزيز رحمـه الله قد أصـدر منشورا بنصرة المظلوم فلجأت إلى جلالته، وادعت أنها مظلومـة، فأمـرها بمراجعة القاضي فتذكر له بأن جلالته وكيلها، فأسرعت إلى المحكمـة وأشعـرت الشيخ أحمد ناضرين بأن وكيلها جلالة الملك عبدالعزيز.. فسجل إقرارها وأمرها بحضور وكيلها يوم الجلسة التي حددها.. فأسرعت إلى جلالته وأبلغته أمر القاضي.. ولما كان جلالته حاميا للدين ومنفذا لأحكام شريعته حضر إلى المحكمة بنفسه مع الشيخ عبدالله بليهد.. فأمر القاضي مسجل الضبط بقراءة الدعوى فحكم القاضي على المرأة بدفع جميع ماتسلمته من ريع الوقف لعثمان سفر وتسليمه الوقف.. فنظر جلالة الملك إلى الشيخ عبدالله بن بليهد وقال له هذا هو الشرع.. وبعد التنفيذ وقف الشيخ أحمد ناضرين لجلالة الملك وسلم عليه وقال له: إنني ابن بائع لقيمات ولم أصل إلى هذا المنصب إلا بفضل الله ثم بالعلم والتمسك بأهدافه القيمة.. إنني منفذ لحدود الله وأوامر جلالتكم لحماية المـظلوم.. وهـذا لون من ألوان الظلم التي ارتكبته المرأة بظلمها ابن عمها في الوقف، وإنني لم اتصلب في القضية إلا دفاعا عن الحق ونصرة المظلوم.. ثم قدم استقالته وأصر على ترك العمل رغم تمسك رئيس القضاة به وإلحاحه بسحب الاستقالة..

التحق رحمه الله بمدرسة الفلاح فكان بصلاحه أداة هداية استنارت بها قلوب طلابه فكان منهم القاضي العادل والعالم العامل والمدرس المنتج والموظف الكفء رحمه الله ورحم من ترحم عليه.

الشيخ أسعد دهان

ولد عام ١٢٨٠هـ ـ توفي عام ١٣٣٨هـ» تخرج من المدرسة الصولتية وتلقى العلم عن الشيخ رحمت الله مؤسس المدرسة الصولتية والشيخ عبدالحميد الداغستاني الشنواني والشيخ عبدالرحمن سراج مفتى الأصناف بمكة المكرمة..

وهو من العلماء الأعلام، قصير القامة ممتلىء الجسم كث اللحية، فيه وقار العلماء وهيبتهم، وهو لايقل عن أخيه عبدالرحمن الدهان تقوى وورعا وإخلاصا إلا أنه كان لايرى أن الغاية من العلم نشره والعكوف على العبادة والعزلة فحسب، بل لابد للعالم من النزول إلى معترك الحياة العملية والقيام بما يجب عليه لصالح الأمة.. فكان رحمه الله يؤدي رسالته في نشر العلم بجانب ماتسنده إليه الحكومة من وظائف هامة، ثقة في مقدرته.. فقد عين رحمه الله في عهد الشريف حسين مساعدا لقائمقام مكة المكرمة، وعضوا بمجلس التعزيزات، ورئيسا لهيئة التدقيقات لشؤون الموظفين ثم قاضيا بالمحكمة عام ١٣٧٧هـ.. فقام بجميع ما أسند إليه بحنكة ولباقة وإرضاء للخصمين..

وقد كان رحمه الله يلقي دروسه في المسجد صباحا ومساء في رواق باب السليمانية.. وكان معظم طلابه من العلماء وطلبة العلم الممتازين.

السيد عباس بن عبدالعزيز المالكي

ولد عام ١٢٧٠هـ تلقي العلم عن السيد بكري شطا والشيخ محمد عابد مفتي المالكية ومحمد يوسف الخياط..

توفي عام ١٣٥٣هـ..

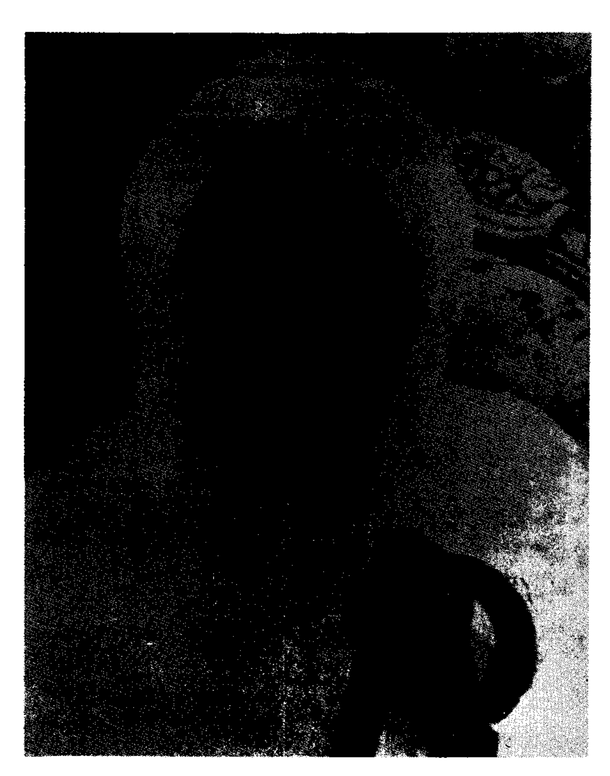
مؤلفاته منها رسائل في علم البيان وعلم الوضع والفقه، تخرج على يديه كثيرون منهم ابنه «السيد علوي» وحفيده السيد محمد علوي مالكي..



● السيد عباس بن عبدالعزيز المالكي ●

كان رحمه الله وديع النفس راجح العقل طيب القلب باسم الثغر حلو الحديث، يعمل لدينه ودنياه لخدمة وطنه وقومه، تقلب في عدة وظائف، فكان عضوا في إدارة المعارف فانتدبه الشريف حسين إلى الحبشة لبناء مسجد للمسلمين فيها ثم إلى بيت المقدس لبناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى وحمل معه الأموال التي تجمعت من الاكتتاب لهذا الغرض، ولما عاد من مهمته عين مديرا للمعارف..

وفي العهد السعودي الزاهر عين عضوا بمجلس الشورى ورئيسا للمحكمة الابتدائية الأولى ثم قاضيا في المحكمة الكبرى فكان رحمه الله يقوم بكل عمل يسند إليه متجافيا عن المصلحة الخاصة بعيدا عن الرياء والملق محبا للإخلاص مقدرا للشرف والمروءة.



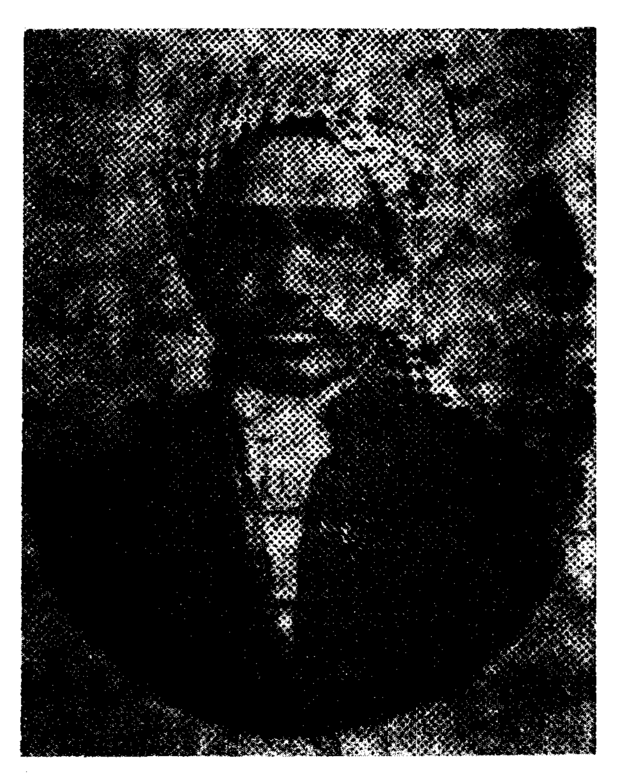
● السيد علوي بن عباس المالكي ●

كان رحمه الله يعقد حلقته أمام باب الزيادة في الرواق الذي بين بابي المحكمة والباسطية، وكان مقريه ابنه السيد علوي مالكي.

كان أكثر ما يدعو ويسأل «اللهم أصلح ذريتي إلى سبيل الرشاد» فاستجاب الله دعاءه وأقر عينه بابنه السيد علوي الذي حل محل والده في نشر العلم فكان خير سلف في امتلاك قلوب العامة بالنصح والارشاد.. وحفيده السيد محمد علوي مالكي المعروف بجزالته وجمال أدائه وغزارة علمه وثقافته الإسلامية..

القاضي العلامة السيد أبو بكر أحمد الحبشي

ولد رحمه الله عام ١٣٢٠هـ.. وفي الثانية من عمره سافر به والده إلى لحج لزيارة جده لأمه السيد علوي بن أحمد السقاف.. ثم رجع مع والده إلى مكة



● السيد أبو بكر أحمد الحبشي ●

المكرمة عام ١٣٢٣هـ فنشأ في حجر والده وجده السيد حسين بن محمد الحبشي مفتي الشافعية المتوفى عام ١٣٣٠هـ فبدأ يقرأ القرآن على يد الشيخ أحمد حمام.. وفي عام ١٣٢٦هـ صحب والده إلى لحج ثم رجع والده وظل أبوبكر تحت رعاية جده السيد علوي السقاف..

ولما ولي مكة الشريف حسين طلب السيد علوي من لحج فتوجه مع عائلته ومن ضمنهم حفيده أبوبكر وذلك عام ١٣٢٧هـ فظل تحت رعاية والده بمكة، وواصل قراءة القرآن على يد شيخه أحمد حمام.. وفي عام ١٣٣٠هـ توفي جده لأبيه.. وفي عام ١٣٣٢هـ ألحقه والده بمدرسة الفلاح بقسم الحفاظ، فحفظ القرآن وجوده برواية حفص على السيد أحمد بن حامد التيجي وأجازه، ثم بدأ في الدراسة وارتشاف شتى العلوم المقررة من علماء الفلاح الأعلام فكان يترقى في كل عام من صف إلى صف إلى أن أكمل دراسته ونال الشهادة الابتدائية ثم

الثانوية وشرع يتلقى بعض المواد في بعض الصفوف..

وفي ١٣٤٣هـ رحل إلى جدة فاشتغل بالتدريس بمدرسة الفلاح ثم رجع إلى مكة المكرمة عام ١٣٤٤هـ وعاد إلى مدرسته مدرسا بها مقتبسا من أساتذتها دينا وتقوى وورعا وزهدا.. وفي عام ١٣٤٥هـ سافر رحمه الله إلى حضرموت مع والده، فبهره مافيها من علماء أعلام.. فأخذ ينتقل من بلد إلى آخر طلبا للعلم وارتشافا من مناهله العذبة فأخذ عن جملة من علماء حضرموت وأجازوه..

وفي عام ١٣٤٨هـ سافر رحمه الله إلى بومباي للعلاج.. وعاد إلى المدنية المنورة عام ١٣٤٩هـ فأخذ العلم عن كبار علمائها وأجازوه.. ثم عاد إلى مكة عام ١٣٥٠هـ حيث عين مديرا لإدارة الفلاح ومعلما وناصحا ومرشدا.. ثم نقل إلى القضاء وعمل به فترة طويلة ولم تشغله إدارة الفلاح عن مواصلة طلب العلم وإنتهال المعرفة.. وكان ممن قرأ على أيديهم عمه السيد محمد بن حسين الحبشي فقد قرأ عليه فتح الإله وشرح ابن القاسم على متن أبي شجاع، ومنهاج الطالبين ببعض شروحه وإيضاح المناسك، ورسائل السيد عبدالله بن حسين طاهر وبعضا من الجامع الصغير، وحضر دروس العلامة الشيخ أمين سويد الدمشقي التي كان يلقيها على المعلمين بمدرسة الفلاح في تفسير البيضاوي وجمع الجوامع وشرحه.. وقد أجازه إجازة عامة..

وهكذا قضي السيد أبوبكر الحبشي معظم حياته في طلب العلم ونشره وقد شغله التعليم والقضاء عن التأليف.. فليس له من المؤلفات سوى:

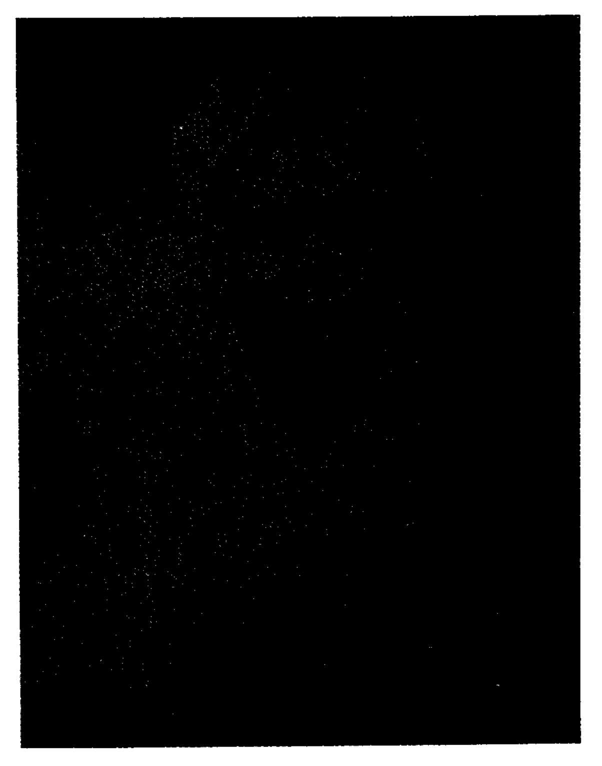
١ـ خلاصة السير لسيد البشر صلى الله عليه وسلم وهي ألفية في السيرة النبوية نظمها عام ١٣٤٠هـ.

٢ـ رسالة صغيرة في الصلاة لصغار المبتدئين..

٣ـ ثبت كبير..

ظل رحمه الله في القضاء بمكة المكرمة قائما بواجبه في نزاهة وتحر في القضية قبل بت الحكم خشية من الله إلى أن توفي عام ١٣٧٤هـ.. فرحمه الله وأسكنه واسع جناته..

السيد أحمد بن أبي بكر شطا



● السيد أحمد بن أبي بكر شطا ●

ولد رحمه الله عام ١٣٠٠هـ في بيت عريق في العلم والفضل، فحفظ القرآن وجوده، ثم شرع في طلب العلم عن والده وعن عمه السيد عمر شطا والسيد حسين حبشي مفتي الشافعية وغيرهم..

كان السيد أحمد بن أبي بكر شطا قصير القامة ممتلىء الجسم كث اللحية أبيض اللون مشربا بحمرة..

وكان يرحمه الله محافظا على الصلوات الخمس في جماعة المسجد الحرام وكانت ملابسه البيضاء القصيرة تدل على ورعه وتقواه وبعده عن زخارف الدنيا وأبهتها.. كانت حلقة درسه في نهاية حصوة باب السلام مما يلي المطاف، وكانت رغم قلة طلابها تتجلى فيها روح الإخلاص، وكان السيد أحمد شطا صريحا يقول

الحق لايخشى في الله لومة لائم أو سلطة حاكم.. فقد حدث أن أعلن حزب الاتحاد والترقي الدستور، وكتبوا بذلك مضبطة بموافقه علماء مكة على فكرتهم وحزبهم فلما عرضت المضبطة على السيد أحمد شطا رفض التوقيع عليها غير مبال بما يترتب على هذا الرفض من عنت الاتحاديين وكيدهم، ولكن حفظه الله لم يصبه أذى فيما بقي من حياته..

واشتهر فضيلة السيد أحمد بالعطف على الفقراء والمساكين وإقامة الولائم لتكريمهم وتطييب خاطرهم.. حدث أن أقام الشيخ يوسف قطان وليمه دعا إليها أثرياء مكة ووجاءها وعلماءها، وكان السيد أحمد شطا من جملة المدعوين، وبعد تناول الطعام على «المين» همس في أذن الشيخ حسن عشى ـ طباخ الملوك والأمراء في عهد عون الرفيق ـ بأنه يريد إقامة وليمة مثل هذه ولكن على الأرض.. فاستغرب الشيخ حسن وسأله عن المدعوين.. فقال أغنياؤنا ووجهاؤنا.. وما إن مدت السفرة إلا وأقبل فقراء الأربطة وطلاب العلم الفقراء فقابلهم السيد أحمد ببشاشة مرحبا بهم فرحا مسرورا بتلبيتهم دعوته، فهب أخوه وحاول الهرب من المجلس فمسكه من تلابيبه وصفعه وقال له: هؤلاء أكرم عند الله من أغنيائنا هؤلاء أهل الجنة أحق بالتكريم وإعداد الولائم لهم، قف بالباب وأصلح نعلهم وشيعهم بعد تناول الطعام..

توفي السيد أحمد بن أبي بكر شطا عام ١٣٣٢هـ.. رحمه الله..

الشيخ أحمد عبدالله القارئ

«**ولد** عام ١٣٠٠هـ ـ وتوفي عام ١٣٥٩هـ».

تلقى علومه في المدرسة الصولتية ونال شهادتها، وأجازه الشيخ بدر الدين الدمشقي حين قدم للحج.. وألف مجلة الأحكام على المذهب الحنبلي ولاتزال خطيه.. اشتغل بالقضاء في عهدي الشريف والسعودي.. وعين عضوا بهيئة تدقيق الصكوك..

تخرج الشيخ أحمد القارىء من المدرسة الصولتية وهو في زهرة الشباب



● الشيخ أحمد عبد الله القارىء ●

وعنفوانه.. فشرع يدرس بالمدرسة وبالمسجد الحرام في جميع المواد التي تلقاها لاسيما الفقه الذي تضلع فيه حتى صار حجة يرجع إليه الناس مستفتين فيجيبهم في تواضع ورفق وبشاشة فيقنعون بحكمه وإرشادهم إلى حل مشاكلهم..

وكانت حلقة الشيخ أحمد القارىء في الحرم الشريف حلقة كبيرة يلتف حولها جمع غفير من طلاب العلم.. وكان الشيخ القارىء أصغر طلابه سنا، ولكن طلاقة لسانه وسحر بيانه وحسن لقائه جمعت عليه القلوب وخلدت له سمعة طيبة في التدريس والقضاء ومعاشرة جميع من عرفه واختلط به..

رحم الله الشيخ أحمد القارىء فقد كان درسه في البيوع قبل أن يتولى القضاء وتعرض عليه ألوان من قضايا البيوع وتحايل الناس وغشهم وحرصهم للحصول على المال بشتى الطرق مشروعة أو غير مشروعة مادام في ذلك إشباع لنهمهم..

ولو سنحت له الظروف بالتدريس بعد توليه القضاء للمسنا في شرحه ما فيه عظة وعبرة للتاجر والصانع.. فرحمه الله وأسكنه واسع جناته وأثابه على ماخلده من ذكر حسن وسيرة طيبة..

الشيخ إبراهيم بن محمد بن سعيد بن مبارك الفتة

«**ولد** عام ١٢١٤هـ ـ توفي عام ١٢٩٠هـ»

ولد الشيخ إبراهيم الفتة بمكة المكرمة.. وبعد أن حفظ القرآن شرع في طلب العلم فأخذه من الشيخ صالح إدريس والشيخ عمر عبدالرسول، ولازم السيد عقيل بن عمر العلوي، وانتفع بصحبته وسلك مسالكه، نبغ في الفقه.. فولي قضاء مكة عام ١٢٨٣هـ بأمر الشريف عبدالله بن محمد بن عون.. فحمده الجميع لسعة اطلاعه ودقة أحكامه..

الشيخ أمين بن محمد علي بن سليمان مرداد الحنفي

«**ولد** عام ١٢٧٧هـ ـ توفيى عام ١٣٢٤هـ»

حفظ القرآن وأخذ العلم عن علماء المسجد الحرام..

كان إماما وخطيبا ومدرسا ثم قاضيا ثم عضوا بمجلس التعزيزات الشرعية..

كان الشيخ أمين مرداد معتدل القامة كث اللحية، واسع الاطلاع، جم التواضع هادىء النفس، ملازما للمسجد، مواظبا على أداء الصلوات الخمس في جماعة، لاتجده في المسجد إلا مصليا أو تاليا لكتاب الله أو مدرسا طلابه.. توفي رحمه الله مخلفا أربعة أولاد.. كان رحمه الله يعقد حلقته في الرواق الذي بين باب الباسطية وباب القطبي وكانت دروسه في الفقه الحنفي والتفسير والحديث.

السيد عيدروس بن سالم البار

ولد بمكة المكرمة في شهر صفر ١٢٩٨هـ.. وتوفي ليلة السبت ١٦ محرم ١٣٦٧هـ.. تلقى العلم عن والده وعن المشائخ محمد سعيد بابصيل وصالح بافضل وعمر باجنيد والسيد حسين الحبشي وعبدالرحمن الدهان وأسعد الدهان..

كان السيد عيدروس بن سالم البار عالما زاهدا ورعا.. نشأ رحمه الله في بيئة علمية كريمة، فكان في حديثه تقوى، وفي حركاته تقوى، لايتحرك إلا للعبادة وأداء مافرض عليه إلى جانب أنه كان أمينا عاما لمكتبة الحرم الشريف في عهد الشريف حسين وقد كانت تسمى «كتب خانة».. وله مواقف جليلة في تبصير الناس بأمور دينهم ودنياهم.. كما كان ناصحا أمينا ومحبا لكل من يذهب إليه من علية القوم والشباب ممن يرون في توجيهه ونصحه وتقويمه لما يعرض عليه كل البراعة التي تجعل من يذهب إليه يخرج وكأن هموم الدنيا قد زايلته وانصرفت عنه.. وذلك كله من معطيات ثقافته الدينية التي كانت مصدرا ثرا ليشيع في مجلسه الفقهي والعلمي، وليشيع في نفوس مريديه الرغبة في الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى والتمسك بآداب القرآن الكريم وتوجيهاته، ثم الأخذ بنهج الرسول العظيم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.. وكان رحمه الله يتمتع بكثير من الصفات والمزايا والسجايا التي جعلت الناس تقبل عليه وتأخذ بنصحه ورأيه وعلمه مما كان وسيظل امتدادا لمجالس العلم التي مازالت حتى الآن مستمرة يؤمها القوم للاستزادة والاستفادة من دروسها حيث كان ابنه السيد علي رحمه الله يتصدر مجلس والده، ثم تلاه ابنه الدكتور عبدالله ومازال هذا المجلس مستمرا وسيظل إن شاء الله لأنه مصدر فائدة وثقافة دينية تجمع بين ثوابي الدنيا والآخرة...

ظل السيد عيدروس بن سالم البار ملازما لداره داعيا الله تعالى بحاله ومقاله مترددا بين مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف إلى أن توفاه الله بمكة المكرمة بعد مرض ألزمه الفراش بضعة أشهر.. رحمه الله وطيب ثراه..

السيد أبو بكر بن سالم البار

ولد السيد أبوبكر عام ١٣٠١هـ في بيت آل البار المشهور بالعلم والزهد والتقوى والورع فرباه والده وثقفة ثقافة دينية إلى أن ترعرع ثم ولي أمر تعليمه أخوة الأكبر العالم والورع التقي السيد عيدروس البار كما تلقى التفسير والحديث والفقه عن السيد حسين الحبشي مفتي الشافعية والسيد محمد سعيد بابصيل والشيخ عمر باجنيد، وبعد اختياره أجيز له التدريس بالمسجد الحرام فعقد حلقة دراسية في الرواق الذي بين الباسطية وباب العتيق.. وقد كان السيد أبوبكر يميل إلى العزلة ابتعادا عما يرغب فيه الناس من لغو القول.. لايمل ولا يكل تتوج هامته عمامه عليها سيماء الطهارة والتقوى وتحت إبطه محفظة بها كراريس الدروس التي تلقاها أو يلقيها، يؤدي الصلاة في جماعة فيَدْرُس أو يُدَرِّس ثم يعود إلى منزله في سكينة ووقار.. قضى السيد أبوبكر البار حياته في طلب العلم ونشره وعبادة الله وحده إلى أن شعر بالشيخوخة فلزم بيته منصرفا إلى ذكر الله وعبادته إلى أن توفي في أواخر عام ١٣٨٣هـ.. «انتهى ماجاء في كتاب الشيخ عبدالجبار «سير وتراحم».. وعن روايات لنجله السيد بكري البار نذكر مايلي عندما سألناه عن ذكرياته عن والده الجليل رحمه الله وطيب ثراه.. قال: الشيخ عيسى رواس كان من مشائخه أيضا..

«أ» أول الأعمال التي قام بها السيد أبوبكر بن سالم البار بجانب التدريس في المسجد الحرام التدريس في المدرسة الفخرية لفترة أمتدت حوالي عشر سنوات وكذلك بمدرسة الفلاح عام ١٣٣٥هـ ومكث بها سنة واحدة.

«ب» ثم درس فترة طويلة بالمدرسة الصولتية..

«ج» كان بجانب التدريس يقوم بالإمامة في مسجد الشيخ جعفر ـ وهو المسجد الصغير الذي بجانب مدرسة الفلاح بالشبيكة ـ وكان له فيه درس يلقيه على طلبة العلم بعد العصر.

«د» ثم انتقل إلى الإمامة في مسجد الشيخ جعفر عندما طلب منه صاحب المسجد «الشيخ صديق عطار» ذلك.. وهو الذي كان قائما بجانب بازان الشبيكة.. ويقع

بالدور الأول من الموقع حيث تقع تحته دكاكين.. وظل يؤم الناس حتى عام ١٣٨٠هـ.. وعندما ثقل عليه النزول من منزله في جبل الكعبة إلى المسجد انقطع عن الإمامة..

«هـ» لم ينقطع السيد أبوبكر عن التدريس في منزله حتى وفاته أواخر عام ١٣٨٣هـ سواء كان في منزل جبل الكعبة أولا أو في منزله بجرول خلف مسجد سيدي محمود وهو الذي توفي فيه رحمه الله.

«و» وكان يقوم بمجلس آل البار وهي معروفة بالسبتيه والثلوثية أي يوم الجمعة ليلة السبت ويوم الاثنين ليلة الثلاثاء منذ وفاة أخيه الأكبر السيد عيدروس عام ١٣٦٠هـ..

«ز» ومما يجدر ذكره أن السيد أبو بكر البار قد قام بالدعوة إلى الله خارج الجزيرة العربية في رحلتين:

الأولى كانت قبل عام ١٣٤٨هـ إلى بلاد «الهند» ما يعرف الآن بـ : باكستان ـ سيرلانكا ـ بنجلاديش ـ الهند.

والثانية كانت في عام ١٣٥٢هـ إلى بلاد «جاوا» ما يعرف الآن بـ : اندونيسيا ـ سنغافورا ـ ماليزيا.. و«فطاني» التي تعد من تايلاند.. وقد صحبه في الرحلة الثانية كل من:

ابن أخيه السيد حسين بن عبدالقادر بن سالم البار الذي توفي في شهر ربيع أول ١٤١٣هـ. وصهر آل البار الشيخ محمد زمزمي..

«ح» كان رحمه الله لطيف المعشر.. إذا فرح من أحدهم يناديه «يارحيم الهناء».. وإذا رأى من أحدهم مايكره شرعا أو عرفا يناديه «يارحيم الكُببْ» ـ بضم الكاف.

«ط» كان يقوم قبل الفجر الأول بساعة.. ويوصيه معظم أهالي مكة لإيقاظهم لصلاة الوتر، فكان يخرج من جبل الكعبة ويدور على معظم حواري مكة قبل أن يصل إلى المسجد الحرام يوقظ عامة الناس وخاصتهم ممن أوصوه.. وكان يجهر بقراءة القرآن أثناء سيره من منزله إلى المسجد الحرام وخصوصا بسورة «طه»...

«ى» كان يحب المرح، لكن في حدود الآداب الإسلامية.. فكان مما ينصح به السقائين في مسجد الشيخ صديق عطار حيث يقول لهم «الرسول صلى الله عليه وسلم أمرنا بالتسبيح والتحميد والتكبير ثلاثا وثلاثين مرة بعد كل مفروضة، ولكن

لإخواننا السقائين يكفيهم عشرة عشرة» ـ لأنه من المعروف أن السقاة ما أن يفرغوا من الصلاة حتى يسارعوا على عجل إلى الخرازت التي يستقون منها الماء لتلبية طلبات زبائنهم ـ علما بأن تخريجه هذا له أصل في مسند الإمام أحمد بن حنبل في حديث صحيح رواه سيدنا الإمام على بن أبي طالب رضي الله عنه..

«ك» وأيضا من مُلَحه مع السقائين الذين كانوا يمثلون معظم المأمومين في مسجد الشيخ صديق عطار أنه كان يقول لهم «يارحيم الكُبَب: أليس لك حاجة عند الله.. ألا تعلم أن أفضل أوقات الدعاء هي بعد الصلوات المكتوبة.. قل: اللهم إني أسألك العفو والعافية».. وهذا الدعاء أيضا له أصل في حديث للرسول صلى الله عليه وسلم إلى السيدة عائشة رضى الله عنها..

«ل» كان يوجد أحد السادة من آل باهارون ذوي الصوت الحسن وله قصيدة أثيرة لديه ينشدها في معظم مجالس الخير التي يذهب إليها.. ومطلعها:

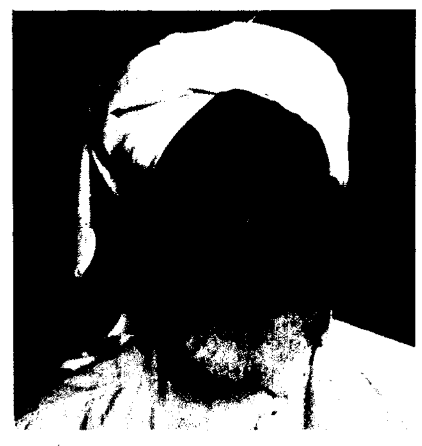
يللي تحبون النبي ،،،،، صلوا عليه ألف مليون

فكان دائما إذا دخل هذا السيد إلى مجالس آل البار يرحب به بـ : «صاحب الألف مليون» وكانت هيئته لاتدل على أنه من أصحاب آلاف الملايين.. والذين لايعلمون قصة هذه القصيدة يستغربون من هذه الدعابة.. فإذا جاء هذا السيد بالقصيدة فهموا سر الدعابة..

السيد علي بن عيدروس بن سالم البار

ولد في عام ١٣٣٣هـ في جبل الكعبة بمكة المكرمة.. وانتقل إلى رحمة الله تعالى يوم ٢١/١١/١٤٠٩هـ بعد أداء صلاة الفجر بالسكتة القلبية، عن عمر يناهز الـ ٦٧ عاما عشت معه وفي ظل رعايته سنوات طويلة.. ركز فيها الكثير من معلوماتي ومفاهيمي ونظرتي في الحياة ومعايشة الناس والصبر على معطياتهم..

أما عن ثقافته العلمية والفقهية وعن نسبه وصلته بآل البيت النبوي الشريف وعن أساتذته ممن استزاد منهم العلم، وفي مقدمتهم وأوائلهم والده الجليل السيد عيدروس بن سالم البار مما ذكرته في هذه الحلقة من حلقات «أهل الحجاز



السيد علي بن عيدروس بن سالم البار

بعبقهم التاريخي» هذه الفذلكات التاريخية سترد في كتاب تحت الطبع أعده الأخ زهير محمد جميل كتبي من خلال معلومات وفرها له أبناؤه الأوفياء.. ثم تفضلوا علي بنسخة منها، وبخط يدهم.. قال لي يوما: أجازني والدي بالتدريس في المسجد الحرام قبل بلوغي العشرين عاما.. وذهبت في مقدمة من رغبوا الإحاطة بي لتدريسهم أصول الفقه.. وفيما كنت منهمكا في إلقاء الدرس الأول لي في المسجد الحرام.. جاءني الشيخ عباس عبدالجبار.. وقد كان مفتشا لرئاسة القضاء التي كان رئيسها آنذاك الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ.. فهنأني على أنني غدوت من المدرسين في المسجد الحرام ممن لايحظى بذلك كل من «هَبَّ ودبّ»..

ويستطرد السيد قائلا:

وفي اليوم التالي ذهبت إلى مكتب الشيخ عباس الذي تلطف رحمه الله وأوصلني إلى مكتب فضيلة الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ فرحب بي وأثنى على آل البار وعلى ثقافتهم الدينية والفقهية.. مما سر خاطري، فشكرته على ذلك..

ثم طلب مني تفسير قول الله عز شأنه وجل جلاله: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم «**الرحمن على العرش استوى**».. فسميت بالرحمن الرحيم، وأثنيت بالصلاة على رسول رب العالمين.. ثم أخذت في شرح وإيضاح وتفسير الآية الكريمة.. فحمد لي ذلك وأثنى علي، ثم أمر الشيخ عباس عبدالجبار بإعطائي التصريح الذي يخول لي التدريس في المسجد الحرام..

ولقد فاتني أن أسأله عما إذا كان قد استمرت حلقاته.. وكم سنة قضاها.. كما فاتني مما آسف عليه الآن أنني لم أسأله عن سيرة حياته الحافلة بالعطاء.. وعن الأدوار التي مرت به والمواقف التي شارك فيها برأي أو نصح أو توصية أو حل لقضية ذات إشكالات لها دلالتها.. وإن كنت قد كتبت عن شيء كهذا في جريدة الندوة العدد «٩٢٤٠» بتاريخ ٢٢/١١/١٤٠٩هـ.. ومما قلت:

- رحمك الله .. وعوضنا فيك خيرا.. إذ كنا نفزع إلى رجاحة عقلك عندما تدلهم بنا الأمور كبشر نتعرض لما أراد الله في عباده.. فقد كنت تهوّن علينا مشاكلنا بادىء ذي بدء.. ثم تأخذ في نقاشنا حتى إذا ما استبان لك الأمر واتضح لك الإشكال ثم كانت لك فراستك بما تحمله من الصفاء واستهداف النصح والتوجيه مايجعل نفوسنا وقد زايلها الخوف أو الرعدة أو التوقع السيىء.. رحمك الله.. فقد كنت أرسل إليك أناسا قد اختلفت بينهم المقاصد والاستهدافات فيما بينهم في أحوال الدنيا وإشكالاتها.. فتستقبلهم.. ثم أسمع منهم ما أثلج صدورهم.. وأراح ضمائرهم وهذا هو المقصود والمبتغى.. رحمك الله.. إذ ساعدتني وأرشدتني ووجهتني في كثير مما كنت أكتبه لأنشره في الصحف وآخرها مايتعلق بكتابي (الأمن الذي نعيشه) رحمك الله فإنني لا أنسى لقائي بك آخر لقاء وقد قلت لي إن كتابك ستسعد به ياحسن.. فأبشر لأنك سجلت الحقائق التي نعيشها.. ثم رفعت يديك داعيا ومبتهلا إلى المولى عز وجل بأن يحفظ الله لنا الأمن الذي نعيشه وأن لايغير حالنا إلا بأحسن حال»..

غير أن مجالس العلم التي كانت، وستظل معروفة في جبل الكعبة والتي انتقلت إلى جرول أمام مدارس الفلاح الجديدة الحالية تعتبر من المجالس التي أثرت وأعطت وأنارت الطريق لكل من ارتاد هذه المجالس الكريمة المعطاء، والتي أستمرت في عهده المديد حتى وافاه الأجل المحتوم.. غير أن أبناءه ظلوا في هذه المجالس المفتوحة.. فقام إبنه الدكتور عبدالله بن علي عيدروس البار بإلقاء دروس التفسير والسيرة النبوية والأمور الفقهية التي يرهف لها الحضور أسماعهم بكل حرص وانتباه..

وسألته رحمه الله: من يخلفك ياسيدي الكريم بعد عمر طويل؟..

قال أبنائي كلهم فرسان.. ورفع يده إلى السماء وسأل الله الكريم أن يديم لهذا المجلس العلمي زخمه ونفحات عطره..

رحمه الله رحمة واسعة.. وأدام لنا أولاده البررة الكرام إذ هم ملء البصر والفؤاد وآل البار عموما.

الشيخ جعفر بن بكر بن جعفر لبني

ولد بمكة عام ١٢٨٢هـ ـ توفي عام ١٣٤٠هـ» تلقى علومه من علماء المسجد الحرام في عهده وبرع في الفقه الحنفي وتصدر للتدريس في المسجد الحرام.. ومن طلابه الشيخ عرابي سجيني والشيخ جميل إسماعيل والشيخ صدقة عبدالجبار..

وبدأ عمله في المناصب في العهد العثماني فكان كاتبا ثم رئيسا للكُتّاب ثم نائب قاض.. إلى أن عزل عن إمارة مكة الشريف على ووليها الشريف حسين، فسافر رحمه الله إلى مصر ثم إلى استطنبول ومنها إلى الشام فظل فيها نصف سنة ثم عاد إلى المدينة المنورة فتولى فيها القضاء ثم نقل إلى القضاء بخيبر ثم عاد إلى مكة المكرمة فولاه الحسين قضاء الليث فظل فيها ثلاث سنوات ثم رجع إلى مكة فاشتغل بالمحكمة نائب قاض وظل في عمله إلى أن توفي في ٢ شعبان ١٣٤٠هـ عن عمر يناهز الستين إثر سقوطه مغشيا عليه عند باب جياد داخل المسجد الحرام بعد صلاة العصر فحمل إلى داره ببرحة الطفران بجياد وقد زاره الشريف حسين بن علي مستفسرا عن صحته، ثم أرسل أولاده الشريف عبدالله وفيصل لتشييع جنازته رحمه الله.

مؤلفاته

«١» تاريخ عوائل مكة.

«٢» العقود المتلألئة، شرح منظومة ابن الحشنة في المعاني والبيان والبديع..

«٣» رسالة دفع الشدة في جواز تأخير الأفاقي الإحرام إلى جدة..

«٤» شرح نظم الكنز لابن الفصيح بخط المؤلف في الفقه الحنفي.. وكتب أخرى

الشيخ سالم بن عبدالحميد شفي

ولد عام ١٣٠٦هـ بمكـة المكرمة.. تخرج في المدرسة الصولتية، ثم درس بالمسجد الحرام والمدرسة الصولتية والمدرسة الراقية ومدرسة الفلاح..

عين رئيسا للمحكمة المستعجلة في عهد الشريف حسين.. وفي العهد السعودي عين قاضيا بالمحكمة الشرعية الكبرى ثم وكيلا لرئيسها..

توفي عام ١٣٧٣هـ وعمره ٦٧ عاما..

كان رحمه الله يدرس في الحصوة التي أمام باب المحكمة وكان معظم طلابه من شباب ذلك العهد إذ لايوجد في عهدهم وظائف وسيارات ومباريات تشغلهم عن طلب العلم والتفرغ لعبادة الله..

الشيخ سليمان مراد

ولد عام ١٢٩٥هـ ـ توفي بالطائف عام ١٣٤٣هـ» تخـرج في المـدرسـة الصـولتية.. تولى القضاء بينبع ثم الطائف.. كان الشيخ سليمان مراد طويل القـامة نحيف البنية كثيف اللحية هادىء النفس رابط الجأش طيب القلب.. تخرج من المدرسة الصولتية وهو في عنفوان شبابه وزهرته، ولكن تدينه وورعة كان خير حصن له من نزغ الشباب وطيشه، كان رحمه الله يسكن في باب العمرة فلا يفوته فرض في الجماعة.. كان رحمه الله ينزل إلى المسجد الحرام في الثلث الأخير فلايزال يطوف ويتلو كتاب الله إلى أن يطلع الفجر الصادق ويدوي المسجد بالأذان ثم تقام الصلاة فيؤديها في خشوع وخضوع راجيا الله مغفرته، لا نفاق ولا رياء فيها..

وقد لمس الشريف الحسين في الشيخ سليمان نفسا مطمئنة، سداها الورع ولحمتها تقوى الله وخشيته، فرشحه للقضاء بينبع فامتنع، ولكن الحسين أصرّر على تنفيذ أمره.. فلم ير فضيلة الشيخ رحمه الله خلاصا من تنفيذ الأمر فسافر إلى ينبـع فعدل وأنصف واجتمعت القلوب على حبه والثناء عليه.. ثم نقل إلى

القضاء بالطائف.. وهكذا فقد المسجد الحرام سراجا مضيئا من علمائه الأتقياء..

كان رحمه الله يدرس في حصوة باب العمرة، وكان يدرس الفقه الحنفي واللغة العربية.. وكانت طريقة تدريسه تجمع في أسلوبها بين الطريقة القديمة والحديثة بالنسبة لعهده..

الشيخ علي بن صديق كمال

«**ولد** عام ١٢٥٣هـ ـ توفي عام ١٣٣٥هـ»

ولد الشيخ علي بن صديق بن عبد الرحمن كمال بمكة المكرمة ونشأ فيها، وأخذ العلم عن والده ولازم كثيرا من علماء الهند الذين يفدون إلى مكة لأداء فريضة الحج.. ثم لازم السيد أحمد دحلان والشيخ ياسين الشامي والشيخ رحمت الله مؤسس المدرسة الصولتية وأجازوه بالتدريس في المسجد الحرام، ثم تولى القضاء بمحكمة جدة.. ويقول شيوخ هذا الزمن الذين استمعوا إلى درسه واجتمعوا به إنه كان مشهورا بالقناعة والعفة والتواضع للناس وحب الفقراء والاجتماع بهم وإرشادهم وحل النزاع الذي يحدث غالبا بينهم..

الشيخ عبدالله بن بكر كمال

«**ولد** عام ١٢٨٣هـ ـ توفي عام ١٣٤١هـ»

ولد بالطائف، وبعد فطامه أرسله والده إلى البادية فنشأ نشأة عربية وأتقن فن الرماية ثم عاد إلى الطائف وشرع في طلب العلم على جهابذة العلماء.. فأخذ الحديث عن الشيخ أحمد النجار، وأخذ اللغة العربية عن الشيخ شعيب وأخذ الفقه الحنفي عن الشيخ عبد القادر سبحي والشيخ عبد الحفيظ قاري.. وبعد أن أجيز له التدريس، عقد حلقته بمسجد ابن عباس في شتى العلوم.

ومن طلابه الشيخ عبد الله بن عبد الرحيم قاضي والشيخ صبحي بن طه

الحلبي والشيخ محمد صالح قزاز..

تولى رحمه الله قضاء الطائف عام ١٣٢٧هـ ثم استقال عام ١٣٤٠هـ وسافر إلى مكة المكرمة وعين عضوا بلجنة المعارف واستمر بها إلى أن توفي بمكة المكرمة عام ١٣٤١هـ..

الشيخ عبدالله بن العلامة الشيخ أحمد أبو الخير

ولد بمكة المكرمة عام ١٢٨٥هـ.. تلقى العلم عن والده وعن الشيخ رحمت الله وغيرهم.. تولى القضاء بمكة المكرمة ودرّس بالمسجد الحرام.. ومن تلاميذه الشيخ عرابي سجيني.. توفي عام ١٣٤٣هـ..

كان رحمه الله طويل القامة، نحيف البنية دمث الأخلاق فيه تواضع، أحدودب منه ظهره، وفيه طهر نفس وطيب قلب يشهد به طلابه، وهو إلى ذلك لايترك درسه، محافظ على الصلاة في جماعة رغم قيامه بالقضاء الذي أسند إليه..

وقد كان رحمه الله يعقد حلقة درسه في رواق باب الصفا..

الشيخ عرابي بن محمد صالح سجيني

ولد الشيخ عرابي سجيني بمكة المكرمة عام ١٢٩٦هـ.. وتوفي رحمه الله في ١٢ محرم ١٣٧٩هـ.. بعد أن تلقى مبادىء القراءة وحفظ القرآن وتجويده شرع في طلب العلم فأخذه عن العلامة الشيخ عبدالله أبو الخير والعلامة الشيخ حسن كاظم والشيخ جعفر لبني.. فلازمهم وتفقه على أيديهم ونبغ في الفرائض وأصبح مرجعا لحل قضايا الوارثين.. وأجازه مشائخه إجازة عامة..

ولما أسست مدرسة الفلاح وعين السيد محمد بن حامد مديرا لها وعقد حلقته بباب الصفا أسرع الشيخ عرابي سجيني إلى تلقى العلم وانتهال المعرفة عن الشيـخ محمد حامد فأخذ عنه اللغة العربية والتفسير والحديث فازداد علما



● الشيخ عرابي بن محمد صالح سجيني ●

وتقوى وتمسكا بالهدي النبوي.. ثم قام برحلة إلى مصر ومنها إلى تركيا.. وصادف أن أعلنت الثورة العربية بعد عودته من رحلته فاشتغل بالمحاماة وأضحت داره مرجعا يقصدها ذووا القضايا فيحلها بالتوفيق والإصلاح في هدوء ووقار..

واعتاد رحمه الله الاجتماع بأصدقائه في الأسبوع مرة، ولعلها مايطلق عليها «الثلوثية» التي أحيا اسمها الابن محمد سعيد طيب.. ولكن الشريف حسين توجس شرا من هذا الاجتماع فبث عيونه على المجتمعين وتربص بالشيخ عرابي فمنعه من المحاماة ومازال يضيق عليه حتى سجنه.. فصبر على بلائه واستسلم لقضاء الله وقدره حتى أفرج عنه فلزم بيته وعكف على المطالعة، والاستزادة من العلم..

ولما دخل جلالة الملك الراحل الحجاز نشط الشيخ عرابي من عقاله فسطع

نجمه وبرزت مواهبة فكلفه فضيلة العلامة الشيخ عبدالله بن بليهد رحمه الله بتشكيل القضاء وتوسيع أعماله، فكان موفقا في تنفيذ ما أسند إليه بسهولة ويسر..

ثم طلب منه الشيخ حافظ وهبة تأسيس إدارة كاتب عدل فوفق في تكوينها وإسناد الوظائف إلى الأكفاء فكان موضع تقدير الحكومة وإعجابها..

وفي ١٥ شعبان ١٣٤٤هـ عين الشيخ عرابي أمينا لبيت مال المسلمين.. فقام بمهمته بأمانة وإخلاص ونزاهة.. فصدر الأمر بتعيينه نائبا لرئيس المحكمة الكبرى في ٢٢ صفر ١٣٤٦هـ وفي ١ ربيع أول ١٣٥١هـ نقل لرئاسة كتابة العدل، فظل في عمله زهاء عشر سنوات، ثم ضمت إليه رئاسة المحكمة الكبرى مدة كان خلالها ملء السمع والبصر.. وفي عام ١٣٧١هـ صدر الأمر الكريم بنقل الشيخ عرابي إلى رئاسة المحكمة الكبرى.. ولكنه اعتذر لكبر سنة، وعدم استطاعته القيام بمهام أعمال القضاء.. فصدر الأمر بتخيير الشيخ عرابي بين القضاء أو البقاء في رئاسة كتابة العدل أو إحالته على المعاش... فاختار رحمه الله إحالته على المعاش.. ولكن الأمير فيصل رأى أن إحالة الشيخ عرابي إلى المعاش خسارة على كتابة العدل لعدم وجود من يقوم بأعمالها إذ ذاك.. فأمر ببقائه في رئاسة كتابة العدل ثم أسندت إليه وظيفة نائب رئيس مجلس الأوقاف الأعلى.. فقام بالوظيفتين خير قيام..

والشيخ عرابي سجيني بجانب معلوماته وتجاربه وخبرته ـ وبالذات عن أهل الحجاز وأرضها ـ وحنكته كان إلى آخر أيامه قوي الذاكرة بحيث يذكّر الشخص المراجع أن هذا المنزل اشتراه فلان منذ أربعين عاما ثم باعه عام كذا وحدث بينه وبين فلان في الحدود.. وكان رحمه الله إلى أخر أيامه رغم اعتلال صحته يستقبل أصحاب القضايا ويحل مشاكلهم ويصلح بين الخصوم قبل وصولهم إلى الحكام ممتلكا أعصابه مغتفرا زلاتهم.. لكأني به الأن وهو يتحدث رحمه الله لبعض الناس: بأن البيوت بيوتكم.. والدكاكين التي تحتها دكاكينكم.. والأحوشة التي بجواركم هي ملك لكم كما نعرف منذ سنين وسنين.. ولم نسمع عن اعتراضات صدرت من أخرين.. ائتوني بشهود يؤكدون لكم ذلك لنعمل لكم الصك اللازم..

كان ذلك عند قيام أو صدور أوامر جلالة الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله وطيب ثراه بأول توسعــة للحرم المكي الشريف.. كان الناس في الماضي الجميل والهادىء من «الصخب الحالي» لايعرفون في التعامل مع بعضهم البعض إلا الصدق والأمانة، وكان الناس في ذلك التاريخ يؤرخون ولادة أبنائهم بالحوادث وبالأحداث.. أنت ياولدي جيت بعد تولي الشريف فلان الفلاني بشهرين.. فلا شهادة ميلاد تعطى.. وفلان انتقل إلى رحمة الله يوم حادث الحريقة الكبيرة في حارة كذا.. وكانوا يعتمدون في البيع والشراء على أمانة الكلمة انطلاقا من النوايا الحسنــة المعـطاءة، وكان هذا أيضا في كل من مدن المملكة في غربها وشرقها ووسطها وجنوبها وحتى المدن التي كانت تقع في الطريق التجاري بين الحجاز والشام كالقصيم وتبوك.. فليس هناك شهادات ميلاد أو صكوك في الغالب ولعل أقرب مثل «متداول العبارة» وكأنه الصك «الوثيقة» هذا إن وجدت أو أوصى بمن يكتبهــا في الحال ثم يوضع التاريخ على شهادة الشهود الذين مازال بعضهم يرويها من الذاكرة وبالعنعنات إياها.. والمحاكم تأخذ بها وتحكم بما يرد فيها.. ولعل معظم الأراضي التي يملكها المواطنون في هذا الكيان كله إنما تملكوها بمثل هذه الوثائق وعلى شهادة الشهود..

تداعت كل هذه الحالات وقد كان العم عرابي سجيني ممن يعرف أو يسمع من أهل زمانه ونقلا عن آبائهم وأجدادهم بأن البيت في محلة كذا بناه فلان وورثه فلان وفلانة وبأعدادهم ماشاء الله سواء أكانت ملكا أو وقفا.. وكانت للأوقاف حرمتها لاتمس لأن للواقف شروطه ومراميه ومقاصده وبنفس قوة التملك الذي لا نزاع فيه..

وقد استمع جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله واطلع على شكاوى كثيرين ممن تضرروا في شؤون عقــارات خاصــة بهم فأحــالهم إلى المحاكم الشرعية وكان قضاتها من أهل الحجاز.. وقال جلالته: بينكم وبين خصومكم الشرع مايحكم به نافذ.. وقد صدق وعده ونفذ ماكان يحكم به القضاة..



الشيخ عباس بن جعفر بن صديق

ولد عام ١٢٤١هـ، وحفظ القرآن على يد عمه العلامة الشيخ يحيى، كما حفظ من الكنز وغيره من المتون ثم شرع في طلب العلم فقرأ الفقه الحنفي على يد والده وقرأ النحو على يد الشيخ خليل طيبة، وقرأ الكتب الستة على يد السيد أحمد دحلان كما أخذ عنه علم البديع والبيان والمنطق والفرائض والتفسير وأصول الحديث.. ثم أخذ عن الشيخ صديق كمال الفقه وحضر دورس السيد محمد حسين كتبي.. ولما نبغ في العلوم أجازة العلماء بالتدريس في المسجد الحرام فعقد حلقته عام ١٢٦٩هـ..

كان رحمه الله كثير الطواف وقراءة القرآن وفصل قضايا الناس ومشاكلهم.. ولما غضب أمير مكة الشريف عون الرفيق على مفتي الأحناف العلامة الشيخ عبدالرحمن بن صديق وعزله عن منصب الإفتاء عين الشيخ عباس بن صديق بدلا عنه، فاعتذر ولكن عون الرفيق أصر على تعيينه فقام بواجب الإفتاء عام ١٣١٠هـ ومكث عامين ثم أمر الشريف عون بتعيين ابنه عبدالله بن عباس بن صديق في منصب الإفتاء على أن يكون والده والعلامة الشيخ أحمد أبو الخير مرجعا له.. فكان الشيخ عبدالله بن عباس بن صديق لايصدر أي فتوى إلا بعد عرضها عليهما وأخذ موافقتهما عليها..

توفي الشيخ عباس بمكة يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول عام ١٣٢٠هـ.

الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد عجيمي

ولد الشيخ عبدالرحمن عجيمي بمكة المكرمة عام ١٢٥٣هـ ونشأ بها وحفظ القرآن وكثيرا من المتون.. ثم شرع في طلب العلم، فأخذ التفسير والحديث عن الشيخ جمال بن عبدالله الحنفي مفتي مكة وشيخ علمائها، كما قرأ على يد الشيخ رحمت الله الفقه والمعاني والبيان والتفسير، وعلى يد السيد أحمد دحلان عدة فنون وعلى يد الشيخ عبدالرحمن سراج التفسير والفقه، وقرأ أيضا على يد الشيخ

عبد الرحمن جمال.. وقد أجازه جميع مشائخه فتصدر للتدريس بالمسجد الحرام ونشر العلم، ثم عينه عبد المطلب في قضاء الطائف ثم أمينا لفتوى الشيخ عبد الرحمن سراج.. وكان رحمه الله من كبار الخطباء والأئمة وكان يهتم بشؤونهم وزيادة رواتبهم حتى أنه سافر إلى الأستانة لمقابلة السلطان فخطب في مسجده يوم الجمعة خطبة كان لها أثرها في نفوس المصلين فأكرمه السلطان وحقق رغبته.. توفي بمكة المكرمة ليلة الجمعة في محرم ١٣٠١هـ رحمه الله وأسكنه واسع جناته..

الشيخ عبدالله حداوي



● الشيخ عبد الله حداوي ●

«**ولد** عام ١٣١٢هـ - توفي ١٣٧٠هـ»

تخرج في المدرسة الصولتية فدرس فيها وبالمسجد الحرام.. تقلب في مناصب القضاء في العهدين الهاشمي والسعودي.. كان رحمه الله معتدل القامة ممتلىء الجسم يبدو نشاطه وشبابه في إلقائه واستماعه لكل سؤال يوجه، والإجابة عليه في أدب ووقار وسعة صدر وغزارة علم ودماثة خلق.. وكان رحمه الله مدرسا فصيحا مخلصا لطلابه.. وكان قاضيا تكسوه هيبة العلم ووقاره.

العلامة الشيخ محمد صالح كمال

ولد بمكة المكرمة في ربيع الأول عام ١٢٦٣هـ ونشأ في بيت أسرته بيت العلم والفضل، فحفظ القرآن وجوده وصلى به التراويح.. ثم شرع في طلب العلم فحفظ كثيرا من المتون عن والده، ثم لازم الشيخ عبدالقادر خوقير فتفقه عليه وقرأ على يده الدر المختار بحواشي المحقق ابن عابدين، كما أخذ التفسير والحديث وعلوم اللغة عن السيد أحمد دحلان وأجازه بسائر مروياته، ثم تلقى علوم الشريعة عن الشيخ رحمت الله مؤسس المدرسة الصولتية، وأخذ النحو والمعاني والبيان والعروض عن العلامة السيد عمر الشامي البقاعي وانتفع به.

ولما تفوق في العلوم أجيز له التدريس بالمسجد الحرام، فعقد حلقته في حصوة باب النبي فذاع صيته وتناقلت الألسن غزارة علمه وورعة وتقواه وحبه للخير..

وفي عام ١٢٩٧هـ تولى القضاء بجدة فظل عامين ثم اعتذر عن الإقامة بجدة لتشوقه إلى المسجد الحرام، فرجع إلى مكة وأخذ ينشر العلم.. وكان أمير مكة إذ ذاك الشريف عبدالمطلب بن غالب يقدر الشيخ محمد صالح كمال ويجله ويستشيره فيما يعرض عليه من المشكلات.. ولما توفي الشريف غسّله الشيخ محمد صالح كمال وكفنه تنفيذا لوصيته.. ولما ولي إمارة مكة الشريف عون قربه منه وصار يستضيء برأيه ثم ولاه الإفتاء والإمامة والخطبة، وكان قضاة مكة يعينون من أستانبول، ولكن في عام ١٣٠٥هـ توفي نائب المحكمة الحاج ضياء الدين بن يوسف واختير الشيخ محمد صالح كمال نائبا لمحكمة مكة المكرمة فقام بجميع الوظائف التي أسندت إليه في إخلاص وأمانة، وكان موضع ثقة أمير مكة وواليها توفي رحمه الله في عام ١٣٣٢هـ وحضر جنازته العلماء والوجهاء وكافة الطبقات.. وكان الشيخ سليمان حسب الله يصلي عند الملتزم.. فلما شاهد جنازة الشيخ محمد صالح كمال قال «اليوم مات فقه أبي حنيفة».



السيد محمد بن عبدالرحمن المرزوقي



● السيد محمد بن عبدالرحمن المرزوقي ●

ولد بمكة المكرمة عام ١٢٨٤هـ، استظهر القرآن وصلى به التراويح.. أخذ العلم عن السيد محمد صالح كتبي وعن الشيخ صالح كمال والسيد بكري شطا والشيخ عبدالحق ألاه أبادي.. وأجيز بالتدريس في المسجد الحرام..

وتولى القضاء في العهد العثماني بمكة وكان عضوا بمحكمة التعزيرات وعضو بإدارة عين زبيدة وعضوا بهيئة التمييز..

وفي العهد الهاشمي عين عضوا بهيئة المعارف.. وفي العهد السعودي عين رئيسا للمحكمة الكبرى ورئيسا للمجلس الأعلى الاستشاري وعضوا بهيئة رئاسة القضاة ووكيلا لرئيس القضاة عند غيابه.. كما اشتغل السيد محمد المرزوقي بالقضاء في المعهد العثماني والهاشمي والسعودي وكان في جميع

العهود موفقا في أحكامه ويقدره الولاة ويحبه الشعب لما اشتهر به من حزم في رحمة، وعدل في تقوى، وتحري الحق، وتنفيذ الحكم الشرعي دون هوادة أو محاباة لأحد..

كان رحمه الله يعقد حلقة درسه بالرواق الذي بين باب القطبي وباب الباسطية، وكانت حلقة درسه مكتظة بكبار طلاب العلم ورواد المعرفة..

توفي في اليوم الخامس والعشرين من شهر صفر ١٣٦٥هـ، وشيعت جنازته بحفل رسمي مهيب وجمع غفير.. رحمه الله وأسكنه واسع جناته.

الشيخ محمد على بن عبدالرحمن سراج



● الشيخ محمد علي بن عبدالرحمن سراج ●

ولد الشيخ محمد سراج بالطائف عام ١٢٩٧هـ ونشأ في بيت علم وبين مكتبة والده الزاخرة بشتى الفنون فحفظ القرآن ثم شرع في حفظ متون العلم فاستظهر

الألفية لابن مالك، والجوهر المكنون في البلاغة، والسهم في المنطق، والرحبية في الفرائض، ثم أولاه والده العلامة الشيخ عبدالرحمن عنايته فشرح له ماغمض من المتون، ثم شرع في طلب العلم على يد تلميذ والده الشيخ أحمد نجار فأخذ عنه النحو والصرف والبلاغة كما أخذ عن الشيخ شعيب الدكاني المغربي عدة فنون ولازمه مدة إقامته بالطائف ثم قدم إلى مكة المكرمة فتولى الإمامة وخطبة الجمعة بالمسجد الحرام في المعهد العثماني.. وكان رحمه الله مثال الورع والزهد في الدنيا وزخارفها، جم التواضع طيب السيرة.. وفي العهد السعودي تولى القضاء بالطائف فكان موفقا في أحكامه محبوبا بين جميع الطبقات، لم ترفع ضده شكاية.. إلى أن نقل إلى الظفير فعين فيها قاضيا فاشتهر بالعدل والتوفيق بين الأخصام، ثم نقل عضوا برئاسة القضاة فقام بواجبه خير قيام إلى أن شعر بالشيخوخة فاستقال..

توفي رحمه الله عام ١٣٧٧هـ..

فضيلة السيد محمد عبدالباري رضوان

آل رضوان من المدينة المنورة ينتسبون إلى جدهم العلامة رضوان وهم من بيت علم وصلاح وتقى.. ولد السيد محمد عبدالباري بالمدينة المنورة عام ١٢٩٥هـ فرباه والده السيد محمد أمين رضوان تربية علمية على المحافظة على الصلاة وحضور مجالس أهل العلم والفضل.. وبعد أن حفظه القرآن الكريم شرع في تدريسه علوم الدين واللغة فقرأ عليه الكتب الستة وموطأ مالك وجملة من كتب الفقه والتفسير والأصول فأجازه بمروياته..

ثم طلب العلم على يد السيد حسين الحبشي محمد علوي وسمع عنه المسلسل بالأولية كما قرأ عليه أوليات العجلونية وسمع منه غالب كتاب الشفاء للقاضي عياض وأجازه بجميع مرورياته من منقول ومعقول وفروع وأصول.. كما أخذ العلم عن العلامة الشيخ محمد سليمان حسب الله وحضر جميع دروسه التي كان يلقيها بالمدينة المنورة في كل سنة.. كما أجازه بجميع مروياته الشيخ عبدالله

السكري الركابي وكان يلقي دروسه في الفقه الشافعي والحديث في المسجد النبوي.

وهكذا قضى السيد محمد عبدالباري رضوان في طلب العلم وإلقاء الدروس النافعة ومجالسة العلماء ويقول الذين عرفوه واختلطوا به إنه كان رحمه الله قوي الذاكرة شديد الفراسة لم ير شخصاً ونسيه ولو بعد عدة سنوات.. وكان إلى جانب ذلك محبا للخير وداعيا إليه ومرشدا إلى طريق الفضيلة منفرا عن مزالق الرذيلة.. يحب العلماء ومجالستهم في أدب وسكينة ووقار.

مكث السيد عبدالباري في المدينة المنورة إلى أن أعلنت الثورة العربية عام ١٣٣٤هـ وحوصرت المدينة المنورة وأمر الأهالي بالهجرة إلى الشام شق عليه مفارقة المدينة فخرج إلى وادي الصفراء «قرية بين المدينة وبدر» وذلك في ٢٧ رجب ١٣٣٤هـ وكله أمل ورجاء في العودة إلى وطنه دار الهجرة.. ولما طالت الحرب واشتدت وطأتها وكان وادي الصفراء وبيئا فضل الرحيل مع أهله وعائلته إلى مكة المكرمة فوصلها في رمضان عام ١٣٣٥هـ فحمد الله وشكره على قضائه وقدره واتجه إلى عبادة الله وتربية أولاده وتوجيه أسرته إلى مكارم الأخلاق وسبل السعادة..

في عام ١٣٣٧هـ تلقى دعوه من طلابه في الهند فسافر إليها ورجع في عامه.. ثم رجع مرة أخرى عام ١٣٤٠هـ بين حفاوة محبيه وتقديرهم وتكريمهم.. وفي عام ١٣٤٦هـ اختير عضوا برئاسة القضاة فاعتذر وسافر إلى الهند مرة أخرى هربا من توليه منصبا يصرفه عن عبادة الله.. ثم عاد إلى مكة فلازم المسجد والطواف.. وفي عام ١٣٥١هـ توجه إلى المدينة المنورة مع أسرته لزيارة مسجد رسول الله صلى عليه وسلم وصلة قرابته والاستفسار عن صحتهم فقوبل بحفاوة عظيمة من معارفه وأصدقائه.. ثم رجع إلى مكة المكرمة فعكف على عبادة الله والتقرب إليه بتلاوة القرآن والصلاة والصيام والحج والذكر في كل مناسبة..

وفي عام ١٣٥٨هـ حج السيد عبدالباري مع أسرته الكريمة وكانت الوقفة يوم الجمعة، وبعد إفاضته شعر بنوبة مرضه الصدري الذي لازمه مدة من عمره

فكان يتجلد ويصبر ويسأل الله التوبة.. لكن النوبة اشتدت عليه في ليلة الخميس ١٥ ذي الحجة ١٣٥٨هـ وأحس بلقاء ربه فحمد الله واستغفره إلى أن فاضت روحه وشيعت جنازته من أهل مكة المكرمة ومن قدموا للحج من المدينة المنورة فرحمه الله وأسكنه فسيح جناته..

الشيخ عبدالله بن حميد

هو الشيخ عبدالله بن العلامة علي بن محمد بن عبدالله بن علي بن عثمان ابن حميد مفتي الحنابلة بمكة المكرمة..

ولد رحمة الله في مدينة عنيزة بالقصيم عام ١٢٩٠هـ وقدم مع والده إلى مكة المكرمة في بضع سنين من عمره فأخذ التفسير والحديث عن الشيخ شعيب الدكالي المغربي، كما أخذ الفقه والتوحيد عن الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى.. ثم توجه إلى المدينة المنورة فلازم الشيخ عبدالله القدومي فتفقه على يده وبعد سنة أقامها في المدينة رجع إلى مكة فواصل دراسته وأكمل علومه العربية على يد الشيخ محمد سعيد بابصيل والشيخ عبدالوهاب الأنصاري ثم قام برحلة إلى عنيزة محتملا مشاق السفر البري حيث لاتوجد طائرات ولاسيارات، وما كان سفره لنيل شهادة وإنما لمواصلة دراسته والتزود من العلم فأخذه عن الشيخ صالح العثمان قاضي عنيزة والشيخ عبدالكريم الشبل.. ثم عاد إلى مكة المكرمة فعقد حلقة درسه في رواق باب الزيادة..

وفي عام ١٣٢٦هـ تولى الإفتاء وإمامة المقام الحنبلي فظل رحمه الله في منصب الإفتاء بجانب التدريس والإمامة إلى أول عهد الحكومة السعودية..
توفي رحمه الله في ٢١ ذي الحجة عام ١٣٤٦هـ..



سماحة الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ

ولد رحمه الله في الرياض عام ١٢٨٦هـ فحفظ القرآن الكريم وجوده علي يد الشيخ على بن داود بالدرعية، ثم شرع في طلب العلم فأخذه عن والده الشيخ حسن ثم عن الشيخ سعد بن حمد بن عتيق وعن الشيخ عبدالله بن عبداللطيف والشيخ محمد بن محمد والشيخ إسحاق بن عبدالرحمن.. وكان منذ نشأته قائما بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولما كانت هذه المهمة تشق على بعض الناس فقد أوذي في سبيلها إذ ضربه أحد عبيد آل رشيد بسيف فسقط مغشيا عليه، ولكن الله سلم وكان بعض المجرمين يهددونه بوضع مشط الرصاص على بابه.. فلم يثنه تهديد ولا وعيد عن مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. كان رحمه الله ملازما للإمام عبدالرحمن بن فيصل والد جلالة الملك عبدالعزيز رحمهم الله جميعا، فكان يصلي به الصلوات الخمس والجمعة والتراويح والقيام.. ثم إن جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله بحث بين رجال الدين عمن يقوم بدعوة فيصل الدويش وقبائله وإرشادهم وتعليمهم، فوقع على سماحة الشيخ عبدالله بن حسن، فطلبه من والده.. فأبى.. فألح عليه وشرح له رغبته في المهمة التي سيسندها إليه.. فأجاب طلبه وعين أخاه الشيخ عمر بن حسن بدله لدى الإمام عبدالرحمن ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقوم بملاحظة المساجد واختيار أئمتها وتوزيع الكتب المطبوعة على نفقة جلالة الملك على المستحقين من طلبة العلم.. فقام بأعباء ما أسند إليه من الوظائف بهمة ونشاط وإخلاص لاتأخذه في الله لومة لائم لا يحابي ولايجامل في حد من حدود الله وهو إلى ذلك رقيق القلب لايتسرع في الحكم وإنزال العقاب على شخص إلا بعد التثبت.. أذكر أنه بلغه مره أن طالبا بالبعثات فاه بكلمة يشم منها رائحة الإلحاد والزيغ فثارت ثائرته وغضب، فطلب الطالب للتحقيق معه.. فلما حضر بين يديه وثبت لديه صغر سنه وجهله بما نطق بشَّ في وجهه ونصحه وحذره عاقبة مانطق به وعفا عنه.. وكم من كاتب زلَّ قلمه فنشر ما لا يجيزه الدين فأحضره وأستتابه وحذره وعفا عنه.. وقد قام بواجباته رحمه الله خير قيام إلى أن شعر بالشيخوخة وضعف القوى فاستصدر أمرا بقيام ابنه

عبدالعزيز بدراسة الأوراق التي تعرض عليه والنظر فيها وإجراء اللازم نحوها بعد عرض خلاصتها عليه وأخذ رأي علماء الرئاسة فيها واتفاقهم في الحكم فيها، ولم تشغله واجباته عن المحافظة على الجماعة والقيام إلى آخر عهده وكان رحمه الله يلازم الصف الأول يحضر قبل الصلاة فيتلو القرآن إلى أن يؤذن للصلاة رغم قرب منزله من المسجد الحرام ومشاهدة الكعبة.. زلت قدمه في العقد الأخير من حياته وفُكَّ وركه فطلب منه ولده الشيخ محمد أن يسافر إلى الخارج للعلاج فغضب أشد الغضب وقال: لن أبرح مكة إلا إلى القبر.. وهكذا قضى الشيخ عبدالله بن حسن حياته في القيام بواجب القضاء وتمييز أحكامه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. إلى أن توفي عام ١٣٧٨هـ...

السيد محمد علوي مالكي الحسني

ولد بمكة المكرمة عام ١٣٦٢هـ ونشأ بها نشأة دينية تكفل له بها والده الإمام السيد علوي فكان مربيا لجسمه وروحه وشيخا لعلمه وفتوحه.. تعلم في مكة المكرمة. في حلقات العلم بالمسجد الحرام لدى كبار العلماء بالحرمين الشريفين وعلى رأسهم السيد علوي مالكي والشيخ حسن محمد المشاط وعليهما تخرج.. وقد درس في مدرسة الفلاح والمدرسة الصولتية ودرس في مدرسة تحفيظ القرآن الكريم بمكة المكرمة رحل في طلب العلم الشريف إلى الهند وباكستان وأخذ هناك عن كبار علماء الحديث.. وتخرج من الأزهر في الدراسة النظامية حيث أخذ الماجستير والدكتوراه من كلية أصول الدين بالأزهر.. ورحل أيضا إلى المغرب فأخذ عن جملة علمائها.. وأخذ الحديث والتفسير والأصول وعلوم اللغة العربية عن كبار علماء المسجد الحرام..

تعين مدرسا بكلية الشريعة بمكة المكرمة وذلك في عام ١٣٩٠هـ إلى سنة ١٣٩٩هـ.. وبرز في المسجد الحرام في مقام والده السيد علوي مالكي بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى في ٢٥ صفر ١٣٩١هـ إذ اجتمع كل علماء مكة المكرمة وعلى رأسهم الشيخ حسن المشاط والشيخ محمد نور سيف والشيخ محمد سليم رحمت الله والسيد أمين كتبي وغيرهم، فكلفوه بالتدريس في المسجد الحرام في



● فضيلة السيد محمد علوي مالكي مع المؤلف في إحدى المناسبات ●

حلقة والده السيد علوي التي استمرت خمسين عاما بلا انقطاع.. وقد اهتم بالتدريس في الحرم لأبناء المسلمين ابتغاء وجه الله تعالى، وكان له في المسجد في كل ليلة ثلاثة دروس متتالية متتابعة مستمرة بلا انقطاع صيفا وشتاء، في العطلة الصيفية والسنة الدراسية لاينقطع عن ذلك إلا لعذر شرعي.. وكانت دروسه متنوعة تجمع بين التفسير والحديث والأصول والسيرة النبوية واللغة العربية والعقيدة الإسلامية والفقه والوعظ والإرشاد.. وقد درس في هذه الحلقة جملة كبيرة من الكتب وخصوصا كتب السنة النبوية.. لم يتوقف نشاطه عن التدريس بالمسجد الحرام، بل تعداه إلى الإذاعة إذ كان له فيها محاضرات دينية وأحاديث أسبوعية تذاع عبر البرنامج العام وإذاعة نداء الإسلام.. وقد شارك في المواسم الثقافية بالرابطة الإسلامية العالمية، فكان يلقي في كل عام محاضرة الافتتاح للموسم الثقافي من عام ١٣٩١هـ.. كذلك شارك في العديد من المؤتمرات

الإسلامية العالمية وقد قام برحلات متعددة شخصية ورسمية.. انتخب فضيلة السيد محمد علوي مالكي لرئاسة لجنة التحكيم الدولية لمسابقة القرآن الكريم في مواسم ١٣٩٩/ ١٤٠٠/ ١٤٠١هـ وترأس جلسات متعددة في مؤتمر الإمام مالك الذي يعقد سنويا في المغرب.. وقد زار كثيرا من بلاد المسلمين وألقى فيها جملة من الدروس والمحاضرات خصوصا شرق آسيا حيث يوجد فيها أكثر من ثلاثين مدرسة ومعهدا ومسجدا وهو يقوم بالإشراف عليها والسعي في مساعدتها وترتيب مناهجها وتنظيم أحوالها وتوجيه أساتذتها وصرف الإعانات لهم وانتخاب بعضهم لإتمام دراستهم على حساب بعض أهل الخير والمعروف في داخل المملكة وخارجها.

له مؤلفات عديدة بلغت أكثر من «٣٧» عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن مختلف الأمور الدينية والفقهية وغيرها.

الشيخ إبراهيم ابن العلامة الشيخ حسن عرب

«**ولد** عام ١٢٦٤هـ.. وتوفي عام ١٣٣٤هـ»

كان الشيخ إبراهيم عرب يعقد حلقة درسه بعد المغرب في حصوة باب العمرة بين مقامي الحنفي والمالكي.. كان رحمه الله يلبس جبة فضفاضة وعمامه زادته هيبة ووقارا.. وكان يقسم درسه إلي قسمين: قسم علمي، والقسم الثاني وعظ ونصح وإرشاد دون أن يمس كرامة أحد أو يتعرض له بما يكرهه.. كان رحمه الله في درسه العلمي يرشد العامة إلى كيفية الوضوء والحرص على الدلك لإيصال الماء إلى البشرة وغسل بطون الأصابع والأعقاب.. وكان يخرج رجله أمام المجتمعين حوله ويقول: انظر ياشيخ، هذا هو عقب القدم الذي حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من التساهل في غسله حيث قال «ويل للأعقاب وبطون الأصابع من النار».. والويل «ياشيخ» واد في جهنم أعاذنا الله منه.. وكان رحمه الله في درس الصلاة يصلي في وسط حلقته ليعلم العامة كيفية الصلاة والطمأنينة فيها..

وكان الشيخ إبراهيم رحمه الله يلقي درسه ونور العلم يشع من جبينه فيحلو للملتفين حوله النظر إليه ويتمنى كل منهم أن يقترب منه، وكان ينبعث من صوته رنة تملك عواطف المستمعين وأحاسيسهم فلا يجدون بدُاً من الحملقة في الشيخ لاتفوتهم كلمة من كلماته، ولاعبارة من نصائحه وإرشاداته الواضحة التي يشرح غامضها بإشاراته وأمثلته..

الشيخ عثمان بن أحمد بشناق

الشيخ عثمان بن أحمد بشناق ولد عام ١٣١٠هـ تخرج في المدرسة الصولتية سنة ١٣٣٠هـ قضي حياته في نشر العلم والعزلة إلى أن توفي عام ١٣٤٢هـ..

لم يكتف رحمه الله بدارسته، بل أكب على المطالعة واقتطاف ثمار العلوم والمعارف من كتب التفسير والحديث حتى أنهك قواه وانتابته أمراض كان يقاومها بالصوم والتقرب إلى الله بالفرائض والنوافل في خشوع وتذلل وخشية من الله الذي يعلم السر وأخفى.. كان رحمه الله يدرس بالمدرسة الصولتية ثم عقد حلقة بالمسجد إلا أنه كان يثابر على التعليم بالمسجد لرغبته في العزلة والابتعاد عن مجالسة الناس ليتفرغ لعبادة الله ويستأنس بمناجاته عن حديث الخلق..

قيل له مرة لماذا رغبت العزلة وفضلتها عن مجالسة الناس؟.. فقال رحمه الله: أنا لست وحدي.. أنا جليس كتاب الله تعالى أناجيه بالصلاة وبتلاوتي القرآن فأحيا حياة طيبة وأذوق حلاوة العلم والمعرفة.. إن عادة الناس التمضمض بأعراض الناس والتفكه بها والتنقل بحلاوتها فإن وافقتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى، وإن سكت كنت شريكا لهم، وإن أنكرت أبغضوني واستخفوا بي..

هكذا كان رأي الشيخ عثمان في اختيار العزلة للتخلص من أدران الأخلاق التي يتعرض لها الناس بالمخالطة.. لذلك لاتجده يتكلم إلا في حلقته ونفع طلابه أو تلاوة القرآن وتدبر معانيه..

كان زملاؤه يخالفونه فيما يذهب إليه ويقولون إن المخالطة رياضة بمجاهدة النفس بتحمل أذى الناس وقهر الشهوات ومؤانسة الأصحاب بحضور ولائمهم وإدخال السرور عليهم وعيادة مرضاهم وتشييع جنائزهم والتواضع لهم والاستفادة من تجاربهم وممارساتهم.. وكان الشيخ طاهر القلب عطر السيرة محبوبا من جميع من عرفه..

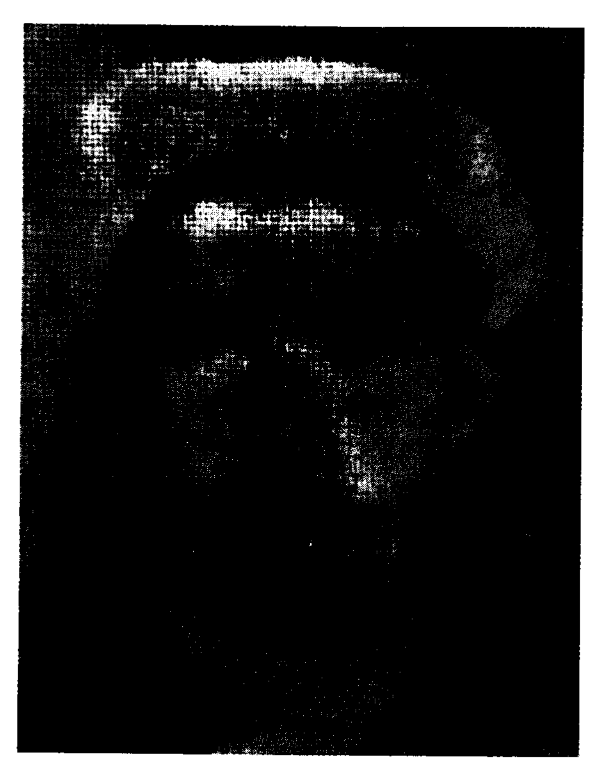
الشيخ عبدالقادر بن يحيى المفتي

هو عبدالقادر بن يحيى بن عبدالقادر بن أبي بكر المفتي الحنفي ولد بمكة المكرمة عام ١٠٤٩هـ وحفظ القرآن الكريم ثم شرع في طلب العلم على يد عمه المفتي العلامة على وتخرج علي يده وصار أمين فتواه، ثم تولى الإفتاء بعده وهو سبط العلامة الشيخ حسن عجيمي..

توفي رحمه الله عام ١١٩١هـ وهو آخر من ولي الإفتاء من بيت المفتي المشهورين بمكة المكرمة.. وقد ولي الإفتاء من هذه العائلة أربعة من علمائها طيلة قرون وهم: عبدالقادر بن أبي بكر ثم يحيى بن عبدالقادر ثم علي بن عبدالقادر ابن يحيى رحمهم الله وأسكنهم واسع جناته.

الشيخ محمد نور فطاني

ولد عام ١٢٩٠هـ تلقى علومه في المسجد الحرام والجامع الأزهر.. تقلب في عدة وظائف في عهد الحسين والعهد السعودي.. كان الشيخ معتدل القامة نحيف البنية أجرد العارضين خفيف اللحية هادئا في حديثه، هادئا في عمله، هادئا في تقرير درسة.. بدأ دراسته على يد والده ثم أتمها على يد الشيخ عبدالحق مؤسس المدرسة الفخرية والشيخ عابد مفتي المالكية.. وبعد أن نال الشهادة وأجيز بالتدريس تطلعت نفسه إلى انتهال المزيد من العلوم والمعرفة، فسافر إلى مصر والتحق بالأزهر وأخذ العلوم الدينية عن الشيخ محمد عبده والشيخ بخيت



● الشيخ محمد نور فطاني ●

والشيـخ الشربيني.. كمـا تلقى علم الهيئـة والتوقيت عن الشيخ حسن زايد صاحب المـطلع السعيد، وبعد أن نال الشهادة العليا من الأزهر عاد إلى مكة المكرمة فلم يطغه العلم أو ينسه فضل أساتذته ومشائخه، بل زاده تواضعا لهم واعترافا بفضلهم..

عقد حلقته بالمسجد الحرام وأصبح منزله منهلا عذبا لطلاب العلم وقد لمس الشريف حسـين كفاءته ونشاطه فعينه عضوا بمديرية المعارف برئاسة الشيخ محمد على مالكي ثم السيد عبدالله زواوى ثم السيد عباس مالكي.. وكان رحمه الله يتعاون مع كل رئيس في حدود واجباته في أمانة وإخلاص دون أن يتزلف أو يتملق أحد رؤسائه.. وما إن أشرق العهد السعودي إلا ولمع نجمه إذ عين رئيسا لمشـائخ الجاوا ثم عضوا بمديرية المعارف تحت رئاسة السيد صالح شطا ثم الشيـخ أمـين فوده ثم نقل إلى القضاء فعين قاضيا بالمحكمة الكبرى برئاسة العلامة السيد محمد المرزوقي.. توفي رحمه الله عام ١٣٦٣هـ..

السيد أحمد زواوي

ولد السيد أحمد زواوي عام ١٢٦٢هـ.. وتلقى علومه بالمسجد الحرام عن السيد أحمد دحلان والشيخ محمد بسيوني والشيخ عبدالقادر مشاط وعن العلماء الوافدين إلى بيت الله الحرام فدرس بالمسجد..

توفي رحمه الله عام ١٣١٦هـ وخلف السيد عبدالله زواوي رحمه الله والسيد محمد زواوي عضو مجلس الشورى..

الشيخ عبدالله شيبي

عبدالله بن محمد زين العابدين يتصل نسبة بعثمان بن طلحة الذي سلّمه النبي صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة وقال له: خذوها يابني شيبة خالدة تالدة.. فبقيت السدانة في ذريتهم إلى هذا العهد.. ولد رحمه الله بمكة المكرمة وأخذ العلم من علماء المسجد الحرام وتولى حجابة البيت عام ١٢٧٠هـ بعد وفاة أخيه الشيخ أحمد شيبي..

وكان رحمه الله يحب العلماء والفقهاء وأهل الورع والصلاح ويتقرب منهم، وكان كثير الذكر وتلاوة القرآن والمحافظة على الصلوات الخمس في جماعة بالمسجد الحرام.. كان ملجأ الضعيف ونصير المظلوم حتي أحبه الجميع..

توفي عام ١٢٩٦هـ رحمه الله..

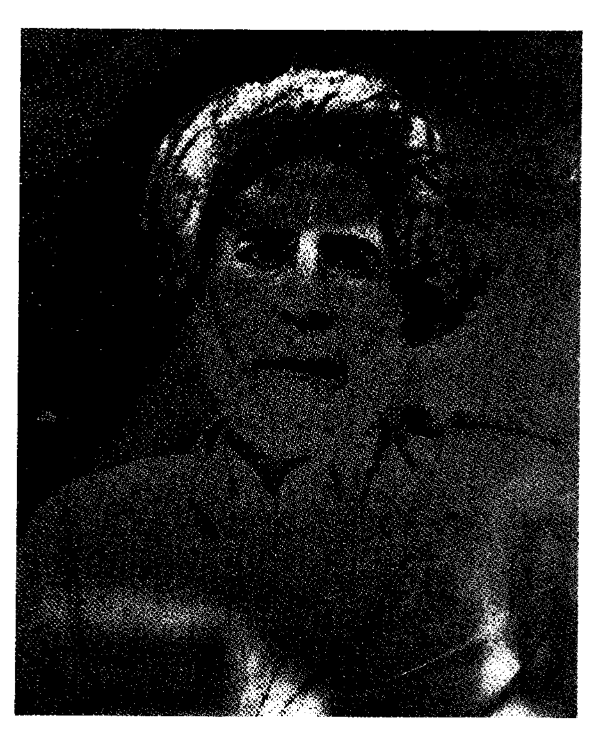
السيد حسين بن بكري شطا

ولد السيد حسين بن بكري شطا بمكة المكرمة عام ١٣٠٧هـ.. وفي الثالثة من عمره توفي والده العلامة السيد بكري شطا فكفله أخوه الأكبر السيد أحمد شطا فنشأ مع أخيه السيد صالح شطا في دار أخيهم يحوطهما برعايته وعنايته فرباهما وأحسن تربيتهما.. ثم شرع السيد حسين كأخيه السيد صالح يتلقى

العلم عن السيد أحمد شطا ثم أخذه عن مشائخ عصره وهم السيد حسين حبشي مفتي الشافعية بمكة والشيخ عبدالرحمن دهان والشيخ محمد يوسف الخياط والسيد عبدالله دحلان.. ومازال يواصل دراسته إلى أن نبغ في العلوم الدينية واللغة العربية وأجيز بالتدريس في المسجد الحرام فعقد حلقته في حصوة باب الزيادة مما يلي المطاف.. وأقبل عليه طلاب العلم ينهلون من معرفته وطهارة قلبه ورعا وتمسكا بالدين والعض عليه بالنواجذ.. وكان رحمه الله وسط حلقته يناقش طلابه في مختلف المسائل ويعير سؤالهم أذنا مصغية ويفصل لهم الجواب تفصيلا لايدع مجالا لسائل.. وقد ظل العلامة السيد حسين شطا ناشرا للعلم نبراسا يستضيء بهديه طلاب العلم والمعرفة إلى أن توفي عام ١٣٥٥هـ..

رحمه الله وأسكنه واسع جناته..

السيد صالح بن السيد علوي بن عقيل



● السيد صالح بن السيد علوي بن عقيل ●

ولد رحمه الله عام ١٣٠٢هـ ونشأ في حجر والده السيد علوى فحفظ القرآن الكريم وجوده ثم انصرف إلى طلب العلم فحفظ المتون وفهم الشروح ودرس الحواشي على مشائخ عصره بالمسجد الحرام منهم العلامة الشيخ عبدالرحمن دهان وأخوه الشيخ أسعد دهان والعلامة الشيخ عمر باجنيد والعلامة الشيخ أحمد الخطيب.. وبعد أن أجيز بالتدريس عام ١٣٣٢هـ عقد حلقته في رواق باب الزيادة وكانت رغم قلة طلابها تنجلي فيها روح الإخلاص والرغبة في نشر العلم دون تعلل في مادة أو ربح دنيوي..

كان السيد صالح علوي بن عقيل معتدل القامة والجسم كث اللحية محافظا على الصلوات الخمس في الجماعة. وقد تولى رحمه الله رئاسة أوقاف السادة العلويين فكان موضع ثقتهم ومحبتهم وتقديرهم لحل مشاكلهم والدفاع عن حقوقهم.. كان رحمه الله متواضعا يحترم الكبير ويعطف على الصغير ويشفق على الفقير ويلقى الجميع بوجهه الباش والابتسامة التي لاتفارق شفتيه.. تولى رحمه الله تربية إخوانه وإدارة شؤونهم بعد وفاة والدهم السيد علوي..

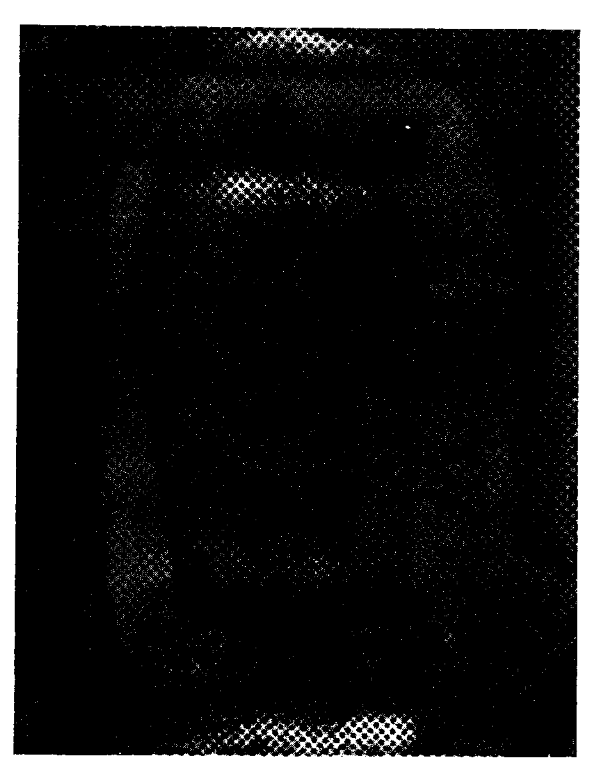
توفي رحمه الله عام ١٣٥٩هـ..

الشيخ صالح بن العلامة الشيخ سعيد اليماني

ولد عام ١٣١٠هـ فرباه والده مع أخيه الشيخ حسن ثم ألحقهما بالمدرسة الصولتية فأخذ العلم عن أفاضل علمائها وكان يعترف في مجالسه وأحاديثه بفضل الشيخ عبدالرحمن دهان في توجيهه وإرشاده..

تخرج الشيخ صالح في المدرسة الصولتية لكنه واظب على تلقي العلم عن والده الشيخ عبدالرحمن دهان إلى أن أجيز له بالتدريس بالمسجد الحرام بعد اختياره من قبل هيئة العلماء.. فعقد حلقته بحصوة باب العمرة وهو في عنفوان شبابه ونشاطه..

وكانت طريقة تدريسه تجمع بين متانة القديم وسهولة الجديد إذ كان يلقي الدرس ويناقش طلابه فيما شرحه ويفسح لهم المجال لسؤاله فيما أشكل عليهم



● السيد صالح بن العلامة الشيخ سعيد اليماني ●

فيجيبهم بصدر رحب وابتسامة لازمته إلى شيخوخته..

قام برحلة إلى أندونيسيا وطاف مدنها وقراها ولقي من طلاب والده في تلك الجهات مايليق بفضيلته من حفاوة وتكريم والتف حوله طلاب تلقوا عنه علوم اللغة والفقه الشافعي وتعطرت مجالس العلم بسيرته ونشاطه..

كان يتردد إلى مكة لزيارة أهله وتوجيه ولده وحثه على التعليم.. عاد إلى وطنه عام ١٣٧٠هـ فسر به أهله وأصدقاؤه ونال من بر ولده مايستحقه لقاء تربيته وتوجيهه.. ثم صدر الأمر الكريم بتعيينه عضوا بمجلس الشورى فباشر عمله في إخلاص ودماثة خلق، وخسره طلاب العلم كما خسروا زملاءه الشيخ سراج ششه والشيخ عبدالحميد حديدي والشيخ عبدالله مغربي وغيرهم من العلماء الذين شغلتهم الوظائف عن نشر العلم..

الشيخ عيسى رواس

ولد عام ١٢٩٥هـ.. وتوفي عام ١٣٦٥هـ

تخرج في المدرسة الصولتية وتلقى دروسه في المسجد الحرام عن الشيخ عبدالرحمن الدهان كان الشيخ عيسى رواس أسمر اللون معتدل القامة، قوي البنية، وكان يمتهن الجزارة فيتعيش من ربحها البسيط قانعا بما قسم الله له، وكان ينزل إلى المسجد لأداء الصلاة في جماعة، وصادف أن شاهد الشيخ عبدالرحمن الدهان وسط حلقة طلابه فجلس يستمع لدرسه وكانت كلمات الشيخ تنطلق من فمه كحبات اللآلىء نقاء وصفاء فتستميل القلوب الصلدة وتجتذب الأفئدة القاسية فشع في قلب الشيخ عيسى نور الهداية فواظب على حضوردرس الشيخ عبدالرحمن الدهان في رغبة صادقة، ثم التحق بالمدرسة الصولتية فعكف على درسه حتى حفظ القرآن والمتون واستظهر الشروح والتقط الحواشي وتقرير المقررين كما يلتقط الغواص فرائد اللآلىء من البحر العميق فوجد أن كتاب الله وسنة رسوله حلا لكل معضلة ودواء للقلوب وطهارتها من الأدران..

قطع رحمه الله مرحلته الدراسية في عسر وضيق وجهد وهو راض كل الرضاء مبتهج كل الابتهاج سعيد إلى حد كبير بمعيشته من الجزارة مادام يطلب العلم لله وإبتغاء مرضاته، فكد وجد إلى أن تخرج في الصولتية ونال شهادتها فكان فخر الفتوة زهدا وورعا وإخلاصا وقوة إيمان، ثم شرع يدرس في مدرسته مقابلة للإحسان بمثله كما عقد لطلابه حلقة درس في المسجد الذي فتح له باب العلم والمعرفة وأنار له طريق الهدى والرشاد.. فالتف حوله طلاب من مختلف الطبقات كل واحد يسأل الشيخ أن يدعو له ليصلح بالعلم ولايحرمه، وأن يذكره في تهجده ودعواته.. فأقبل رحمه الله يعالج قلوبهم قبل أن يستبد بها الشيطان ويعصف بها الشك.. ويقربهم إلى الله بآيات كتابه وأحاديث رسوله ليفهموا الدين روحا ومعنى لانصا ورسما، ويطبقوه عملا وقدوة لاحفظا في الصدور وشقشقة في الألسن..

اشتهر الشيخ عيسى رواس بين طلابه بتواضعه وإخلاصه في التعليم وحرصه

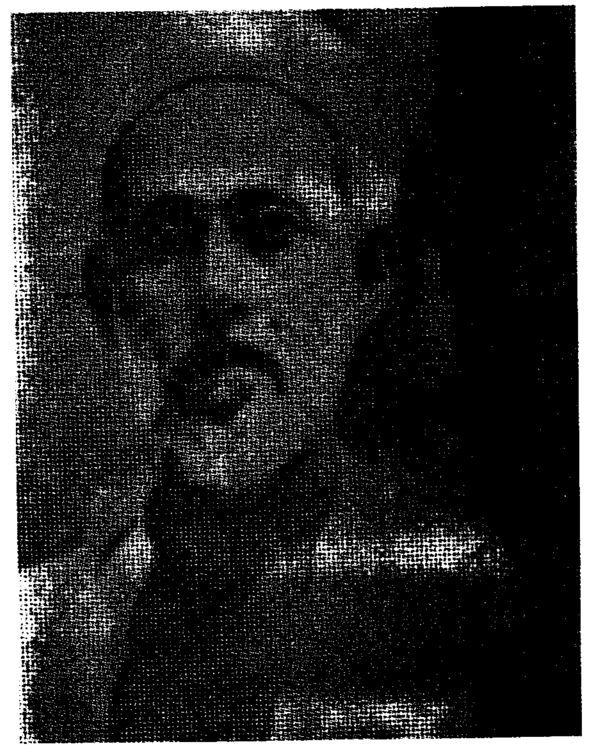
على نفع طلابه.. فاختير مدرسا بمدرسة الفلاح فكان خير مرب ومؤدب يخافه الطلاب ويحبونه لإخلاصه لكل واحد منهم لافرق بين كبيرهم وصغيرهم وغنيهم وفقيرهم.. فأقبلوا على درسه في نهم ورغبة، فكون منهم جيلا قوي الإيمان واثقا بالله معتمدا عليه.. وقد كان رحمه الله قويا متقشفا لم يغير الثوب والصدرية ولفة رأسه وسجادة على كتفه وعصا «مزقرة» لاتفارق يده.. ولعصاه حياة حافلة بالبطولة والشجاعة والجرأة والإقدام، منها ماحدث له عام ١٣٥٦هـ وهو داخل من باب السلام إذ سمع جلبة وضوضاء في «حوش الرمادي» فلم يكد يقترب من باب الحوش حتى خرج عليه جاوي طعن سبعة عشر رجلا مات منهم خمسة، فلوح الشيخ عصاه في الهواء ليضرب بها الجاوي ولكنه هرب من جهه ورجع إلى «حوش الرمادى» فتمكن رجال الشرطة من القبض عليه وتقديمه للمحاكمة.. فتناقلت الألسن هذا الحادث وحمدوا الله على سلامة الشيخ وأثنوا على ثباته وشجاعته ورباطة جأشه.. وكنت من ضمن من تتلمذ على يدي فضيلة الوالد الشيخ عيسى رواس ضمن مجموعة من الطلبة الفلاحيين كنا ندرس على يديه علوم المنطق والفلسفة التي يستمدها من معاني القرآن الكريم.. وكان حديثه متلاحقا إذا أدركنا أوله لاندرك آخره.. إذ كان غزيرا في معلوماته وواسعا في إطلاعاته.. وكان رحمه الله فوق كل هذا وذاك يجعلنا نشعر وكأننا خرجنا من حلقة علمه لم نفقه شيئا مما قال.. لكن عندما نعود إلى منازلنا ونفتح الكتاب لاستذكار ماقاله لنا إذا بالفيض الغزير مما سرده وألقاه علينا قد عرفناه وفهمناه وأدركنا بعده.. وتسألت يوما: كيف يكون هذا؟.. فإذا بأستاذنا السيد علوي مالكي يقول: هذه نفحات العلماء يضع الله فيها بركته لإجلاء البصائر والقلوب.. وأنصحك ياحسن ألا تفرط في هذه المجالس لأنها روضة من رياض الجنة.. تلك هي «حِلَقْ الذكر»..

ولشيخنا الرواس رحمه الله وطيب ثراه مواقف طريفة وخطيرة أيضا.. منها قصة «الجاوا» التي ذكرتها آنفا ذلك الذي حمل سيفا وفتك بكثير من الذين كانوا يمرون ساعتئذ.. وقارعه الشيخ الرواس بعصاه العتيدة مما مكّن رجال الأمن من القبض عليه.. ثم كان هذا الجاوا بسيفه يضرب مثلا لكل من ينحرف في

سلوكه إذ كان الناس يقولون بعدئذ لكل من يظهر بمظهر العنترية على أي شكل «فيك الجاوا» فيرتد على عقبيه.. وذلك بفضل «العصا» الشهيرة بعصا الرواس رحمه الله..

السيد عبد الله بن صدقة دحلان

العالم الرحالة الفلكي



● السيد عبد الله بن صدقة دحلان ●

ولد بمكة المكرمة عام ١٢٩١هـ.. وتوفي بأندونيسيا عام ١٣٦٠هـ السيد عبدالله بن صدقة دحلان عالم فلكي «والد السيد أحمد مدرس الفلك بالمدرسة الصولتيه رحمه الله ووالد السيد صادق عضو مجلس الشورى»..

ولد رحمه الله بمكة في أكرم بيت في الحجاز علما وفضلا وشرفا، وأمه من آل شطا المشهورين بالتمسك بالدين والصلاح توفي والده وهو في السادسة من عمره فكفله عمه السيد أحمد وعني بتربيته، وما أن توفي عمه بالمدينة المنورة إلا وانقطع السيد عبدالله إلى طلب العلم واتخذ له خلوة في رباط السليمانية بجانب باب الدريبة وأكبّ على الدراسة على علماء عصره إلى أن نال شهادة التدريس فعين إماما بالمسجد الحرام، وتوسمت الحكومة العثمانية في نشاطه وكفاءته العمل لبلاده فعينته لعين زبيدة فأدهش ولاة الأمر شعلة ذكائه ونشاطه، فعين مفتشا لدوائر الحكومة بجانب تدريسه بالمسجد الحرام.. ثم سافر إلى زنجبار ومر بعدن ولحج ثم قام برحلة إلى جاوا عام ١٣١٨هـ، ولما أعلن الدستور وتخلص العالم الإسلامي من العهد الحميدي عام ١٣٢٧هـ نشط رحمه الله فأسس بمكة فرعا لجمعية الاتحاد والترقي وأهاب بشباب عصره الالتحاق به، ولكن دعوة الاتحاديين إلى التفرقة خيبت آماله، وأبت عزته وأنفته الدعوة إلى تفريق كلمة المسلمين، فسافر إلى أندونيسيا في عام الدستور فأسس جمعية خيرية ومدرستها التي لاتزال إلى الآن.. وفي عام ١٣٣٠هـ عاد إلى مكة المكرمة فنفاه الشريف حسين إلى كلاخ فجمع شباب العرب هناك وحاول تأسيس مدرسة بهم.. فلما علم الشريف بذلك خشي عاقبة التعليم فطلبه فأقام بين أهله ثم سافر إلى الشام ومصر وكلمبو سيلان فأسس بها المدرسة الإسلامية ثم واصل رحلته إلى الهند وملايا فأسس بها عدة مدارس ثم أخذ يتنقل من بلدة إلى أخرى داعيا إلى الله مؤسسا للمدارس إلى عام ١٣٣٦هـ حيث عاد إلى الهند والعراق ومر بالبحرين فأسس بها مدرسة ثم عاد إلى سنغافورة فأقام بها إلى عام ١٣٤٦هـ أصلح خلالها مناهج المدارس الإسلامية وأسس مدرسة آل جنيد ومدارس في كل من جمبي ولمفون كما عمّر عدة مساجد، ثم سافر إلى الحبشة في نهاية عام ١٣٤٦هـ وزار صنعاء واجتمع بالإمام يحيى حميد الدين وكان موضع الإجلال والإكرام من علماء اليمن طيلة إقامته باليمن.. ثم سافر إلى مكة وقابل جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله فرحب به وأكرمه.. ثم سافر إلى مصر فأدخل ابنه السيد صادق إحدى المدارس وسافر إلى بوقس بأندونيسيا فأسس بها عدة مدارس ثم عاد إلى قاروت فطابت له الإقامة بها فعكف على التأليف والنشر ونشط في التعليم العلمي وكان

يلقي دروسه على زوار بيته وكان منزله دار ضيافة لمن يعرفه ومَنْ لا يعرفه.. يقابل ضيوفه بإبتسامته وبشاشته..

مؤلفاته:

«١» إرشاد ذي الأحكام إلى واجب القضاة والحكام.

«٢» زبدة السير النبوية ـ في ثلاثة أجزاء.

«٣» تحفة الطلاب في قواعد الإعراب.

«٤» خلاصة الترياق من سموم الشقاق.

«٥» مفتاح القراءة ودليلها.

رحمه الله وأسكنه فسيح جناته..

الشيخ أحمد بن يوسف قستي

ولد بمكة المكرمة عام ١٢٩٦هـ ـ توفي عام ١٣٦٧هـ..

وهـو سليل أسرة عريقة في الدعوة إلى الإسلام بأندونيسيا ومعروفة في مكة المكرمة حيث كان أجداده سلاطين في مقاطعة «البنجر» بأندونيسيا، وقد ورد في مؤلف مفتي البنجر الشيخ محمد أرشد ـ المتوفى عام ١٢٢٧هـ ـ والمسمى باسم «القـول المختصر في علامـات المهـدي المنتظر» سردا تاريخيا مفصلا عن هذه الأسرة، وأشار إلى أن أحد أجدادهم المتقدمين واسمه «السلطان شريان شاه» هو الذي أدخـل الشريعـة الإسلامية إلى هذه المنطقة المعروفة بكثافتها السكانية وسبقها لغيرها من مناطق شرق آسيا إعتناقا للدين الإسلامي الحنيف..

كان الشيخ أحمد قصير القامة معتدل الجسم عرف بالتواضع والهدوء في كلامه وتقرير دورسه.. تلقى العلم من علماء عصره: الشيخ عمر سمباوه والشيخ محمـد على بلخيـور والشيـخ صالح بأفضـل والشيـخ عمـر باجنيد والشيخ عبـدالستـار الدهلوي.. وبعـد أن أجرى اختياره أجيز بالتدريس فسافر إلى أنـدونيسيـا عام ١٣٢٥هـ فافتتح مدرسة السقاف عام ١٣٢٧هـ ثم مدرسة العطاس عام ١٣٣١هـ وكان يديرهما بما اشتهر عنه من نشاط وكفاية.. وفي عام

١٣٣٨هـ ولي القضاء في باتوفهت ثم استقال ورجع إلى مكة المكرمة عام ١٣٤٩هـ فعقد حلقة درسه في المسجد الحرام، ثم اختير مدرسا بمدرسة دار العلوم فتلقى عنه الطلاب الأدب العربي والفقه والحديث.. ولم يكتف رحمه الله بالتدريس، بل انكب على ترجمة الكتب القيمة إلى اللغة الملايوية.. فكان باكورة إنتاجه ترجمة كتاب «طوالع الهدى والفصل بتحذير المسلمين عن الإعلام بوقت الصلاة بضرب الناقوس أو الطبل» تأليف الشيخ محمد على بن حسين المالكي رحمهما الله..

وفي عام ١٣٥٤هـ شرع في ترجمة تفسير الجواهر تأليف الشيخ طنطاوي جوهري، ولكن المنية أدركته قبل تمامه.. كان رحمه الله يلقى درسه في يسر ويشرحه شرحا يستفيد منه طلابه دون تعقيد والتواء..

الشيخ أحمد أمين بيت المال

ولد عام ١٢٥٥هـ.. وتوفي عام ١٣٢٣هـ

هو أحمد أمين بن محمد سعيد العطار المشهور ببيت المال.. تفقه على جملة مشائخ منهم الشيخ عبدالله بن محمد صالح مرداد والشيخ محمد سعيد بشارة والشيخ جمال مفتي مكة والسيد أحمد دحلان حتى برع وتخرج ودرس وألف.. ومن مؤلفاته:

١ـ الحوادث الملكية، في مجلد ضخم.
٢ـ شرح الرسالة الحنيفية في مجلد.
٣ـ نظم رسالة في علم العربية.
٤ـ رسالة في شرب الشاهى.

ومن طرائف مايروى عنه: أن العلامة السيد محسن العطاس قابله بعد الدرس وكانت حلقته خلف بئر زمزم فطلب منه أن يصنع له عصيدا للفطور.. فارتجل رحمه الله:

إن شئــت منـــي عصـــيـــدا ماله مثـــل
لهـــا شروط بهـــا قد يـحـــســـن العــمــل

منــك الدقــيـق ومــنــي النـــار أضرمهـــا
المـــاء مني ومــنــك الســمـن والعســـل

الغـــرف منــك. ومــنـــي الأكـــل أجمعـــه
والشــكـــر منـــى إذا واليـــت يا رجـــل

الشيخ عبدالحميد قدس



● الشيخ عبدالحميد قدس ●

ولد عام ١٢٨٠هـــ.. وتوفي عام ١٣٣٤هـــ.
عالم وشاعر ومؤلف..

كان الشيخ عبدالحميد قدس قصير القامة، ممتلىء الجسم، قوي البنية.. قضى حياته في تحصيل العلم من علماء عصره منهم: الشيخ محمد سليمان حسب الله والشيخ عمر باجنيد والشيخ عبدالرحمن الدهان والشيخ سعيد اليماني والسيد بكري شطا..

كان رحمه الله نشيطا في التأليف والنشر فقد وضع عدة كتب انتشرت بين طلاب العلم في الحجاز والشرق الأقصى.. وقد استغلت الحكومة العثمانية نشاطه فابتعثته مع هيئة من وجهاء وعلماء مكة المكرمة والمدينة المنورة لحضور حفلة افتتاح الخط الحديدي الذي ساهم في الاكتتاب فيه المسلمون، فسافر إلى لبنان عام ١٣٣٤هـ فمثل بلاده مع زملائه خير تمثيل.. وهو إلى ذلك شاعر، في شعره صورة من ورعه وزهده وإخلاصه.. أما مؤلفاته فبلغت زهاء العشرين..

كان رحمه الله يدرس في حصوة باب النبي وكان من طلابه أبناؤه محمد نور ومحمد علي رحمهم الله توفي الأول عام ١٣٦٠هـ بمكة، أما الثاني فسافر إلى أندونيسيا واشتغل بالتدريس بالمدارس المحمدية وأصدر مجلة دينية سلفية «المرأة المحمدية» توفي عام ١٣٦٢هـ.. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته..

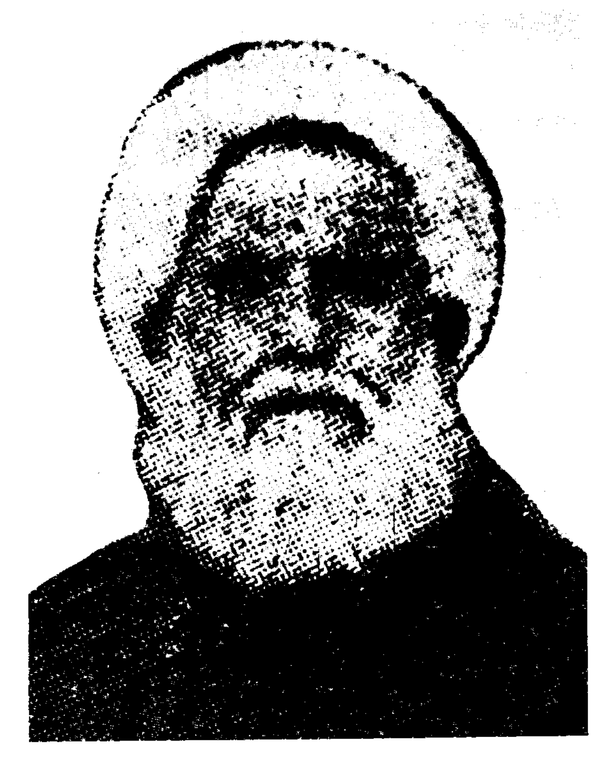
الشيخ طاهر بن محمد سعيد سنبل

ولد بمكة المكرمة وتلقى علومه بالمسجد الحرام على يد الشيخ على الصديق والشيخ عارف جمال والشيخ يحيى بن محمد حباب والشيخ محمد سعيد سفر المدني وقاضي المدينة ملا عبدالله الإسلامبولي والشيخ أحمد الجوهري وغيرهم من علماء مكة في ذلك العهد.. له مؤلفات دينية عديدة..

توفي رحمه الله بمكة المكرمة عام ١٢١٨هـ.



الشيخ محمد حسن بن محمد المنصوري



● الشيخ محمد حسن بن محمد المنصوري ●

ولد عام ١٢٨٦هـ.. وتوفى عام ١٣٦٩هـ.

تلقى العلم عن والده وعلماء عصره، لم يشتغل بغير طلب العلم والتجارة في الكتب.. كان الشيخ محمد معتدل القامة كث اللحية، وكان له مكتبة في باب السلام يبيع فيها الكتب العلمية.. وكان رحمه الله إذا أراد تدريس أي كتاب يحرص على خلوه من مكتبته خشية أن يتهم بالاستغلال، وكان أبناؤه الشيخ عبدالرحمن والشيخ صدقة يساعدانه في التجارة بعد عودتهما من مدرستهما..

وكان يعنى بتربيتهما ولكنهما توفيا في حياته رحمهما الله.. وكان ابنه الشيخ صدقة قد تخرج في المدرسة الراقية واشتغل بالتدريس فيها ثم استمر مدرسا إلى

أن توفي وهو يدرس العلوم الرياضية بمعهد وتحضير البعثات..

كان الشيخ محمد حسن المنصوري يلقي درسه في الرواق الذي بين باب المحكمة وباب السليمانية بعد العصر.. وكانت دروسه في التفسير والحديث..

الشيخ محمد علي الرهبيني

ولد عام ١٢٨٦هـ.. وتوفي عام ١٣٥١هـ.

طويل القامة، معتدل الجسم، ذو لحية بيضاء كثيفة.. حفظ القرآن الكريم وهو صغير، ثم عكف على طلب العلم.فأخذه عن علماء عصره كالشيخ عمر باجنيد والسيد عبدالله زواوي والشيخ عبدالرحمن الدهان وغيرهم..

كان له رحمه الله خلوة «بالداوودية» يحفظ فيه طلابه الأندونيسيين القرآن بالتجويد وينهاهم عن القراءة بالألحان التي تخرج القرآن عن منهجه القويم إلى الاعوجاج بلحن في الإعراب أو ترك إعطاء الحروف حقوقها بتجويدها عند مخارجها فتشوه صيغتها ويلتبس معناها.. وقد تخرج على يده جملة من القراء عاد بعضهم إلى بلاده فعلّموا قومهم تلاوة كتاب الله وترتيله بتبيين الحروف وإشباع الحركات..

ولو دخلت المسجد قبل أربعين عاما لوجدت الشيخ محمد بن علي الرهبيني بين باب الداوودية وباب العمرة يتوسط حلقة طلابه بجبته السوداء وعمامته التي يمتاز بها حملة القرآن، وإذا قدر لك الجلوس بحلقته تسمع صوتا ينبعث من قلب ملأه القرآن تقوى وزهدا وورعا..

فضيلة السيد عبد الحميد الخطيب

ولد بمكة المكرمة في ٢٤ صفر عام ١٣١٦هـ..

رباه والده العلامة الشيخ أحمد الخطيب تربية إسلامية أحكم بها صلته



● السيد عبدالحميد الخطيب ●

بالله.. استمع إليه وهو يحدثنا عن تربيته إذ يقول: كنت إذا طلبت من والدي شيئـا في صغـري يقـول لي: اطلب من الله يعطيك.. فأقول له: أين هو الله.. فيجيبني: هو في السماء يراك من حيث لا تراه.. ثم يأتيني بما طلبته ويقول لي: ها إن الله أرسل لك ماطلبته.. فكنت دائما إذا طلبت من الله شيئا في السر ولم أنله، أرجع إلى والدي وأقول له: إنني طلبت من الله كذا وكذا فلم يعطني الله.. فيقـول لي والدي: هذا لايمكن أن يكون إلا إذا صدر منك مايغضب الله كأن قصرت في عبادتك أو أخرت صلاتك أو أغتبت أحدا.. فتب إلى الله واستغفره يغفر لك ويعطيك ماتطلبه.. هذه التربية الإسلامية غرست في نفس السيد عبدالحميد محبة الله والاعتماد عليه والثقة به والاستغاثة به وسؤاله دون سواه..

كان والده رحمه الله يلقنه العقائد السلفية من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليـه وسلم ويحـذره من مطالعة كتب علماء الكلام والفلاسفة ويحثه على

مطالعة الفقه واستنباط الأدلة من الكتاب والسنة، فنشأ قوي الإيمان صحيح العقيدة لايستسيغ مالا يقره العقل من الخرافات المستنكرة والبدع التي تمجها النفوس السليمة..

كان والده يأمره بتعليم صغار طلبة العلم ويرشده إلى طريقة التدريس ومناقشة الطلاب وترغيبهم في الاستزاده من طلب العلم ليكون خلفا له في نشر العلم والدعوة إلى الله والرجوع إليه وحده لاشريك له..

ساهم بنصيب وافر في النهضة حتى منحه الحسين وسام النهضة من الدرجة الثانية.. وفي أواخر عهد الحسين سافر إلى مصر فاشتغل بالصحافة ونشر عدة مقالات في جرائد الأهرام والمقطم والوطن، واشترك في عدة جمعيات خيرية.. ثم أسس جميعة الشبان الحجازيين الخيرية..

وظائفه:

عين منذ وصوله إلى مكة المكرمة عضوا بمجلس الشورى، ولكنه لم تشغله الوظيفة عن نشاطه العلمي والأدبي، فقد كان يلقي دروسا ومحاضرات دينية بالمسجد الحرام، ومحاضرات اجتماعية بجمعية الإسعاف.. وينشر في صحف الحجاز المقالات الضافية في محاربة العادات والتقاليد السيئة، والدعوة إلى الله والرجوع إليه.. ثم عين وزيرا مفوضا لجلالة الملك في باكستان منذ استقلالها فقام بمهام وظيفته خير قيام نال خلالها تقدير الحكومة لجهوده وحب الشعب له.

وفي عهد جلالة الملك سعود ارتقت درجة التمثيل بين المملكة العربية السعودية وباكستان إلى سفارة وتفضل جلالة الملك فعينه سفيرا له.. وعندما استقلت حكومة أندونيسيا انتدبه جلالة الملك الراحل على رأس وفد لتمثيل جلالته في حفلة تسليم السلطة من هولندا إلى الحكومة الأندونيسية الفتية فأقام له طلاب والده من الأندونيسيين حفلات تكريم في كل بلد ينزل بها.. وفي عام ١٣٧٤هـ أصيب بمرض القلب فأشار عليه الأطباء بالاعتزال عن العمل والتزام الراحة والإقامة في بلد بارد.. فتفضل جلالة الملك سعود بإحالته على التقاعد وأذن له بالإقامة في دمشق فودعه الباكستانيون وأسفوا لفراقه.. لم يستعذب السيد عبدالحميد

الراحة ويركن إلى الكسل والخمول فقد انصرف إلى الدعوة إلى الله في الصحف والمجلات والنشرات وعكف على موالاة التأليف..

توفي رحمه الله في عام ١٣٨٠هـ..

السيد حسن بن محمد فدعق

ولد بمكة المكرمة عام ١٣٠٩هـ.. بدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم وأخذ مبادىء العلوم الدينية على يد والده السيد محمد، وبعض علماء مكة المكرمة آنذاك كالشيخ الفقيه محمد بن عبدالله بافيل أحد العلماء والمدرسين المسجد الحرام بباب العتيق، إذ حفظ عليه الرسائل الأربعة وعمره تسع سنوات.. وتلقى بعض كتب العربية والفقه والحديث والتفسير وبقية العلوم الشرعية من علماء الحرم المكي وكبار أعيان مكة المكرمة.

رحلاته

رحلته الأولى كانت مع والده عام ١٣٢١هـ إلى الجهة الجاوية.

الثانية: عام ١٣٢٤هـ بمفرده زار في هذه الرحلة «قدح» و «سنغافورة» و «فلمبان» وكانت رحلة أحيطت بالكثير من المخاطر على ظهر سفينة شراعية تجرها سفينة أخرى لعدم وجود السفن الجيدة.

والثالثة: بعد وفاة والده عام ١٣٢٨هـ ومكث عامين هناك للعلم ونشر الدعوة في تلك الأصقاع..

الرابعة: عام ١٣٣٠هـ سافر إلى «ميدان» و «فلمبان» و «جاكرتا» وولاية «قدح» التي فيها ابن عمه عمر وزار أيضا «بوقور» التي اشتهرت بمحط الرجال وأنها مركز للقاصدين شرقا وغربا..

الخامسة: عام ١٣٤٣هـ بعد الحرب العالمية الأولى عن طريق عدن والهند وبقي هناك سنتين يرافقه ابنه السيد محمد، وكانت أكثر إقامته في هذه الرحلة في «بوقور» ومنها انتقل إلى شرق أندونيسيا وتيمور..

بعد عودة السيد حسن إلى مكة المكرمة ندبه الأمير فيصل بن الحسين

الهاشمي واختير إماما خاصا له بعد أن عينته مشيخة الحرم المكي بطلب من الشيخ ياسين بسيوني إمام الملك الحسين لأهليته وجلادته على الأسفار، فرافقه في حملاته العسكرية ضد الأتراك بالشام إثر إعلان الثورة العربية عام ١٣٣٤هـ، وفي صفر من عام ١٣٣٥هـ دعا السيد أحمد بن علوي السقاف السيد حسن الذي كان رئيسا لديوان الملك حسين وطلب منه التوجه إلى الشمال لمباشرة الإمامة للشريف فيصل، فتوجه إلى جدة بمعية الشريف حمزة الفعرالى دار وكيل الأشراف محمد حسين نصيف.. بقي السيد حسن بعد ذلك مع الشريف فيصل طيلة حكمه للشام حتى سقطت الحكومة على أيدي الفرنسيين ثم عاد إلى مكة.. وقد كان السيد حسن رحمه الله قوي الذاكرة ميالا بطبعه إلى طريق أسلافه العلويين علما وعملا وسيرة وتمسكا، كما أنه كان كثير الحرص والاهتمام على اقتناء مؤلفاتهم وملازمة القراءة فيها وفي غيرها.. اعتزل السيد حسن الناس في أخر حياته بسبب المرض الذي أقعده وأجهده، ولكن ظل الإقبال على منزله كما هو.. وكثيرا ماكان يجلس إليه العلماء والشباب وطلاب العلم. فينتفعون من إرشاداته الدينية الحكيمة يستقبلهم ببشاشته المعروفة عنه وابتسامته العذبة وأخلاقه الرفيعة الفاضلة. يتفقد أحوالهم ليبدي لهم رأيا أو يسدي نصحا عندما يطلب منه ذلك فيما يشكل من مسائل وأمور علمية دينية فهو لا يبخل بموجود واستمر على ذلك حتى وفاته ليلة الثلاثاء ٢ـ٣/ ٩/ ١٤٠٠هـ ودفن ليلة الأربعاء بعد صلاة العشاء بمقبرة المعلاه عن عمر يناهز ٩١ عاما. رحمه الله رحمة الأبرار.

السيد بكري بن محمد زين العابدين شطا

ولد السيد بكري شطا بمكة المكرمة ١٢٦٦هـ في بيت شطا المشهور بالعلم والتقوى، وبعد ثلاثة أشهر من ولادته توفي والده السيد محمد زين العابدين فتولى تربيته أخوه العلامة السيد عمر شطا «الذي ولد عام ١٢٥٩هـ وكان مثال التقوى والزهد والورع وتوفي عام ١٣٣٠هـ» وقد حفظ القرآن وعمره سبع سنوات، ثم حفظه متن الجزرية، ومتن أبي شجاع، ومتن الزبد، ومتن الرحبية،

ومتن الأجرومية، ومتن الألفية، ومتن السمر قندي، ثم حثه على طلب العلم فلازم السيد أحمد دحلان فتلقى عنه شرح ماحفظه من المتون وكان أخواه السيد عمر والسيد عثمان «الذي ولد عام ١٢٦٣هـ ودرس بالمسجد الحرام إلى أن توفي عام ١٣٩٥هـ» يذكر أنه كان نابها في الدروس فجدّ واجتهد وثابر على طلب العلم حتى نبغ في العلوم العقلية والنقلية فعقد حلقة درسه بالمسجد الحرام وأقبل عليه طلاب العلم من مختلف الأجناس ينتهلون من علمه الغزير مايروي ظمأهم وينير لهم طريق الهداية والرشاد..

وقد ترجم له تلميذه الشيخ عبدالحميد قدس سيرة عطرة حافلة بمناقبه، فكان مما قاله: تخرج على يده جمّ غفير وانتفع به كثير من العلماء منهم السيد عبدالله ابن عمر بن أحمد باروم، والشيخ أمان الخطيب فلمبان.. وكان رحمه الله مجموعة فضائل بعيدا عن النقائض والرذائل وقورا مهيبا معظماً في النفوس محبوبا من كافة طبقات الشعب. له مؤلفات عديدة في شتى العلوم الفقهية وغيرها. وله أيضا مؤلفات خطية.. وفي عام ١٣١٠هـ حدث وباء في موسم الحج فكان السيد بكري شطا من جملة من توفي بعد أداء نسكه في ١٣ ذي الحجة ١٣١٠هـ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

الشيخ أبو بكر خوقير

الشيخ أبو بكر ابن الشيخ محمد عارف الإمام بالمسجد الحرام ابن العلامة الشيخ عبدالقادر بن محمد خوقير الكتبي.. ولد رحمه الله عام ١٢٨٤هـ بمكة المكرمة وبعد أن قرأ القرآن اشتغل بطلب العلم من صغره وكان شغوفا بكتب الحديث والعكوف على مطالعتها..

كان رحمه الله يسافر إلى الهند لجلب كتب السلف ونشرها بمكة، وينتهز الفرصة فيتلقى العلم من علماء الهند الأعلام، استمع إليه وهو يحدث تلميذه الشيخ عبد الستار الدهلوي إذ يقول رحمه الله.

«رويت عن مشائخ معروفين مشهورين بعلوم الإسناد منهم الشيخ حسين بن عيسى الأنصاري اليماني والقاضي أحمد بن إبراهيم بن عيسى وقد جاور بمكة عدة سنوات ثم رجع إلى نجد فتولى قضاء المجمعة وتوفي عام ١٣٣٨هـ وهو الذي أتصل بالشريف عون وأقنعه بإزالة القباب فأمر بهدمها»، والشيخ محمد الأنصاري والشيخ محمد عبدالعزيز الهاشمي الجعفري الهندي والسيد أحمد دحلان والشيخ عبدالرحمن سراج مفتي مكة وكنت أحضر درسه في التفسير وراء المقام الحنفي وكان له فيه طريق عجيب يقرأ الآية ويتكلم عليها بوجوه في سبب نزولها وفي ارتباطها بما قبلها بأنواع المناسبات وفي إعرابها ومعناها وما اشتملت عليه من أنواع البلاغة وفيما يؤخذ منها من الأحكام، وبلغت فتاواه أربعة مجلدات واسمها «الضوء السراج» وله مجموعة في الفقه.. رحل إلى القاهرة في آخر عمره وتوفي بها عام ١٣١٤هـ.. ومنهم الشيخ حسين بن محسن الأنصاري الخزرجي السعدي لقيته في سياحتي بالهند عام ١٣١٢هـ وسمعت منه الأولية وقرأت عليه الكثير من الأوائل السنبلية للعلامة محمد بن سعيد سنبل وأجازني بها كما يروي عن الشريف محمد بن ناصر الحازمي اليماني الحسني عن شيخه محمد طاهر سنبل وكتب لي بخطة مطولة محفوظة عندي وهي أجل غنم عندي».

شرع الشيخ أبوبكر خوقير رحمه الله يدعو إلى توحيد الربوبية الذي أقربه الكفار وأنه تعالى هو الخالق الرازق المحيي المميت مدبر الأمور ومنزل الغيث، وتوحيد الألوهية بعبادة الله بما شرعه كالدعاء والذبح والنذر والاستعانة والاستغاثة وهو التوحيد الذي جحده الكفار، وتوحيد الصفات وهو الإيمان بكل ماورد في القرآن والأحاديث بما وصف الله به نفسه من صفات على حقيقتها دون العرض لها بشيء من التكييف والتمثيل أو التشبيه أو التأويل أو التحريف والتعطيل..

وكان رحمه الله ينقم على الذين يشدون الرحال للأولياء ويقدمون النذور لها ويتمسحون بالمقابر ويتذللون لها ويطلبون منها جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم. وكان رحمه الله يوصي بقراءة صحيح البخاري ويقول: إني قرأت البخاري وعرفت شرح الحديث بعضه ببعض، كما استفدت من سند إمامنا أحمد بن حنبل

وروايتـه مع مراجعـة الغـريب وضبط اللفظ، ويقول لطلابه إنه يكفي الطالب المبتدىء بلوغ المرام وعمدة الحكام، وللطالب المنتهى المشكاة والمنتقى فإنهما جمعا ما في الكتب الصحاح مع بيان الصحيح من السقيم»..

بلغ ولاة الأمـور في ذلك الحـين دعـوة الشيـخ أبو بكر إلى محاربة البدع والخـرافات فخافوا على مراكزهم وأساؤوا الظن من نتائج دعوته فتربصوا به وضيقوا عليه سبيل الدعوة ومنعوه من التدريس، ولما رأوا تمكسه بعقيدته وثباته في دعوته أمر الحسين بن علي بالقبض عليه وسجنه مع المجرمين في غرفة وحده سنة ١٣٣٩هـ وسجن دون تحقيق أو حكم وظل في سجنه إلى أن زالت حكومة الأشراف عام ١٣٤٣هـ عندئذ ذهب نفر من أهله ومن طالبي علمه إلى مقر سجنه الذي عاش فيه تلك السنوات الطويلة دون أن يقص له ظفر ودون أن يحلق له رأس وكان الناظر إليه يصيبه الهلع والحزن على ما كان عليه هذا الرجل الجليل رحمه الله.. لم تمكنه الظروف القاسية من التأليف سوى رسالة صغيرة في الفقه الحنفي وهي «مالابد منه في الفقه»، وألف كتابا آخر في السجن لايزال مخطوطا.. ليت ورثته يبحثون عنه لإمكان طبعه والاستفادة منه.

اعتزل رحمه الله الوظائف بعد الإفراج عنه ولازم المسجد والبيت والتوجه إلى الله بالعبادة إلى أن توفي عام ١٣٤٩هـ رحمه الله وأسكنه واسع جناته.

الشيخ عبدالقادر مشاط

عبدالقادر مشاط، الإمام بمقام المالكي، المدرس بالمسجد الحرام، المالكي المكي، العلامة الأديب الشاعر.. ولد بمكة المكرمة في عام ١٢٤٨هـ ونشأ بها وحفظ القرآن العظيم وكثيرا من متون المذهب وغيرها، وتفقه على الشيخ العلامة حسين مفتي المالكية، وقرأ عليه في الحديث ومصطلحه وغير ذلك.. ولازم السيد أحمـد دحلان ملازمة كبيرة، وقرأ عليه علوما عديدة في فنون كثيرة، وانتفع به وتفوق وأذن له بالتدريس، وأجازه هو والشيخ حسين المذكور بسائر ما لهما من المرويات، فتصدر للتدريس بالمسجد الحرام وانتفع به كثير من الأنام، وهو من أكابر الطبقة الأولى من تلامذه السيد أحمد دحلان..

وكـان والده من أكـابر تجار مكة المكرمة المعتبرين، وكان المترجم ذا ثروة عظيمة، طلق اللسان، أديبا لطيف المحادثة والمفاكهة، أنيسا له نظم رائق أنيق، ولم يزل موزعا أوقاته إلى أن دعاه داعي الأجل وانتقل إلى رحمة الله عز وجل وكان انتقاله في عام ١٣٠٢هـ ودفن بالمعلاة رحمه الله.

السيد عبدالله باروم

السيد عبدالله بن عمر أحمد باروم، الشافعي المكي ولد بمكة المشرفة سنة ١٢٧٨هـ، ولما بلغ سن التكليف شرع في طلب العلم فقرأ على السيد محمد صالح زواوي، ثم لازم السيد بكري شطا ملازمة كلية، فقرأ عليه عدة كتب في عدة فنون ولما برع جلس بالمسجد الحرام للتدريس والإفادة والنفع، فدرّس وأفاد وأجاد ثم ترك ذلك، وترك مخالطة الناس، وصار منفردا بنفسه بعد أن كان يألف الاجتماع بالناس ويتحبب إليهم، وكان حسن المفاكهة فصيحا متكلما ذا دهاء وعقل وافر تام، والمترجم من بيت الطبريين من أولاد البطون منهم لا من أولاد الظهور، كما نطقت بذلك الحجج ودلت على ذلك، ولما غضب عليه أمير مكة الشريف عون الرفيق بسبب أناس رموه عنده، سلب منهم الخدمة المذكورة وأنعم بخدمة مقبرة السيدة خديجة لبيت أحمد دحلان، وخدمة مقبرة السيدة أمنة لبيت شطا وقد كان المكلف بذلك من قبل ثم نزع الخدمتين منهما أيضا، ووظف فيها بيت البو، وكان المترجم قد سافر إلى الأستانة وقتئذ، وحين ولي الشريف على إمارة مكة قدم إليها فأرجعهما الشريف المشار إليه إلى المترجم، ولم يزل قائما بأدائهما إلى أن توفي بمكة المكرمة سنة ١٣٣٥هـ وصلي عليه عند باب الكعبة ودفن بالمعلاة رحمه الله.



السيد محمد سعيد سنبل

السيد محمد سعيد محمد سنبل الشافعي المكي، الشهير بالفقيه، بالمروة، لأن محل سكناه بها، وإلى الآن بعض ذريته يسكنونها، وهو إمام المحدثين ببلد الله الأمين، شيخ الحجاز في زمانه، المتقدم على أقرانه، كان محدثا فقيها أبرز العلماء علما، وأوسع الفضلاء فهما، متقنا في سائر مذاهب الأئمة الأربعة، ماهرا ضابطا في علم الحديث، يرحل إليه للتلقي عنه العلماء الأجلة، أخذ العلوم ورواها عن الشيخ عيد النمرسي، والسيد عمر ابن أخت المحدث عبدالله بن سالم البصري، وقال صاحب تنزيل الرحمات في ترجمته: العالم العلامة المحقق، الفهامة مفتي المذاهب الأربعة، إمام الحديث الإمام الشافعي الصغير، المجمع على فضله وعمله - إلى أن قال - توفي بالطائف سنة ١١٧٥هـ ودفن أمام شباك سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنه، انتهى..

وخلف أبناء ثلاثة كلهم علماء أفاضل: الشيخ محمد، والشيخ طاهر، والشيخ محمد عباس، إلا أنهم أحناف، مدرسون بالمسجد الحرام.. وللمترجم رسالة في أوائل الحديث شهيرة «بأوائل سنبل» وغيرها العمل والمعول.

الشيخ عبدالكريم الأنصاري

الشيخ عبدالكريم بن يوسف الأنصاري المدني الحنفي، قال المرادي في سلك الدرر: هو الشيخ الفاضل الأديب البارع، ولد بالمدينة المنورة سنة ١٠٨٥هـ ونشأ بها، واشتغل بطلب العلوم فأخذ عن والده وعن السيد محمد بن عبد رب الرسول البرزنجي، والشيخ محمد الخليلي القدسي المشهور، والشيخ مسعود المغربي، والشيخ محمد الزرقاني شارح المواهب، والأستاذ الشيخ عبدالغني النابلسي، والجمال عبدالله بن سالم البصري المكي وغيرهم من العلماء وصار أحد الخطباء بالحرم النبوي الشريف وكان يدرس بالروضة المطهرة، حافظا للوقائع والأخبار متكلما لايعيا، وألف بعض رسائل في فنون العلم، وله تحريرات

لطيفة كان يكتبها على هوامش كتبه، كان عالما عاملا تعلوه سكينة العلم ووقار العمل، وأبهة التقوى، ذا شيبة نيرة ووجه مضيء

●● كانت وفاته بمكة المكرمة سنة ١١٦٢هـ ودفن بالمعلاه.

السيد محمد حسين الكتبي

السيد محمد حسين كتبي الحنفي، نزيل مكة المكرمة ومفتيها، تلميذ العلامة السيد أحمد الطحاوي الحنفي، قد المترجم إلى مكة في سنة ١٢٥٥هـ وجاور بها وصار يدرس بالمسجد الحرام، وفي يوم من الأيام حصلت برودة بين والي الحجاز حسيب باشا وبين مفتي مكة السيد عبدالله ميرغني الحنفي فعزله، فعرض الوالي المذكور الإفتاء على الشيخ عبدالله مرداد فلم يقبلها، فبعد ذلك قلدها السيد محمد حسين الكتبي فمكث فيها نحو سنة وجاء الأمر من الأستانة بعزله منها وإرجاعها إلى السيد عبدالله المذكور فلبث بها إلى أن مات سنة ١٢٧٣هـ، ثم تقلدها حضرة المترجم وجلس فيها إلى أن مات في سنة ١٢٨١هـ ـ ودفن بالمعلاة.. وخلف ابنه العلامة السيد محمد كتبي، وكانت ولادة صاحب الترجمة في سنة ١٢٠٢هـ واشتغل بطلب العلوم فأخذ الفقه من شيخه العلامة السيد أحمد الطحاوي المذكور وبه تخرج.. وكان من المساعدين له في تأليف الحاشية التي على الدر المختار، وأخذ الحديث عن العلامة الشهير الشيخ محمد الأمير الكبير، وكلهم أجازوه.. وكان المترجم عالما محققا ورعا صالحا زاهدا مدققا رحمه الله تعالى.. وله فتاوى جردها وجمعها ابنه السيد محمد المذكور وشرع في حاشية على كتاب الوقف من البحر، وفي حاشية على شرح العيني على الكنز، ومات ولم يكملها، وله شرح صغير على نظم الكنز باق تحت المسودة وله خاتمه على كتاب شرح الدرر.

السيد يحيى محمد مؤذن

السيد يحيى مؤذن ابن العلامة السيد محمد بن جعفر بن سعد الله.. ارتحل جده من مكة المكرمة بسبب ماصار في زمانه من انبعاث الفتن.. وتوطن «فتّن»

وهي من أحسن بلدان الهند وأطيبها ثم عاد جده الأدنى إلى مكة المكرمة وتوطنها وأولد الأولاد بها، والمترجم من نسله، مقيما مع بني عمه فيها.

المؤذن لقب أبيه السيد محمد لأنه أذن في المسجد الحرام نحو أربعين عاما، وكان له اهتمام بعمارة المنائر ولو من كسبه، وكل منارة يتركها مؤذنها يأتي هو بمؤذن آخر ويدفع له الأجرة من ماله حتى صار شيخا على كافة المؤذنين، مع ماهو قائم به من وظيفة التدريس بالمسجد الحرام، وماتركه إلا بسبب طعن سنه، ووهن عظمه..

وكذلك أذّن المترجم في حياة والده مدة سنتين في مدة شبوبيته ثم لما صار خطيبا توجه إلى خطبة الخطيب، فقد أعطيها في مدة شريف مكة الشريف غالب، بواسطة العلامة عبدالملك قلعي، الإمام هو وأبوه، المدرس بالمسجد الحرام المكي، كما ذكر ذلك هو بنفسه في شرحه على متن جواهر الباب المناسك. ولد بمكة بعد الألف والمائتين ونشأ بها. وطلب العلم فقرأ على جماعة من شيوخ مكة المكرمة كالعلامة عبدالحفيظ عجيمي، والشيخ عمر عبد رب الرسول، والشيخ محمد صالح الريس وغيرهم.. ولكن أكثرهم قراءة على يديه الشيخ عبدالحفيظ المذكور.. برع في النحو والمنطق والمعاني والبيان والفلك والفقه والأدب، ونظم الشعر.. وأجاز له الكل بالتدريس، فمن تصانيفه: حاشية على شرح المنسك الصغير للملا على قارى، وشرح على قصيدة ابن الوردي، وشرح على جواهر لباب المناسك، كلاهما له، وكتاب مشكاة مصباح الدليل في مخلوقات الملك الجليل، ودرة صدفة التحابير في قسمه العقار والدراهم والدنانير، وشرح متن نور الإيضاح للشر نبلالي، وحاشيته، إلا أن كليهما لم يتم، ولم يبيض، باق تحت المسودة، ورسائل عديدة.. ألف مناقب لسيدنا عمر رضي الله عنه، ومناقب للسيدة خديجة والسيدة آمنة رضي الله عنهما.. له ديوان جمع فيه سائر أشعاره وإنشاءاته، ومجمع خطب منابر، وعقد نكاح وغيرها.. وشرح على متن الأجرومية شهير بمكة، والشهب المحروقات فيمن ينكر الكرامات. توفي بمكة المكرمة في نيف وستين ومائتين وألف.. وعقب ابنا واحدا هو السيد أحمد وهو من الخطباء ومن المدرسين بالمسجد الحرام..

الشيخ عبدالحفيظ عجيمي

القاضي المفتي بن عبد الحفيظ درويش بن محمد حسن عجيمي، الحنفي المكي، الإمام والخطيب والمدرس بالمسجد الحرام.. ولد بمكة المكرمة وأخذ بها عن العلماء الإعلام مشائخ الإسلام، هداة الأنام، كالعلامة المفتي الشيخ عبدالملك القلعي، والفهامة الشيخ طاهر سنبل، وبهما تخرج وأخذ عن كثير من الواردين إليها كالعلامه أحمد الدردير والشيخ أحمد الشنواني، وغيرهم، وكلهم أجازوه.

تقلد نيابة القضاء بها في عام ١٢٢١هـ، ثم ولي قاضيا بمكة المكرمة فقام بشؤونها وسار بها سيرا حسنا.. وتقلد الإفتاء فقام به قياما مستحسنا.. كان عالما محققا بارعا مدققا. حدث أن رجلا قال لزوجته وهي على السجادة قاصدة الصلاة: إن لم تسقني ماء قبل أن تصلي فأنت طالق.. فصلت ولم تسقه الماء.. فبعد ذلك ذهب الرجل إلى الشيخ عبدالحفيظ عجيمي وأخبره بالقضية، وصار متندما على ما وقع منه، فقال الشيخ عبدالحفيظ ائتني بها فأتى بها إلى الشيخ فقال: توضئي، فصارت تتوضأ، والشيخ ينظر إلى وضوئها فلم تحسنه بحيث لا تصح الصلاة معه، فقال لزوجها: خذ زوجتك ولم تطلق عليك، لأن الصلاة إذا أطلقت تنصرف إلى الصلاة الصحيحة الكاملة، وهذه لم تصح صلاتها فلم تطلق عليك.. فهذا من تفقهه رحمه الله.

وحدث أيضا مسألة هي واقعة الفتوى.. فسأل صاحبها جميع علماء مكة عنها فكلهم اتفقوا على جواب عليها ماعدا المترجم.. فإنه خالفهم فيه.. فبلغهم فغضبوا حتى أن بعضهم وهو الشيخ محمد الشعاب تحدث وقال: هو من قبيل خالف تعرف.. ولما اجتمع مع المذكور، وتذاكرا في خصوصها فأطلعه على مايفيد النص في كتب المذهب بما يؤيد ما قاله، فقنع ورجع إلى الحق، ولما أخبر باقى الجماعة بذلك قنعوا أيضا وقالوا الرجوع إلى الحق فضيلة وأذعنوا له بالفضل.

توفي وهو في سجود الصلاة بالمحكمة الشرعية، وكان إذ ذاك قاضيا وكانت وفاته في ٢ ربيع أول ١٢٤٦هـ بمكة المكرمة ودفن بالمعلاة، وحضر غسله الأفاضل، ومن جملة من حضره مفتي مكة المكرمة السيد عبدالله ميرغني، فقبله

وبكى، وقال دفن الفقه مع أبي حنيفة الصغير، وكان يلقب في زمانه بذلك لشدة فقهه، وله مجموع فتاوى كبير في مجلد ضخم، ورسالة في جواز التوسد على اللحاف الحرير، ورسالة في جواز فعل الإنسان الاستخارة لغيره قد قرظ له عليها العلامة محمد صالح ريس والعلامة الشيخ محمد البناني، والسيد على البيتي.. وأخذ عن المترجم كثير منن الأفاضل كالمفتي السيد عبدالله ميرغني، والشيخ عبدالله سراج، والعلامة السيد مؤذن، والعلامة العارف بالله الشيخ محمد السنوسي المكيين وغيرهم، وأخذ عنه من الوافدين خلق لايحصون.. وبيت العجيمي بمكة بيت علم وفضل وإمامة وخطابة.. وإن شاء الله يكون لأحفادهم حظ من العلم على نحو ماكان لأجدادهم.

الشيخ عبدالله بن محمد المحجوب الميرغني

السيد عبدالله بن محمد الميرغني، الحنفي المكي، مفتي الأنام ببلد الله الحرام، وعلامة العلماء الأعلام.. ولد بمكة المكرمة واشتغل بطلب فنون العلم، وجد واجتهد، وأخذ عن كبار علمائها فقرأ على عمه السيد ياسين ميرغني، والعارف الشيخ عمر عبد رب الرسول، القاضي المفتي الشيخ عبدالحفيظ عجيمي، وغيرهم.. وتقلد الفتوي بعد موت شيخه الشيخ عبدالحفيظ عجيمي، ومكث فيها إلى أن توفى بمكة عام ١٢٧٣هـ ودفن بالمعلاة بحوطتهم الشهيرة بحوطة المراغنة..

وتأسف الناس وحزنوا لموته غاية الحزن وحضر جنازته غالب الناس، وكانت عظيمة حافلة قلّ من يلحق نعشه من شدة الزحام.. غير أنه في مدة الفتوى رفع عنها سنة واحدة، وتقلدها السيد محمد حسين كتبي عزله عنها والي الحجاز حسيب باشا، حين أراد المذكور انتزاع الأوقاف السلطانية من أيدي الناس الذين استولوا عليها بالفراغات الشرعية، فلم يمكنوه من ذلك وقال له المترجم لايسوغ لك بحال، فعزله وقلّد السيد الكتبي المذكور منصب الإفتاء ظنا منه أنه يوافقه على مراده، فلم يحصل له ذلك، ثم صدر الأمر بإرتجاعه فيها ففعل وكان

آية في الصلاح والزهد والتقوى. لايقبل هدية، فضلا عن الرشوة مع كمال حسن خلق وذكاء وفقاهة وعبادة وقيام بالليل.

مانقلته مما نشر في جريدة البلاد عندما كنت صاحبها ورئيس تحريرها.. ثم صدر في كتاب جمعه الأستاذ عمر عبدالجبار رحمه الله وفي عدة طبعات. ثم ما أمكننا الحصول عليه من أبناء وأحفاد قضاة مكة المكرمة وعلمائها.. لايشكل الكافة منهم.. بل كل مانشر وما لم ينشر ما زال موجودا في كتب التاريخ زاخرا بالمئات منهم.. أولئك الذين تخرجوا على أيدي علماء سبقوهم في أروقة الحرمين الشريفين ونهلوا من معينهم حتى غدوا في الذروة من العلوم والثقافة الإسلامية مما يشهد به التاريخ..

وإذا توقفنا عن الاستمرار في نشر أسمائهم بتاريخهم الوضاء فليقيني أن بوسع من يريد الاستزادة من معرفتهم ـ رحمهم الله، وأطال في عمر من ظلوا في عطائهم وجهادهم التعليمي ـ ، أن يتابع التعرف عليهم في كتب التاريخ أو في مواطن تعليمهم ومدارسهم. غير أنني وللتاريخ أجد أن من الإنصاف أن نشير إلى أن هؤلاء العلماء والقضاة كانوا يعتبرون تقديم هذه المعطيات على أنه واجب عليهم يجب أداؤه مما حباهم الله به من نور العلم وضيائه دون أن يكون هذا العلم بعطائه وسيلة لكسب الرزق.. بل إن معظمهم كان يأوي في بيته عددا من طلبة العلم الوافدين من الخارج من الديار الإسلامية كأندونيسيا وسنغافورة وماليزيا وغيرهم من شعوب جنوب شرقي آسيا وأفريقيا أيضا.. وكذلك الوافدين من الهند ومن البلاد العربية.. كان الموسرون من أهالى مكة المكرمة والمدينة المنورة وأهل الحجاز عموما يتبرعون مما أفاء الله به عليهم مساهمة منهم في إعاشة طلبة العلم وإسكانهم حتى يتمكنوا من الذهاب إلى بلادهم وقد حصلوا على إجازات التعليم وفتح حلقات الدروس في بلادهم للثقافة الدينية الإسلامية، كذلك عدد غير قليل يتعلمون تلاوة القرآن الكريم وأصوله وتجويده لتعليمه في بلادهم.

وتصوروا الجهود الجبارة.. الجهود الخيرة.. الجهود الباسمة تلك التي كانت تبذل في سبيل التعليم لأسمى ثقافة.. وأعلى علم مستمد من القرآن الكريم،

والسنة المحمدية الشريفة..

تصوروا كيف كان العلماء منذ مئات السنين وقد غصت حلقاتهم كما غصت منازلهم بطلبة العلم الذين كانوا يطلبون العلم لله جل جلاله..

ولعلنا نذكر مقولة شيخنا الفاضل الكبير الشيخ عيسى رواس رحمه الله تلك التي تقول: لقد طلبنا العلم لغير الله. فأبى الله إلا أن يكون العلم له..

لقد كان يعني بقوله هذا.. أننا كنا نحضر حلقات الدرس لنستفيد لذواتنا.. فإذا بنا نقبل على العلم ومناهجه وكتبه وتواليفه وشروحها لنغوص في أحشائها حتى أذن الله لنا أن نكون أساتذة حلقات في المسجد الحرام.. نعلم الناس ونفقههم في أمور دينهم..

إن نور العلم لايتغلغل في قلوب طالبيه إلا بالإخلاص ومعطياته.. وهكذا كان علماؤنا الأفاضل، بذلوا من دموعهم وكدهم وعرقهم واجتهادهم ما بذلوا ابتغاء وجه الله تعالى لمعرفة ماجاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ثم شرحه وتعليمه لجمهرة طلبة العلم الذين مازالت تغص بهم مدارس علمائنا بكل رحابة صدر وحب وحدب على طلبتهم.. يعلمونهم ويسدون احتياجاتهم من أسباب العيش بكرم واسع مما يتلقونه من أهل الخير جزاهم الله كفاء مايبذلون ويقدمون..

كل ذلك في سبيل نشر الثقافة الإسلامية الصحيحة وعلى النهج الذي امتدت جذوره واتسعت مداركه دون حشو أو تذويق.. بل صافيا كالرحيق الجميل والحلو المذاق.. وهل هناك مصداقية أقوى وأجل من مصداقية القرآن الكريم وسنة النبي العظيم والرسول الأمين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم. وقد قالها عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع مدوية عالية: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا.. كتاب الله وسنتي**» إذا: فليس غريبا أن تظل عقيدتنا وهي تستمد معطيات الحق والصدق من هذا القرآن العظيم والسنة المحمدية الصافية.. لأنه عليه أفضل الصلاة والسلام لاينطق عن الهوى، بل هو وحي يوحى..

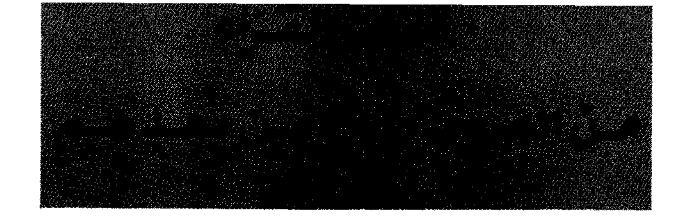
أفبعد كل هذا نلمس غير نهج الله وعقيدتنا السمحة المعطاءة؟ خاصة إذا أخلصنا معها النوايا في العمل والتعامل فيما بيننا كمسلمين ندرك معنى «أننا مسلمون» قولا وفعلا وصدقا. إن العقيدة الإسلامية وهي منهاج صادق وأمين تجعلنا في مقدمة الصفوف إذا ما اتخذناها أساسا في تعاملنا مع ذواتنا، وتعاملنا مع بعضنا البعض بالأمانة المنشودة، فلا نتظالم ولانؤذي.. وأن تكون العلاقة مع بعضنا البعض علاقة احترام للحقوق التي حبانا الله بها. فلقد حبانا الله جل شأنه بحريات ثلاث جرت في مدلولها ومعناها على لسان سيد البشر محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم عندما قالها مدوية صارخة في خطبة الوداع: «حُرِّمت عليكم دمائكم وأعراضكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا..»

إذا: فالتحريم هنا هو حماية الإنسان من أخيه الإنسان.. فلا يتعدى عليه بالقتل.. ثم لايتعدى بأكل أموال الآخرين بالباطل.. ثم لايجوز إطلاقا هتك أعراض الآخرين.. من هنا حبانا الله فردا فردا بهذه الحماية الإلهية، لأنها هي المطلب الغريز في نفس كل إنسان.

فإذا كان كل منا يأبى على نفسه هذه الاعتداءات.. فكيف يرضى لنفسه ممارستها تجاه الآخرين.. هذه المناهج الأساسية في عقيدتنا الإسلامية جعلت من هذه الأمة المحمدية: خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.. وكانت مكة المكرمة والمدينة المنورة بأهلها وجيرانها رسل خير وعطاء وعلم وتثقيف وسيظل إن شاء الله عطاؤهم ممتدا إلى يوم يبعثون..

أهل الحجاز بعبقهم التاريخي

أشهرُ القُرَّاء
من الصحابة ومن بعدهم



المشتهرون بإقراء القرآن من الصحابة سبعة

عثمان، وعلي، وأبي، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري

كذا ذكرهم الذهبي في طبقات القراء.

قال: وقد قرأ على أبيّ جماعة من الصحابة، منهم أبو هريرة وابن عباس وعبدالله بن السائب، وأخذ ابن عباس عن زيد أيضا، وأخذ عنهم خلق من التابعين.

فممن كان بالمدينة: ابن المسيب، وعروة، وسالم، وعمر بن عبدالعزيز، وسليمان، وعطاء أبنا يسار، ومعاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القارىء، وعبدالرحمن بن هرمز الأعرج وابن شهاب الزهري، ومسلم بن جندب، وزيد بن أسلم.

وبمكة: عبيد بن عمير، وعطاء بن أبي رباح، وطاووس، ومجاهد، وعكرمة، وابن أبي مليكة.

وبالكوفة: علقمة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، وعمرو بن شرحبيل، والحارث ابن قيس، والربيع بن خثيم، وعمرو بن ميمون، وأبو عبدالرحمن السلمي، وزر ابن حبيش، وعبيد بن نضيلة، وسعيد بن جبير، والنخعي، والشعبي.

وبالبصرة: أبو العالية، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، والحسن، وابن سيرين، وقتادة.

وبالشام: المغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب عثمان وخليفة بن سعد صاحب أبي الدرداء.

ثم تجرد قوم، واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية، حتى صاروا أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم، فكان بالمدينة: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، ثم شبية بن نصاح، ثم نافع ابن أبي نعيم.

وبمكة: عبدالله بن كثير، وحميد بن قيس الأعرج، ومحمد بن محيصن.

وبالكوفة: يحيي بن وثاب، وعاصم بن أبي النجود، وسليمان الأعمش، ثم حمزة ثم الكسائي.

والبصرة: عبدالله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء، وعاصم الجحدري، ثم يعقوب الحضرمي.

وبالشام: عبدالله بن عامر، وعطية بن قيس الكلابي وإسماعيل بن عبدالله بن المهاجر، ثم يحيى بن الحارث الذماري ثم شريح بن يزيد الحضرمي.

واشتهر من هؤلاء في الآفاق الأئمة السبعة

نافع، وقد أخذ عن سبعين من التابعين، منهم أبوجعفر

وابن كثير، وأخذ عن عبدالله بن السائب الصحابي.

وأبو عمرو، وأخذ عن التابعين.

وابن عامر، وأخذ عن أبي الدرداء، وأصحاب عثمان.

وعاصم، وأخذ عن التابعين.

والكسائي، وأخذ عن حمزة وأبي بكر بن عياش.

وحمزة، وأخذ عن الأعمش.

السبعة القراء

السبعة القراء هم: نافع وعاصم وحمزة والكسائي وابن عامر وأبو عمرو وابن كثير.

فأما نافع فهو أبو رويم نافع بن عبدالرحمن المدني، أخذ القراءة عن أبي جفعر القارىء، عن سبعين من التابعين، وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالمدينة المنورة. توفي سنة ١٦٩هـ. ومنن أشتهر بالرواية عنه قالون وورش.

وأما عاصم فهو أبو بكر عاصم بن أبي الجود الأسدي. كان قارئا متقنا حسن الصوت بقراءة القرآن، قرأ على زر بن حبيش. وعلى أبي عبدالرحمن بن حبيب السلمي توفي بالكوفة أو بالسماوة سنة ١٣٧هـ. روى عنه شعبة وحفص كلاهما بدون واسطة.

وأما حمزة فهو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي، قرأ على أبي محمد سليمان بن مهران الأعمش. كان عالما بكتاب الله مجودا له عارفا بالعربية.

توفي بحلوان سنة ١٥٦هـ وممن أشتهر بالرواية عنه خلف وخلاد، لكن بواسطة سليم بن عيسى.

وأما الكسائي فهو أبو الحسن على بن حمزة الكسائي، كان أوحد الناس بالقرآن، فكانوا يكثرون عليه، وقرأ على جماعة، غير أن اعتماده كان على حمزة ابن حبيب الزيات. توفي سنة ١٨٩هـ وقد اشتهر بالرواية عنه أبو الحارث والدوري، وأما ابن عامر فهو عبدالله اليحصبي، أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي. وقيل إنه قرأ على عثمان نفسه.

توفي بدمشق سنة ١١٨هـ وقد اشتهر برواية قراءته هشام وابن ذكوان، ولكن بواسطة أصحابه.

وأما أبو عمرو بن العلاء بن عمار التميمي المازني أعلم الناس بالقراءة، مع صدق وأمانة. وثقة في الدين.

قرأ على جماعة منهم أبو جعفر يزيد بن القعقاع والحسن البصري. توفي سنة ١٥٤هـ. وممن اشتهر بالرواية عنه الدوري والسوسي ولكن بواسطة اليزيدي.

وأما ابن كثير فهو أبو محمد عبدالله بن كثير الداري، كان إمام الناس في القراءة بمكة، قرأ على عبدالله بن السائب المخزومي توفي سنة ١٢٠هـ بمكة، وقد اشتهر بالرواية عنه البزي وقنبل، ولكن بواسطة أصحابه. وحمزة، وأخذ عن عاصم والأعمش والسبيعي ومنصور بن المعتمر وغيره.
إهـ، الإتقان في علوم القرآن، ج أ، ص ٢٠٤

أنواع القراءات

والقراءات: أنواع الأول: «المتواتر» وهو مانقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهاه وغالب القراءات كذلك.

«الثاني: «المشهور» وهو ماصح سنده ولم يبلغ درجة التواتر ووافق العربية والرسم وأشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ، ويقرأ به على ما ذكر ابن الجزري.

الثالث: «الآحاد» وهو ماصح سنده وخالف الرسم أو العربية ولم يشتهر الاشتهار المذكور، ولايقرأ به. وقد عقد الترمذي في جامعه والحاكم في مستدركه لذلك بابا أخرجا فيه شيئا كثيرا صحيح الإسناد، ومن ذلك ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قرأ

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ (سورة التوبة آية ـ ١٢٨)

بفتح الفاء الرابع: «الشاذ» وهو مالم يصح سنده وفيه كتب مؤلفة من ذلك قراءة ملك يوم الدين بصيغة الماضي.

الخامس: «الموضوع» كقراءات الخزاعي.
وهناك نوع سادس يشبه من أنواع الحديث المدرج، وهو مايزيد في القراءات

على وجه التفسير كقراءة ابن عباس ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج، أخرجه البخارى. أهـ

وقد انتشرت القراء في الأقطار، وتفرقوا أمما بعد أمم، وإشتهر من رواة كل طريق من طرق السبعة

راويان:

فمن نافع: قالون وورش، عنه.

وعن ابن كثير: قنبل والبزي، عن أصحابه، عنه.

وعن أبي عمرو: الدوري والسوسي، عن اليزيدي، عنه.

وعن ابن عامر: هشام وابن ذكوان عن أصحابه، عنه.

وعن عاصم: أبوبكر بن عياش، وحفص، عنه.

وعن حمزة: خلف وخلاد، عن سليم عنه.

وعن الكسائي: الدوري، وأبو الحارث.

ثم لما اتسع الخرق وكاد الباطل يلتبس بالحق، قام جهابذة الأمة، وبالغوا في الاجتهاد، وجمعوا الحروف والقراءات وعزوا الوجوه والروايات، وميزوا الصحيح والمشهور والشاذ بأصول أصّلوها، وأركان فصّلولها.

فأول من صنف في القراءات أبو عبيد القاسم بن سلام، ثم أحمد بن جبير الكوفي ثم إسماعيل بن إسحاق المالكي صاحب قالون، ثم أبو جعفر بن جرير الطبري، ثم أبوبكر محمد بن أحمد بن عمر الدجواني، ثم أبو بكر بن مجاهد، ثم قام النـاس في عصره، وبعـده بالتأليف في أنواعها، جامعا ومفردا، وموجزا ومسهبا، وأئمة القراءات لاتحصون.

وقد صنف طبقاتهم حافظ الإسلام أبو عبدالله الذهبي، ثم حافظ القراءات أبوالخير ابن الجزري.

أهـ، الإتقان في علوم القرآن، ج أ ص ٢٠٦

أسباب اختلاف القراءات

إن المعول عليه في القرآن الكريم إنما هو التلقي والأخذ ثقة عن ثقة، وإماما عن إمام إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإن المصاحف لن تكون هي العمدة في هذا الباب إنما هي مرجع جامع للمسلمين، على كتاب ربهم، ولكن في حدود ما تدل عليه وتعينه، دون ماتدل عليه ولا تعينه، وقد عرفت أن المصاحف لم تكن منقوطة ولا مشكولة وأن صورة الكلمة فيها كانت محتملة لكل ما يمكن من وجوه القراءات المختلفة، وإذا لم تحتملها كتبت الكلمة بأحد الوجوه في مصحف، ثم كتبت في مصحف آخر بوجه آخر وهلم جرا، فلا غرو أن كان التعويل على الرواية والتلقي هو العمدة في باب القراءة والقرآن.

وقلنا، إن عثمان رضي الله عنه حين بعث المصاحف إلى الآفاق أرسل مع كل مصحف من يوافق قراءته في الأكثر الأغلب، وهذه القراءة قد تخالف الذائع الشائع في القطر الآخر عن طريق المبعوث الآخر بالمصحف الآخر ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم قد أختلف أخذهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنهم من أخذ القرآن عنه بحرف واحد، ومنهم من أخذه عنه بحرفين، ومنهم من زاد، ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذه الحال فاختلف بسبب ذلك أخذ التابعين عنهم، وأخذ تابع التابعين عن التابعين، وهلم جرا حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصصوا واقطعوا للقراءات يضبطونها ويعنون بها بنشرها كما يأتي. هذا منشأ علم القراءات واختلافها، وإن كان الاختلاف يرجع في الواقع إلى أمور يسيرة بالنسبة إلى مواضع الاتفاق الكثيرة كما هو معلوم. لكنه ـ على كل حال ـ اختلاف في حدود السبعة الأحرف التي نزل عليها القرآن كلها من عند الله، لامن عند الرسول ولا أحد من القراء أو غيرهم.

مناهل العرفان في علوم القرآن ج أ ص ٤٠٦



علماء القراءات ومشائخ الإقراء بالحرمين الشريفين

كانت مكـة المكـرمـة والمـدينـة المنورة عامرتين بالقراء وبعلماء القراءات الجامعين لكل القراءات.

وكانوا لايعترفون للعالم بالعلم إلا إذ كان حافظا لكتاب الله وهذا أقل المطلوب إذ إن كثيرا من أولئك العلماء كان حافظا وجامعا للقراءات وله إجازة فيها وادراك لها ثم منهم من يشتغل بالتعليم والتدريس للعلوم الإسلامية ومنهم من يتفرغ لهذا العلم الذي هو علم القراءات فيجتمع عليه المريدون لأخذ علم القراءات ويتفرغ لذلك ليلا ونهارا وقد برز في هذا الميدان كثير من العلماء القراء وسنتحدث عنهم إن شاء الله.

في هذا البحث بحسب ما تيسر ممـا تسعف به الذاكرة وتجود به المصادر وأفواه الرجال لأنه لايوجد فيما أعلم شئي خاص بهذا الموضوع.

أما العلماء الجامعون للقراءات العارفون بها الأخذون لها والمشاركون فيها فكثيرون جدا لكنهم لم يتفرغوا لها ولم يشتغلوا بها مع معرفتهم وإدراكهم لها ولذا لم يشتهروا ولم يبرزوا في هذا الميدان الخاص.

ومن هذا النوع ممن أدركناه الوالد السيد علوي بن عباس المالكي الحسيني، والسيد محمد أمين كتبي المكي الحسني، والشيخ محمد نور سيف ابن هلال، والشيـخ حسن بن محمد المشاط المكي، والشيخ محمد إبراهيم بن سعد الله الختني المدني، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي المدني والشيخ محمد المختار الشنقيطي المدني، والشيخ محمد أمين طرابلسي، ومن في هذه الطبقة من علماء المدينة المنورة ومكة المكرمة ممن أدركناهم واستفدنا منهم وأخذنا عنهم وتشرفنا بالسلام عليهم والاستجازة من أكثرهم.



أهل الاختصاص في ميدان القراءات

أما المتخصصون في هذا الميدان من علماء القراءات وشيوخ هذا الفن فهم كثير ويأتي في الدرجة الأولى من هذه الطبقة رجال كرام وأئمة أعلام منهم

السيد أحمد بن حامد التيجي

هو العلامة المقرىء الشهير السيد أحمد بن حامد بن عبد الرازق الحسيني التيجي ولد الشيخ المترجم في أبي تيج بمصر في شهر ذي الحجة سنة خمس وثمانين ومائتين وألف ونشأ في حجر والده واعتنى بحفظ القرآن الكريم وتجويده وقراءته فأخذ ذلك عن أعلام منهم السيد أحمد زكوة من أبي تيج أيضا حفظ القرآن الكريم عليه ومنهم والده السيد حامد التيجي حفظ القرآن الكريم عليه ومنهم الشيخ محمد سابق أخذ عنه القراءات السبعة بالإسكندرية وأجازه في ذلك شفهيا سنة وفاته سنة ١٣١٢هـ ومنهم الشيخ عبدالعزيز بن على كحيل شيخ القراء أخذ عنه القراءات العشرة من طريق الشاطبية والدرة وأجازه في ذلك شفهيا وكتابة منهم الشيخ محمد على الضباع شيخ القراء بالقاهرة أخذ عنه القـراءات العشرة من طريق طيبة سنة ١٣٤٤هـ وأخذ عنه القراءات الأربعة عشرة سنـة ١٣٤٥هـ وأجازه في جميع ذلك شفهيا وكتابة غيرهم، وكانت أول رحلات المترجم إلى الحجاز سنة ستة عشرة وثلاثمائة وألف وأقام بالمدينة إلى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف فذهب إلى الشام وأقام بحلب وصار يتردد منها إلى مصر في كل عام ويعود إليها وذلك سنة سبع وأربعين وثلاثمائة وألف ففي أوائل السنة المذكورة رحل إلى مكة موافقة لما أشار به عليه مؤسس مدارس الفلاح الشيخ محمد على زينل على رضا وتوظف بمدرسة الفلاح بمكة في شعبة حفظ القرآن الكريم وقد أخذ عنه القراءات كثير من القراء المشهورين بمكة المكرمة وصار به النفع العظيم وتردد إلى مصر أيضا في كثير من السنين المقيم فيها بمكة وذلك حين إقبال شهر رمضان ثم يعود إلى مكة بعد انتهاء الشهر المذكور وقد ترك

هذا التردد من قبل سنة ستين وثلاثمائة وألف وأبدله بالتردد لزيارة المدينة المنورة في الفسحة المدرسية في بعض السنين ومازال مقيما بمكة المكرمة موظفا بمدرسة الفلاح ملاذاً لطلبة القراءات إلى أن مرض مدة من الزمن وانتقل إلى رحمة الله تعالى من دار الفناء إلى دار البقاء وذلك بمكة المكرمة بداره بمحلة جياد ليلة الأربعاء ثاني شهر محرم سنة ثمان وستين وثلاثمائة وألف وشيعت جنازته في ضحوة يوم الأربعاء المذكور في جمع عظيم وصلي عليه بالمسجد الحرام ودفن بالمعلاة تغمده الله برحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته آمين.

صورة إجازته للطلاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين الحمد لله الذي ختم أنبياءه بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم سيد الأنام وأنزل عليه القرآن بأبلغ معنى وأحسن نظام وأورثه من أصطفاه من عباده ورفع مقامهم إلى أعلى مقام وأدخلهم حرز الأماني فبلغوا برؤية وجهه التقريب إلى أقصى الحرام وأسعدهم بتيسير نشر قراءته وعمهم بجزيل فضله وعوائده وفضلهم بعد النبيين والمرسلين على سائر الأنام أحمده حمد عبد مستمر على تلاوة كتابه القديم محافظ على دراسته فكان له خير جليس ونديم وأخلص ببركته من الريب والشكوك والظنون والأوهام وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تنجي قائلها من عذاب يوم الزحام وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله نبي آدام الله شريعته إلى يوم القيام صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه صلاة وسلاما دائمين متلازمين مامحب إلى حماه قد هام. أما بعد فيقول دائم الفقر إلى مولاه الخالق أحمد بن السيد حامد السيد عبدالرازق الريدي بمكة المكرمة إن أولى ماأنفقت فيه الهمم العوالي وأجمل ماصرفت فيه المهج الغوالي تعلم كتاب الله تعالى بعلم وتعليمه وتدبير أوجه قراءته وتفهيمه فلذا اعتنى به أهل العلم الأخيار واهتم بإتقانه وتحريره الأفاضل المحدثون الأبرار منهم ولدنا الشاب الصالح الفالح المتقن الفاضل الناجح

المتمسك بسنة خير البرية السيد أبوبكر بن السيد أحمد بن السيد الجليل مولانا الفاضل السيد حسين الحبشي من أهالى مكة المكرمة ومدير مدرسة الفلاح الغراء الذي قد قرأ علي ختمة كاملة بالتجويد والتحرير للإمام أبي بكر عاصم بن أبي النجود من روايتي أبي بكر شعبة بن عياش وحفص بن سليمان الكوفيين من طريق الشاطبية وقد أجزته بذلك إجازة صحيحة بعبارة مقبولة صريحة بشرطها المعتبر عند أهل العلوم والنظر أن يقرأ أو يقرىء من شاء حيث شاء في أي قطر حل فيه أو ارتحل وفي كل مكان أقام فيه ونزل من أراد القراءة عليه بهاتين الروايتين غفر الله له بذلك أوزاره وأعلى في الدراين حزبه ومناره ونفع به المسلمين وأكثر أمثاله بين الخلاق أجمعين وأخبره أني أخذت هذه القراءة مع القراءات العشر بمضمن الشـاطبية والدره عن شيخي الأستاذ الفاضل والحبر الكامل الشيخ عبدالعزيز بن على كحيل شيخ القراء والمقارىء بمدينة الإسكندرية سابقا وأخذ هو عن الإمام المتقن الشيخ المطوبيسي وهو نقل عن الأستاذ الفاضل على الحلو إبراهيم بسمنود وهو قد نقل عن الأستاذ الفاضل مولاى الشيخ سليمان الشهداوي قال وأخبرني أنه نقل ما ذكر عن سيدي الشيخ مصطفى اليهي عن والده وأستـاذه المرحوم الشيخ على الميهي البصير بقلبه وهو نقل ما ذكر عن مشايخ أعلام وجهابذة محققين فهام منهم أستاذه الجليل سيدي ومولاي المحلي والمرحوم الشيخ إسماعيل وهو عن شيخه الشيخ على الرميلي وهو عن الشيخ محمـد البقري وهو عن شيخه الأستاذ الشيخ عبدالرحمن اليمينى عن والده الشيخ شحاذة اليميني وتوفي والده في سورة النساء فأستأنف ختمة على تلميذ والده العلامة ابن عبدالحق السنباطي وابن عبدالحق عن الشيخ شحاذة اليمني وهـو عن الشيـخ محمد بن جعفر الشهير بأوليا أفندي وهو عن شيخه أحمد المسيري المصري وهو عن شيخه نصر الدين الطبلاوى وهو عن شيخ الإسلام زكريا الأنصاري وهو عن الشيخ أحمد ابن أسد والشيخ رضوان العقبي وأبي العباس أحمد بن أبي بكر القليتاوي وأبي نعيم النقير وأبي طاهر محمد بن محمد العقيلي الشهير بالنويري وقرأ هؤلاء المذكورون على الشيخ حافظ عصره ووحيد دهره شيخ القراء والمحدثين محمد بن محمد الجزري المقرىء الشافعي مؤلف طيبة النشر وتقريبه بإسناده إلى القراءات العشر وقرأ ابن الجزري على شيوخ

منهم شيخه الأستاذ شيخ مشايخ الإقراء بالشام أبو المعالي محمد بن أحمد اللبان وقرأ اللبان على أبي العباس أحمد بن إبراهيم المرادى وقرأ المرادي على أبي محمد عبدالله بن يوسف الشبارتي على أبي العباس أحمد عبدالله علي الحصارح وقرأ ابن الجزري أيضا بمضمن كتاب الشاطبية على الشيخ الإمام شيخ القراء أبي محمد عبدالرحمن بن أحمد بن علي البغدادي وقرأ بمضمنها قبل ذلك على الشيخ الإمام الحافظ إمام المحدثين أبي المعالي محمد بن رافع السلامي بدمشق المحروسة وقرأ البغدادي على الشيخ الأصيل أبي علي الحسن بن عبدالكريم الغماري المصري وقرأ الغماري على الإمام العالم الزاهد أبي عبدالله محمد بن يوسف القرطبي وقرأ القرطبي على ناظمها الإمام العلامة ولي الله أبي القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الرعيني الأندلسي الشاطبي وقرأ ابن رافع على الإمام إسماعيل بن عثمان الحنفي وقرأ ابن عثمان على الإمام علم الدين أبي الحسن علي بن عبدالصمد السخاوي شارح الشاطبية وقرأ السخاوي على ناظمها وقرأ الشاطبي بمضمن كتاب التيسير على الإمام أبي الحسن على ابن هذيل وقرأ بن هذيل على أبي داود سليمان بن نجاح على الإمام الحجة الحافظ أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني مؤلف كتاب التيسير قال الداني إسناد قراءة الإمام عاصم فأما راوية أبي بكر فحدثنا بها محمد بن أحمد بن علي الكاتب قال حدثنا ابن مجاهد قال أنبأنا إبراهيم بن أحمد أن عمر الوكيعي قال أنبأنا يحيى بن آدم قال أنبأنا أبوبكر عن عاصم وقرأت بها القرآن كله على فارس بن أحمد المقرىء وقال قرأت بها على أبي الحسن عبدالباقي بن الحسن المقرىء وقال قرأت على إبراهيم بن عبدالرحمن بن أحمد المقرىء البغدادي وقال قرأت علي يوسف بن يعقوب الواسطى وقال قرأت على شعيب بن أيوب الصريفيني وقال قرأت بها علي يحيى بن آدم عن أبي بكر عن عاصم وقال فارس بن أحمد وقرأت بها أيضا على عبدالله بن الحسين وأخبرني أنه قرأ على أحمد يوسف القافلاني وقرأ أحمد بن يوسف على الصريفيني عن يحيى بن آدم عن أبي بكر عن عاصم وأما رواية حفص فحدثنا بها أبو الحسن طاهر بن غلبون المقرىء قال أنبأنا بها أبوالحسن على بن محمد ابن صالح الهاشمي المقري بالبصرة قال حدثنا أبو العباس أحمد بن سهل الأشناني قال قرأت على أبي

محمد عبيد بن الصباح وقال قرأت على حفص وقال قرأت على عاصم وقرأت بها القرآن كله على شيخنا أبي الحسن وقال قرأت بها القرآن على الهاشمي وقال قرأت على الأشناني عن عبيد بن حفص عن عاصم هو الإمام عاصم بن أبي النجود وكنيته أبو بكر تابعي قرأ على عبدالله بن حبيب السلمي وزر بن حبيش الأسدي وعلى عثمان وعلى ابن مسعود وأُبَيّ وزيد رضى الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمين وحي رب العالمين جبريل - عليه السلام - وهو عن اللوح المحفوظ عن رب العزة جل ثناؤه وتقدست أسماؤه هذا وقد أجزت المذكور أن يروي عنى هاتين الروايتين المذكورتين من طريق الشاطبية بشرط التأمل والتثبت والمراجعة والإتقان والعرض عند الشك على أهل الفن والعرفان لأن الإنسان محل الخطأ - والنسيان وأوصيه بتقوى الله تعالى في السر والعلانية وحفظ كتاب الله تعالى وتعظيمه وقيامه بوظائف خدمته وتجويده وأن يبذله لطالبيه ويعين عليه ذا الرغبة من خاطبيه وأساله أن يدعو لي حال قراءته وتلاوته ويخصني بذلك في خلواته وجلواته بخالص نيته جعله الله تعالى من العلماء العاملين وكفاه الله شر خلقه أجمعين بجاه سيدنا ومولانا محمد سيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين صلاة وسلاماً دائمين متلازمين ماتعاقبت الأيام والليال والحمد لله رب العالمين.

الشيخ محمد حسن محمد السعيد السناري

هو الحافظ المقرىء الشهير الشيخ حسن محمد السعيد البكري السناري كان أستاذ التعليم للقرآن الكريم عن ظهر قلب بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة من بعد تأسيسها إلى نهاية سنة ١٣٣٥ وقد تخرج على يديه كثير من حفظة القرآن وكان له هيبة وشدة اشتهر بها مع إخلاص وصلاح وتقوى توفي في السادس من شهر جمادى الأولى سنة تسع وستين - وثلاثمائة وألف رحمه الله تعالى رحمة الأبرار وأسكنه جنات تجري من تحتها الأنهار.

ومما أفاد به لمساعدة الحافظ على معرفة آي سورة الرحمن هذه الكلمات:

«**حرمى وكيسي يف فيه وذف فمفكه ومففف حلمت**»

وهي تتضمن أول كل آية بعد كل آية من قوله تعالى:

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (سورة الرحمن ـ آية ٢٥)

شهادة إتمام القرآن من التلاوة

١ـ كانت مدرسة الفلاح تمنح المتخرج من قسم الحفاظ والقراءات شهادة تتضمن الإجازة في الإقراء والقراءة.

٢ـ وكان يوقع عليها توقيع الشيخ حسن السناري والسيد محمد طاهر مسعود الدباغ والشيخ سليمان غزاوي والشيخ محمد عطا الله الفاروقي والشيخ عبد الله ابن إبراهيم حمدوه وهي هذه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

(سورة الحجر ـ آية ٩)

حمدا لمن أنزل الكتاب على عبده ولم يجعل له عوجا وأحكم آياته ففصلها براهين قطع بها الحجحا وأورثه من أصطفاه من عباده فنالوا ـ السعادة بقوله لهم في داكر أمته اقرؤوا وارقوا درجا وصلاة وسلاما على من دعانا إلى الله تعالى فحكمناه فينا ولم نجد في أنفسنا حرجا وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم ومن على منوالهم نسجا أما بعد فإن الله تعالى قد من وتفضل وهو الكريم المتفضل المنان على ولدنا السعيد بانضمامه في سلك حملة القرآن فقرأه عن ظهر قلب وجوده ـ وأتقنه تجويدا وإتقانا محكمين بمدرستنا الفلاحية المكية على أستاذه الشيخ حسن محمد البكري السناري المعلم بالمدرسة المذكورة وبعد أن تمت له بعون

الله تعالى هذه الفضيلة استحق حمل هذه الشهادة مجازا بها في الإقراء والقراءة بشرط التقوى والمحافظة على مايجب عليه أداؤه من الأداب المطلوبة من حاملي كتاب الله العظيم فإنه له خير جليس وأنيس وشفيع كريم وهو حسبنا وولي التوفيق.

عضو	عضو	عضو
عبدالله بن إبراهيم حمدوه	محمد عطاء الله	سليمان غزاوي
عضو	عضو	مهر المدرسة
حسن محمد السناري	محمد مسعود الدباغ	مدرسة الفلاح بمكة المشرفة

الشيخ أحمد زهر الليالي

هو العلامة المقرىء الجليل الشيخ أحمد بن حسن زهر الليالي ولد بمكة المكرمة سنة خمسة وثلاثمائة وألف تقريبا ونشأ بها ومات والده بمكة سنة عشر وثلاثمائة وألف وقد اعتنى بحفظ القرآن الكريم وأول تعليمه عند السيد محمد مجاهد إلى أن وصل إلى (قد سمع) ثم أتم الحفظ عند شيخنا السيد هاشم بن محمد مجاهد ثم قرأ عند شيخنا الشيخ عبدالله حمدوه جميع المصحف ثم سافر إلى المحلة الكبرى بمصر عام أربع وعشرين وثلاثمائة وألف وقرأ على الشيخ وهبة سرور القرآن والجزرية وقرأ عليه الكفراوي في النحو وعاد سنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف إلى مكة وقرأ على الشيخ عبدالله أبي الخير متن القطر ودرس بالمدرسة الراقية الهاشمية من عام أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف إلى عام أربعين وثلاثمائة وألف ثم سافر إلى مصر وأقام بالأزهر سنة وسافر من هناك إلى الهند فأقام في التعليم في مدرسة تعليم الدين برانقون إلى عام ست وأربعين وثلاثمائة وألف ثم رجع إلى مكة والتحق بالتدريس في المدارس الأميرية ثم من عام أربع وخمسين وثلاثمائة وألف تعين مديرا للمدرسة المحمدية ثم إنتقل إلى المدرسة الخالدية مديرا سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وألف.

الشيخ عبدالله حمدوه

هو العلامة المقرىء المربي المرشد الجليل الشيخ عبدالله بن إبراهيم بن حمدوه بن محمد نور الحسين السناري ولد في حلة رفاعه أبو سن بلد مشهورة بالسودان حين مرور والده عليها وإقامته بها وأصل إقامة عائلتهم في جزيرة الأشراف بدنقله بالسودان - وكانت ولادته سنة أربع وثمانين ومائتين وألف وأول تعليمه أخذه القرآن الكريم على الشيخ على بن بشاره بالسودان وأتقن حفظه جيدا حتى أن بعض أصحابه يذكر أنه كان يقرأ في رمضان ستين ختمه واحدة بالنهار وواحدة بالليل.

ولما شب الشيخ المترجم له هاجر إلى الحرمين فمكث بمكة وأخذ بها القرآن الكريم على الشيخ المشهور إبراهيم سعد - المتوفى بمكة سنة ست عشرة وثلاثمائة وألف وكذلك أخذ بها القرآن أيضا على الشيخ أحمد حامد التيجي ثم ذهب إلى المدينة المنورة وفتح بها محلا لتعليم القرآن الكريم ومكث هناك مدة نحو سنة أو أكثر ثم رجع إلى أم القرى وألقى بها عصا التيار وفتح محلا لتعليم القرآن الكريم والتجويد فأقبل عليه الناس بأبنائهم لما رأوا فيه من الإخلاص والحزم والفتوح التي أجراها الله على يده ومازال على ذلك إلى أن جاء المنفق الشهير الشيخ محمد علي زينل علي رضا إلى مكة لفتح مدرسة الفلاح بها واطلع على محلات التعليم بها ليختار منها محلا ليكون نواة لمدرسته فوقع نظره على المترجم الشيخ عبدالله حمدوه لما رأى من حالته التي هي وفق مرغوبه وكفيلة بإدراك مطلوبه ففاوضه في هذا الأمر واتفقا على ذلك وفتحا مدرسة الفلاح بمكة المكرمة بالطلبة الذين هم عند الشيخ عبدالله حمدوه المترجم فكان مؤسسها الشيخ محمد علي زينل يساعد بالمال والشيخ المترجم يساعد بالتعليم والعمل على تقوية دعائمها وشد أزرها بالرجال وكان ذلك سنة ثلاثين وثلاثمائة وألف.

وفي سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وألف قام الشيخ عبدالله حمدوه بإدارة المدرسة بالحكمة والسداد والرأي الصائب السديد والدفاع المجيد وقد كان هو أحد أعضاء مدارس الفلاح الذين عينهم مؤسسها للوصاية عليها ومازال قائما

بإدارة المدرسة بمكة إلى وفاته رحمه الله تعالى ولم يشتغل بوظيفة في غير المدرسة غير أنه كان يحضر جلسات مجلس شورى الخلافة أيام خلافه الملك الحسين حيث كان عضوا في ذلك المجلس كما أنه أيضا كان أحد الأئمة بالمسجد الحرام مدة من الزمان في أيام الحكومة السعودية وقد كانت وفاته رحمه الله تعالى بمكة ليلة الخميس الموافق سابع عشر جمادى الثانية سنة خمسين وثلاثمائة وألف وصلي عليه صبيحة ذلك اليوم بالمسجد الحرام بإمامة الشيخ عمر باجنيد وشيعت جنازته بمحفل عظيم ودفن بالمعلاة وأقفلت المدرسة في ذلك اليوم ورثاه الشعراء وكان لوفاته حزن عظيم حيث كان من أعظم العاملين على بث العلم في بلد الله الأمين والساعين لإشادة هذا الدين تغمده الله برحمته ورضوانه.

مؤلفاته

له رسالة في التجويد سماها مفتاح التجويد وقد نفع الله بها نفعا عاما وله أيضا رسالة في التوحيد بإشتراك السيد طاهر الدباغ في تأليفها وكان أحد المؤلفين للترغيب والترهيب الذي ألفه أساتذة الفلاح سابقا لمدارس الفلاح.

السيد محمد هاشم مجاهد

هو الإمام المقرىء الجليل السيد محمد هاشم بن السيد محمد مجاهد ولد بمكة المكرمة سنة ثلاث وثلاثمائة وألف تقريبا وهو أخو الشيخ أحمد زهر الليالي من الرضاع ونشأ بنمة وقرأ على والده القرآن الكريم وأخذ العلوم على السيد عبدالله دحلان والفقه الشافعي على الشيخ عمر باجنيد وكان المترجم يتردد إلى الحبيب حسين بن محمد الحبشي ويرحل معه إلى الطائف للاصطياف به أكثر من مرة وكان يسافر إلى مصر ويعود إلى مكة وكان معلما بالمدارس الأميرية أيام الملك الحسين وتوفي في تربه في الوقعة الشهيرة بوقعة تربة رحمه الله تعالى وله رسالة في الإملاء مطبوعة.

الشيخ سليمان بن فرج الغزاوى

هو الأجل الفاضل الخطاط الشهير الشيخ سليمان بن الشيخ فرج الغزاوي الشافعي المكي نشأ بمكة وحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب وأتقن حفظه عند المقرىء الشهير الشيخ إبراهيم النوري وأخذ الخط عن والده ونبغ في جميع أنواعه حتى صار أشهر الخطاطين بمكة وهو أول خطاط تعين بمدرسة الفلاح بمكة من حين تأسيسها ومازال يعلم بها فن الخط إلى أن توفي رحمه الله تعالى وكان مع أشتغاله بالخط كثير التلاوة للقرآن الكريم في ممشاه وجلوسه وغدوه ورواحه على جانب عظيم من التقوى والاستقامة وتخرج على يديه الجمّ الغفير من الخطاطين وله الأثار الجليلة في هذا الفن الجليل ومرض في آخر أيامه مرضا ألزمه الفراش إلى أن انتقل إلى جوار ربه بمكة بداره بمحلة الباب وذلك في يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وألف وشيعت جنازته في عصر اليوم المذكور وصلي عليه بالمسجد الحرام ودفن بالمعلاة تغمده الله برحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته.

الشيخ محفوظ الترمسي

هو العلامة المحدث المسند الفقيه الأصولي الشيخ محمد محفوظ بن العلامة الفقيه عبدالله بن العلامة الحاج عبدالمنان الترمسي الجاوي ثم المكي الشافعي.

مولده بقرية ترمس من قرى صولو بجاوا الوسطى في ١٢ جمادى الأولى ١٢٨٥هـ وأبوه غائب عنه في مكة، وتربى في حجر والدته وأخواله.

وتلقى مبادىء الفقه في حداثة سنة عن شيخ مكتب القرية من أفاضل علماء جاوا وحفظ القرآن، ثم استقدمه أبوه العلامة الفقيه الشيخ عبدالله الترمسي إلى مكة المكرمة ورحل إليه سنة ١٢٩١هـ فاستوطن معه فيها وقرأ عليه جملة من الكتب ثم رجع إلى جاوا بصحبة أبيه وانتقل إلى سماران، ولازم بها العامة الشيخ

صالح بن عمر السماراني ومكث عنده في الرباط وقرأ عليه جملة من الكتب.

ثم رحل ثانيا منها مهاجرا إلى مكة فأقام بها وتلقى العلوم والفنون على كبار علمائها وتفقه على العلامة السيد أبي بكر بن محمد شطا المكي وهو عمدته في الرواية والتحديث، وسمع كثيرا من الكتب الحديثية وفي مصطلح الحديث على العلامة المحدث السيد حسين بن محمد الحبيشي المكي عرف بابن المفتي وكذا قرأ كثيرا من كتب الحديث وعلومه على العلامة شيخ الشافعية بمكة الشيخ محمد سعيد بابصيل، وأخذ القراءات الأربعة عشرة عن العلامة عمدة المقرئين بمكة الشيخ محمد الشربيني الدمياطي نزيل مكة.

جد واجتهد في التحصيل وسهر الليالي حتى برز في الحديث وعلومه وبرع وأشتهر في الفقه وأصوله والقراءات وشارك في فنون كثيرة، وأجازه مشايخه بالتدريس وتصدى للإفادة بالمسجد الحرام عند باب الصفا وبمنزله وانتفع به الطلبة، وأقبل الناس لأجتناء ثمارة اليانعة من كل حدب وتخرج على يده خلق كثيرون منهم: أخواه الكياهي رادين دحلان السماراني الفلكي والكياهي محمد دمياطي الترمسي «ت ١٣٥٤» والكياهي خليل اللاسمي كاتبه الخاص والكياهي دلقار المقلاني والكياهي محمد هاشم بن اشعرى الجومباني والكياهي محمد فقيه بن عبدالجبار المسكومباني، والأخوان الكياهي بيضاوي والكياهي عبدالمهيمن ابنا عبدالعزيز اللاسمي، والكياهي تاوي الفاسرواني والكياهي عباس بونتات الشربوني والكياهي عبدالمحيط بن يعقوب السيد رجاوي السرباوي ثم المكي.

وروى عنه عامة ما له جماعة من العلماء منهم المحدث الشيخ حبيب الله الشنقيطي ومحدث الحرمين الشريفين الشيخ عمر بن حمدان المحرسي والمقرىء الشيخ أحمد المخللاتي الشامي ثم المكي والعلامة المتفنن الشيخ محمد الباقر ابن نور الجوكجاوي والمعمر كياهي معصوم بن أحمد اللاسمي والكياهي عبدالوهاب بن حسب الله الجومباني والمعمر الشيخ عمر بن أبي بكر باجنيد المكي والشيخ علي بن عبدالله بنجر المكي والشيخ محمد عبدالباقي الأيوبي اللكنوي ثم المدني والشيخ عبدالقادر بن صابر المندهيلي ثم المكي.

وتقريره وتدريسه باللغة العربية الفصحى ويخلطها تارة باللغة الجاوية وألف كتبا كثيرة من أجلّها: منهج ذي النظر في شرح ألفيه الأثر ـ طبع مرات، وموهبة ذي الفضل في حاشية شرح مقدمة بافضل في أربع مجلدات ـ طبع، ونيل المأمول حاشية غاية الوصول على لب الأصول في ثلاث مجلدات ضخمة واسعاف المطالع بشرح البدر اللامع نظم جمع الجوامع في مجلدين طبع الأول وحاشية تكمله المنهج القويم في مجلد وغنية الطلبة بشرح الطيبة في القراءات العشرة في مجلد ومنها هذا الثبت المسمى كفاية المستفيد لما علا من الأسانيد طبع مرات.

واشتهر فضله بين الناس وعامة الطبقات وكان إنسانا حسن الأخلاق لطيف المعاشرة لايتدخل فيما لايعنيه، ويأتيه من بلدته ما يكفيه قانعا متورعا غاية في التواضع وكان منزله في غالب الأوقات لا يخلو من المترددين للسلام عليه والاستفادة منه.

وتوفي بمكة المكرمة في أول رجب الفرد قبيل أذان المغرب الأحد ليلة الاثنين سنة ١٣٣٨هـ وشيعت جنازته في محفل عظيم ودفن بحوطة آل شطا من مقبر المعلاه، تغمده الله برحمته وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ولم ويخلف إلا ولدا حافظا لكتاب الله يعرف بكياهي محمد بن محفوظ ـ وقد ترجمه العلامة المؤرخ عبدالله غازي في كتابه تنشيط الفواد انتهي ملخصا من كتاب بغية المريد من علم الأسانيد للشيخ محمد ياسين بن محمد عيسى الفاداني المكي.

الشيخ أحمد بن سالم حمام

هو المقرىء الفاضل الشهير الشيخ أحمد بن سالم بن عبدالله بن سالم حمام ولد بمكة المكرمة حوالي سنة ١٢٩٢هـ تقريبا ونشأ بها واعتنى بحفظ القرآن الكريم فقرأه وحفظه على الشيخ عبدالمعطي النوري وأتقنه وجوده حتى صار من المقرئين المشهورين فمكث مدة يعلم القرآن الكريم بديوان في الخندرية من محلة الباب ثم انتقل إلى المسجد الشهير بمسجد خالد ومكث فيه يعلم مدة

وأخيرا ترك التعليم ولزم داره ومازال مفيدا للمستفدين وملاذا للطالبين إلى أن انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء بمكة المكرمة ليلة السبت حادي عشر شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٠هـ وعمره ثمان وستون سنة تقريبا وقد صلي عليه بالمسجد الحرام ودفن بالمعلاة رحمه الله تعالى رحمة الأبرار وأسكنه جنات تجري من تحتها الأنهار.

الشيخ أحمد بن عبدالله الشامي

هو العلامة المقرىء الشهير الشهاب الشيخ أحمد بن عبدالله الشامي الشهير بالمخللاتي ولد في دمشق سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف وتعلم أولا في مدرسة الخياطين ثم في مدرسة نور الدين الشهيد ثم رحل من دمشق الشام - وهاجر إلى مكة المكرمة سنة ثلاث وثلاثمائة وألف فدخل المدرسة الصولتية ليتم فيها دراسته وحفظ القرآن الكريم وتخرج فيه سنة سبع وثلاثمائة وألف في حياة مؤسسها الشيخ رحمت الله صاحب كتاب إظهار الحق وكانت له منه الملاحظة التامة والعناية الكبيرة فعين إماما في مسجد الموارعة بمحلة جرول بريع الرسام وكان يعلم في المسجد المذكور القرآن الكريم وبعض العلوم الشرعية مدة كبيرة وفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وألف عين مديرا في الطائف في المدرسة التي أنشأها المرحوم الشيخ عبدالحفيظ قاري في مسجد شمس ببرحة ابن عباس وسماها دار التعليم العوني وكان في زمن إمارة الشريف على باشا إلى إنقضاء حكمه ثم عين في مكة معلما أولا في مكتب الابتدائي التابع للمدرسة الرشدية في المعلاة ومازال كذلك إلى إنتهاء حكم الأتراك ثم عين مديرا في المدرسة التي حلت محل المدرسة المذكورة في أيام ملك الشريف الحسين ثم بعد مدة طويلة استعفى بسبب اشتغاله بتمريض ولديه واحدا بعد الآخر فقد مرض أولا ابنه الصغير محمد - سعيد نحو سنة ومات وعمره خمس عشرة سنة ثم مرض ابنه الكبير عبدالله كامل نحو سنة ومات وعمره إثنان وعشرون عاما وحزن الشيخ المترجم لوفاتهما وسلم الأمر لمولاه وصبر على بلواه ورحل إلى جدة - فعين معلما في مدرسة الفلاح بجدة مع اشتغاله بالتدريس في مساجدها صباحا ومساء ومازال كذلك إلى سنة أربعين وثلاثمائة

وألف فرحل إلى بومباي بالهند للتداوي من فتاق كان به بواسطة الشيخ محمد علي زينل على رضا فمنّ الله تعالى عليه بالشفاء وبقي في دار زينل يعلم أولادهم ومازال كذلك إلى آخر سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وألف فرجع إلى مكة المكرمة ولزم داره فاتحا أبوابها للقاصدين من طلبة العلم والراغبين لورود مناهلة العذبة وموائده المستطابة وقد أخذ الشيخ المترجم عن أعلام عصره وجهابزة زمانه بالشام والحرمين فمنهم الشيخ إبراهيم سعد شيخ ـ القراء بمكة قرأ عليه القرآن برواية حفص بسنده، والجزرية وتحفة الأطفال مع شرحها، والقول المفيد وبعضا من القراءات السبعة والعشرة وأجازه ومنهم الشيخ محمد أبو الخير بن عبدالقادر بن صالح الخطيب الدمشقي قرأ عليه وإجازه عامة ومنهم الشيخ محمد أبوالفتح ابن عبدالقادر بن صالح الخطيب الدمشقي قرأ عليه جملة من العلوم العقلية والنقلية خصوصا كتاب رحمة الأمة في اختلاف الأئمة وحضر درسه في جميعة وسمعه منه وأجازه إجازة عامة ومنهم الشيخ أبوالنصر بن عبدالقادر بن صالح الخطيب الدمشقي قرأ عليه ومن ذلك المسلسل بقراءة سورة الفاتحة فقد قرأها عليه وسمعها من حين قدومه للحج بمكة سنة عشرين وثلاثمائة وألف بسنده في ذلك ولازمه وحضر دروسه بالمسجد الحرام وهي خمسة عشر درسا من صحيح البخاري بأسانيدها وأجازه إجازة عامة ومنهم الشيخ أحمد الثمس المغربي المدني أجازه في جميع مروياته إجازة عامة ومنهم الشيخ أحمد بن على نجار قرأ عليه وأجازه إجازة عامة ومنهم الشيخ محمد بدر الدين الدمشقي سمع منه بعض البخاري من أوله إلى باب الدين النصيحة وغير ذلك وأجازه في جميع مروياته إجازة عامة ومنهم الشيخ محمد جمال الخطيب بن الشيخ محمد جمال الخطيب بن الشيخ محمد أبي الخير الخطيب الدمشقي قرأ عليه وأجازه إجازة عامة ومنهم الشيخ حسن عرب قرأ عليه وأجازه إجازة عامة ومنهم الإمام الحبيب حسين بن محمد حسين الحبشي حضر ـ في تفسير روح البيان وتفسير الخطيب وبعض ـ المنهاج للنوي وأكثر الإيضاح وأجازة إجازه عامة ومنهم الشيخ رحمت الله الهندي المكي صاحب إظهار الحق قرأ عليه وأجازه إجازة عامة ومنهم الشيخ محمد سعيد بابصيل قرأ عليه وأجازه إجازة عامة ومنهم شيخ العلماء بدمشق الشيخ سليم العطار سمع منه بعض البخاري

وسمع عليه أيضا جميع الشفا في مشهد الحسين في مسجد بني أمية وأجازه إجازة عامة ومنهم الشيخ سليم الكزبري الدمشقي سمع عليه بعض البخاري تحت قبة النسر وأجازه إجازة عامة ومنهم الشيخ شعيب المغربي قرأ عليه وأجازه إجازة عامة ومنهم الشيخ عباس بن صديق قرأ عليه وأجازه إجازة عامة منهم الشيخ عباس بن صديق قرأ عليه عليه وأجازه إجازة عامة ومنهم السيد محمد عبدالحي بن عبدالكبير الكتاني أجازة في جميع مروياته إجازة عامة ومنهم الشيخ عبدالرحمن الهندي المدني قرأ عليه وأجازه إجازة عامة ومنهم الشيخ عبدالعال الدمشقي قرأ عليه في بعض العلوم وأجازة إجازة عامة ومنهم الشيخ الشنقيطي المتوفى بمكة سنة ثمانية عشر وثلاثمائة وألف قرأ عليه وأجازه إجازة عامة ومنهم الشيخ على الطيب أخذ عنه قراءة البصري بروايتها ومنهم شيخ عصره الشيخ فالح الظاهري المدني قرأ عليه ـ وأجازه إجازة عامة. ومنهم الشيخ قاسم بدور الدمشقي قرأ عليه جملة من العلوم العقلية والنقلية خصوصا كتاب الأذكار قرأه عليه من أوله إلى أخره وأيضا تفسير الجلالين من أوله إلى آخره وأجازه إجازة عامة ومنهم الشيخ محمد الشربيني أخذ عنه قراءة ابن كثير المكي بروايتي قنبل والبزي في المسجد الحرام عند باب الصفا ومنهم الشيخ محمد محفوظ الترمسي الجاوي المكي أجازه إجازة عامة وكتب له ذلك ومنهم الشيخ محمد النميني مفتي دمشق الشام سمع منه بعض البخاري تحت قبة النسر وأجازه إجازة عام ومنهم الشيـخ محمود السمكري الحلبي أخذ قراءة نافع برواية قالون من أولها إلى أخـرهـا ثم بعض قراءة ورش ومنهم الشيخ يوسف النبهاني أجازه في جميع مروياته إجازة عامة وغير المذكورين من المشايخ والأعلام.

وللشيخ المترجم تآليف جليلة منها نظم في قراءة ابن كثير المكي ومنها بعض قصائد شعرية وغير ذلك وقد جمع العلامة الشيخ محمد ياسين الفاداني المكي ثبتا للشيخ المترجم سماه الوصل الالراتي في أسانيد الشيخ أحمد المخللاتي وهو ثبت عجيب ومازال الشيخ المذكور بمكة ملازما داره إلى أن ضعفت قواه في أواخر سني حيـاته واعتريه الأمراض إلى أن انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء في ضحى يوم الخميس ثاني عشر ذي الحجة الحرام سنة اثنين وثلاثمائة وألف

بداره بمكة المكرمة بمحلة جرول وصلي عليه بالمسجد الحرام في مغرب ليلة الجمعة ثالث عشر الشهر المذكور ودفن في تلك الليلة بالمعلاة بشعبة النور تغمده الله برحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته آمين.

صورة إجازته للطلاب

فأقول وأنا الفقير إليه تعالى أبو محمد بدر الدين الراجي عفو ربه في الماضي والآتي أحمد بن عبدالله الشامي الدمشقي الشهير بالمخللاتي فإني أروي حديث الفاتحة سماعا وقراءة عن سيدي وأستاذي السيد الجليل الكامل والمرشد العالم العلامة الكامل الشيخ محمد أبي النصر الخطيب رحمه الله تعالى حين قدومه للحج الشريف بمكة المكرمة عام ١٣٢٠هـ وقال رحمه الله تعالى إنه تمام عشر حجج له وقرأ في المسجد الحرام خمسة عشر درسا غيبا من صحيح البخاري بأسانيدها غيبا عن ظهر قلب وكنت ألازمه في درسه وغيره حتى بلغت منه هذه الرتبة العالية بحديث الفاتحة فإني سمعته منه في بيت صميلات المطوف مع إخواني من طلبة العلم الشريف فقال رحمه الله تعالى حديث الفاتحة عن سيدي الوالد السيد الشيخ عبدالقادر الخطيب وعن السيد عمر أفندي الغزي فقرأتها على الأول وهو قرأها على الشيخ محمد الرحمني وهو قرأها على والده الشيخ مصطفى الأيوبي الأنصاري وهو قرأها على السيد الشيخ عبدالغني النابلسي قدس سره وقرأتها على الثاني وهو قرأها على جده السيد عبدالغني النابلسي وهو قرأها على جده السيد عبدالغني النابلسي وهو قرأها على القاضي شمهورش الجني عبد الرحمن الصحابي الجليل رضي الله عنه وهو قرأها على النبي صلى الله عليه وسلم وفي رواية عن صاحب الدرر السنية أنه قرأ الفاتحة على شيخه العدوى عن الفيومي عن محمد بن عيسى البرلسي عن السيد الحريري عن القاضي شمهورش الجني رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فاتحة الكتاب وسمعته يقول مالك بالمد وهي قراءة عاصم والكسائي من السبعة ويعقوب وخلف في اختياره من العشرة والله أعلم أقول وأنا الفقير إليه تعالى أحمد بن عبدالله الشامي بأني سمعتها من أستاذي الشيخ أبي النصر

الخطيب المذكور أعلاه وقرأتها فأجازني بقراءتها وإقرائها وإجازتها وبأني أجيزها وهو سند عال لله الحمد والمنة بهذا القرب وبهذه النعمة فطوبى لمن تعلق بأذيال رسول الله صلى الله عليه وسلم خصوصا بالقرب منه وإحياء سنته.

مجالس القرآن بمكة المكرمة

وقد كانت في مكة المكرمة مجالس للقرآن تنعقد في بيوت العلماء يحضرها الناس يجتمعون فيها لكتاب الله ثم ينصرفون فرحين مسرورين من غير تكلف بصنع طعام مقتصرين على الشاى والقهوة والحلوى وقد يقدمون فيها الطعام بحسب المناسبات. ومن تلك المجالس:

«١» مجلس الوالد السيد علوي بن عباس المالكي الحسني وكان هذا المجلس في بيته الملاصق للمسجد الحرام بباب السلام وكان ذلك المجلس في كل جمعة من قبل صلاة الجمعة إلى وقت الصلاة ويحضر فيه معظم القراء بمكة المكرمة ويمتلىء بالمستمعين والمحبين ولا يخلو من حصول مذاكرة علمية بالمناقشة في معنى الآيات حينما يسأل سائل مستشكلا وكان يحضر هذا المجلس من القراء الشيخ محمد نور أبوالخير مرداد والشيخ رضا قارىء والشيخ عبدالصمد فدا وهؤلاء بالمواظبة لا يكادون يتأخرون إلا لعذر وهناك جملة من القراء يترددون ويتنقلون في المجالس ومنهم الشيخ زيني بويان والشيخ محمد الكحيلي والشيخ عباس المقادمي والشيخ زكي الداغستاني والشيخ عبدالكريم فلمبان والشيخ محمد عبيد والشيخ جعفر جميل والشيخ محمد صالح باحيدرة والشيخ أحمد الغندورة والشيخ جميل آشي.

وإذا جاء ضيوف من الخارج وخصوصا من القراء المصريين والسوريين والمغاربة والأندونيسيين فإنهم لا ينقطعون عن هذا المجلس مدة إقامتهم وأذكر من المصريين الشيخ عبدالرؤوف مرعي وكان قارئا عالما بالقراءات مقرئا مدرسا بمدرسة تحفيظ القرآن الكريم وزميله الشيخ محمد محمد العتر وهو أيضا عالم بالقراءات والشيخ محمد نجيب خياطة والشيخ عمر خياطة ومن أندونيسيا

الكيـاهي أذرعي والكيـاهي شهـودي مالانـج من حلب وكثير من القراء كانوا يواظبون مدة إقامتهم بمكة على حضور مجلس سيدي الوالد.

فكان المجلس بهذا صورة مصغرة للمسابقات العالمية هذا قارىء من مكة وهذا قارىء من المدينة وهذا قارىء من مصر وهذا قارىء من المغرب وهذا قارىء من الشام وهذا قارىء من اليمن.

أما إخواننا الأندونيسيون فقد كانوا بارعين في تقليد القراءة فيقلدون القراء الحجازية والمصرية وكانوا يعتنون في هذا المجلس بالقراءة بالروايات المختلفة.

«٢» وهنـاك مجلس في منزل السيد محمد أمين كتبي وهو مثل مجلس السيد علوي له جماعة مواظبون فيه وجماعة ممن يترددون وينتقلون بين المجالس وكان هذا المجلس في بيته الملاصق للحرم بباب الباسطية ثم لما انتقل إلى جياد فتح مجلسه أيضا هناك.

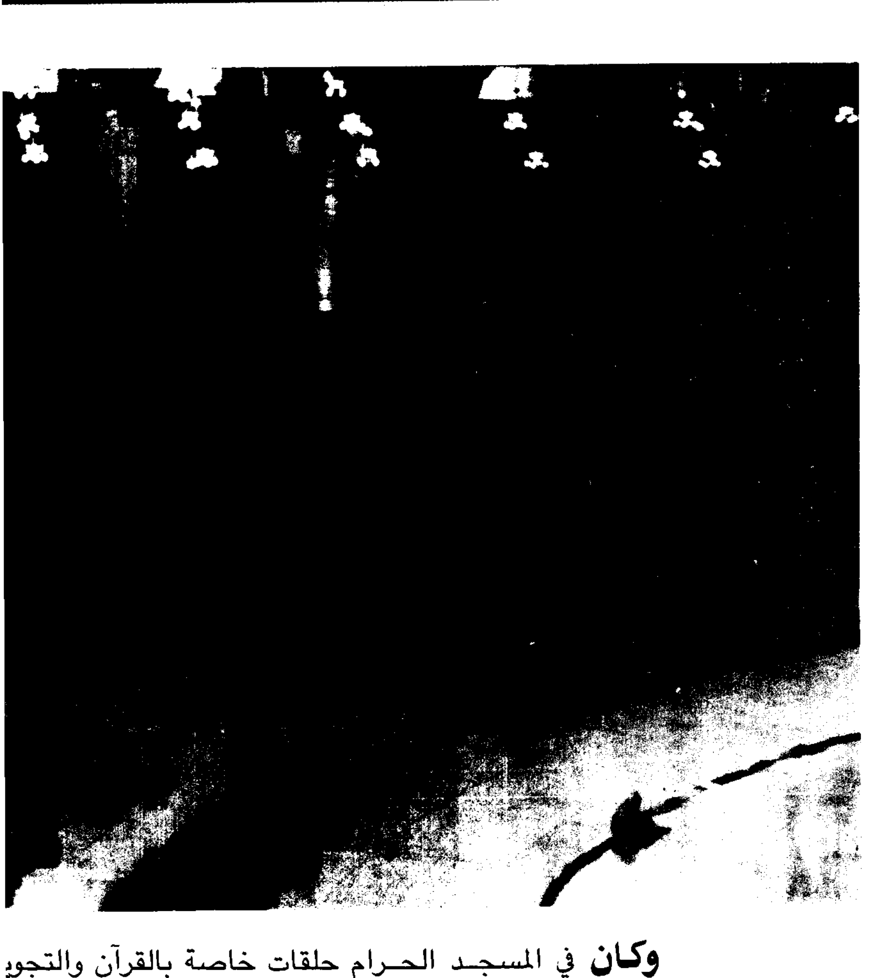
«٣» وهناك أيضا مجلس في منزل الشيخ حسن بن محمد المشاط مثل هذه المجالس.

«٤» وهنـاك مجالس متعددة في بيوت الوجهاء والأغنياء يجتمع الناس عندهم ليستمعوا إلى القراء الكرام منها مجلس في بيت البوقس وهو في صباح كل جمعة وكان المتصدر فيه الشيخ عمر بياجنيد ويحضره جمع كبير من الناس وخصوصا من القراء الجاويين ومنها مجلس في بيت الشيخ عباس قطان وكان المواظب على القراءة فيه الشيخ محمد عبيد.

وهنـاك مجلس في بيت الشيخ عبدالوهاب البغدادي من تجار مكة المكرمة ويحضر فيه جملة من القراء منهم الشيخ محمد الكحيلي والشيخ محمد عبيد ولا ينصرفون إلا عن ذواق. وكان يتردد على هذه المجالس الشيخ محمد البنداري.



بعض حلقات القرآن بالمسجد الحر



وكان في المسجد الحرام حلقات خاصة بالقرآن والتجو
الحفاظ من القراء المجودين لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم التج
الشيخ عبدالكريم بخش والشيخ جميل دقنة وكانت هناك حلقات
القرآن يحضرها عامة الناس ومنها حلقات الشيخ أحمد حجاز
حلقة للقرآن قبل المغرب خلف مقام الحنبلي ومثلها للشيخ محمد
المغرب أيضا في حصوة باب المحكمة.

الشيخ زيني بويان

ولد بمكة المكرمة عام ١٣٣٤هـ.

خرج مع والده إلى أندونيسيا لما قامت الحرب بين الشريف والأتراك وقد توفى هناك ثم رجع الشيخ زيني إلى مكة المكرمة.

طلبة العلم

تعلم القرآن على أمه وكانت مقرئة حافظة ثم دخل في كتاب آشية وهي من بيت الآشي المعروف بمكة ثم حفظ القرآن على الشيخ حسن عرب في المدرسة الفخرية كما أخذ القرآن عن الشيخ محمد مرداد والشيخ حسين مرداد وكان يدرس في المدرسة الفخرية.

ثم وجهه السيد محمد أمين كتبي إلى ملازمة الشيخ أحمد التيجي فأتقن عليه وأخذ شيئا من القراءات وقرأ شيئا من الشاطبية. ودخل الصولتية ودرس فيها مدة وكان من المؤسسين لمدرسة دار العلوم الشرعية مع السيد محسن المساوى. وهو متفرغ لتعليم القرآن في بيته لكل من يأتي إليه في كل وقت بدون تقييد حسبة لله تعالى كما أنه من المقرئين الأوائل في المجالس والمحافل والمجامع زاده الله قوة وعافية أقول أنا السيد محمد علوي المالكي هذا ما استفدته منه فمن نقل هذا فليروه عني لأمانة النقل كما قال الشاعر:

إذا أفادك إنسان بفائدة ... وكنت من قبل لم تمدد لذاك يدا
فقل فلان جزاك الله صالحة ... أفادنيها وخل الكبر والحسدا

الحافظ المقرىء الشيخ محمد الكحيلي

هو محمد بن عبدالله الكحيلي

ولد بمكة المكرمة عام ١٣٤٥هـ بالمعابدة.

وبدأ بحفظ القرآن في كتاب كان بالمعابدة للشيخ سعيد باحميش ثم انتقل إلى

الحرم الشريف ولازم الشيخ عبدالحي فضل وكان حافظا مقرئا للقرآن فلازمه سنة وحفظ عنده عشرة أجزاء من القرآن ثم انتقل إلى الشيخ محمد بن حسين عبيد المعروف بالشيخ محمد عبيد وهو من أبرز قراء مكة يحفظ القرآن حفظا جيدا ويقرأ بالقراءات السبع وصاحب صوت عجيب مؤثر فلازمه سنة تقريبا وأخذ عنه جملة صالحة من القرآن.

والشيخ محمد عبيد أخذ القراءات عن الشيخ أحمد التيجي وحفظ الشاطبية عليه وكان بصيرا وكان متفرغا للإقراء في بيته.

وكان يجلس قبيل المغرب في ناحية باب الزيادة فيقرأ عشرا من القرآن.

ثم أتم الشيخ الكحيلي حفظ القرآن على الشيخ جعفر جميل وهو «يعني الشيخ جعفر» حفظ القرآن على الشيخ محمد حزيم المجاور بمكة وكان الشيخ جعفر مقرئا متقنا مجودا يقرأ بالنغمة الحجازية.

ثم توجه الشيخ محمد الكحيلي إلى الشيخ أحمد التيجي وهو يعتبر شيخ العلماء في القراءات فقد أخذ عنه أكثر علماء مكة والمدينة والشام واليمن ومصر فعرض عليه القرآن ثم بعده عرض القرآن على الشيخ أحمد حجازي والحجازي كان حافظ مقرئا قارئا بالقراءات السبع أخذ عن التيجي وعن بعض علماء مصر ومكث بمكة يعلم القرآن في بيته ويجلس قبيل المغرب جهة المقام الحنبلي يقرأ عشرا من القرآن.

ولايزال الشيخ الكحيلي متفرغا للقرآن في بيته وفي المجالس الخاصة ولمن يأتي إليه حفظه الله.



بعض القراء الذين كانوا بالمدينة المنورة

فى القرن الرابع عشر

١ـ الشيخ محمد بن سالم المغربي.

٢ـ الشيخ مصطفى فقيه.

٣ـ الشيخ عبدالحميد هيكل.

٤ـ الشيخ طه تاج الدين.

٥ـ الشيخ طه السناري.

هؤلاء كانوا يدرسون القرآن الكريم في الكتاتيب التي بباب المجيدي في الحرم.

أمـا الشيخ حسن الشاعر شيخ القراء فكان يدرس الشاطبية في الحصوة الأولى والقرآن الكريم عند خوخة سيدنا أبي بكر الصديق.

١ـ الشيخ أحمد الداده.

٢ـ السيد محمد صقر.

هذان كانا يدرسان القرآن الكريم في آخر الحرم.

١ـ الشيخ محمد السوسي.

٢ـ الشيخ حسن عويضة.

٣ـ الشيخ ادريس عبدالله.

هؤلاء كانوا يدرسون القرآن الكريم.

١ـ الشيخ صقر البصير (يدرس القرآن في مسجد سيدنا أبي بكر).

٢ـ الشيخ عواد زارع (يدرس القرآن في مسجد سيدنا أبي بكر).

٣ـ الشيخ صالح اليماني (يدرس القرآن في مسجد الغمامة).

٤ـ الشيخ حامد مرشد (يدرس القرآن في مسجد سيدنا علي)

٥ـ الشيخ محمد إكيلي (كان يقرأ القرآن في الحصوة الأولى قبل المغرب يوميا).

٦ـ الشيخ محمد على (كان يدرس القرآن الكريم في مدرسة سيدنا مالك)

٧- الشيخ سليمان حجازى «حي يرزق» (يقرأ القرآن عند خوخة سيدنا أبي بكر الصديق).

١- الشيخ عمر توفيق.

٢- الشيخ أحمد التونسي.

٣- الشيخ عمر المغربي.

٤- الشيخ حسن تاج الدين.

٥- الشيخ السيد أسعد محي الدين.

هؤلاء يدرسون القرآن الكريم في مدرسة العلوم الشرعية.

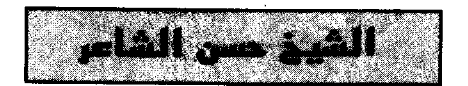
هذه أسماء جملة من القراء والحفظة

بدون بيان أماكن حلقاتهم ودروسهم ومجالسهم

بالمدينة المنورة

الشيخ ياسين أحمد الخياري	**شيخ القراء والحفّاظ**
الشيخ محمد خليل	**شيخ القراء والحفّاظ**
الشيخ خليل أبو تيج	
الشيخ عبدالرحيم الخوقندي	
الشيخ أحمد ياسين الخياري	
الشيخ محمد الكتامي	
الشيخ عبده أبو خضير	
الشيخ إبراهيم الطرودي	
الشيخ عبدالستار بخاري	
الشيخ إمام الدين	
الشيخ عبدالقادر البخاري	
الشيخ أحمد الفيومي	

الشيخ أحمد بن حامد التيجي
الشيخ حسن الإكتلي
الشيخ محمد علي سليمان
الشيخ حبيب الرحمن الكاظمي
الشيخ محمد الأمين الشنقيطي
الشيخ سليمان المصري
الشيخ عبدالحي أبو خضير
الشيخ إبراهيم فقيه
الشيخ محمد بشير
الشيخ أحمد عبدالرحمن السناري
الشيخ عبدالله بن أحمد الفلاتي
الشيخ حامد شيخ



شيخ القراء

كتب عنه الأستاذ أنس يعقوب كتبي في ملحق المدينة وذكر عنه أنه حسن إبراهيم الشاعر، وخلاصته:

لمحات عن حياة الشيخ حسن إبراهيم الشاعر

عرف عن فضيلة الشيخ حسن إبراهيم الشاعر أنه من أسرة فاضلة وبيئة علم وفضل وساعده ذلك على حفظ القرآن الكريم غيبا وهو فتى في سن التاسعة من عمره فأصبح بارزا بين أقرانه في هذا الجانب الفاضل الكريم. ولعل من الأشياء الجميلة عن الشيخ حسن الشاعر أنه لم يكتف رحمه الله بحفظ كتاب الله الكريم فقط بل إنه ذهب إلى الجامع الأزهر الشريف بمصر ودرس جميع علوم القرآن

حيث تعلم تجويد القرآن على يد كبار علماء الأزهر ثم اجتهد وعمل وأصر على تلقي علوم القراءات السبع حتى أصبح بارزا فيها ثم واصل مشواره عندما وجد نفسه مستوعبا درس القراءات «العشر» ثم تعمق تدريس القرآن وعلوم القراءات بإتقان وتفوق بفضل الله.

ومما كان يعرف عن الشيخ حسن الشاعر أنه كان حسن الصوت وجهوريا ويتمتع بحلو النغم في القراءة مما جعله يمضي في إلقاء كثير من الدروس والمحاضرات في كثير من الدول العربية والإسلامية وفي كثير من المعاهد والكليات الإسلامية بالمدينة المنورة وغيرها.

كما كان رحمه الله من الذين يدرسون طريقة القراءة للطلبة من مختلف الأقطار العربية والإسلامية وقد تتلمذ على يديه نخبة كبيرة من الطلبة الدارسين للقرآن الكريم وكذلك مجموعة من الأئمة والعلماء من مختلف الأقطار والبلدان حيث تعلم على يديه عدد من المجودين للقرآن الكريم من علماء الحجاز وقد كان معروفا رحمه الله على مستوى العالم الإسلامي بحفظه المتقن للقرآن وكان عدد من الطلاب يأتونه من جميع الأقطار ليتتلمذوا على يديه في علوم القرآن خاصة علم القراءات التي تميز فيها.

ولقد كانت للشيخ الشاعر حلقة خاصة في الحرم النبوي الشريف لتدريس أصول الجزرية والشاطبية وعلوم التجويد وتحفيظ القرآن الكريم وكانت تكتظ بالطلاب والحفظة وكان رحمه الله يقضي كل وقته بينهم في الحرم النبوي الشريف كما عرف عنه تفسيره للأحلام. ولعل من فضل الله أن ابرز طلاب كثيرون ممن تعلموا على يديه وهم بفضل المولى عز وجل وتعليم شيخهم الشاعر لهم يعدون من أشهر رجال المدينة المنورة وهم على سبيل المثال الشيخ عبدالمجيد الأبادي والشيخ أمين مرشد والشيخ أحمد خياري رحمه الله والشيخ أبوالسعود ديولي والشيخ عبدالسلام عسيلان رحمهم الله جميعا.

ومن الذين تعلموا التجويد على يديه رحمه الله الشيخ عبدالعزيز بن صالح إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف ورئيس المحاكم الشرعية الكبرى بالمدينة المنورة وغيره من الذين جاؤوا من جميع أقطار الدنيا.

كان الشيخ حسن الشاعر رحمه الله ـ حسب ماذكر الشيخ عادل عمر التركي عنه ـ كان حريصا في تعليم القرآن الكريم ولقد ذكر أنه رأى الشيخ الشاعر يجمع أمامه أربعة أو خمسة طلاب ويجعلهم يقرأون في سور مختلفة من القرآن الكريم ويرد على كل واحد منهم على حدة في قراءته وهذه ميزة خاصة عرف رحمه الله بها.

الشيخ/ أحمد ياسين الخياري

ولد بالمدينة المنورة عام ١٣٢١هـ.

حفظ القرآن الكريم في كتاتيب الحرم النبوي في العاشرة من عمره وحفظ المتون في سائر الفنون وقرأ شروحها على والده.

تعمق في دراسة القراءات السبع والعشر والأربعة المتممة لها.

أكمل دراسته في الجامع الأزهر.

حاز بالانتخاب عضوية وسكرتارية ونيابة رئاسة مشيخة القراء والحفاظ.

أنشأ في عام ١٣٥٣هـ بإذن ملكي كريم مدرسة أهلية خاصة بالتجويد والقراءات العشر وقد التحق بها كثير من أقطاب العلماء والأعلام من الأقطار الإسلامية خلال أشهر الحج والزيارة.

تجاوزت مؤلفاته الخمسين كتابا ورسالة وهي على وجه العموم تدور حول القرآن الكريم وعلومه وفن التاريخ.

* زودنا بهذا الفصل الدكتور السيد محمد علوي المالكي الحسني (كما أشرنا في مقدمة الكتاب).

أهل الحجاز بعبقهم التاريخي

الفراس الأولى للأمن والأمان

مازالت كلمات الوالد مهدي بك «المصلح» كما أطلق عليه الملك عبدالعزيز رحمه الله بعد أن أستاذنه للحصول على مبنى لإنشاء أول دار للأيتام بمكة المكرمة في محلة أجياد، مازالت كلماته ترن في سمعي حتى الآن، في أواسط الستينات الهجرية..

لقد طلب مني زيارته في مكتبة الخاص بالشرطة «بالحميدية» التي كانت مجمعا حكوميا فريدا من نوعه، ولم يتكرر مثله حتى الآن رغم توفر الأراضي ومساحتها..

وكانت مكاتب الأمن العام بأجهزته المختلفة.. وإدارة كاتب عدل التي كان يرأسها العم عرابي سجيني.. ومجلس الشورى برجاله المتألقين.. ومكتب الجوازات والإقامة.. ومكتب حفائظ النفوس وكانت تكتب بخط اليد وكان يرأسها الأستاذ فؤاد وفا متعه الله بالصحة والعافية، وأظن أن عمره المديد قد امتد إلى مايقارب المائة عام وربما يزيد ـ ماشاء الله كان ـ ومازال صوته يرن كما كان يرن في الماضي.. وهذا الرجل كان يعطيك في حين الوقوف عليه بعد الرجوع إلى قائمة الممنوعين «نصف ساعة بالكثير» وكذلك الوثائق الأخرى.. ومن خلال وظيفته عرف جل أهل البلد وانتماءاتهم بما كان الله به عليم.. كما كان المبنى يضم أقسام رخص قيادات السيارات واستماراتها بخط اليد من عام ١٣٤٩هـ.. وهناك كان مكتب إحصاء النفوس ومديره الشيخ محمد صادق.. وكان يعمل معه كامل أزهر لإصدار حفائظ النفوس.. وكان بالدور العلوي أيضا قسم للأوقاف وكان مدير الأوقاف في تلك الفترة الشيخ عبدالرؤوف الصبان، ثم انتقل إلى البلدية أمينا للعاصمة، وعين بعده الشيخ ضياء الدين رجب مديرا للأوقاف العامة.. وللداخل من الباب الخلفي للحميدية مكتب أو قسم التحقيقات الجنائية



صورة نادرة بمناسبة انتهاء الدورة الخامسة لمدرسة الشرطة (رجال الأمن والأمان) بالعاصمة المقدسة في ١٣٦٦/٤/٢٧هـ ويظهر فيها: مهدي بك (أول مدير للأمن العام)، على جميل، عبد الرحمن حضراوي، عبد الحميد بخش، عبد الفتاح خياط، جميل ألطف، يوسف جمال، طه خصيفان، حامد أبو نواس، عمر عبد الجبار، وغيرهم ممن لا تحضرني أسماءهم. (المؤلف).

ويرأسه الشيخ عبدالرازق سعادة.

كما كان المبنى العتيد يضم مكتبا للمحكمة المستعجلة الأولى على يمين الداخل من البوابة الرئيسية، وكان قاضيها الشيخ حسين عبدالغني وقد أشتهر بفراسته، كما كان حازما إلى أبعد الحدود في حدود الله وتشريعه بما هدانا به سيد البشر صلى الله عليه وسلم..

وكان هناك مكتب في «الحميدية» لوزارة الخارجية، وكان يرأسه السيد نديم كتبي رحمه الله.. ورحم كل من ضمهم هذا المبنى العتيد الذي كان فيه تخطط أيامها لبناء هذا الكيان الشامخ الكبير وبكل الثقة التي أولاها لهم جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله..

وذهبت إليه بعد صلاة العصر حيث كان مكتبه على يسار الداخل من البوابة الرئيسية..

قبل أن أشير إلى موضوعي معه، أحب الإشارة إلى أنني كنت أيامها موظفا في مكتب مدير عام وزارة المالية الشيخ محمد سرور الصبان ومساعده الشيخ عباس صيرفي.. وكان رحمه الله يأتي لمراجعة الشؤون والمطالب المالية الخاصة بمديرية الأمن العام.. وكان يطلب مني وهو يغادر المكتب متابعة ما يتم بشأنها وإبلاغه بها أو إرسال أرقام صدور الأوامر الخاصة بها.. ذهبت يومها عصرا وجلست على الكرسي في مواجهة مكتبه الفخم.. طلب لي فنجانا من الشاي.. ثم قال لي: اسمع يابني: أنت من عائلة عريقة يعرفك الناس وتعرفهم.. كما يوجد عوائل كثيرة في هذا البلد لهم تاريخ وماض يعرفون المجتمع ويعرفهم.. ومن هذا المفهوم أطلب منكم أبناء العوائل أن تنخرطوا في الشؤون العسكرية وفي مجال الشرطة أيضا.. ثم ابتسم وقال لي: أريد أن تكون موظفا في مكتبي شريطة أن تتدرب على الطابع العسكري، وأن تعمل على إقناع أبناء العوائل وسادتها على ذلك لكي ينضموا معك في السلك العسكري..

ثم نبهني إلى أنه سيأتي يوم ما.. وكأن هذه الأجهزة قد لاتعرف شيئا عنك ولا عن أسرتك وأسر الآخرين.. لذلك يجب أن تكونوا في مقدمة الصفوف لخدمة بلادكم في هذا المجال الحيوي الذي يتطور باستمرار باتساع رقعة عمرانها..

وارتفـاع نسبـة النمـو البشري.. وزيادة الحجاج والعمار.. وهذه الدوائر على اختلافها من قضائية وعدلية وإدارات على اختلاف مسؤولياتها ومن يعمل فيها.. وكـذلك من الذين يعتبرون في حكم المغتربين.. ذهبوا إلى أقصى المملكة عاليها ودانيها وذلك في سبيل بناء هذا الكيان..

كمـا أدعـو الآخرين في مناطق المملكة من الأسر العريقة أن يلتحقوا بهذه الخدمة حتى يرتفع مستوى أدائها ويرقى من خلال الثقافات والمعلومات ودقة التركيز في هذا المجال الحيوي الهام آنيا ومستقبلا..

وقال رحمه الله: إن حكومة الملك عبدالعزيز المتمثلة في مديرياتها العامة إذ لم تكن هناك وزارات سوى الخارجية والمالية تبذل قصارى جهدها في توسعة رقعة البناء لكل المرافق وفي مقدمتها التعليم في كافة أنحاء المملكة الأمر الذي يساعد على تخـرج أعداد لا بأس بها لشغل الوظائف الشاغرة والمحدثة على مختلف الاحتياجات لها، ومنها كوادر الشرطة ومدرسة لها لتخريج ضباط يحافظون على الأمن الداخلي..

فقلت له: حسنا.. سآخذ رأي سيدي الوالد في هذا العرض الكريم.. وأشكركم على هذه الالتفاتة التي تفضلتم على بعرضها..

كما أشير إلى أن سعادته عمل حثيثا على إنشاء دار للأيتام ضمت الكثير من أبناء البلاد الذين فقدوا آباءهم.. ثم ألحقهم بمدرسة الشرطة، وبعد التخرج ألحقهم بالعمل في مديرية الأمن العام، وعند إنشائها أطلق عليه الملك عبدالعزيز رحمه الله لقب «المصلح» فكان اسمه «مهدي بك المصلح» وأصله عراقي..

لقد كانت لي علاقة مودة وصداقة مع كثير من ضباط الشرطة منذ بدايتهم الأولى كملازمين.. أمثال اللواء حسين زقزوق، والفريق طه خصيفان، والوالد طلعت وفا، وكان له أخوان من الجيرة لمنزلنا في أجياد، واللواء على جميل في مواقف خيرة خاصة، والوالد غالب توفيق، والعم أحمد يغمور، والعم مراد حمدي وكان مشهورا بـ «مراد أفندي» في مركز الصفا مما يلي منازل آل الشيبي سدنة بيت الله الحرام، والوالد يوسف جمال الدين، والفريق مصطفى عرقسوس، واللواء

يوسف دانش، واللواء عمر محمد علي صبان متعه الله بالصحة والعافية إذ مازال حتى الآن وفيا في علاقاته رغم تقدمه في السن، والعميد أحمد صالح عناني، وزميلي في مدرسة الفلاح العميد محي الدين الصواف أيام كان مديرا للمطافي بجدة، وقد كنت صاحب جريدة البلاد ورئيس تحريرها.. وكذلك الصديق جميل قمصاني بظرفه ونشاطه وفراسته أيضا..

ومما قرأته في إصدارات وزارة الداخلية «مركز المعلومات» أن الصديق الأستاذ عبدالغني عبدالله فدا عمل في هذا المجال الأمني الحيوي، وله فيه معطيات خيرة من خلال ماكان يحققه ـ بإصرار ـ من إنجازات تعتبر وكأنها البدايات لانطلاقات عديدة لهذا الجهاز الذي يعتبر «صمام أمان» لبناء هذا الكيان الشامخ الكبير وسيظل..

وكنت أحضر حفلات زفاف في مكة المكرمة، ويمضي بنا الليل إلى مابعد منتصفه.. فإذا بالصديق ـ يرحمه الله ـ طه خصيفان وكان أيامها رئيسا للقوة العسكرية بمديرية الأمن العام يدرب الجنود ويرعى أمرهم بأسلوبه الفذ الذي جعله محبوبا لدى الجميع ومما يشهد به الجميع أيضا.. كما كان من المهام التي يقوم بها توزيع الجنود على الحارات وعلى المراكز الهامة للمراقبة وخاصة للصوص وذوي الاستهدافات الأخرى.. وكان مشرفا على القوات الراجلة.. يناديني مبديا رغبته في إيصالي لمنزلي بأجياد وقد كان سكنه هناك..

فإذا بي أتجول معه لتفقده لحارات مكة المكرمة واستطلاعه عبر الجنود عن أية أحداث حدثت..

وعندما يطمئن يعود أدراجه ليوصلني إلى منزلي.. ثم يعود مرة أخرى للتجوال..

هذا السلوك يعطيك فكرة عن اهتماماته رحمه الله وحرصه على متابعة ومعرفة تواجد الجنود في مراكزهم ومساءلتهم كما سبق وذكرنا آنفا..

ومن إعجابي بهذا السلوك توثقت العلاقة بيني وبينه خاصة عندما طلب مني العمل على إنهاء موضوع الغرامات والسلف المالية التي كانت الدولة تطالب بها

نفرا من المواطنين خاصة وأن أرقامها ضئيلة لاتستحق الملاحقة لاستردادها.. فقلت له: إنني لا أملك أي تصرف في هذا.. فقال: اقترح على رؤسائك هذا الإجراء.. وقد فعلت ونجحت المحاولة فصدر أمر معالي الوالد الشيخ عبدالله السليمان بعد الاستئذان من المراجع العليا بالموافقة على إلغائها..

وسألت الأخ طه عما حداه لإسداء هذا النصح.. فقال: إن الملاحقة تحتاج إلي جهود واسعة.. ونحن أحوج مانكون إلى بناء لبنات الأمن وترسيخها.. ثم إن مَنْ عليهم هذه الحقوق لايستطيعون سدادها.. وهذا قد يؤدي إلى توقيفهم وسجنهم ومنهم كرام الناس ومن عوائل أخنى عليهم الدهر..

هذه المشاعر التي كان يحملها رحمه الله لم تكن مقتصرة عليه وحده، بل كانت مشاعة في المجتمع الحجازي.. فكيف بها عندما يعمل مسؤول مع زملائه الآخرين في نفس السلك الأمني على احترام مشاعر هذه العوائل وتقويم مواقفهم وأوضاعهم وحالاتهم..

هناك أبعد من هذا: لقد كانوا يعرضون المشاكل التي تحدث بأسلوب هادىء لايحمل الإثارة ولايثير الغبار حتى يكون الأمر الصادر شديدا وقاسيا.. وغالبا ماكانوا يقومون الحوادث بأنها لا تشكل مخاطر.. وإنها ربما كانت صادرة عن عفوية، أو غفلة أو عدم تقدير دقيق لما بعد حدوثها..

وهذا مما كان يساعد على صدور الأوامر بالإطلاق الفوري أو التوقيف الذي لايزيد عن ثلاثة أيام أو أسبوع على الأكثر..

وقد سبق أن أشرت إلى معنى كهذا في مقال عنوانه «الأمير عبدالله الفيصل كما عرفت» حيث ولي منصبا نيابة عن والده الشهيد أيام كان نائبا عاما عن والده طيب الله ثراه.. إذ كان سموه عندما ولي وزارة الداخلية ـ متّعه الله بالصحة والعافية ـ يوافق على الإطلاق الفوري حماية لسمعة من تعرضوا لمواقف محرجة أسبابها «نزوة عابرة» وليس تصرفا مقرونا لذاته.. ثم إن سموه الكريم من خلال مركزه الرفيع حرص بشدة على معرفة أهل البلد والدخلاء فيه..

أما اللواء حسين زقزوق فقد كانت تربطني به علاقة مودة واحترام.. خاصة

عندما تفضل يوما باصطحابي في سيارته العسكرية «جيب لاندروفر» عندما كان مديرا لشرطة الرياض في عام ١٣٧٤هـ.. اصطحبني للذهاب للسلام على صاحب الجلالة الملك سعود رحمه الله وفي السيارة ونحن نمشي في شوارع متعرجة أخرجت سيجارة لتدخينها.. فما أن اشتعلت عود الثقاب حتى أمسك بالسيجارة وسحقها بأقدامه.. وقال: هل تريد إيقاعنا في مشاكل مع المشائخ.. إن التدخين هنا ممنوع منعا قاطعا.. فاعتذرت.. ثم عدت بعد عودتنا من السلام على الملك سعود رحمه الله الذي تفضل ودعاني للعشاء وعلى مائدته الكريمة.. عدت لنفس العملية.. فأخذها وسحقها مرة أخرى.. فاعتذرت لأنني نسيت الأمر وضحكنا.. وكلما يراني في محفل يذكرني وأذكره بذلك.. ثم أوصلني إلى منزل الشيخ صابر أبو طالب مدير فرع الشركة العربية للسيارات وكان سيدي الوالد الشيخ عبدالحي قزاز رحمه الله مديرا عاما لها.. وقضيت السهرة لديه التي كان «موضوعها» شكوى الصديق حسين زقزوق للبشكة عن تصرفاتي السابق ذكرها.. غير أن الشكوى كانت تمتزج بابتسامته التي لاتفارقه حتى في أشد الأزمات التي تواجهه في أعماله وخصوصياته..

رحمه الله وطيب ثراه..

وفي الصباح تفضل بتوصيلي للمطار الذي كان مكتبه الوحيد «عشّه» من القش يستظلها الموظف الوحيد من الشمس.. أخذ مني التذكرة وقادني إلى داخل الطائرة «البريستول» التي كان قائدها ينتظر الأوامر للإقلاع بعد أن يتسلم مجموعة من الأكياس وصناديق حديدية من «التوتوة» علمت بأنها «البريد الملكي» والعادي.. ثم انطلقت الطائرة على ارتفاع خمسة آلاف قدم.. وعجلاتها مثبتة ومدلاة منها طوال الرحلة.. وفعلت المطبات الهوائية فعلها فينا جميعا، وقد كنا حوالي ١٥ ـ ٢٠ رجلا وامرأة وطفلا.. وكانت حالة الركاب تدعو للتأمل حينا، وللرثاء في أغلب أوقات الرحلة التي استغرقت حتى مطار جدة خمس ساعات وأكثر قليلا.. حتى تنفسنا جميعا الصعداء..

ومواقف عديدة مع ضباط الشرطة إذ كنا نذهب إلى مكاتبهم لحل إشكالات الناس بالمحبة والمودة دون تفريط يعرضهم للمساءلة أو غيرها..

إن أسلوب المصالحة بين الأطراف المتخاصمة أو المتماحكة، أو المطالبة بحق

يحمل معنى «الدين» وسداده.. هي التي يتم الوفاق عليها بالأمهال والتأجيل أو التخفيف منها.. ويا دار ما دخلك شر..

لأن الناس في أيامنا تلك تغلب كانت عليهم مسحة الحياء والتعاطف، حتى لقد كانوا يبكون وهم يتعانقون في حالة الصفاء تلك.. في أيامنا هذه تسمع عن إخوان أشقاء يتشاكون في المحاكم ويرفضون حتى التلاقي للتصافي بينهم عندما يتدخل من أهلهم وأقربائهم من يعرفون أسرارهم وأوضاعهم.. أفلا يتذكرون ماضي أبائهم وأجدادهم كيف كانوا أهل سماحة، من منطلق: رحم الله عبدا.. سمحا إذا باع.. سمحا إذا أشترى.. سمحا إذا اقتضى..

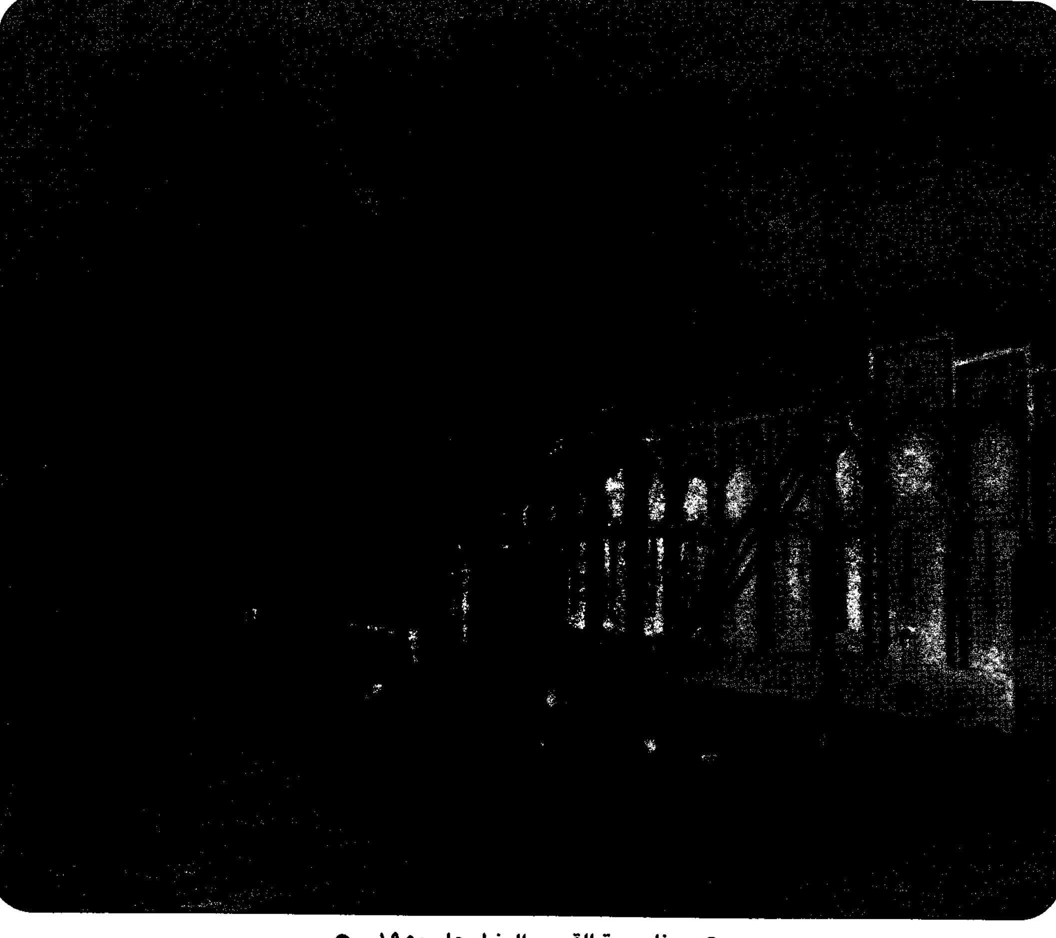
لقد كانوا لبنات في أخلاقيات التعامل مع الناس من خلال مراكزهم الأمنية..

وكم أتمنى وغيري أيضا لو قرأنا ذكرياتهم ومذكراتهم إن وجدت لدى أولادهم وأهلهم وأقربائهم لأنهم قدوة حسنة في تثبيت دعائم الأمن ودواعيه..

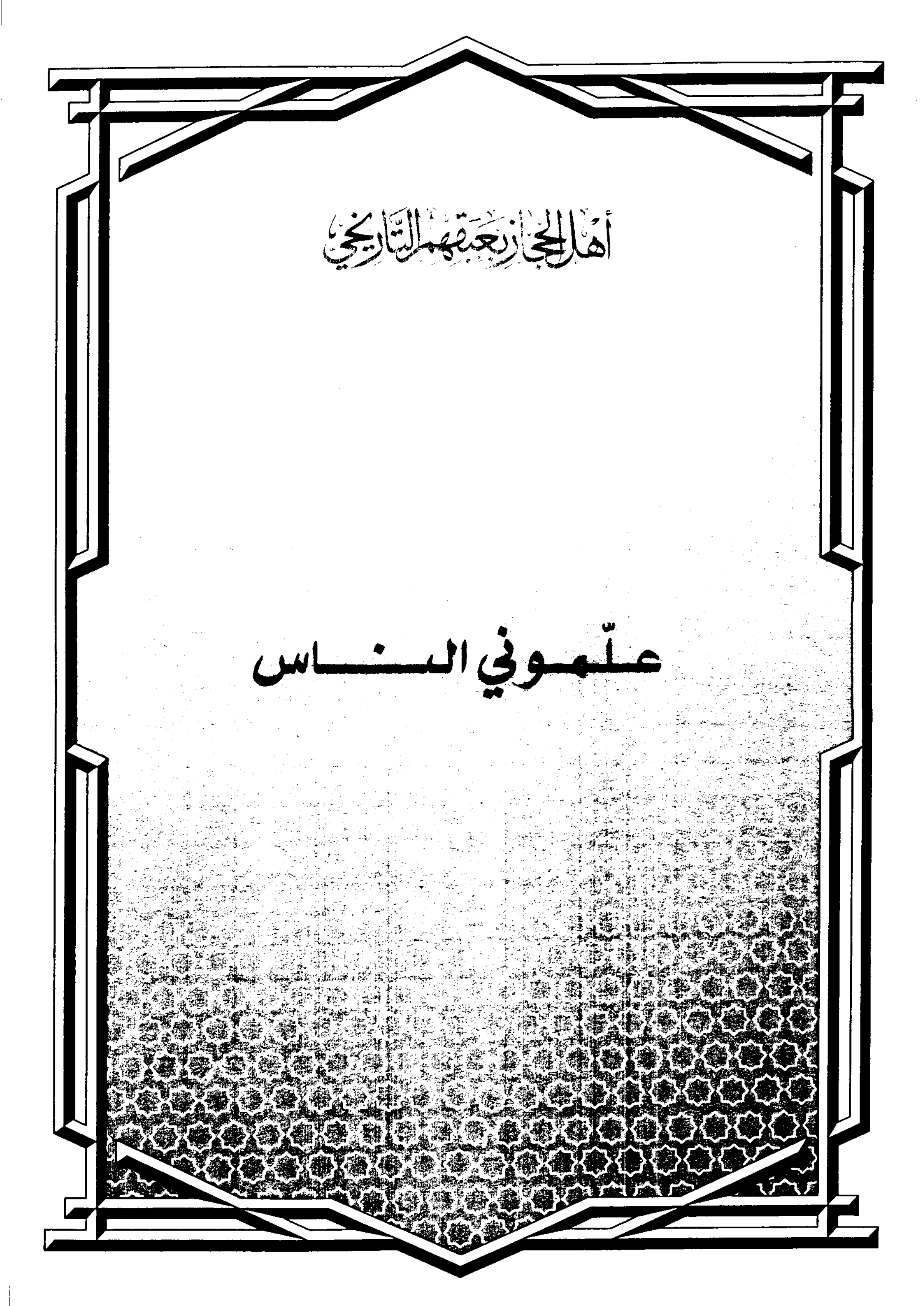
هذه نتف من مذكرات أحببت أن يضيف عليها أو إليها صديقي الأستاذ الكبير عبدالغني عبدالله فدا ما لديه من ذكريات ومعطيات ساهم بها من خلال زمالته أو مشاركته في أجهزة الأمن منذ بداياتها مما يضفي على هذا «العبق» من عطره الذكي الجميل.. لكنه اعتذر بحجة أنه يقوم بكتابة ذكرياته عن مدرسة الشرطة وذكرياته عن مشاركاته في كثير من النشاطات الاجتماعية الأخرى..

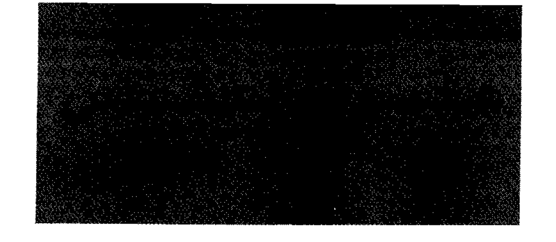
وإنني إذ أسجل قوله هذا فإنني والقراء ورجال الأمن القدامى والناشئين منهم والعاملين حاليا منتظرون بكل الأمل والرجاء الوفاء بالوعد، لأن تسجيل مثل هذه الذكريات تعتبر وكأنها التوجيه لما كان عليه رجال الأمن في الماضي وأسلوب تعاملهم وسماحة أخلاقياتهم دون تفريط في معطيات الأمن وأسباب ترسيخه وتوطيده في أرجاء المملكة الواسعة الأطراف، ذلك لأن الثقافة التي كان يتمتع بها هذا الشباب الحجازي جعلته يحرص كل الحرص على أداء ما يمكن أداؤه ليكون أسلوبا ونهجا إلى جانب الاعتزاز والفخار لبلد سداه الأمن ولحمته الأمان..





● ميناء جدة القديم البنط عام ١٩٥٠م ●


أهل الحجاز بعبقهم التاريخي
علّموني الناس



منذ حقب التاريخ المتعاقبة كانت الشريعة الإسلامية هي المرجع والحكم الفصل في هذه البلاد الطاهرة في مهبط الوحي والرسالات والقرآن العظيم والسنة المحمدية الشريفة، ولأنها قامت على هذا الأساس الأول والقاعدة الأولى، تلك التي تلقاها سيد البشر محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والتسليم..

وهذا ماتؤكده فصول التاريخ المروية منذ البدايات وحتى الآن.. لأن أهل هذه البلاد الطاهرة لايمكن أن تتغير طبيعتهم تلك التي ورثوها كابرا عن كابر، حتى الذين وفدوا إليها صهرتهم في بوتقتها بحكم أصالتها وقدرتها على التأسس بما كان عليه السابقون الأولون الصالحون.. وتلك إرادة الله لعباده المؤمنين..

إذ لا مناص من العيش في هذا العبق التاريخي الذي يعم القاصي والداني ممن ينشد أمن الحياة وأمانها، وممن يرى في هذه البلاد أصالة هذا التاريخ وعبقه في كل ما يمت بصلة إلى الماضي العريق الذي تسامق وعلا بكل هامته، وسيظل على هذا السموق وبهذا العبق لأن أهل هذه البلاد إنما يستمدون من القرآن العظيم ومن السنة النبوية الشريفة ما كان، وسيظل في سليقتهم وفي عمق أفئدتهم من خلال تعاملهم الدنيوي في هذه الحياة الدنيا..

إن أهل الحجاز بعبقهم التاريخي أكدوا بكل مظاهر الحياة وبواطنها أن الأصل في هذه البلاد الطاهرة المطهرة هو التشريع الإسلامي بكل روافده الخيرة التي استطاعت أن تجعل هذه الأمة قوة متماسكة لايعتريها الخلل في عمق إيمانها الصادق الأمين..

هذا الإيمان الذي توارثوه جيلا بعد جيل.. وحقبة بعد حقبة، منذ أن أراد الله لهذه البلاد أن تكون مصدرا وموئلا أيضا للإشعاع النبوي الكريم..

ونحن إذ نفخر ونعتز حكومة وشعبا بهذا العطاء الذي أراده الله لهذه البلاد وأهلها مع تعاقب التاريخ وحقبه.. فإننا نسأل الله سبحانه وتعالى أن يمدنا بالكثير الكثير مما ينير بصائرنا ويمنحنا القدرة على التأدب مع بعضنا البعض في التعامل وفي تناول أسباب العيش ومظاهره العامة..

لأن من شروط هذا الإيمان وقواعده العامة أن نكون في هذا المستوى الرفيع الذي أثبت التاريخ أننا والحمد لله أهل ومحل لهذه الأخلاقيات ولهذه السلوكيات التي نبتت وأينعت مع هذا العبق الذي تعيشــه هذه البلاد الطاهرة بدليل أن الأمن والأمان فيها هو مصدر الارتياح لكل من يرد إلينا فينصهر في بوتقتها لأنه المكسب الذي لايمكن أن يقاس بأي مكسب آخر، لأن الإيمان بالله ثم الانتماء إلى هذا البلد الطاهر المطهر والسلوك بكل قيمة الأدبية والأخلاقية السليمة بكل مايشوبها أو يعلق بها.. هذه كلها تعتبر مظهرا رحبا لاستيعاب المعطيات الخيّرة التي تظل هي المعيار الحقيقي لما كانت عليه هذه الأمة منذ تاريخها العريق وإلى المدى الطويل الذي تعيشه هذه البلاد بأمنها وأمانها واستقرارها التي توطدت أركانها بفضل التمسك بالشريعة الإسلامية منذ حقب التاريخ وحتى الآن..

وكذلك كنا نعيش مع آبائنا وأجدادنا وهم يحثوننا على أن نكون في مستوى أخلاقيات هذه البلاد الطاهرة. أن نكون مؤدبين مع بعضنا البعض.. وأن يحترم صغيرنا كبيرنا.. وأن نقبل النصح والتوجيه بكل احترام لمن هم أكبر منا.. وأن نجد ونجتهد في دراسة أصول الدين ومناهجه الخيرة المعطاءة.. وكذلك أن يكون تعـاملنـا المعيشي في حدود من التســامــح والتعاطف وكفاءة التعاون بين كافة الأطراف في هذه الحيــاة الدنيا كما علمونا أن نكون مع بعضنا البعض، وأن يحترم كل منا رأى صديقه وحتى من كان بينهم خلافات عرضية يمكن من خلال التفاهم والحوار التخفيف من حدتها وإزالة شوائبها..

كما تعلمنا منهم أيضا أن نكون في مستوى المسؤولية تجاه القادة ومن دونهم في المسؤولية والعطاء.. وأن تكون طاعتنا لأحكام الشريعة ومقتضياتها ما ينفي عن بعضنا البعض مايمكن أن يكون سببل من أسباب الخلاف والملاحاة ليأخذ كل ذي حق حقه.. لأن الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية فيه الراحة كل الراحة للنفس وللخاطر وللبال..

كما علمونا أن نحل خلافاتنا مع بعضنا البعض بالمحبة والمودة والتسامح حتى لو اقتضى الأمر التنازل عن جزء من حقوقنا تجاه بعضنا البعض..

كما علمني الناس ألا أتدخل في شؤون العوائل إلا بالحسنى وإزالة مابينهم من خلافات.. وكذلك عدم سماع فريق ضد آخر فأستغل هذه الخلافات ضد أصدقائي من هذه العوائل عن طريق معرفة أسرار الخلافات العائلية ثم علموني أيضا ألا أنقل خلافاتي بين أفراد عائلتي حتى إلى أعز أصدقائي، ثم يكشفهم الزمن من خلال تجاربي وأنهم كانوا يستغلون هذه الخلافات للدق على أهل البيت وأفراده من أب وأم أو أخ وأخت أو عم أو عمة وإلى آخر من تربطني بهم أواصر القربي..

كما علمونا ألا نقطع عاداتنا وتقاليدنا في تفقد بعضنا البعض.. وأحوال بعضنا البعض.. ولو أدى الأمر إلى التدخل من قريب أو من بعيد لمعرفة ما ينال أياً منّا مما تمور به هذه الحياة بخيرها وشرها وصفوها وكدرها، والسهل منها والصعب فيها، لكي نستطيع أن نزيل أو نخفف من أي كربة أو ضيق نفس على من يصاب بهذه الحالات أو يتمتع بها وهذه طبيعة الحياة في كل ما سلف الكلام عنه.

كما علمونا التوجه إلى الله سبحانه وتعالى في السراء والضراء والتماس عونه بكل إخلاص النية وصدقها، وأن نبتعد عن مسالك الضلالة والهوى خاصة عندما أخذ بعض الناس ممن لاخلاق لهم، أولئك الذين اكتسبوها من مصادر قدومهم فتهيأت لهم الفرصة للبقاء بين أحضاننا واعتبارهم إخوانا لنا، فإذا ببعضهم – وهم نزر يسير – يخون هذا البلد وينفث سمومه وسلوكه المشين بين شبابنا وهو غض طاهر النفس نقي السريرة.. فإذا ما انتبه إليهم آباؤهم أو أصدقاؤهم أخذوا بيدهم إلى سبل الخير ووجهوهم الوجهه السليمة..

كما علمونا الناس الابتعاد عن مظان الشر والعبث والضياع لئلا ننغمس فيها ونضيع في متاهاتها..

كما علمني الناس، وأناروا بصيرتي بأن الله وهو يعلم السر وأخفى في نفس الإنسان لن يترك أعمال الخير حتى يجزي عليها.. وأعمال الشر حتى يجزي

عليها فاعلها طال الزمن أم قصر ليكون عظة وعبرة لغيره..

كما علمونا أن نقبل على مجالس العلم وأن نتعلم معاني القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ما وسعنا ذلك من الوقت ومن الجهد ومن حسن الإقبال.. وهذا الذي أتعلمه حتى وأنا في هذا السن المتقدم وقد سمعته مئات ومئات المرات ومازلت أسمعه الآن وفي كل مجلس يضم خيرة القوم ورجالها ممن كانوا أساتذة لنا وموجهين لحياتنا منهم: فضيلة السيد إسحق عزوز.. وفي تلك المجالس الخيرة المعطاءة كمجالس فضيلة السيد محمد علوي مالكي وكيف أنه يحث الشباب ويحث آباءهم على ارتياد مجالس العلم لتقوية مداركهم الخيرة ولمذاكرتهم في أمور دينهم ودنياهم مما وهبهم الله من العلم ومن التوجيه والترشيد..

إنني لو أردت إحصاء علمائنا الأفاضل من العوائل الكريمة أولئك الذين نعيش في ظلهم وفي حلاوة مجالسهم وتوجيهاتهم فإن مثل هذه العجالة لاتكفي لكي أذكر محاسنهم وأفضالهم على هذه الأجيال التي كنت، وسأظل واحدا منها.. ومئات مئات من الرجال ممن يعيشون الآن وممن طواهم الردى كان لأبائهم العلماء الأفاضل تاريخ وأي تاريخ في بناء أجيال وأجيال ممن ما زالوا وسيظلون ملء السمع والفؤاد والبصر..

كما علمني الناس أن أستقرىء هذا التاريخ.. وأن أستقرىء هذا الماضي ليكون عبرة وكذلك التماسا للجميل والنقي العاطر منه، حتى نتخذ طريقنا في هذه الحياة ووسيلتنا في اكتساب أسباب العيش بمنتهى الأمانة والصدق والإخلاص.. وإلا فما أضيع هذا التاريخ وأهله أن يكونوا في مثل هذا السلوك وفي مثل هذه الأخلاقيات..

كما علموني الناس أن أرعى الله فيما ائتمننا عليه تجاه أنفسنا وتجاه أولادنا وتجاه أهلنا وتجاه الأقربين والأصهار منا، فلا نبتعد عن بعضنا البعض، بل تكون الصلة بيننا دائمة ومستمرة حتى لانفقد أواصر المحبة والوفاق بيننا، وحتى يعلم كل منا حال الآخرين وأواضاعهم في معايشة هذه الدنيا بخيرها وشرها ليحمل الكبير منا ثقل الصغير.. وليحمل الثري منا مشاكل الفقير.. وتلك هي الصلة بمعناها الحقيقي في هذه الحياة الدنيا.. فإذا لم يكونوا لبعضهم البعض

إخوانا متحابين كما كان عليه سيد هذه الأمة محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والتسليم عندما وصفته السيدة خديجة رضي الله عنها عندما نزل عليه الوحي في جبـل النور وجاء إليها وقلبه يرجف قائلا: **زملوني.. زملوني.. لقد خشيت على نفسي**.. فقالت له: «كلا يا ابن العم.. والله لايخزيك الله أبدا.. إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ وتعين على النوائب».. أو كما قالت رضي الله عنها..

كما علمني الناس الابتعاد عن مظان الشبهات بكل ألوانها وأشكالها وصورها لئلا تلوك لساني سيرة وسلوك الآخرين.. إذ إن مظان الشبهات لها ممارسات لا تعد ولا تحصى.. ولعل من أبرزها أن يكون الإنسان صادقا في تعامله مع الآخرين في مسـاقط رزقة وعيشه فلا كذب و لاغش ولا مكر ولا خداع.. لأن هذه كلها ستكون مصدرا من مصادر الشعور بالمرارة وخيبة الأمل، لأن الدنيا إلى زوال وستبقى سيرة الإنسان عالقة في أذهان الناس مدة طويلة قد تنسحب إلى أهله وذريته جيلا بعد جيل..

كما علمني الناس أن أكون ملازما لأعمالي ومصدر عيشي فلا أتكل على آخرين أبتز جهودهم، وأبتز عرقهم ودموعهم في كسب العيش حلالا أو حتى حراما..

كما علمني الناس أن تكون الثقة هي الأصل في التعامل مع الآخرين، وهي لاتنمو معطياتها إلا مع الزمن والزمن الطويل.. لأن الثقة عندما تبنى بين طرفين متعاونين إنما تبنى على التعامل والتجارب وعلى ملاحظة كيفية الأخذ والعطاء بكل الدقـة والعين المبصرة تلك التي لاتخطىء أهدافها.. وكم كسب قليل من المال بالثقة إذ فيه الوفرة من المال.. وكم فقد الكثير من المال لأن الثقة قد تبدلت أو تغيرت نواياها واتجاهاتها..

والثقة أيا كان مجالها تعتبر مكسبا ومعيارا لتبادل المنفعة بين أطرافها على اختلاف حالاتها ومظاهرها العامة..

وتأكدوا أن بناء الثقة ليس بالأمر السهل وكذلك ليس هو بالأمر الصعب.. والمثل الداير يقول:

من أخذ وأعطى لا يرد.. وهذا من أبرز أسباب بناء هذه الثقة..

وقد تمر بالإنسان حالات من العسر.. لكن قيام النية بالوفاء يجعله يعتذر لصاحب الحق من أن أوضاعه الحالية لاتسمح له بذلك، ثم يرجوه الانتظار على أمل تحسن الحال وأوضاعه.. وعندما تتيسر الأمور يعطي صاحبه حقه ثم يقدم له كلمة شكر على صبره عليه.. وهذه إحدى قواعد بناء الثقة بين طرفين تنسحب مع الزمن إلى آخرين بحكم العشرة أو بحكم التعامل وهكذا دواليك..

ومن هذه الثقة التي تعلمتها يحكي لي أحدهم قصته قائلا: كنت آخذ من أصحاب المحلات التجارية لدكان صغير لي استاجرته في شارع فيصل بمكة المكرمة.. بدأت بمال صغير، لكنني حصلت على بضائع بعشرات الآلاف من الريالات، بعتها بربح بسيط لكي أضمن إيفاء الناس حقهم.. وعندما قررت ترك العمل التجاري قمت بسداد كل الحقوق التي كانت بذمتي للآخرين..

ومابقي علي أمهلتهم إلى حين.. وكنت في عينهم وفيا مأمون الجانب.. حتى عندما قمت بأعمال المقاولات ومنيت بخسائر كبيرة قمت ببيع ما أملكه من مدخرات ووفيت الناس حقهم.. وفي بداية عملي الحالي أخذت أبني ثقتي مع عملائي في الخارج على الوفاء.. ثم تعرضت لمواقف حرجة فاستمهلتهم، ثم وّفيتهم حقهم.. وبذلك أجد نفسي في ارتياح نفسي لأنني لست مطلوبا من بنك ولا غيره، بل ربما كان لي الكثير والكثير لدى الآخرين..

كما علموني الناس أن أكون متواضعا في اجتماعاتي بهم وأن أكون أمينا على مايتناولونه من أحاديث تتعلق بهم وبأهلهم، وبالبناء الاجتماعي الذي نعيشه وبالتناولات المعيشية وأحوال السوق وتقلبات أسعاره.. فمنا من يشتكي إلى أصدقائه حاله المالي أو الاجتماعي أو يشتكي أحد أصدقائه عليه.. أو يلاحظ إهمال صديقه له في بيته أو في بشكته أو في الاجتماعات التي يحضرونها وإلى آخر مايحدث في هذه الاجتماعات، لكن تظل سرا بيننا لا فضفضة فيها ولا تحويرا كما يفعل بعض الناس فينقلونها ثم يتداولونها بما يلعب المزاج الشخصي دورا فيها.. وتلك معابة ينبذها المجتمع كما ينبذ أهلها ورواتها.. ويقول المثل الشعبي: «**المجالس بالأمانة**».. فأين الأمانة من أمثال هؤلاء..

كما علمني الناس أن أكون مصغيا لأحاديثهم أكثر من استعمال اللغو معهم وخاصة إذا كان المجلس يضم رجالا من أكابر الرجال.. وفضلاء من أفاضل

الرجال.. أولئك الذين مازالت مسحة الوقار وحلاوة التاريخ ترتسم على محياهم وتنضح بها جباههم وترتاح إليهم ثم تستكين بنفسك إلى معطياتهم؟!

وكثيرا ما أفرح وأبتهج عندما أراهم فأقبل عليهم وأسلم عليهم وأحيي فيهم الماضي التليد الذي عاشوه بكل الشظف، ثم عاشوه بما حباه الله لهم من الخير والبركة بفضل التزامهم ورجاحة عقولهم.. أفرح وأبتهج وهم يغمرونني بما كنت عليه أيام كنت صغيرا وأيام كنت في شقاوة الصغار أداعبهم وأمزح معهم.. فيداعبونني ويمزحون معي.. ثم أفرح منهم بما يثلج قلبي وخاطري مشفوعا بالدعاء الصالح بأن يصلح الله لي ذريتي حتى يكونوا في مستوى ماضي آبائنا وأجدادنا.. وأفرح أكثر عندما أسمع عن أبنائهم مايفرحني ويبهج خاطري بأنهم مازالوا وسيظلون في رعايتهم وحدبهم في العلاقة وفي العطاء وفي التربية وفي سلوك الأخلاقيات التي كانوا عليها.. وهذا ماينبغي علينا أن نكون في مستواه ولن يتأتى لنا هذا إلا إذا كانت مودتنا وأخلاقياتنا مستقاة من مجالس العلم تلك التي ينبغي علينا الاستمرار في ارتيادها لننهل من العلم والمعرفة لأمور ديننا ودنيانا من أمثال أساتذتنا الذين سلف ذكرهم..

كما علمني الناس أن تكون مواقفنا جميعا تحمل معنى التكاتف والتعاضد عندما تنتابهم أحوال الدنيا وأحداثها لأن الحياة لاتخلو مما يعكر صفو بعضهم وأوضاع بعضهم، لأن الأصل في المجتمعات كبيرها وصغيرها يندرج في مفهوم هذا المعنى حتى ولو تكرر الكلام عنه..

وأشياء كثيرة وكثيرة تعلمتها ثم خبرت أصولها وفروعها وجربت معطياتها خيرها وشرها.. ثم خرجت بنتيجة واحدة بأن الحب الصادق الأمين ينبغي أن يسود العلاقات بين الناس.. أما التعالي وضعف الوفاء وعدم الاهتمام ببعضنا البعض فإنها أمور تعمل على تفتيت هذا المجتمع ببنيانه الأخلاقي الذي نشأنا عليه..

وتلك نصيحتي من خلال التجارب التي عشتها، وأنا الآن في الخامسة والسبعين من عمري..

والله أسأل أن يحفظ لنا الأمن والأمان والاستقرار الذي نعيش في ظله.. وأن يحفظ لنا قادتنا وأن يقيهم بطانة السوء وأن يحيطهم ويكلأهم بحفظه ورعايته

وأن يديم علينا نعماءه التي لاتحصى.. وأن يرزقنا الآدب معه كما يرزقنا الأدب تجاه سيد البشر وسيد المرسلين وخاتم الأنبياء محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والتسليم فيما أرسله الله به من الهدى والفرقان..



المصادر والمراجع

- (مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري)
للمستشرق: ك. سنوك هور خررونيه
ترجمة: محمد بن محمود السرياني ـ معرج بن نواب مرزا
(من مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي)

- (سير وتراجم: بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة)
تأليف: عمر عبدالجبار ـ الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ

- (مكة في القرن الرابع عشر الهجري)
تاليف: محمد عمر رفيع
(من منشورات نادي مكة الثقافي الأدبي)

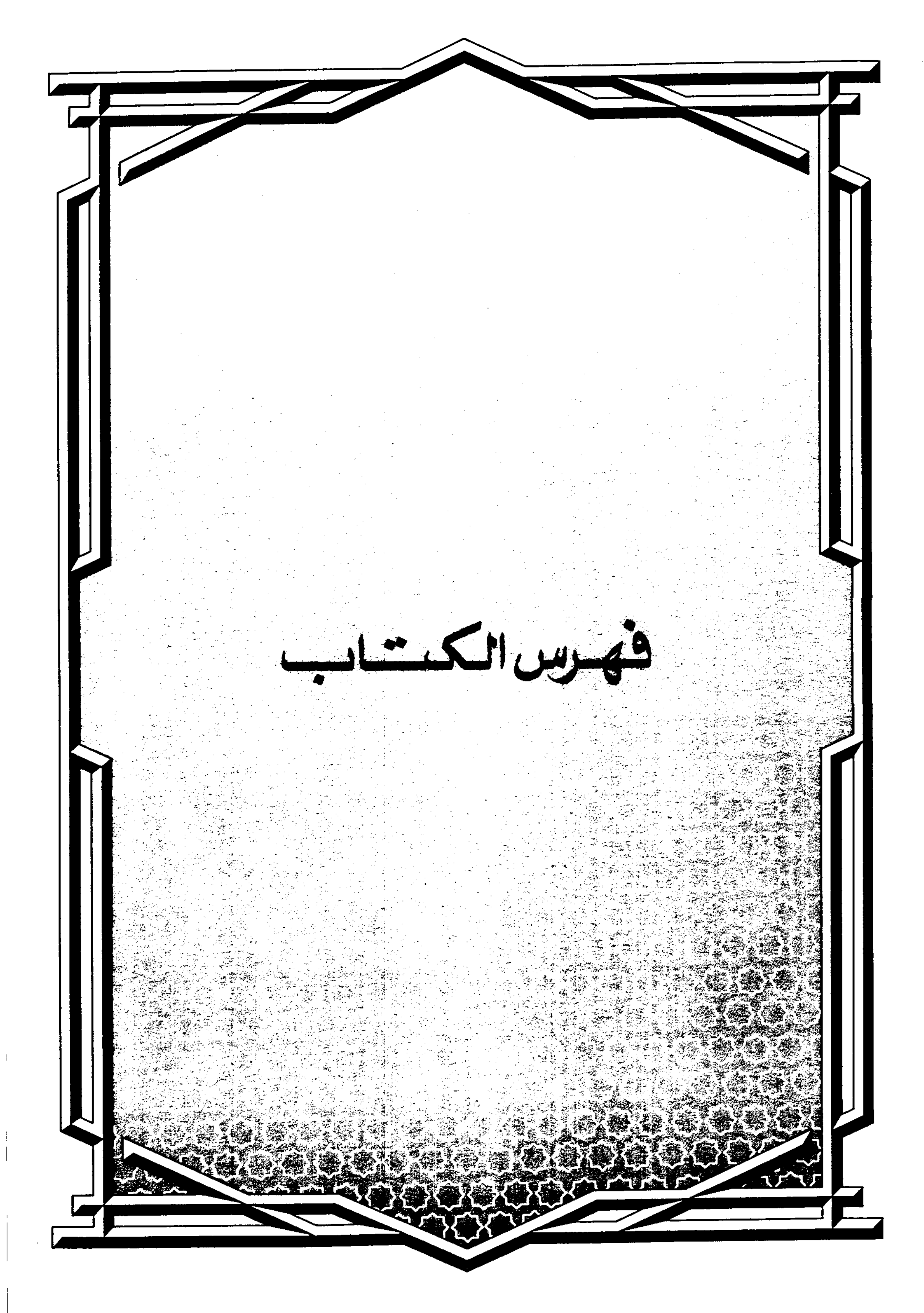
- (المختصر من كتاب نَشْر النَّوْر والزهر.. في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر)
تأليف: الشيخ عبدالله مرداد أبو الخير
اختصار وترتيب:
محمد سعيد العامودي ـ أحمد علي
(من مطبوعات نادي الطائف الأدبي)

- (الدليل المشير)
تأليف: السيد/ أحمد بن حسين بن محمد الحبشي

- (تاريخ مكة)
تأليف: أحمد السباعي

(من مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي)

- (فوائد وفرائد)
تأليف : السيد عبدالله محمد فدعق



فهرس الكتاب



موضوعات الكتاب

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

صدر للمؤلف

- مشوارى مع الكلمة «جزءان».
- الأمن الذي نعيشه «جزءان».

وقد تم ترجمته إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية.

- أعد بحثا عن «الإعلام في عهد الملك عبد العزيز آل سعود» برغبة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

طبعت بمطابع مؤسسة المدينة للصحافة (دارالعلم) بجدة
ص.ب ٤٧٩٧ جدة ٢١٤١٢ ت: ٦٧١٢١٠٠ المملكة العربية السعودية

الإخراج الفني والتنفيذ سيد حفني